مرکز تحقیقات رایانه ای قائمیه اصفهان

السلام علیک یا صاحب الزمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

منهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي

الخوئي قدس سره

الجزء التاسع

من منشورات

المكتبة الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحیم

منهاج البراعه في شرح نهج البلاغه

نويسنده:

حبيب الله خوئى

ناشر چاپي:

المكتبة الاسلامية

ناشر ديجيتالي:

مركز تحقيقات رايانه‌اي قائميه اصفهان

فهرست

فهرست ----- ۵
منهاج البراعه فی شرح نهج البلاغه (عربی - فارسی) جلد ۹ ----- ۱۴
مشخصات کتاب ----- ۱۴
تتمة باب المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام و أوامره ----- ۱۴
اشارة ----- ۱۵
و من خطبة له عليه السّلام فى الاستسقاء و هى المأة و الثالثة ----- ۱۶
اشارة ----- ۱۶
اللغة ----- ۱۷
الاعراب ----- ۱۸
المعنى ----- ۱۹
اشارة ----- ۱۹
تنبيه ----- ۲۷
الترجمة ----- ۲۸
و من خطبة له عليه السّلام و هى المأة و الرابعة ----- ۳۰
اشارة ----- ۳۰
الفصل الاول ----- ۳۰
اشارة ----- ۳۰
اللغة ----- ۳۱
الاعراب ----- ۳۱
المعنى ----- ۳۲
اشارة ----- ۳۲
تنبيه ----- ۳۸
الترجمة ----- ۵۰
الفصل الثانى ----- ۵۱

اشارة ۵۱
اللغة ۵۲
الاعراب ۵۲
المعنی ۵۲
اشارة ۵۲
تنبیه ۵۵
الترجمة ۵۷
و من خطبة له علیه السّلام و هی المأة و الخامسة ۵۷
اشارة ۵۷
اللغة ۵۸
الاعراب ۵۹
المعنی ۵۹
الترجمة ۶۲
و من کلام له علیه السّلام و قد استشاره عمر بن الخطاب ۶۳
اشارة ۶۳
اللغة ۶۴
الاعراب ۶۵
المعنی ۶۵
اشارة ۶۵
تبصرة ۶۸
الترجمة ۷۴
و من خطبة له علیه السّلام و هی الماة و السابعة ۷۵
اشارة ۷۵
اللغة ۷۷
الاعراب ۷۸
المعنی ۷۹

اشارهٔ ----- ۷۹
الفصل الاول ----- ۷۹
الفصل الثانی ----- ۸۲
الفصل الثالث ----- ۸۵
الفصل الرابع ----- ۸۶
اشارهٔ ----- ۸۶
تنبیه ----- ۹۵
المقام الاول ----- ۹۵
الثانی فی حقیقهٔ الکبر و ماهیته ----- ۹۷
الثالث فی المتکبر علیه ----- ۹۸
القسم الاول ----- ۹۸
القسم الثانی ----- ۹۹
القسم الثالث ----- ۱۰۰
الرابع فی ما به التکبر ----- ۱۰۱
الاول العلم ----- ۱۰۱
الثانی العمل و العبادهٔ ----- ۱۰۲
الثالث النّسب ----- ۱۰۲
الرابع التفاخر بالحسن و الجمال ----- ۱۰۲
الخامس الثروهٔ و المال ----- ۱۰۲
السادس القوّهٔ و شدّهٔ البطش ----- ۱۰۲
السابع الملک و السّلطنهٔ و کثرهٔ الأتباع و الخدم و الجنود و الجیوش ----- ۱۰۲
الخامس فی معالجهٔ الکبر ----- ۱۰۴
أما الاول ----- ۱۰۴
و اما الثانی ----- ۱۰۴
و أما الثالث ----- ۱۰۸
و اما الامر الرابع ----- ۱۱۶

الترجمهٔ ---------- ۱۱۷
و من خطبهٔ له علیه السّلام فی ذکر اهل البصرهٔ و هی المأهٔ ---------- ۱۱۹
اشارهٔ ---------- ۱۱۹
اللغهٔ ---------- ۱۲۰
الاعراب ---------- ۱۲۰
المعنی ---------- ۱۲۰
الترجمهٔ ---------- ۱۲۵
و من کلام له علیه السّلام قبل موته و هو المأهٔ و التاسع ---------- ۱۲۶
اشارهٔ ---------- ۱۲۶
اللغهٔ ---------- ۱۲۷
الاعراب ---------- ۱۲۹
المعنی ---------- ۱۳۰
اشارهٔ ---------- ۱۳۰
تذکرهٔ ---------- ۱۴۰
تکملهٔ ---------- ۱۴۳
بیان ---------- ۱۴۴
الترجمهٔ ---------- ۱۴۵
و من خطبهٔ له علیه السّلام فی الملاحم و هی المأهٔ ---------- ۱۴۷
اشارهٔ ---------- ۱۴۷
اللغهٔ ---------- ۱۴۸
الاعراب ---------- ۱۴۹
المعنی ---------- ۱۵۰
اشارهٔ ---------- ۱۵۰
الفصل الاول ---------- ۱۵۰
الفصل الثانی ---------- ۱۵۴
الفصل الثالث ---------- ۱۵۶

اشارهٔ ----- ۱۵۶
تنبیه ----- ۱۶۵
الترجمهٔ ----- ۱۷۱
و من خطبهٔ له علیه السّلام و هی المأهٔ و الواحد ----- ۱۷۳
اشارهٔ ----- ۱۷۳
اللغهٔ ----- ۱۷۵
الاعراب ----- ۱۷۷
المعنی ----- ۱۷۷
الترجمهٔ ----- ۱۸۵
و من خطبهٔ له علیه السّلام و هی المأهٔ و الثانی و الخمسون ----- ۱۸۸
اشارهٔ ----- ۱۸۸
الفصل الاول ----- ۱۸۸
اشارهٔ ----- ۱۸۸
اللغهٔ ----- ۱۸۹
الاعراب ----- ۱۸۹
المعنی ----- ۱۸۹
الترجمهٔ ----- ۱۹۷
الفصل الثانی منها ----- ۱۹۸
اشارهٔ ----- ۱۹۸
اللغهٔ ----- ۱۹۹
الاعراب ----- ۱۹۹
المعنی ----- ۲۰۰
اشارهٔ ----- ۲۰۰
تنبیه ----- ۲۰۶
تذییل ----- ۲۰۸
الترجمهٔ ----- ۲۲۳

الفصل الثالث و الرابع منها ---------- ۲۲۴
اشارهٔ ---------- ۲۲۴
اللغهٔ ---------- ۲۲۵
الاعراب ---------- ۲۲۶
المعنی ---------- ۲۲۶
اشارهٔ ---------- ۲۲۶
تذییل ---------- ۲۴۱
الترجمهٔ ---------- ۲۴۲
و من خطبهٔ له علیه السّلام و هی المأهٔ و الثالث و الخمسون ---------- ۲۴۴
اشارهٔ ---------- ۲۴۴
الفصل الاول ---------- ۲۴۴
الفصل الثانی (منها) ---------- ۲۴۵
اللغهٔ ---------- ۲۴۶
الاعراب ---------- ۲۴۶
المعنی ---------- ۲۴۶
اشارهٔ ---------- ۲۴۶
تبصرهٔ ---------- ۲۶۷
الترجمهٔ ---------- ۲۶۹
و من خطبهٔ له علیه السّلام یذکر فیها بدیع خلقهٔ الخفاش و هی ---------- ۲۷۱
اشارهٔ ---------- ۲۷۱
اللغهٔ ---------- ۲۷۳
الاعراب ---------- ۲۷۴
المعنی ---------- ۲۷۵
اشارهٔ ---------- ۲۷۵
ظریفهٔ فی نوادر الخفاش ---------- ۲۷۹
الترجمهٔ ---------- ۲۸۱

و من كلام له عليه السّلام خاطب به أهل البصرة على ----- ۲۸۳
اشارة ----- ۲۸۳
الفصل الأول منه ----- ۲۸۳
اشارة ----- ۲۸۳
اللغة ----- ۲۸۳
الاعراب ----- ۲۸۳
المعنى ----- ۲۸۴
اشارة ----- ۲۸۴
تذييل فى ذكر عايشه و ذكر أسباب ضغنها ----- ۲۸۵
الترجمة ----- ۲۹۷
الفصل الثانى ----- ۲۹۸
اشارة ----- ۲۹۸
اللغة ----- ۳۰۰
الاعراب ----- ۳۰۰
المعنى ----- ۳۰۱
اشارة ----- ۳۰۱
الفصل الاول (منه) ----- ۳۰۱
الفصل الثانى (منه) ----- ۳۰۳
تنبيهات ----- ۳۲۰
الاول ----- ۳۲۰
بيان ----- ۳۲۱
الثانى ----- ۳۲۱
تذييل فى أحكام البغاة ----- ۳۲۲
الاول فى كفرهم ----- ۳۲۲
الثانى فيما اغتنمه المسلمون من أموال البغاة ----- ۳۲۴
تكملة ----- ۳۲۵

الترجمهٔ ---- ۳۲۶
و من خطبهٔ له علیه السّلام و هی المأهٔ و السادسهٔ ---- ۳۲۸
اشارهٔ ---- ۳۲۸
اللغهٔ ---- ۳۳۰
الاعراب ---- ۳۳۰
المعنی ---- ۳۳۲
الترجمهٔ ---- ۳۴۵
و من خطبهٔ له علیه السّلام و هی المأهٔ و السابعهٔ ---- ۳۴۷
اشارهٔ ---- ۳۴۷
اللغهٔ ---- ۳۴۸
الاعراب ---- ۳۴۹
المعنی ---- ۳۵۰
اشارهٔ ---- ۳۵۰
الفصل الاول ---- ۳۵۰
الفصل الثانی (منها) ---- ۳۵۳
الترجمهٔ ---- ۳۵۵
و من خطبهٔ له علیه السّلام و هی المأهٔ و الثامنهٔ ---- ۳۵۷
اشارهٔ ---- ۳۵۷
اللغهٔ ---- ۳۵۷
الاعراب ---- ۳۵۷
المعنی ---- ۳۵۷
الترجمهٔ ---- ۳۵۸
و من خطبهٔ له علیه السّلام و هی المأهٔ و التاسعهٔ ---- ۳۵۹
اشارهٔ ---- ۳۵۹
الفصل الاول ---- ۳۵۹
اشارهٔ ---- ۳۵۹

اللغة ----- ۳۶۰
الاعراب ----- ۳۶۰
المعنی ----- ۳۶۰
الترجمة ----- ۳۷۰
الفصل الثانی (منها) ----- ۳۷۲
اشارة ----- ۳۷۲
اللغة ----- ۳۷۵
الاعراب ----- ۳۷۶
المعنی ----- ۳۷۷
اشارة ----- ۳۷۷
تذییلان ----- ۴۰۹
الاول ----- ۴۰۹
التذییل الثانی ----- ۴۱۳
الترجمة ----- ۴۱۷
و من خطبة له علیه السّلام و هی المأة و الستون ----- ۴۲۱
اشارة ----- ۴۲۱
اللغة ----- ۴۲۲
الاعراب ----- ۴۲۳
المعنی ----- ۴۲۳
الترجمة ----- ۴۲۹
درباره مرکز ----- ۴۳۲

منهاج البراعه فی شرح نهج البلاغه (عربی - فارسی) جلد 9

مشخصات کتاب

سرشناسه:خوئی، حبیب الله بن محمدهاشم، 1268 - 1324ق.

عنوان و نام پدیدآور:منهاج البراعه فی شرح نهج البلاغه/ لمولفه حبیب الله الهاشمی الخوئی؛ بتصحیحه و تهذیبه ابراهیم المیانجی.

مشخصات نشر:تهران: مکتبه الاسلامیه؛ قم: انتشارات دار العلم، 13 -

مشخصات ظاهری:20 ج.

شابک:150 ریال (ج. 8)

یادداشت:عربی.

یادداشت:فهرستنویسی براساس جلد هشتم، 1386 ق.= 1344.

یادداشت:چاپ دوم.

موضوع:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، 23 قبل از هجرت - 40ق. -- کلمات قصار

موضوع:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، 23 قبل از هجرت - 40ق -- خطبه ها

موضوع:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، 23 قبل از هجرت - 40ق. -- نامه ها

موضوع:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، 23 قبل از هجرت - 40ق . نهج البلاغه -- نقد و تفسیر

شناسه افزوده:میانجی، ابراهیم، 1292 - 1370.، مصحح

شناسه افزوده:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، 23 قبل از هجرت - 40ق . نهج البلاغه. شرح

رده بندی کنگره:BP38/02/خ9 1300ی

رده بندی دیویی:297/9515

شماره کتابشناسی ملی:199206

ص:1

تتمة باب المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام و أوامره

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

و من خطبة له عليه السّلام فى الاستسقاء و هى المأة و الثالثة

اشارة

و الاربعون من المختار فى باب الخطب

.

ألا و إنّ الأرض الّتى تحملكم، و السّماء الّتى تظلّكم، مطيعتان لربّكم، و ما أصبحتا تجودان لكم ببركتهما توجّعا لكم، و لا زلفة إليكم، و لا لخير ترجوانه منكم، و لكن أمرتـا بمنافعكم فأطاعتا، و أقيمتا على حـدود مصالحكم فقامتا، إنّ اللّه يبتلى عباده عنـد الأعمال السّـيّئة بنقص الثّمرات، و حبس البركات، و إغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائب، و يقلع مقلع، و يتـذكّر متذكّر، و يزدجر مزدجر، و قد جعل اللّه سـبحانه الاستغفار سببا لدرور الرّزق، و رحمة الخلق، فقال: - استغفروا ربّكم إنّه كان غفارا، يرسل السّماء عليكم مدرارا و يمددكم بأموال و بنين - فرحم اللّه امرء استقبل توبته، و استقال

ص:2

خطيئته، و بادر منيّته. اللّهمّ إنّا خرجنا إليک من تحت الأستار و الأكنان، و بعد عجيج البهائم و الولدان، راغبين فی رحمتک، و راجين فضل نعمتک، و خائفين من عذابک و نقمتک، اللّهمّ فاسقنا غيثک، و لا تجعلنا من القانطين، و لا تهلكنا بالسّنين، و لا تؤاخذنا بما فعل السّفهاء منّا يا أرحم الرّاحمين، اللّهم إنّا خرجنا إليک نشكو إليک ما لا يخفی عليک حين ألجأتنا المضائق الوعرة، و أجائتنا المقاحط المجدبة، و أعيتنا المطالب المتعسّرة، و تلاحمت علينا الفتن المستصعبة، اللّهمّ لا تردّنا خائبين، و لا تقلبنا واجمين، و لا تخاطبنا بذنوبنا، و لا تقايسنا بأعمالنا، ألّلهم انشر علينا غيثک و بركتک و رزقک و رحمتک، و اسقنا سقيا نافعة مروية معشبة تنبت بها ما قد فات، و تحيی بها ما قد مات، نافعة الحيا، كثيرة المجتنی، تروی بها القيعان، و تسيل البطنان، و تستورق الأشجار، و ترخص الأسعار، إنّک علی ما تشاء قدير.

اللغة

(الأرض) مؤنثة و الجمع أرضون بفتح الرّاء (و السّماء) المظلّة للأرض

ص:3

قال ابن الأنبارى: تذكّر و تؤنّث و قال الفراء: التذكير قليل و هو على معنى السّقف و السّماء أيضا المطر قال الفيومى: مؤنّثة لأنّها فى معنى السّحابة و كلّ عال مظلّ سماء حتّى يقال اظهر الفرس سماء و (جاد) بالمال بذله و جادت السّماء أمطرت و الأرض أنبتت و (توجّع) لفلان رثاه و (أقلع) عن الأمر اقلاعا تركه و (الاكنان) جمع الكنّ و هو ما ستر من الحرّ و البرد من كننته أى سترته و أخفيته فى كنّه بالكسر.

و (السّنين) جمع السّنة و هى الجدب و أرض سنواء و سنهاء أصابتها السّنة و (المضايق) جمع المضيق و هو ما ضاق من الأمور و (الوعر) بسكون العين و كسرها ضدّ السّهل قال الشارح المعتزلى: الوعرة بالتسكين و لا يجوز التحريك و (المقاحط) أماكن القحط أو أزمانه جمع المحقط يأتى للمكان و الزّمان و (الوجم) و الواجم العبوس المطرق لشدّة الحزن و (السّقيا) بالضمّ اسم من سقاه اللّه الغيث أنزله له و (القيعان) جمع القاع و هو المستوى من الأرض.

و (تسيل) فى بعض النسخ بفتح التاء مضارع سال كباع و فى بعضها بالضمّ من باب الافعال و (البطنان) بالضمّ جمع البطن كعبد و عبدان و ظهر و ظهران و هو المنخفض من الأرض كما قاله الطريحى، أو الغامض منها كما فى شرح المعتزلى و قال الفيروز آبادى جمع الباطن و هو مسيل الماء فى غلظ و (الرخص) بالضمّ ضدّ الغلاء و رخص الشىء من باب قرب فهو رخيص و يتعدّى بالهمزة فيقال: أرخص اللّه السّمر و تعديته بالتضعيف غير معروف و (الأسعار) جمع سعر بالكسر و هو تقدير أثمان الأشياء و ارتفاعه غلاء و انحطاطه رخص و قيل تقدير ما يباع به الشىء طعاما كان أو غيره، و يكون غلاء و رخصا باعتبار الزيادة على المقدار الغالب فى ذلك المكان و الأوان و النقصان عنه.

الاعراب

جملة تجودان، منصوبة المحلّ على أنّه خبر أصبحت أو أصبح بمعنى صار قال نجم الأئمة ما محصّله: إنّ من خصائص كان ما ذهب إليه ابن درستويه،

ص:4

و هو أنّه لا يجوز أن يقع الماضى خبر كان فلا يقال كان زيد قام، و فعل ذلك لدلالة كان على المضىّ فيقع المضىّ فى خبره لغوا فينبغى أن يقال كان زيد قائما أو يقوم، و كذا ينبغى أن يمنع يكون زيد يقوم لتلك العلّة إلى أن قال: و منع ابن مالك و هو الحقّ من مضىّ خبر صار و ليس و ما دام و كلّ ما كان ماضيا من ما زال و لا زال و مراد فاتها، لدلالة صار على الانتقال فى الزمن الماضى إلى حالة مستمرّة و هى مضمون خبرها، و كذا ما زال و أخواتها موضوعة لاستمرار مضمون اخبارها فى الماضى و ما يصلح الاستمرار هو الاسم الجامد نحو هذا أسد أو الصفّة نحو زيد قائم أو غنىّ أو مضروب أو الفعل المضارع نحو زيد يقدم فى الحرب و يسخو بموجوده، فناسبت الثلاثة لصلاحيتها للاستمرار أن يقع خبرا لصار و أخواتها من أصبح و أمسى و ظلّ و بات و كذا ما زال و أخواتها بخلاف الماضى فانّه لا يستعمل فى استمرار هذه الثلاثة فلم يقع خبرا لهذه الأفعال.

و توجّعا، مفعول لأجله و العامل فيه تجودان، و قوله ليتوب، تعليل ليبتلى و متعلّق به، و مدرارا، حال من السّماء و الفاء فى قوله: فرحم اللّه، فصيحة و الجملة دعائية لا محلّ لها من الاعراب.

المعنى

اشارة

اعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة خطبها فى الاستسقاء و طلب السّقياء كالخطبة المأة و الرابعة عشر، و قد قدّمنا فى شرح تلك الخطبة كيفية الاستسقاء و ما يناسب شرحها من الأخبار.

و أقول هنا: انّه عليه السّلام لما كان بصدد الدعاء و طلب الرحمة من اللّه سبحانه و تعالى و كانت استجابة الدّعاء موقوفة على وجود المقتضى و انتفاء الموانع، قدّم أمورا مهمّة أمام الدّعاء تنبيها للسامعين و من كان معه عليه السّلام من المستسقين على ماله مدخلية فى استجابة دعائهم و انجاح مقصدهم كى لا يردّوا خائبين و لا ينقلبوا و اجمين.

فنبّه أوّلا على أنّ الأرض و السّماء مخلوقان مقهوران تحت قدرة اللّه سبحانه و النّفع و الضّرر الحاصلان منهما بالجود و الامساك لا ينشآن منهما بنفسهما و بالاستقلال

و إنّما ينشآن منهما بتعلّق مشيّة الفاعل المختار و تدبير الحكيم المدبّر سبحانه و على ذلک فاللاّزم على العباد فى الدّاهية و النّاد أن تقرعوا بأيدى السّؤال و الذلّ و الابتهال بابه، و يتوجّهوا فى انجاح الآمال إلى جنابه عزّ و جلّ.

و هو قوله:(ألا و إنّ الأرض الّتى تحملكم و السّماء الّتى تظلّكم)أى تعلوكم و تشرف عليكم أو تلقى اليكم ظلّها و المراد بالسّماء إمّا معناها المجازى أعنى السّحاب، أو الحقيقى باعتبار أنّ زوال المطر من السّماء لا لكون السّماوات بحركاتها أسبابا معدّة لكلّ ما فى هذا العالم من الحوادث كما زعمه الشّارح البحرانى.

و يؤيّد الثّانى ظواهر الآيات التى تدلّ على نزول المطر من السّماء مثل قوله سبحانه:«هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً »و قوله:«وَ اللّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً » و نحوها مما يقرب عشرين آية.

و يؤيّد الأوّل ظاهر قوله سبحانه:«اَللّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها »و قوله:«وَ هُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ »الآية.

و يدلّ على الاحتمالين ما فى البحار من علل الشّرائع للصّدوق عن أبيه عن الحميرى عن هارون عن ابن صدقة عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهم السّلام قال: كان علىّ عليه السّلام يقوم فى المطر أوّل مطر يمطر حتّى يبتلّ رأسه و لحيته و ثيابه فيقال له: يا أمير المؤمنين الكنّ الكنّ فيقول: إنّ هذا ماء قريب العهد بالعرش ثمّ أنشأ عليه السّلام يحدّث فقال إنّ تحت العرش بحرا فيه ماء ينبت به أرزاق الحيوانات و إذا أراد اللّه أن ينبت به ما يشاء لهم رحمة منه أوحى اللّه عزّ و جلّ فمطر منه ما شاء من سماء إلى سماء حتّى يصير إلى السّماء الدنيا، فتلقيه إلى السّحاب و السّحاب بمنزلة الغربال ثمّ يوحى اللّه عزّ و جلّ إلى السّحاب أن اطحنيه و اذيبيه ذوبان الملح فى الماء ثم انطلقى به إلى موضع كذا و كذا و عبابا أو غير عباب، فتقطر عليهم على النحو الذى يأمرها به فليس من قطرة تقطر إلاّ و معها ملک حتّى تضعها بموضعها، الحديث.

و رواه فى الكافى عن هارون عن مسعدة بن صدقة نحوه.

قال الرّازى فى تفسير قوله: «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً » اختلف النّاس فيه:

فقال الجبائى إنّه تعالى ينزل الماء من السّماء إلى السّحاب و من السّحاب إلى الأرض يقال لأنّ ظاهر النصّ يقتضى نزول المطر من السّماء و العدول عن الظاهر إلى التّأويل إنّما يحتاج إليه عند قيام الدّليل على أنّ إجراء اللّفظ على ظاهره غير ممكن، و فى هذا الموضع لم يقم دليل على امتناع نزول المطر من السّماء فوجب إجراء اللّفظ على ظاهره إلى أن قال:

و القول الثّانى المراد انزل من جانب السّماء ماء.

و القول الثالث انزل من السّحاب ماء و سمّا اللّه السّحاب سماء لأنّ العرب تسمّى كلّ ما فوقك سماء كسماء البيت، انتهى.

و رجّح فى موضع آخر نزول المطر من السّحاب قال: لأنّ الانسان ربما كان واقفا على قلّة جبل عال و يرى الغيم أسفل فاذا نزل من ذلك الجبل يرى الغيم ماطرا عليهم، و إذا كان هذا الأمر مشاهدا بالبصر كان النزاع باطلا، هذا.

و قوله:(مطيعتان لربّكم) وصفهما بالاطاعة تنبيها على عظمة قدرته سبحانه و نفوذ امره فيهما كما قال تعالى: «فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ »(و ما أصبحتا تجودان لكم ببركتهما) أى ما صارت السّماء تجود لكم بالأمطار و لا الأرض تجود لكم بالانبات (توجّعا لكم) أى تألّما لما أصاب بكم (و لا زلفة) و تقرّبا (اليكم و لا لخير ترجوانه منكم) كما هو المعهود المتعارف فى جود النّاس بعضهم لبعض حيث إنّهم يبذلون المال للترحّم أو التقرّب أو لجلب الخير أو لدفع الضرّ أو نحو ذلك، و أمّا السّماء و الأرض فلا يتصوّر فى حقوقهما ذلك لأنّهما أجسام جامدة غير شاعرة لا يوجد ما يوجد منهما بالارادة و الاختيار.

(و لكنّ) هما مسخّرتان تحت قدرة اللّه و مشيّته تعالى(أمرتا بمنافعكم فأطاعتا و اقيمتا على حدود مصالحكم فقامتا)و المرادبالأمر و الاقامةالأمر و الاثبات التكوينى كما أنّ المراد بالقيام و الاطاعة الثبات و الجرى على وفق ما أراد اللّه

سبحانه منهما.

و فى هاتين القرينتين تلميح إلى قوله سبحانه:«وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِى بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِى ذٰلِکَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ »أى يريكم البرق خوفا من الصّاعقة و للمسافر و طمعا فى الغيث و للمقيم، و ينزل من السّماء مطر فيحيى به الأرض بالنّبات بعد موتها و يبسها و جدوبها، و قيام السّماء و الأرض بأمره باقامته لهما و إرادته لقيامهما.

قال الطبرسى: بلاد عامة تدعمها و لا علاقة تتعلّق بهما بأمره لهما بالقيام كقوله تعالى:

«إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْ ءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » و قيل بأمره أى بفعله و امساكه إلاّ أنّ افعال اللّه عزّ اسمه تضاف إليه بلفظ الأمر لأنّه أبلغ فى الاقتدار فانّ قول القائل أراد فكان أو أمر فكان أبلغ فى الدلالة على الاقتدار من أن يقول فعل فكان، و معنى القيام الثّبات و الدّوام انتهى.

و قد مضى تفصيل الكلام فى منافع السّماء و الأرض و تحقيق ما يتعلّق بمصالحها فى شرح الخطبة التّسعين فليراجع هناک هذا.

و لمّا نبّه على أنّ السّماء و الأرض مخلوقان مسخّران تحت قدرة الفاعل المختار و أنّ جودهما بالامطار و الانبات إنّما هو بتعلّق أمر اللّه سبحانه و مشيّته و إرادته أردف ذلک بالتنبيه على أنّ المانع من نزول الخير و إفاضة الجود إنما هو أمر راجع إلى الخلق و حادث من جهة العبد و هو سوء فعله و ذنبه المانع من استعداده لقبول الرّحمة و فيضان الجود فقال (إنّ اللّه يبتلى عباده عند الأعمال السّيئة) لأنّ البلاء للظالم أدب (بنقص الثمرات و حبس البركات و إغلاق خزائن الخيرات) كما قال سبحانه «وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْ ءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ ».

و إنّما يبتليهم بذلک لطفا منه تعالى (ليتوب تائب) عن سوء عمله (و يقلع مقلع) أى يكفّ عن ضلاله و زلله (و يتذكّر متذكّر) بما أعدّ اللّه سبحانه

من النّعیم فی دار القرار للمتقین الأبرار (و یزدجر مزدجر) بما أعدّ اللّه تعالی من العذاب الألیم فی دار البوار للفجّار و الأشرار.

ثمّ نبّه علی ما به یرتفع المانع من الخیر و الجود و یتأهّل لافاضة الرّحمة من واجب الوجود فقال (و قد جعل اللّه سبحانه الاستغفار) ممحاة للذّنب و (سببا لدرور الرزق) و کثرته (فقال) فی سورة نوح (استغفروا ربّکم انّه کان غفّارا یرسل السّماء علیکم مدرارا و یمددکم بأموال و بنین) و یجعل لکم جنّات و یجعل لکم أنهارا.

قال الطّبرسی فی تفسیره: أی اطلبوا منه المغفرة علی کفرکم و معاصیکم إنّه کان غفارا لکلّ من طلب منه المغفرة، فمتی رجعتم عن کفرکم و معاصیکم و أطعتموه یرسل السّماء علیکم مدرارا، أی کثیرة الدّرور بالغیث، و قیل: إنّهم کانوا قد قحطوا و اسنتوا و هلکت أموالهم و أولادهم فلذلک رغّبهم فی ردّ ذلک بالاستغفار مع الایمان و الرّجوع إلی اللّه تعالی، و یمددکم بأموال و بنین، أی یکثر أموالکم و أولادکم الذّکور، و یجعل لکم جنّات، أی بساتین فی الدّنیا و یجعل لکم أنهارا تسقون بها جنّاتکم، قال قتادة: علم نبیّ اللّه نوح علیه السّلام أنّهم کانوا أهل حرص علی الدّنیا فقال: هلمّوا إلی طاعة اللّه فانّ فیها درک الدّنیا و الآخرة.

و روی الرّبیع بن صبیح أنّ رجلا أتی إلی الحسن علیه السّلام فشکی إلیه الجدوبة فقال له الحسن علیه السّلام: استغفر اللّه، و أتاه آخر فشکی إلیه الفقر، فقال له: استغفر اللّه و أتاه آخر فقال: ادع اللّه أن یرزقنی ابنا، فقال له: استغفر اللّه، فقلنا: أتاک رجال یشکون أبوابا و یسألون أنواعا، فأمرتهم کلّهم بالاستغفار، فقال علیه السّلام: ما قلت ذلک من ذات نفسی إنّما اعتبرت فیه قول اللّه تعالی حکایة عن نبیّه نوح علیه السّلام أنّه قال لقومه: «اِسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ إِنَّهُ کانَ غَفّاراً » إلی آخره، هذا.

و الآیات و الأخبار فی فضیلة الاستغفار و کونه سببا لدرور الرزق و سائر ما یترتّب علیه من الثمرات کثیرة.

فمن الآیات مضافة إلی ما مرّ قوله تعالی فی سورة هود علیه السّلام حکایة عنه انّه

قال لقومه: «وَ يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً » و من الأخبار فى الكافى باسناده عن زرارة قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السّلام يقول إنّ العبد إذا أذنب ذنبا اجّل من غدوة إلى اللّيل فان استغفر اللّه لم يكتب عليه و عن أبى بصير عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: من عمل سيّئة اجلّ فيها سبع ساعات من النّهار، فان قال: أستغفر اللّه الذى لا إله إلاّ هو الحىّ القيّوم، ثلاث مرّات لم تكتب عليه.

و عن عبد الصّمد بن بشير عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: العبد المؤمن إذا أذنب ذنبا أجّله اللّه سبع ساعات و إن استغفر اللّه لم يكتب عليه شىء و إن مضت السّاعات و لم يستغفر كتب اللّه عليه سيّئة و إنّ المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتّى يستغفر ربّه فيغفر اللّه له و إنّ الكافر لينساه من ساعته.

و فيه مرسلا عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: ما من مؤمن يقارف فى يومه و ليلته أربعين كبيرة فيقول و هو نادم: أستغفر اللّه الذى لا إله إلاّ هو الحىّ القيوم بديع السّماوات و الأرض ذو الجلال و الاكرام و أسأله أن يصلّى على محمّد و آل محمّد و أن يتوب علىّ، إلاّ غفرها اللّه له عزّ و جلّ و لا خير فى من يقارف فى يوم أكثر من أربعين كبيرة.

و فى ثواب الأعمال بسنده عن السّكونى عن أبى عبد اللّه عليه السّلام، عن أبيه عن آبائه عليه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لكلّ داء دواء و دواء الذّنوب الاستغفار.

و فيه عن سلام الخيّاط عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: من قال: أستغفر اللّه مائة مرّة حين ينام بات و قد تحاطت الذنوب كلّها عنه كما تتحاط الورق من الشّجر و يصبح و ليس عليه ذنب.

و عن مسعدة بن صدقة عن جعفر الصّادق عن أبيه عن آبائه عليهم السّلام قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: طوبى لمن وجد فى صحيفته يوم القيامة تحت كلّ ذنب أستغفر اللّه و عن جابر الجعفى عن أبى جعفر عليه السّلام قال: من استغفر اللّه بعد صلاة الفجر

سبعين مرّة غفر اللّه له و لو عمل ذلک الیوم سبعین ألف ذنب، و من عمل أکثر من سبعین ألف ذنب فلا خیر له.

و فی الوسائل من الکافی عن یاسر الخادم عن الرّضا علیه السّلام قال: مثل الاستغفار مثل ورق علی شجرة تحرک فتناثر، و المستغفر من ذنب و یفعله کالمستهزیء بربّه و عن عبید بن زرارة قال: قال أبو عبد اللّه علیه السّلام: إذا کثر العبد من الاستغفار رفعت صحیفته و هی تتلألأ.

و عن السّکونی عن أبی عبد اللّه عن آبائه علیهم السّلام فی حدیث قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: من کثرت همومه فعلیه بالاستغفار.

و فیه من عدّة الدّاعی لأحمد بن فهد قال: قال علیه السّلام إنّ للقلوب صداء کصداء النّحاس فأجلوها بالاستغفار.

قال: و قال: من أکثر من الاستغفار جعل اللّه له من کلّ همّ فرجا و من کلّ ضیق مخرجا و رزقه من حیث لا یحتسب.

و فیه من أمالی ابن الشّیخ مسندا عن أبی الحسن المنقری قال: سمعت علیّ بن أبی طالب علیه السّلام یقول: عجبا لمن یقنط و معه الممحاة: قیل: و ما الممحاة؟ قال: الاستغفار.

و فیه من کتاب ورّام بن أبی فراس قال: قال علیه السّلام أکثروا الاستغفار إنّ اللّه لم یعلّمکم الاستغفار إلاّ و هو یرید أن یغفر لکم، هذا.

و لمّا نبّه علی کون الاستغفار سببا لدرور الرزق و استشهد علیه بالآیة الشریفة أردفه بالدّعاء علی المستغفرین التائبین بقوله (فرحم اللّه امرء استقبل توبته) أی استأنفها(و استقال خطیئته)أی طلب الاقالة منها و من المؤاخذة بها قال الشّارح البحرانی: و لفظ الاقالة استعارة و وجهها أنّ المخطی کالمعاهد و الملتزم لعقاب اخرویّة بلذّة عاجلة لما علم من استلزام تلک اللّذة المنهیّ عنها للعقاب، فهو یطلب للاقالة من هذه المعاهدة کما یطلب المشتری الاقالة من البیع (و بادر منیّته) أی سارع

إليها بالتوبة، و الاستقالة قبل إدراكها له، هذا.

و لمّا فرغ عليه السّلام من تمهيد مقدّمات الدّعاء شرع فيه فقال (اللّهم إنّا خرجنا إليک من تحت الأستار و الأکنان) الّتی لیس من شأنها أن تفارق إلاّ لضرورة شدیدة (و بعد عجیح البهائم و الولدان) و أصواتها المرتفعة بالبکاء و النحیب (راغبین) فی برّک و (رحمتک و راجین فضل) منّک و (نعمتک و خائفین من عذابک و نقمتک اللّهمّ فأسقنا غیثک) المغدق من السّحاب المنساق لنبات أرضک المونق (و لا تجعلنا من القانطین) الآیسین (و لا تهلکنا بالسّنین و لا تؤاخذنا بما فعل السّفهاء منّا یا أرحم الرّاحمین) و المراد بالسّفهاء الجهّال من أهل المعاصی و بفعلهم معاصیهم المبعدة عن رحمته سبحانه کما فی قوله سبحانه حکایة عن موسى علیه السّلام: «أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنّا » ثمّ عاد علیه السّلام إلی تکریر شکوی الجدب بذکر أسبابها الحاملة علیها فقال:

(اللّهمّ إنّا خرجنا إلیک نشکو إلیک ما لا یخفی علیک) من الضرّ و السّوء (حین ألجائتنا المضائق الوعرة) المستصعبة (و أجائتنا المقاحط المجدبة) أی السّنون المحلّة (و أعیتنا المطالب المتعسّرة، و تلاحمت علینا الفتن المستصعبة) أی تزاحمت علینا امور من الجوع و العری و سائر مسبّبات القحط ما کانت لنا فتنة أی بلاء و محنة أی صارفة للقلوب عمّا یراد بها.

(اللّهمّ) إنّا نسألک أن (لا تردّنا خائبین) من رحمتک (و لا تقلبنا و اجمین) محزونین بالیأس عن عطیّتک (و لا تخاطبنا بذنوبنا) قال الشّارح المعتزلی: أی لا تجعل جواب دعائنا لک ما یقتضیه ذنوبنا کأنّه یجعله کالمخاطب لهم و المجیب عمّا سألوه إیّاه کما یفاوض الواحد منّا صاحبه و یستعطفه فقد یجیبه و یخاطبه بما یقتضیه ذنبه إذا اشتدّت موجدته علیه و نحوه قوله (و لا تقایسنا بأعمالنا) أی لا تجعل ما تجیبنا به مقایسا و مماثلا لأعمالنا السیّئة، و بعبارة اخری لا تجعل فعلک بنا مقایسا لأعمالنا السیّئة و مشابها لها و سیئة مثلها.

(اللّهمّ انشر علینا غیثک و برکتک و رزقک و رحمتک، و اسقنا سقیا نافعة)

ص:12

سالمة من الافساد بالافراط (مروية) مسكتة للعطش (معشبة) أی ذات العشب و الکلاء(تنبت بها ما قد فات)أی مضی و ذهب(و تحيی بها ما قد مات).

قال بعض الأفاضل: أی تخرج و تعيد بها ما قد ذهب و يبس من أصناف النبّات و ضروب الأعشاب و ألوان الأزهار و أنواع الأشجار و الثمار، و ما انقطع من جواری الجداول و الأنهار فاستعار الاحياء الذی حقيقته هو إفاضة الرّوح علی الجسد للإخراج و الاعادة المذکورين کما استعار الموت الذی هو حقيقة انقطاع تعلّق الرّوح بالجسد لليبس و الذّهاب، و الجامع فی الاولی إحداث القوی النّامية فی المواد و المنافع المترتّبة علی ذلک، و فی الثانية استيلاء اليبوسة و عدم النّفع، و هما استعارتان تبعيّتان لأنّ المستعار فی کلّ منهما فعل و القرينة فی الاولی المجرور أعنی الضمير فی بها العايد إلی السّقيا لظهور عدم حصول الاحياء الحقيقی بالسّقيا، و فی الثّانية الاسناد إلی الفاعل لأنّ الموت الذی يحيی المتّصف به بالسقی لا يکون حقيقيا البتة.

(نافعة الحياء) و المطر (کثيرة المجتنی) و الثّمر (تروی بها القيعان) و الأراضی المستوية(و تسيل بها البطنان)و الأراضی المنخفضة، و نسبة السّيلان أو الاسالة إلی البطنان من المجاز العقلی إذ حقّه أن يسند أو يوقع علی الماء، لأنّه الماء حقيقة و لکنّه أوقع علی مکانه لملابسته له کما اسند الفعل إليه فی سال النهر، و الغرض طلب کثرة المطر،(و تستورق الأشجار، و ترخص الأسعار، إنّک علی ما تشاء قدير) و بالاجابة حقيق جدير.

تنبيه

قال بعض شرّاح الصحيفة الکاملة: اختلف فی التّسعير فقيل هو من فعل اللّه سبحانه و هو ما ذهبت إليه الأشاعرة بناء علی أصلهم من أنّه لا فاعل إلاّ اللّه تعالی، و لما ورد فی الحديث حين وقع غلاء بالمدينة فاجتمع أهلها إليه و قالوا: سعّر لنا يا رسول اللّه، فقال: المسعّر هو اللّه.

و اختلف المعتزلة فی هذه المسألة فقال بعضهم هو فعل المباشر من العبد إذ

ليس ذلک إلاّ مواضعة منهم على البيع و الشّرى بثمن مخصوص، و قال آخرون هو متولّد من فعل اللّه تعالى و هو تقليل الأجناس و تكثير الرّغبات بأسباب هى من اللّه تعالى.

و الذى تذهب إليه معشر الامامية أن خروج السّعر عن مجرى عادته ترقيّا أو نزولا إن استند إلى أسباب غير مستندة إلى العبد و اختياره نسب إلى اللّه تعالى.

و إلاّ نسب إلى العبد كجبر السلطان الرّعية على سعر مخصوص، و ما ورد فى الحديث النبّوى المذكور محمول على أنّه لا ينبغى التّسعير، بل يفوّض إلى اللّه، ليقرّره بمقتضى حكمته البالغة و رحمته الشاملة.

و ما ورد من الأخبار عن أهل البيت عليهم السّلام فى هذا المعنى كما روى عن علىّ بن الحسين عليهما السّلام أنّه قال: إنّ اللّه و كلّ ملكا بالسّعر يدبّره بأمره، و عن أبى عبد اللّه عليه السّلام إنّ اللّه و كلّ بالأسعار ملكا يدبّرها بأمره، فالمراد بالسّعر ما لم يكن للعبد و أسبابه مدخل، و اللّه أعلم.

الترجمة

از جمله خطب شريفۀ آن ولىّ دين و سيّد وصيّين است در مقام استسقا و باران خواستن از خدا كه فرموده:

آگاه باشيد بدرستى كه زمينى كه بر مى دارد شما را، و آسمانى كه سايه مى افكند بر شما، مطيع و منقاد هستند پروردگار شما را، و نگرديده اند آن آسمان و زمين كه ببخشد بشما بركت خودشان را بجهة غمخوارى از براى شما، و نه بجهة تقرّب و منزلت بسوى شما، و نه از جهة خيرى كه اميدوار باشند بآن از شما، و لكن مأمور شدند از جانب خداوند قادر قاهر بمنفعتهاى شما، پس اطاعت كرده اند و بر پا داشته شده اند بر نهايات مصلحت هاى شما، پس قيام نموده اند.

پس بدرستى كه خداوند تعالى مبتلا مى نمايد و امتحان مى فرمايد بندگان خود را هنگام اقدام بر أعمال ناشايست بنقص ميوجات و حبس كردن بركات و بستن خزينهاى خيرها تا اين كه توبه نمايد توبه كنندۀ، و ترک كند گناه را ترک كنندۀ،

ص:14

و متذكّر شود صاحب تذكّر، و منزجر شود قابل زجر.

و بتحقيق كه گردانيـده حق تعـالى طلب مغفرت و اسـتغفار را سـبب فرود آمـدن روزى و رحمت از براى خلق، پس فرمود در كلاـم مجيد خـود: «اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كـانَ غَفّـاراً »، يعنى طلب مغفرت و آمرزش نمائيـد از پروردگـار خود بـدرستى كه اوست صـاحب مغفرت و آمرزنده، تا بفرسـتد أبر را بر شـما در حالتى كه ريزان شود بباران، و مدد فرمايد شـما را بأموال و أولاد، پس رحمت نمايد خدا بر كسـى كه روى آورد بـدرگاه خدا به توبه و انابه و طلب اقاله و فسخ خطاى خود را نمود و مبادرت و پيش دستى كرد بسوى مرگ خود با توبه نمودن از معصيت.

بار الها بدرستى كه ما بيرون آمده ئيم بسوى رحمت تو از زير پردها و پوششها يعنى از خانهاى خود بيرون آمده و پا برهنه رو بصحرا نهاده و متوجّه تو شـده بعد از ناله چهارپايان و فرزندان در حالتى كه راغبيم در رحمت تو، و اميدواريم بزيادتى نعمت تو، و ترسانيم از عذاب تو و عقاب تو، بار پروردگارا پس آب ده ما را بباران خودت، و مگردان ما را از نوميـدان، و هلاک مكن ما را بسالهاى قحطى، و مؤاخذه مكن بما بجهت فعل قبيح سفيهان و بى خردان ما أى پروردگارى كه ارحم الرّاحمين هستى.

بار خدايا بدرستى كه ما بيرون آمده يم بسوى تو شـكايت مى كنيم بسوى تو چيزى را كه پنهان و پوشيده نيست بتو وقتى كه مضطر گردانيد مـا را تنگيهـا بغـايت سـخت، و ملجـأ نمود ما را سالهاى قحطى، و عاجز ساخت ما را مطلب هائى دشوار، و هجوم آور شـد بما فتنه هاى صعب و با شدّت.

بـار الهـا بـدرستى كه مـا سؤال مى كنيم از فضل و كرم تو اين كه برنگردانى ما را در حالتى كه مأيوس باشـيم، و باز نبرى ما را در حالتى كه محزون و پريشان شويم و خطاب عتاب نكنى بما بجهة گناهان ما، و قياس نكنى ما را بأعمال قبيحۀ ما..

پروردگـارا پراكنـده كن بر مـا باران خود را، و سـيراب كن ما را سـيرابى با منفعت كه سـيراب سازنـدۀ هر موجود است، و روياننـدۀ گياه كه بروياني بسبب آن

سیرابی آنچه که فوت شده باشد از غلاّت، و زنده گردانی بواسطهٔ آن آنچه که مرده از نبات، آن چنان سیرابی که صاحب باران را منفعت باشد، و بسیار شود میوهٔ آن که سیراب گردانی بآن زمینهای هموار را، و روان گردانی بآن زمینهای پست را، و برگ دار گردانی درختان را بآن، و أرزان گردانی نرخها را، بدرستی که تو بر آنچه که می خواهی از رخص و جدب صاحب قدرت و توانائی.

و من خطبة له علیه السّلام و هی المأة و الرابعة

اشارة

و الاربعون من المختار فی باب الخطب

و شرحها فی فصلین:

الفصل الاول

اشارة

بعث رسله بما خصّهم به من وحیه، و جعلهم حجّة له علی خلقه، لئلاّ تجب الحجّة لهم بترک الإعذار إلیهم، فدعاهم بلسان الصّدق إلی سبیل الحقّ، ألا إنّ اللّه قد کشف الخلق کشفة، لا أنّه جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم، و مکنون ضمائرهم، و لکن لیبلوهم أیّهم أحسن عملا فیکون الثّواب جزاء، و العقاب بواء، أین الّذین زعموا أنّهم الرّاسخون فی العلم دوننا کذبا و بغیا علینا، أن رفعنا اللّه و وضعهم، و أعطانا و حرمهم، و أدخلنا و أخرجهم، بنا یستعطی الهدی، و یستجلی العمی، إنّ الأئمّة من قریش، غرسوا فی هذا البطن من هاشم،

لا تصلح على سويهم، و لا تصلح الولاة من غيرهم.

اللغة

(الاعذار) التخويف و الوعيد و (الكشف) الاظهار و رفع كلّ شىء عما يواريه و يستره و (البواء) الكفوء و باء الرّجل بفلان قتل به، و أبأت القاتل بالقتل و استبأته أى قتلته به و (كذب) يكذب من باب حسب كذّبا و كذبا و كذبة و كذّبة و كذّابا و (البطن) دون القبيلة أو دون الفخد و فوق العمارة كذا فى القاموس و قيل: أوّل العشيرة الشعب قال سبحانه: «وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا » ثمّ القبيلة، ثمّ البطن، ثمّ العمارة ثمّ الفخذ.

الاعراب

قوله: من وحيه، بيان لما الموصولة، و قوله: ليبلوهم أيّهم أحسن عملا، كلمة أىّ استفهاميّة مضافة إلى ما بعدها و هى مبتدأ و أحسن خبره، و عملا تميز و جملة الاستفهام بدل من مفعول يبلو على حدّ قوله سبحانه: «وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » فانّ جملة هل هذا إلاّ بشر، بدل من النّجوى.

و يجوز أن يكون الجملة الاستفهاميّة استينافا بيانيا، كأنّه سئل عن المبتلين و قيل: من هم؟ فقيل: أيّهم أحسن عملا نظير ما قاله بعض النحويّين فى قوله:

«لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا » من أنّ أىّ استفهاميّة و جملة الاستفهام مستأنفة، و من كلّ شيعة، مفعول ننزعنّ، و المعنى لننزعنّ بعض كلّ شيعة، و كأنّ قائلا يقول: و من المنزعين؟ فقيل: أيّهم أشدّ.

و قوله: أين الذين، استفهام على سبيل التقريع و التوبيخ، و قوله: دوننا فى محلّ النّصب حال من فاعل الرّاسخون و هو بمعنى سوى و غير مبنىّ على الفتح لملازمته الاضافة، و كذبا و بغيا منصوبان على الحال من فاعل زعموا و هما بمعنى الفاعل أى كاذبين فى زعمهم، و علينا، متعلّق ببغيا، و أن رفعنا، فى محلّ النّصب مفعول له لبغيا، أى بغيهم علينا لأنّ رفعنا اللّه، و قوله: لا تصلح، فاعله راجع إلى

الامامة المفهومة من قوله: إنّ الأئمة من قريش.

المعنى

اشارة

اعلم أنّ هـذا الفصل من الخطبـة حسب ما أشار اليه الشّارحان البحرانى و المعتزلى منافرة بينه و بين قوم من الصّحابة الـذين كانوا ينازعونه الفضل، و صدّر الفصل بالاشارة إلى بعث الرّسل و الحكمة فى بعثهم فقال:(بعث رسـله بما خصّهم به من وحيه) الضمائر راجعة إلى اللّه سبحانه و إن لم يجر له ذكر لعدم الالتباس كما فى قوله تعالى: «فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى » و الوحى كلام مأخوذ من اللّه سـبحانه بواسـطة الملک، و الالـهام يحصـل منه سـبحانه بغير واسـطة، و قيل: الوحى قـد يحصل بشـهود الملک و سـماع كلامه فهو من الكشف الصّورى المتضـمّن للكشف المعنوى، و الالهام من المعنوى، و أيضا الوحى من خواصّ الرّسالـة و متعلّق بالظاهر، و الالـهام من خواصّ الولايـة، و أيضـا هو مشـروط بـالتبليغ كمـا قـال: «يـا أَيُّهَـا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ » دون الالهام، و منهم من جعل الالهام نوعا من الوحى فيكون إطلاق الوحى على الالهام فى قوله سبحانه:

«وَ أَوْحى رَبُّکَ إِلَى النَّحْلِ » «وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى » على سبيل الحقيقة، و أمّا على الأقوال السّابقة فهو من باب التوسّع و التجوّز.

(و جعلهم حجّة له على خلقه لئلا) يكون للنّاس على اللّه حجّة بعـد الرّسل و (تجب الحجّة لهم عليه بترک الاعذار) و التّخويف و إبداء العـذر فى العقاب و تقـديمه (إليهم) يعنى أنّه سـبحانه إنّما أرسل رسـله مبشّرين و منذرين إتماما للحجّة و إزالة للعذر عنه فى العقاب على العصيان لأنّ العقاب بلا بيان قبيح على الحكيم كما قال تعالى: «وَ ما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتّى نَبْعَثَ رَسُولاً ».

فان قلت: هذا ينافى بالقول بالواجبات العقليّة و كفاية حكم العقل بالوجوب أو التحريم فيما استقل بحسنه أو قبحه و لو لم يبعث الرّسل كما هو مذهب العدليّة من الامامية و المعتزلة.

قلت: قد أجاب عنه الشّارح المعتزلى بأنّ صحّة مذهبهم يقتضى أن يحمل عموم الألفاظ على أنّ المراد بها الخصوص، فيكون التّأويل لئلا يكون للنّاس على اللّه حجّة فيما لم يدلّ العقل على وجوبه و لا قبحه كالشّرعيّات، و كذلک و ما كنّا معذّبين على ما لم يكن العقل دليلا عليه حتّى نبعث رسولا، و محصّله أنّ العمومات مخصوصة بغير المستقلات، و أنّ المقصود بالآية و ما كنّا معذّبين قبل بعث الرّسل إلاّ فيما استقلّ لحكمه العقل، هذا.

و يمكن الجواب بابقاء الآية على عمومها و التصرّف فى البعث بأن يجعل بعث الرّسل كناية أو مجازا عن مطلق بيان التكليف و لو بلسان العقل كما فى المستقلات العقليّة إلاّ أنّه لمّا كان الغالب بل الأغلب كون البيان بالرّسول، فعبّر به عنه كما فى قولک لا أبرح هذا المكان حتّى يؤذّن المؤذّن، مريدا به دخول الوقت إذ كثيرا ما يعلم دخوله به.

(فدعاهم بلسان الصّدق) و هو لسان الأنبياء و الحجج، لأنّهم تراجمة وحى اللّه سبحانه و يقرب منه ما فى شرح البحرانى قال: هو لسان الشريعة النّاطقة عن مصباح النّبوة المشتعل عن نور الحقّ سبحانه (إلى سبيل الحقّ) و هو سبيل الدّين و نهج الشّرع المبين.

و لمّا أشار عليه السّلام إلى الحكمة فى بعث الرّسل أردفه بالتّنبيه على الغرض من التّكليف و هو قوله:(ألا إنّ اللّه تعالى قد كشف الخلق كشفة) أى أبداهم و أظهر حالهم بما تعبّدهم به من الأحكام إذ بالتعبّد بها يظهر ما هم عليه من السّعادة و الشّقاوة و الجحود و التّسليم، و هذا معنى ما قيل إنّه أراد بالكشف الاختبار و الابتلاء (لا) ل (أنّه جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم و) أضمروه من (مكنون ضمائرهم) بل هو العالم بالسّرائر و الخبير بمكنونات الضّمائر.

و إن تجهر بالقول فانّه يعلم السّر و أخفى، و لا يعزب عنه مثقال ذرّة فى الأرض و لا فى السّماء، و ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم و لا خمسة إلاّ هو سادسهم و لا أدنى من ذلک و لا أكثر إلاّ هو معهم، على ما مرّ تحقيقا و تفصيلا فى

تنبیهات الفصل السّابع من الخطبة الأولى، و فى شرح الخطبة التّاسعة و الأربعین و الخطبة الخامسة و الثّمانین فلیراجع (و لکن) کشفهم (لیبلوهم أیّهم أحسن عملا) اقتباس من الآیة الشّریفة فى سورة هود قال تعالى: «وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیّامٍ وَ کانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ».

قال الطّبرسیّ: معناه أنّه خلق الخلق و دبّر الامور لیظهر إحسان المحسن فانّه الغرض فى ذلک أى لیعاملکم معاملة المبتلى المختبر لئلا یتوهم أنّه سبحانه یجازى العباد على حسب ما فى معلومه أنّه یکون منهم قبل أن یفعلوه.

و فى سورة الملک «اَلَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَیاةَ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ».

قال الطّبرسیّ: أى لیعاملکم معاملة المختبر بالأمر و النّهى فیجازى کلّ عامل بقدر عمله، و قیل: لیبلوکم أیّکم أکثر للموت ذکرا و أحسن له استعدادا و أحسن صبرا على موته و موت غیره، و أیّکم أکثر امتثالا للأوامر و اجتنابا عن النّواهى فى حال حیاته.

قال أبو قتادة سألت النّبى صلّى اللّه علیه و آله عن قوله تعالى: «أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » ما عنى به؟ فقال صلّى اللّه علیه و آله و سلّم: یقول: أیّکم أحسن عقلا ثمّ قال: أتمّکم عقلا، و أشدّکم للّه خوفا، و أحسنکم فیما أمر اللّه به و نهى عنه نظرا، و إن کان أقلّکم تطوّعا.

و عن ابن عمر عن النّبیّ صلّى اللّه علیه و آله أنّه تلى تبارک الذى بیده الملک إلى قوله:

أیّکم أحسن عملا، ثمّ قال: أیّکم أحسن عقلا، و أورع عن محارم اللّه، و أسرع فى طاعة اللّه، و عن الحسن أیّکم أزهد فى الدّنیا و أترک لها انتهى.

أقول: و قد مضى تفصیل الکلام فى معنى ابتلاء اللّه سبحانه لعباده فى شرح الخطبة الثانیة و السّتین، و محصّله أنّه سبحانه یختبر عباده مع علمه بما یؤل الیه أمرهم من سعادة أو شقاوة بأوامره و نواهیه، و یعاملهم معاملة المختبر لیجازى کلّ عامل بمقتضى فعله و عمله، کما لا یجازى المختبر للغیر إلاّ بعد وقوع الفعل و العمل منه (فیکون الثواب) منه تعالى (جزاء) للحسنات بمقتضى فضله (و العقاب بواء) للسیّئات بمقتضى عدله.

ص:20

ثمّ إنّه لمّا أشار الى الحكمـة فى بعث الرّسل و نبّه على الغرض من التّكليف أردفه بقوله:(أين الّذين زعموا أنّهم الرّاسـخون فى العلم دوننا)و غرضه بـذلک توبيـخ الزّاعمين لـذلک و الانكار عليهم و التّنبيه على أنّ الرّسوخ فى العلم مخصوص بأهل بيت الولايـة عليهم السّـلام و أنّ غيرهم كاذب فى دعوى الرّسوخ.

و هذه الدّعوى منهم أعنى اختصاصهم بالرّسوخ قد شهد عليه البراهين العقلية و النقلية و نصّ عليه العامّة و الخاصّة.

اما العامـة فلما أورده الشّارح المعتزلى فى شـرح هذا المقام حيث قال: إنّه كناية و إشارة إلى قوم من الصّـحابة كانوا ينازعونه الفضل، فمنهم من كان يدّعى له أنّه أفرض، و منهم من كان يدّعى له أنّه أقرء، و منهم من كان يدّعى له أنّه أعلم بالحلال و الحرام، هذا.

مع تسـليم هؤلاـء له أنّه عليه السّـلام أفضل «أقضـى ظ» الامّـة و أنّ القضاء يحتاج إلى كلّ هـذه الفضائل و كلّ واحـدة منها لا تحتاج إلى غيرها، فهو إذا أجمع للفقه و أكثرهم احتواء عليه إلاّ أنه لم يرض بـذلک، و لم يصـدق الخبر(1) الذى قيل أفرضكم فلان إلى آخره، فقال إنّه كذب و افتراء حمل قوما على وضعه الحسد و البغى و المنافسة لهذا الحيّ من بنى هاشم.

و أما الخاصة فقد تظافرت رواياتهم على ذلک.

ففى البحار من بصائر الدّرجات باسناده عن أبى بصير عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: نحن الرّاسخون فى العلم و نحن نعلم تأويله.

و من البصائر أيضا عن إبراهيم بن إسـحاق عن عبد اللّه بن حمّاد عن بريد البجلى «العجلى ظ» عن أحدهما عليهما السّـلام فى قوله تعالى: «وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَ الرّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ » آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فرسول اللّه أفضل الرّاسخين فى العلم قد علّمه اللّه جميع ما أنزله عليه من التنزيل و التأويل، و ما كان اللّه لينزل عليه شيئا لم يعلّمه تأويله، و أوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه.

ص:21

1- (1) و هو ما رووه من أنّ أفرضكم زيد بن ثابت و أقرءكم ابىّ، منه

و من مناقب ابن شهر آشوب عن أبى القاسم الكوفى قال: روى فى قوله:

«وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَ الرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ » إنّ الراسخون فى العلم من قرنهم الرّسول بالكتاب و أخبر أنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض.

قال صاحب المناقب: و فى اللّغة الرّاسخ هو اللازّم لا يزول عن حاله و ليس يكون كذلك إلاّ من طبعه اللّه على العلم فى ابتداء نشوه كعيسى عليه السّلام فى وقت ولادته قال: «إِنِّي عَبْدُ اللّهِ آتانِيَ الْكِتابَ » الآية، فأما من يبقى السنين الكثيرة لا يعلم ثمّ يطلب العلم فينا له من جهة غيره على قدر ما يجوز أن يناله منه فليس ذلك من الراسخين يقال: رسخت عروق الشجر فى الأرض و لا يرسخ إلاّ صغيرا انتهى.

و هذا هو الدّليل العقلى على اختصاص الرّسوخ لهم مضافا إلى الأدلّة الاخر لا نطول بذكرها.

و لمكان الاختصاص كذب المدّعين للاتصاف بالرسوخ و الزاعمين لاختصاصه بهم دونهم بقوله (كذبا و بغيا علينا) و حسدا لنا و علّة كذبهم و بغيهم (أن رفعنا اللّه و وضعهم) أى رفع اللّه درجاتنا فى الدّنيا و الآخرة على الكافّة و وضعهم.

كما يدلّ عليه قوله سبحانه: «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ » فقد روى فى غاية المرام من تفسير الثعلبى فى تفسير هذه الآية برفع الاسناد إلى أنس بن مالك قال: قرء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذه الآية فقام رجل فقال: يا رسول اللّه أىّ بيوت هذه؟ قال:

بيوت الأنبياء، فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول اللّه هذا البيت منها؟ يعنى بيت علىّ و فاطمة، قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: نعم من أفاضلها، و بمعناها روايات اخر عامية و خاصية.

(و أعطانا و حرمهم) أى آتانا النبوّة و الخلافة و الامامة و حرمهم هذه كما قال تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ »، قال أبو جعفر عليه السّلام فى المروى من بصائر الدرّجات: فنحن الناس المحسودون على ما آتانا اللّه من الامامة دون خلق اللّه جميعا.

و من مناقب ابن شهر آشوب و تفسير العياشى عن أبى سعيد المؤدب عن ابن عباس فى قوله «أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ » قال: نحن الناس

و فضله النبوة.

(و أدخلنا) فی عنایة الخاصّة (و أخرجهم) منها و من جملة تلک العنایة الخاصّة أنّه سبحانه أمر بسدّ الأبواب الشّارعة فی المسجد غیر باب أمیر المؤمنین علیه السّلام، روی الحموینی بسنده عن برید الأسلمی قال: أمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله بسدّ الأبواب فشقّ ذلک علی أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فلمّا بلغ ذلک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دعا الصّلاة جامعة حتّی إذا اجتمعوا صعد المنبر فلم یسمع لرسول اللّه تحمیدا و تعظیما فی خطبة مثل یومئذ فقال: یا أیّها النّاس ما أنا سددتها و لا أنا فتحتها، بل اللّه عزّ و جلّ سدّها، ثمّ قرء: «وَ النَّجْمِ إِذا هَوی ما ضَلَّ صاحِبُکُمْ وَ ما غَوی وَ ما یَنْطِقُ عَنِ الْهَوی إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْیٌ یُوحی »، و قال رجل: دع لی کوّة تکون فی المسجد فأبی و ترک باب علیّ صلوات اللّه علیه مفتوحا و کان یدخل و یخرج منه و هو جنب.

(بنا یستعطی الهدی) لأنّهم علیه السّلام الأعلام و المنار و نور الأنوار و شموس الضّیاء و کواکب الدّجی و نجوم الظّلماء، و الهداة لمن اهتدی فی الآخرة و الاولی علی ما مرّ تحقیقا و تفصیلا فی شرح الخطبة الرابعة.

(و یستجلی العمی) و هو استعارة وفاقیّة مرشّحة حیث استعیر العمی للضلالة بجامع عدم الاهتداء و قرن بما یلایم المستعار منه و هو الاستجلاء.

و قوله علیه السّلام (إنّ الأئمة من قریش) مأخوذ من الحدیث النّبوی المعروف بین الفریقین حسب ما تطلع علیه فی التنبیه الآتی، و هو مفید للحصر کما نبّه علیه العلامة التفتازانی فی باب تعریف المسند من شرح التلخیص حیث قال: إنّ المعرّف بلام الجنس إن جعل مبتدأ فهو المقصور علی الخبر سواء کان الخبر معرّفا بلام الجنس أو غیره، نحو الکرم هو التقوی أی لا غیرها، و الأمیر الشّجاع أی لا الجبان و الأمیر هذا أو زید أو غلام زید أو کان غیر معرّف أصلا نحو التوکل علی اللّه و التفویض إلی أمر اللّه و الکرم فی العرب و الامام من قریش لأنّ الجنس حینئذ یتّحد مع واحد ممّا یصدق علیه الخبر فلا یتحقّق بدون ذلک الواحد، لکن یمکن تحقّق واحد منه فی الجملة بدون ذلک الجنس فیلزم أن یکون الکرم مقصورا علی الاتّصاف بکونه

فى العرب، و لا يلزم أن يكون ما فى العرب مقصورا على الاتصاف بالكرم، و على هذا القياس.

قال المحقق الشريف فى وجه إفادته القصر لأنّ المعنى أنّ كلّ توكّل على اللّه و كلّ تفويض إلى أمر اللّه و كلّ كرم فى العرب فيلزم أن يكون الكرم مقصورا على الاتصاف بكونه فى العرب، لأنّ كلّ فرد منه موصوف بكونه فيهم فلا يوجد فرد منه فى غيرهم، و لا يلزم من ذلك أن يكون كلّ ما هو كائن فى العرب موصوفا بكونه كرما، لئلا يلزم قصر الخبر على المبتدأ انتهى.

فقد ظهر بذلك أنّه لاغبار على إفادته القصر و إن اختلف أنظارهم فى وجه إفادته له، و ليكن هذا على ذكر منك تتنبّه به على فساد أكثر ما ذهب إليه المعتزلة فى باب الامامة حسب ما حكاه الشّارح المعتزلى عنهم على ما تطلع عليه فى التنبيه الآتى إنشاء اللّه.

و قوله:(غرسوا فى هذا البطن) المعيّن (من هاشم) أراد به نفسه الشّريف مع الأحد عشر من ولده على ما هو مذهب أصحابنا الاماميّة المحقّة رضوان اللّه عليهم و قوله:(لا تصلح) أى الامامة المستفادة من سوق الكلام (على سواهم و لا تصلح الولاة من غيرهم) و هو تأكيد لما قد دلّ عليه القصر السّابق و اختصاص الامامة بالعترة الطاهرة أعنى الأئمة الاثنى عشر عليهم السّلام كما هو مدلول الفقرة الأخيرة.

و وجهه أنّ للولاية و الامامة خصائص بها يتأهل لها، و تلك الخصائص موجودة فيهم غير موجودة فى غيرهم، فلا تصلح إلاّ لهم عليهم السّلام كما تقدّم تحقيق ذلك و توضيحه فى شرح الفصل الخامس من الخطبة الثّانية فى معنى قوله: و لهم خصائص حقّ الولاية، و فيهم الوصيّة و الوراثة.

تنبيه

قال الشّارح المعتزلى فى شرح قوله: إنّ الائمة من قريش إلى آخر الفصل

ما لفظه: قد اختلف النّاس فى اشتراط النّسب فى الامامة.

فقال قوم من قدماء أصحابنا: النّسب ليس فيها شرطا أصلا و أنّها تصلح فى القرشىّ و غير القرشى إذا كان فاضلا مستجمعا للشّرائط المعتبرة و اجتمعت الكلمة و هو قول الخوارج.

و قال أكثر أصحابنا و أكثر النّاس: إنّ النّسب شرط فيها و إنّها لا تصلح إلاّ فى العرب خاصّة و من العرب فقريش خاصّة.

و قال أكثر أصحابنا: معنى قول النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: الأئمة من قريش أنّ القرشيّة شرط إذا وجد فى قريش من يصلح للامامة فان لم يكن فيها من يصلح فليست القرشيّة شرطا فيها.

و قال بعض أصحابنا. معنى الخبر أنّه لا يخلو قريش أبدا ممّن يصلح للامامة فأوجبوا بهذا الخبر وجود من يصلح من قريش لها فى كلّ عصر و زمان.

و قال معظم الزّيدية: إنّها فى الفاطميّين خاصة من الطالبيين لا تصلح فى غير البطنين و لا تصح إلاّ بشرط أن يقوم بها و يدعو إليها فاضل زاهد عالم عادل شجاع سائس و بعض الزيدية يجيز الامامة فى غير الفاطميّين من ولد علىّ و هو من أقوالهم الشاذّة.

و أما الراوندية فانهم خصّصوها بالعباس و ولده من بطون قريش كلّها و هو القول الذى ظهر فى أيام المنصور و المهدى.

و أما الامامية فانهم جعلوها سارية فى ولد الحسين عليه السّلام فى الأشخاص المخصوصين و لا تصحّ عندهم لغيرهم.

و جعلها الكيسانية فى محمّد بن الحنفية و ولده.

و منهم من نقلها منه إلى ولد غيره.

ثمّ قال الشارح: فان قلت: إنک شرحت هذا الكتاب على قواعد المعتزلة و اصولهم فما قولک فى هذا الكلام و هو تصريح بأنّ الامامة لا يصلح من قريش إلاّ فى بنى هاشم خاصة و ليس ذلک بمذهب المعتزلة لا متقدّميهم و لا متأخّريهم.

قلت: هـذا الموضع مشـكل ولى فيه نظر و إن صحّ أنّ عليا قاله كما قال لأنّه ثبت عندى أنّ النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله قال: إنّه مع الحقّ و إنّ الحقّ يـدور معه حيثما دار، و يمكن أن يتأوّل على مذهب المعتزلة فيحمل أنّ المراد به كمال الامامة كما حمل قوله صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا صلاة لجار المسجد إلاّ فى المسجد على نفى الكمال لا على نفى الصحّة، انتهى كلامه هبط مقامه.

أقول محصّل: ما حكاه الشّارح من الأقوال و أورده فى هذا المقام عن أصحابه المعتزلة و غيرهم عشرة.

أمّا القول الأوّل فيبطله قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: الأئمة من قريش لافادته القصر و اشتراطه النّسب حسب ما عرفت سابقا.

و أمّا القول الثانى فهو مسـلّم لكن لا على اطلاقه بل بتقييد القرشـى بالبطن المخصوص من هاشم أعنى عليا و ولده للأدلّة الآتية الدالة عليه مضافة إلى ما تقدّم من تصريح علىّ عليه السّلام به.

و أمّـا القول الثّـالث ففيه إنا قـدّمنا أنّ معنى النّبوى أنّه لا بـدّ أن يكون الامام من قريش، و عليه فلا معنى لقولهم فان لم يكن فيها من يصـلح فليست القرشـيّة شـرطا فيها، ضرورة أنه إذا لم تكن شرطا فيها على تقدير عدم وجود من يصلح لجاز أن يكون من غيرها لكنه باطل بمقتضى القصـر و لازمه أنه إذا فرض عدم وجود من يصلح من قريش لها أن لا يكون هناك امام أصلا على ما هو قضية الشرطية المستفادة من القصر لا وجوده من غير قريش على ما زعموا.

و أما القول الرّابع ففيه أنّ مفاد الخبر أنّ الامام لا بدّ أن يكون من قريش و أما أنّ قريشا لا بدّ أن يكون منهم فى كلّ عصـر و زمان من يصـلح للامامة فلا دلالة للخبر عليه باحدى من الدلالات، نعم قد قامت الأدلّة العقلية و النقلية على ما تقدّمت فى شرح الفصل الخامس عشر من الخطبة الاولى و فى غيره أيضا على أنّ الزّمان لا يخلو من حجّة، فيضمّ قوله: إنّ الأئمة من قريش إلى تلك الأدلّة يثبت أنّ قريشا لا تخلو من أن يكون منهم فى كلّ عصر إمام، نظير دلالة قوله سبحانه:

«وَ الْوالِداتُ يُرْضِ عْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ » بضـميمة قوله: «وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَ هْراً » على أنّ أقل مدّة الحمل سـتة أشهر إلاّ أنه دلالة تبعيّة غير مقصودة.

و أما القول الخامس فهو مسـلّم لكن لا فى مطلق الطالبى و الفاطمى، بل فى الأشـخاص المخصوصة أعنى الأئمة الاثنى عشـر، و ما ذكروه من الشـروط أعنى القيام و الدّعوة و السـياسة لـم يدلّ عليها دليل من الكتاب و السـنة، و عمدة شـروطها العصمة و النص و الأفضلية، و لها شرايط اخر مـذكورة فى الكتب الكلاميـة لأصـحابنا و أما القول السادس و السابع فشاذّان ضـعيفان لا يعبأ بهما مع قيام الأدلّة القاطعة على خلافهما.

و أما القول الثامن فهو المذهب الحقّ الذى أحقّ أن يدان و يتّبع، و عليه دلّت النصوص المعتبرة المتواترة.

و أما القول التاسع و العاشر فكالسادس و السابع ضعيفان أيضا، هذا.

و بقى الكلام مع الشارح فيما ذكره جوابا عن الاعتراض الـذى أورده على نفسه أعنى قوله قلت: هـذا الموضع مشـكل ولى فيه نظر إلى قوله: حيثما دار.

فأقول: هذا الجواب يسـتشمّ منه ميل الشارح إلى مذهـب الشـيّعة الاماميّة كما هو زعم بعض العامّة بل أكثرهم حيث ينسـبونه إلى التشيّع و يتبرّون منه إلاّ أنّ أكثر كلماته صـريحة فى اختياره مذهب الاعتزال حسب ما عرفتها و ستعرفها إنشاء اللّه فى تضاعيف الشرح على ما جرى عليه ديدننا و التزمنا به من حكاية كلّما وقع فيه منه خطاء و زلّة من كلامه و تعقيبه بالتنبيه على هفواته و آثامه.

ثمّ أقول: إنّ هـذا الموضع ليس محلّ اشـكال و لا نظر لأنّ صـحّة الرّواية لا غبار عليها فانّها و إن رواها السـيّد (ره) على نحو الارسال إلاّ أنّ مضـمونها معتضـد و موافق للاخبار النبويـة و غير النّبوية المعتبرة العاميّة و الخاصـيّة القطعيّة السّ ند حسب ما تعرف جملة منها عن قريب انشاء اللّه تعالى، و بالجملة فليس الدليل منحصـرا فى المقام فى هذه الرّواية حتّى يستشكل فى صحّتها، بل لنا على هذه الدّعوى أدلّة قاطعة متظافرة بل متواترة حسب ما تطلع عليها.

و أما قول الشارح و يمكن أن يتأوّل و يطبق على مذهب المعتزلة ففيه:

أولا إنّ الامامة منصب إلهى و ملك عظيم غير قابل للكمال و النّقصان و الشدّة و الضّعف، بل لها شروط و خصال بها يتأهّل لها، فحيث ما وجدت تلك الشّرائط وجدت، و حيث ما انتفت انتفت، فلا معنى لحمل قوله عليه السّلام: الأئمة من قريش، على الامامة الكاملة إذ ليس لنا إمامة ناقصة.

اللهمّ إلاّ أن يجعل المراد بالامام معناه اللّغوى أعنى مطلق المقتدى فحينئذ يصحّ توصيفه بالكمال و النّقصان، فيراد بالكامل الأئمة الّذين يهدون بالحقّ و به يعدلون، و بالنّاقص الأئمة الذين يدعون إلى النّار و هم للحقّ جاهدون، و على ذلك فيكون معنى قوله: الأئمة من قريش آه، المقتدين الكاملين يعنى أئمة الهدى من قريش غرسوا فى البطن المخصوص من هاشم، فلا ينافى وجود المقتدين الناقصين أعنى أئمة الضّلال من غير ذلك البطن.

لكن هذا المعنى مضافا إلى أنّه مجاز ممّا لا يلتزم به الشّارح، لأنّ غرضه من حمل الحديث على كمال الامامة، و من تمحّل ذلك التّأويل إنّما هو تصحيح مذهب المعتزلة و رفع تضادّ الحديث لذلك المذهب، فكيف يقرّ و يذعن بضلال أئمته و له أن يجيب عن ذلك و يقول إنّ المراد بالإمام الكامل الأفضل و الأجمع للخلال(1) الحميدة، و بالنّاقص من دون ذلك كما يؤمى إليه اعترافه وفاقا لأصحابه المعتزلى بأنّ عليّا أفضل من سائر الخلفاء على ما تقدّم تفصيلا حكاية عنه فى المقدّمة الثانية من مقدّمات الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية.

إلاّ أنّه يتوجّه عليه ما قدّمناه فى المقدّمة المذكورة فى المقصد الثّانى منها من أنّه بعد القول و الالتزام بأفضليّة أمير المؤمنين عليه السّلام لا يبقى لغيره إمامة و خلافة أصلا، لقبح ترجيح المرجوح على الراجح و غير الأفضل على الأفضل عقلا و شرعا فيبقى ايراد الذى أوردناه أعنى عدم كون الامامة قابلة للنّقصان على حالها.

1- (1) الظاهر الخصال يكون صحيحا و ان كان فى الاصل الخلال منه

و ثانيا إنّ بعـد الغضّ عمّا قلنا و المماشاة نقول: إنّ قوله: الأئمـة من قريش، جمع محلّى باللاّم و كذلک قوله، لا تصـلح الولاة من غيرهم، و الجمع المحلّى مفيد للعموم و حقيقة فى الاسـتغراق الحقيقى على ما قرّر فى الاصول و حملها على الأئمة و الولاة الكاملين يوجب صـرف الاستغراق إلى المجاز أعنى الاستغراق العرفى و الأصل فى الاستعمال الحقيقة.

لا يقال: لا نسـلّم كون اللاّم فى لفظ الأئمـة و الولاة للاسـتغراق، و إنّما هى للجنس كما صـرّح به العلامة التّفتازانى على ما حكيته عنه فيما تقدّم، و عليه فلا ينافى كون بعض أفراد الأئمة أعنى غير الكاملين من غير قريش.

لأنّى أقول: مراده من الجنس هو الاستغراق، لأنّه صـرّح فى بـاب تعريف المسـند إليه بكون الاسـتغراق قسـما من الجنس تبعـا لصاحب التلخيص، و يومى إلى ذلک أيضا ما قال المحقق الشريف: من أنّ معنى قولنا: التوكّل على اللّه و الكرم فى العرب، أنّ كلّ توكّل على اللّه، و كلّ كرم فى العرب، سـلّمنا و لكن نقول إنّ كون بعض أفراد الأئمة من غير قريش ينافى القصر المستفاد من الحديث على ما حقّقه المحقّقان المذكوران و قدّمنا حكايته عنهما فيما تقدّم.

هذا كلّه مضافا إلى وقوع التّصـريف «يح ظ» فى الأخبار النبويّة الآتية بالاستغراق الحقيقى و عدم احتمالها للتأويل لكونها نصّا فى العموم و هو مؤكّد لكون الاستغراق هنا أيضا حقيقيا.

و ثالثا انّ قياس الحديث على نحو لا صـلاة لجار المسجد و التمثيل به فاسد ضرورة أنّ لاء النّافية للجنس موضوعة لنفى الماهيّة و حقيقة فيه كما فى لا رجل فى الدّار، و اسـتعماله فى نفى صـفة من صفات الجنس كالصّحة و الكمال و نحوهما مجاز لا يصار إليه إلاّ بدليل، و قد قام الدّليل على إرادة المعنى المجازى نحو لا صـلاة لجار المسجد إلاّ فى المسجد، و لا طلاق إلاّ بشهود، و لا نكاح إلاّ بولىّ، و لا عتق إلاّ فى ملک، و ما ضاهاها، لعلمنا بأنّ الماهيّة موجودة فيها جزما، و إنما المنفىّ

صحّتها أو كمالها، و أما فيما نحن فيه فأصالة الحقيقة محكمة لم يقم دليل على خلافها، فلا وجه للتأويل بكمال الامامة على ما زعمه.

إذا عرفت ذلک فلنتصدّ لذکر الأخبار الدّالة على أنّ الأئمة کلّهم من قريش و أنّ الامامة مخصوصة بعليّ أمير المؤمنين عليه السّلام و ولده الأحد عشر، و هى کثيرة جدّا عاميّة و خاصيّة و نحن نوره طائفة منها من طريق العامّة لکونها أقلع لعذر الخصم و أبلغ حجّة، نرويها من کتاب غاية المرام للسيّد المحدّث العلاّمة السيّد هاشم البحرانى و هو أحد و عشرون حديثا.

الاول أبو عبد اللّه محمّد بن إسماعيل البخارى فى صحيحه عن عبد الملک قال:

سمعت جابر بن سمرة قال: سمعت النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: يکون بعدى اثنا عشر أميرا فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم کلمة لم أسمعها فسألت أبى ما ذا قال؟ قال: إنّه قال: کلّهم من قريش.

الثانى البخارى رفعه إلى ابن عيينة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا يزال أمر النّاس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا، ثمّ تکلّم بکلمة خفيت عليّ فسألت أبى ما ذا قال رسول اللّه؟ فقال: قال: کلّهم من قريش.

الثالث مسلم فى صحيحه مسندا عن حصين عن جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبى على النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسمعته يقول: إنّ هذا الأمر لا ينقضى حتّى يمضى فيه اثنا عشر خليفة، قال: ثمّ تکلّم بکلام خفى عليّ قال: فقلت لأبى ما قال؟ قال:

کلّهم من قريش.

الرابع مسلم فى صحيحه قال: حدّثنا ابن أبى عمر و قال: حدّثنا سفيان عن عبد الملک بن عمير عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: لا يزال أمر النّاس ماضيا ما وليّهم اثنى عشر رجلا ثمّ تکلّم النّبى بکلمة خفيت عليّ فسألت أبى ما ذا قال رسول اللّه؟ فقال: قال: کلّهم من قريش.

الخامس مسلم فى صحيحه قال: حدّثنا هذاب بن خالد الأزدى قال: حدّثنا حمّاد بن سلمة عن سماک بن حرب قال: سمعت جابر بن سمرة يقول: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: لا يزال الاسلام عزيزا الى اثنى عشر خليفة ثمّ قال کلمة

لم أفهمها فقلت لأبى ما قال؟ فقال: قال: كلّهم من قريش.

السادس مسلم فى صحيحه قال حدّثنا أحمد بن عثمان النّوفلى حدّثنا أزهر حدّثنا أحمد بن عون بن عثمان عن الشعبى عن جابر بن سمرة قال: انطلقت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و معى أبى فسمعته يقول: لا يزال هذا الدّين عزيزا منيعا إلى اثنى عشر خليفة فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كلمة أخفيها النّاس فقلت لأبى ما قال؟ قال: كلّهم من قريش السابع الحميدى فى الجمع بين الصحيحين قال: و فى رواية مسلم عن حديث عامر بن أبى وقاص قال: كتب إلىّ جابر بن سمرة مع غلامى نافع أن أخبرنى بشىء سمعته من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكتب إلىّ: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم جمعة عشيّة رجم الأسلمى قال: لا يزال الدّين قائما حتّى تقوم و يكون عليهم اثنى عشر خليفة كلّهم من قريش، الحديث.

قال السيّد البحرانى: بعد ايراد هذه الأخبار السّبعة و عشر روايات كلّها من طريق المخالفين عن جابر بن سمرة ما لفظه: أقول: قد ذكر يحيى بن الحسن البطريق فى كتاب المستدرک أنّه ذكر فى كتاب العمدة من طريق العامّة عشرين طريقا فى أنّ الخلفاء بعده إثنا عشر خليفة كلّها من الصّحاح من صحيح البخارى ثلاثة طرق، و من مسلم تسعة، و من صحيح أبى داود ثلاثة، و فى الجمع بين الصحاح الستة طريقين، و منها من الجمع بين الصحيحين للحميدى ثلاثة كلّها ينطق بأنه لا يزال الاسلام عزيزا إلى اثنى عشر خليفة و ماوليهم اثنى عشر خليفة كلّهم من قريش الثامن أبو على الطبرسى الفضل بن الحسن فى كتاب اعلام الورى من طريق المخالفين و هو عدّة روايات منها ما رواه عن أبى سلمة القاضى قال: أخبرنا أبو القاسم القسوى «أبو العباس النسوى خ» حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا حاتم بن إسماعيل عن المهاجر بن مسمار عن عامر بن سعد بن أبى وقاص قال: كتبت إلى جابر بن سمرة مع غلامى نافع أن أخبرنى بشىء سمعته عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكتب إلىّ أنى سمعت رسول اللّه يوم جمعة عشية رجم الأسلمى يقول: لا يزال الدّين قائما حتى تقوم الساعة و يكون عليكم اثنى عشر خليفة كلّهم من قريش و سمعته يقول. أنا

الفرط على الحوض.

التاسع ما رواه من طريق المخالفين الشيخ أبو عبد اللّه محمّد بن محمّد بن النعمان المفيد عن محمّد بن عثمان الذهبى حدّثنا عبد اللّه بن جعفر الرّقى قال: حدّثنا عيسى ابن يونس عن مجالد عن الشعبى عن مسروق قال: كنّا عند عبد اللّه بن مسعود فقال له رجل: أحدّثكم بنبيّكم كم يكون بعده من الخلفاء؟ فقال له: نعم من الخلفاء عدّة نقباء موسى اثنى عشر خليفة كلّهم من قريش.

العاشر ما رواه حمّاد بن زيد عن مجالد عن الشّعبى عن مسروق عن عبد اللّه ابن مسعود و زاد فيه قال: كنّا جلوسا إلى عبد اللّه يقرينا القرآن، فقال له رجل:

يا عبد الرّحمن هل سألتم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كم يملك أمر هذه الأمّة خليفة بعده فقال له عبد اللّه: ما سألنى بها أحد منذ قدمت العراق، نعم سألنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: اثنى عشر عدّة نقباء بنى اسرائيل.

الحادى عشر ما رواه عبد اللّه بن أبى اميّة مولى مجامع عن يزيد الرّفاشى عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لم يزل هذا الدّين قائما إلى اثنى عشر من قريش فاذا مضوا هاجت الأرض بأهلها.

الثانى عشر ما رواه سليمان بن أحمر قال: حدّثنا أبو عون عن الشّعبى عن جابر بن سمرة أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: لا يزال أهل هذا الدّين ينصرون على من ناداهم الى اثنى عشر خليفة فجعل الناس يقومون و يقعدون، و تكلّم بكلمة لم أفهمها فقلت لأبى أو لأخى: أىّ شىء قال؟ قال: كلّهم من قريش.

الثالث عشر ما رواه قطر بن خليفة عن أبى خالد الوالبى عن جابر بن سمرة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مثله.

الرابع عشر ما رواه سهل بن حماد عن يونس بن أبى يعفور قال: حدّثنى عون بن أبى جحيفة عن أبيه قال: كنت عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عمّى جالس بين يدى فقال

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله لا يزال أمر امّتى صالحا حتّى يمضى اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش اسم أبى جحيفة وهب بن عبد اللّه.

الخامس عشر ما رواه الليث بن سعد عن خالد بن زيد عن سعد بن أبى هلال عن ربيعة بن سيف قال: كنّا عند شقيق الأصبحى فقال: سمعت عبد اللّه بن عمر يقول: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: يكون خلفى اثنى عشر خليفة.

السادس عشر ما رواه الشيخ أبو عبد اللّه جعفر بن محمّد بن أحمد الدورستى فى كتابه فى الرّد على الزّيدية قال: أخبر أبى قال: أخبرنا الشيخ أبو جعفر بن بابويه قال: حدّثنا محمّد بن علىّ ماجيلويه عن عمّه عن أحمد بن أبى عبد اللّه عن أبيه عن خلف بن حماد الأسدى عن الأعمش عن عباية بن ربعى عن ابن عباس قال:

سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله حين حضرته وفاته فقلت إذا كان ما نعوذ باللّه منه فإلى من؟ فأشار إلى علىّ عليه السّلام فقال: هذا، فانّه مع الحقّ و الحقّ معه ثمّ يكون بعده أحد عشر إماما مفترضة طاعتهم كطاعته.

السابع عشر الدورستى أيضا قال: أخبرنا أبو عبد اللّه محمّد بن وهبان قال: حدّثنا أبو بشر أحمد بن إبراهيم بن أحمد قال: أخبرنا محمّد بن زكريّا بن دينار العلائى حدّثنا سليمان بن إسحاق عن سليمان بن عبد اللّه بن العبّاس قال: حدّثنى أبى قال: كنت يوما عند الرّشيد فذكر المهدى و ما ذكر من عدله فأطنب من ذلك فقال للرّشيد: إنّى أحسبكم أنكم تحسبونه أبا المهدى حدثنى أبى عن أبيه عن جدّه عن ابن عبّاس عن أبيه العباس بن عبد المطلب أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: يا عم تملك من ولدى اثنى عشر خليفة ثمّ يكون امور كريهة و شدّة عظيمة ثمّ يخرج المهدى من ولدى يصلح اللّه أمره فى ليلة فيملاء الأرض عدلا كما ملئت جورا يمكث فى الأرض ما شاء اللّه ثمّ يخرج الدّجال.

قال أبو علىّ الطبرسى عقيب هذه الأخبار و ما بمعناها ممّا لم نوردها: هذا بعض ما جاء من الأخبار من طريق المخالفين و رواياتهم فى النّص على عدد الأئمة الاثنى عشر عليهم السّلام و إذا كانت الفرقة المخالفة قد نقلت ذلک كما نقلته الشّيعة

الاماميّة و لم ينكر ما تضـمّنه الخبر فهو أدّل دليل على أنّ اللّه تعالى هو الذى سـخّر لروايته اقامة لحجّته و إعلاء لكلمته و ما هذا الأمر إلاّ كالخارق للعادة و الخارج عن الامور المعتادة، و لا يقدر عليها إلاّ اللّه تعالى الذى يذلّل الصّعب و يقلّب القلب و يسهّل له العسير و هو على كلّ شىء قدير انتهى.

الثامن عشر صـدر الأئمـة أخطب خوارزم أبو المؤيـد موفق بن أحمد فى كتاب فضائل أمير المؤمنين قال: حدّثنا فخر القضاة نجم الدّين أبو منصور محمّد بن الحسين بن محمّد البغدادى فيما كتب إلىّ من همدان، قال: أنبأنا الامام الشّريف نور الهدى أبو طالب الحسن بن محمّد الزّينى قـال: أخبرنا إمام الأئمـة أحمـد بن محمّد بن شاذان قال: حـدّثنا أحمـد بن محمّد بن عبـد اللّه الحافظ قال: حـدّثنا علىّ بن سـنان الموصـلى عن أحمد بن محمّد بن صالح عن سلمان بن محمّد عن زيد بن مسلم عن زياد بن محمّد عن عبد الرّحمن بن يزيد عن جابر عن سلامة عن أبى سـليمان الرّاعى راعى رسول اللّه قال: سـمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: ليلة اسرى بى إلى السّماء قال لى الجليل جلّ جلاله. آمن الرّسول بما انزل اليه من ربّه فقلت: و المؤمنون، فقال: صـدقت يا محمّد من خلّفت فى امّتک؟ فقلت: خيرها، قال: علىّ بن أبى طالب؟ قلت: نعم يا ربّ قال: يا أحمدانىّ اطلعت على الأرض اطلاعة فاخترتک منها فاشـتققت لک اسما من اسمائى فلا اذكر فى موضع إلاّ ذكرت معى فأنا المحمود و أنت محمّد، ثمّ اطلعت الثانية فاخترت منها عليّا فشـققت له اسـما من أسـمائى فأنا الأعلى و هو علىّ، يا محمّد إنّى خلقتک و خلقت عليّا و فاطمـة و الحسن و الحسـين و الأئمـة من ولده من نور من نورى، و عرضت ولايتكم على أهل السّماوات و الأرضـين، فمن قبلها كان عنـدى من المؤمنين، و من جحدها كان عندى من الكافرين، يا محمّد لو أنّ عبدا من عبادى عبدنى حتّى ينقطع أو يصير كـالشنّ البالى، ثمّ أتانى جاحـدا لولايتكم ما غفرت له حتّى يلقانى بولايتكم، يا محمّد تحبّ أن تراهم؟ قلت: نعم يا ربّ، قال: فالتفت عن يمين العرش، فالتفتّ فاذا بعلىّ و فاطمة و الحسن و الحسين و علىّ بن الحسين و محمّد بن علىّ و جعفر بن محمّد و موسى بن جعفر و علىّ بن موسى و محمّد بن علىّ و علىّ

ابن محمّد و الحسن بن علیّ و المهدی فی ضحضاح من نور قیام یصلّون، و هو فی وسطهم یعنی المهدی کأنّه کوکب درّیّ، و قال: یا محمّد هولاء الحجج و هذا الثّائر من عترتک و عزّتی و جلالی انّه الحجّة الواجبة و المنتقم.

قال السیّد المحدّث البحرانی: روی هذا الحدیث جماعة من الخاصّة و العامّة: رواه الشّیخ الطوسی فی الغیبة و أبو الحسن محمّد بن أحمد بن الحسن بن شاذان فی المناقب المأة من طریق العامّة، و رواه صاحب المقتضب و صاحب الکنز الخفی و الحموینی من العامّة التاسع عشر إبراهیم بن محمّد الحموینی من أعیان علماء العامّة فی کتاب فرائد السمطین فی فضائل المرتضی و فاطمة و الحسن و الحسین بسنده عن سعید بن جبیر عن عبد اللّه بن العبّاس قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إنّ خلفائی و أوصیائی و حجج اللّه علی الخلق بعدی الاثنی عشر أوّلهم أخی و آخرهم ولدی، قیل:

یا رسول اللّه و من أخوک؟ قال: علیّ بن أبی طالب، قیل: فمن ولدک؟ قال: المهدی الذی یملاءها قسطا و عدلا کما ملئت جورا و ظلما، و الّذی بعثنی بالحقّ بشیرا لو لم یبق من الدّنیا إلاّ یوم واحد لطوّل اللّه ذلک الیوم حتّی یخرج فیه ولدی المهدی فینزل فیه روح اللّه عیسی بن مریم فیصلّی خلفه و تشرق الأرض بنور ربّها و یبلغ سلطانه المشرق و المغرب.

العشرون الحموینی هذا بالاسناد إلی ابن بابویه قال: حدّثنا أحمد بن الحسن القطان قال: حدّثنا أحمد بن یحیی بن زکریّا القطان قال حدّثنا بکر بن عبد اللّه بن حبیب قال: حدّثنا الفضل بن الصّقر العبدی قال: حدّثنا أبو معاویة عن الأعمش عن عبایة بن ربعی عن عبد اللّه بن عبّاس قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنا سیّد النّبیین و علیّ بن أبی طالب سیّد الوصیّین و إنّ أوصیائی بعدی اثنی عشر أوّلهم علیّ بن أبی طالب و آخرهم القائم.

الحادی و العشرون محمّد بن أحمد بن شاذان أبو الحسن الفقیه فی المناقب المأة و الفضائل لأمیر المؤمنین و الأئمة من طریق العامة عن سلمان المحدّی قال:

دخلت على النّبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذا الحسین بن علیّ علی فخذه و هو یقبّل عینیه و یلثم فاه و هو یقول: أنت سیّد و ابن سیّد و أبو السّادات أنت إمام ابن إمام أبو الأئمة، أنت حجّة ابن حجّة أبو الحجج تسعة من صلبک تاسعهم قائمهم.

و الأخبار فی هذا المعنی کثیرة لا تستقصی و فیما ذکرناه کفایة فی هذا الباب و من أراد الزیادة فعلیه بکتاب غایة المرام، و قد عقد السیّد المحدّث البحرانی فیه با بین علی هذا المعنی قال: الباب الرابع و العشرون فی أنّ الأئمة بعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اثنی عشر بنصّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله إجمالا و تفصیلا: علیّ و بنوه الأحد عشر من طریق العامة و فیه ثمانیة و خمسون حدیثا، ثمّ أورد الرّوایات العامیّة فقال: الباب الخامس و العشرون فی أنّ الأئمة بعد رسول اللّه اثنی عشر إجمالا و تفصیلاهم: علیّ بن أبی طالب و بنوه الأحد عشر من طریق الخاصّة و فیه خمسون حدیثا ثمّ روی الأحادیث الخاصیّة و اللّه الهادی إلی سواء السّبیل.

الترجمة

از جملۀ خطب شریفۀ آن امام مبین و ولیّ ربّ العالمین است که متضمّن فائده بعثت پیغمبران عالیمقدار و اظهار مناقب عترت رسول مختار و أهل بیت اطهار است چنانچه فرموده:

مبعوث فرمود حق سبحانه و تعالی پیغمبران خود را بآن چه که مخصوص ساخت ایشان را از وحی خود، و گردانید ایشان را حجّة واضحه از برای خود بر مخلوقات خود تا این که واجب نشود حجّت مر ایشان را بسبب ترک تخویف و ترساندن ایشان، پس خواند ایشان را بزبان راست که دعوت أنبیاء است بسوی راه درست که طریق شریعت غرّا است، آگاه باشید بدرستی که خداوند آشکارا ساخت خلق را آشکار ساختنی نه از جهة این که جاهل بود به آن چه مخفی داشته اند از أسرار محفوظه و مکنونات قلوب ایشان، و لیکن از جهة این که امتحان نماید ایشان را تا کدام یک از ایشان بهترند از حیث عمل تا باشد ثواب جزای حساب و عقاب

ص:36

پاداش سيئات.

كجايند كسانى كه دعوى باطل كردند كه ايشان راسخان در علمند نه ما از روى دروغ و ظلم بر ما بجهة اين كه خداوند رتبهٔ ما را بلند فرموده و پست كرد ايشان را، و عطا نمود بما منصب امامت و خلافت را و محروم كرد ايشان را، و داخل نمود ما را در عنايت خاصّه خود و خارج كرد ايشان را، بوجود ما خواسته مى شود هدايت، و طلب روشنى مى شود از كورى و ضلالت، بدرستى كه امامان از طائفهٔ قريش اند كاشته شدند در اين بطن معيّن از هاشم بن عبد مناف يعنى در ذرّيه علويّه صلاحيت ندارد امامت بر غير ايشان و صلاحيت ندارند واليان از غير ايشان.

الفصل الثانى

اشارة

منها: آثروا عاجلا، و أخّروا آجلا و تركوا صافيا و شربوا آجنا، كأنّى أنظر إلى فاسقهم و قد صحب المنكر فألفه، و بسأ به و وافقه، حتّى شابت عليه مفارقه و صبغت به خلائقه، ثمّ أقبل مزبدا كالتّيّار لا يبالى ما غرق، أو كوقع النّار فى الهشيم لا يحفل ما حرق، أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى، و الأبصار اللاّمحة إلى منار التّقوى، أين القلوب الّتى وهبت للّه، و عوقدت على طاعة اللّه؟ ازدحموا على الحطام، و تشاحّوا على الحرام، و رفع لهم علم الجنّة و النّار، فصرفوا عن الجنّة وجوههم، و أقبلوا على النّار بأعمالهم، و دعاهم ربّهم فنفروا و ولّوا، و دعاهم الشّيطان فأطاعوا و أقبلوا

ص:37

اللغة

(الآجن) المـاء المتغيّر الطّعم و اللّون و (بسـأ) به كجعل و فرح بسـئا و بسـئا و بسوءا أنس و (المفارق) جمع المفرق و زان مجلس و مقعد وسط الرأس، و هو الذى يفرق فيه الشـعر و (الخلائق) جمع الخليقة أى الطبيعة و (أزبد) البحر أى صار ذا زبد و رجل مزبد أى ذو زبد و هو ما يخرج من الفم كالرغوة و (التّيّار) مشدّدة موج البحر و (الهشـيم) النّبت اليابس المتكسر أو يابس كلّ كلاء و (حفل) الماء يحفل من باب ضرب حفلاـ و حفولا اجتمع، و قال الشّارح المعتزلى لا يحفل أى لا يبالى و (المستصـبحة) فى بعض النّسـخ بتقـديم الحاء على الباء من الاستصحاب و فى بعضها بالعكس كما ضبطناه من الاستصباح و هو الأوفق.

الاعراب

ما فى قوله: ما غرق، موصول فى محلّ النّصب أى لا يبالى ممّا غرق، و كذلک فى قوله ما حرق إن كان يحفل بمعنى يبالى كما فسّره الشارح و إن كان بمعنى يجتمع كما فى القاموس فما فى محلّ الرّفع فاعل له و هو ظاهر.

المعنى

اشارة

اعلم أنّ هذا الفصل وارد فى معرض التّوبيخ و التّقريع لطائفة غير مرضيّة الطريقة.

فقال بعض الشّارحين: إنّه عنى بذلک الصّحابة الذين مضى ذكرهم فى الفصل السّابق يعنى الّذين زعموا أنّهم الرّاسخون فى العلم.

و قال بعضهم: إنّ المراد به بنو اميّة.

و قـال الشّارح البحرانى: أراد بـذلک من تخلّف من النّاس إلى زمانه ممّن هو غير مرضـىّ الطريقـة و إن كان معـدودا من الصّـحابة بالظاهر كالمغيرة بن شعبة و عمرو بن العاص و مروان بن الحكم و معاوية و نحوهم من امراء بنى اميّة، و يقرب منه

كلام الشّارح المعتزلى و ستطلع عليه.

و كيف كان فقوله (آثروا عاجلا و أخّروا آجلا) أراد به أنّهم اختاروا الدّنيا على الآخرة و قدّموها عليها و أخّروها عنها و ذلك لكون شهواتها حاضرة معجّلة و لذاتها غائبة مؤجّلة(و تركوا صافيا و شربوا آجنا)أى تركوا اللّذات الاخرويّة الصّافية من الكدورات و العلائق البدنيّة، و استلذّوا باللذات الدّنيوية المشوبة بالآلام و الاسقام فاستعار لفظ الآجن للذّاتها و الجامع عدم السّوغ أو عدم الصّفاء فيها كما أنّ الماء المتغيّر الطّعم و اللّون لا يسوغ و لا يصفى و ذكر الشّرب ترشيح.

(كأنّى أنظر إلى فاسقهم) قال الشارح البحرانى: يحتمل أن يريد فاسقا معيّنا كعبد الملك بن مروان، و يكون الضّمير عائد إلى بنى اميّة و من تابعهم، و يحتمل أن يكون مطلق الفاسق أى من يفسق من هؤلاء فيما بعده و يكون بالصّفات الّتى أشار إليها بقوله (و قد صحب المنكر فألفه) أى أخذه الفا له (و بسأ به و وافقه) أى استأنس به و وجده موافقا لطبعه(حتّى شابت عليه مفارقه)و هو كناية عن طول عهده بالمنكر إلى أن بلغ عمره غايته، لأنّ شيب المفارق عبارة عن بياضها و هو إنّما يكون إذا بلغ الشّيوخيّة و لتأخر شيب المفرق عن شيب الصّدغ و تأكّد دلالته على طول العهد خصّصه بالذّكر(و صبغت به خلائقه)أى صارت طبائعه مصبوغة ملوّنة بالمنكر أى صار المنكر خلقا له و سجيّة، فاستعار لفظ الصبغ لرسوخ المنكر فى جبلته لشدّة ملازمته له.

(ثمّ أقبل مزبدا كالتيّار) شبّهه بالبحر الموّاج و رشح التشبيه بذكر لفظ الازباد و وجه الشبه أنّه عند الغضب لا يبالى بما يفعله فى النّاس من المنكرات كما(لا يبالى)البحر ب(ما غرق) و شبّهه اخرى بالنّار المضرمة الملتهبة فقال (أو كوقع النّار فى الهشيم)يعنى أنّ حركاته فى الظّلامات مثل وقع النّار فى النّبت اليابس و الدّقاق من الحطب و وجه الشّبّه أنّه(لا يحفل)و لا يبالى بظلمه

كما لا يحفل وقع النّار و لا يبالى ب(ما حرق)(1) أو انّ ما أفسده لا يرجى اصلاحه كما أنّ ما حرقه النّار لا يمكن اجتماعه.

ثمّ استفهم على سبيل الأسف و التحسّر فقال(أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى)استعار لفظ المصابيح لأولياء الدّين و أئمّة اليقين المقتبس عنهم نور الهداية و رشّح بذكر لفظ الاستصباح، و يجوز أن يكون استعارة لأحكام الشّرع المبين الموصلة لآخذها و السّالكة بعاملها إلى حظيرة القدس.

و مثله لفظ المنار فى قوله(و الأبصار اللامحة إلى منار التقوى)إذ أئمة الهدى أعلام التّقى بهم يهتدى فى ظلمات الضّلال و غياهب الدّجى و كذلك بأحكام سيّد الأنام و الانقياد بها يهتدى إلى نهج الحقّ و سواء الطريق الذى يؤمن لسلوكها و يتقى من النّار و ينجى من غضب الجبّار جلّ و تعالى.

ثمّ استفهم اخرى بقوله (أين القلوب الّتى وهبت للّه) أى وهبها أهلها للّه سبحانه و المراد بهبتها له جعلها مستغرقة فى مطالعة أنوار كبريائه و التوجّه إلى كعبة وجوب وجوده و هى القلوب الّتى صارت عرش الرّحمن و اشير اليها فى الحديث القدسى لا يسعنى أرضى و لا سمائى و لكن يسعنى قلب عبدى المؤمن.

(و عوقدت على طاعة اللّه) أى أخذ اللّه عليهم العهد بطاعته إمّا فى عالم الميثاق أو بألسنة الأنبياء و الرّسل و إليه اشير فى قوله سبحانه: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً » ثمّ رجع إلى ذمّ الفرقة المتقدّمة المصدّرة بهذا الفصل فقال(ازدحموا على الحطام)أى تزاحموا على متاع الدّنيا و استعار له لفظ الحطامالموضوع لليابس من النّبت المتكسّر لسرعة فنائه و فساده (و تشاحّوا على الحرام) أى تنازعوا عليه لأنّ غرض كلّ منهم جذبه اليه (و رفع لهم علم الجنّة و النّار) قال الشّارح البحرانى: أشار بعلم الجنّة إلى قانون الشريعة القائد إلى الجنّة و بعلم النّار إلى

1- (1) هذا مبنىّ على جعل يحفل بمعنى يجتمع كما أنّ الأول مبنىّ على جعله بمعنى يبالى على ما مضى سابقا، منه ره

الوساوس المزينة لقنيات الدّنيا، و العلم الأوّل بيد الدّعاة إلى اللّه و هم الرّسول و من بعده من أولياء اللّه من أهل بيته و التّابعين لهم باحسان، و العلم الثّانى بيد ابليس و جنوده من شياطين الجنّ و الانس الدّاعين إلى النار.

(فصرفوا عن الجنّة وجوههم) و أعرضوا عنها (و أقبلوا إلى النار بأعمالهم) القبيحة الموصلة إليها (و دعاهم ربّهم فنفروا) و استكبروا (و ولّوا و دعاهم الشيطان فأطاعوا و أقبلوا) و استجابوا.

تنبيه

قال الشارح المعتزلى فى شرح هذا الفصل:

فان قلت: هذا الكلام يرجع إلى الصّحابة الذين مضى ذكرهم فى أوّل الخطبة.

قلت: لا و إن زعم قوم أنّه عناهم، بل هو إشارة إلى قوم ممّن يأتى من الخلف بعد السّلف، ألا تراه قال: كأنّى أنظر إلى فاسقهم و قد صحب المنكر فألفه، و هذا اللّفظ إنّما يقال فى حقّ من لم يوجد بعد كما قال فى حقّ الأتراك:

كأنّى أنظر اليهم قوما كأنّ وجوههم المجان، و كما قال فى حقّ صاحب الزّنج كأنى به يا أحنف و قد سار بالجيش، و كما قال فى الخطبة التّى ذكرناها آنفا كأنى به قد نعق بالشّام، يعنى به عبد الملک.

و حوشى عليه السّلام أن يعنى بهذا الكلام الصّحابة لأنّهم ما آثروا العاجل، و لا أخّروا الآجل، و لاصحبوا المنكر، و لا أقبلوا كالتيّار لا يبالى ما غرق، و لا كالنار لا يبالى ما احترقت، و لا ازدحموا على الحطام، و لا تشاحّوا على الحرام، و لا صرفوا وجوههم عن الجنّة، و لا أقبلوا إلى النّار بأعمالهم، و لا دعاهم الرّحمن فولّوا، و لا دعاهم الشيطان فاستجابوا، و قد علم كلّ أحد حسن سيرتهم و سداد طريقتهم و إعراضهم عن الدّنيا و قد ملكوها، و زهدهم فيها و قد تمكّنوا منها، و لو لا قوله: كأنّى أنظر الى فاسقهم، لم أبعد أن يغنى بذلک قوما ممّن عليهم اسم الصّحابة و هو ردّى الطريقة كالمغيرة بن شعبة، و عمرو بن العاص، و مروان بن الحكم، و معاوية،

و جماعة معدودة أحبّوا الدّنيا و استغواهم الشّيطان، و هم معدودون فى كتب أصحابنا من اشتغل بعلوم السيرة و التواريخ عرفهم بأعيانهم انتهى كلامه.

أقول: و لا يبعد عندى أن يعنى عليه السّلام به المتقدّمين ذكرهم فى أوّل الخطبة و استبعاد الشارح له بظهور لفظ كأنّى أنظر فى حقّ من لم يوجد بعد لا وجه له، لا مكان أن يقال: إنّ نظره فى الاتيان بهذا اللّفظ إلى الغاية أعنى قوله: حتى شابت عليه مفارقه، و بعبارة اخرى سلّمنا ظهور هذا اللفظ فى حقّ ما لم يوجد إلاّ أنّ مراده عليه السّلام به ليس نفس الفاسق حتّى يقال إنه كان موجودا فى زمانه عليه السّلام، و إنّما مراده بذلك الاخبار عن استمرار الفاسق فى فسقه و تماديه فى المنكرات الى آخر عمره، و هذا الوصف للفاسق لم يكن موجودا، فحسن التعبير بهذه اللفظة فافهم جيدا و أما استيحاشه من أن يعنى به الصحابة بأنهم ما آثروا العاجل إلى آخر ما ذكره فهو أوضح فسادا لأنّه لو لا اختيارهم الدّنيا على الاخرى لم يعدلوا عن امام الورى، فعدو لهم عنه دليل على أنهم اشتروا الضلالة بالهدى، و آثروا العاجل، و أخّروا الآجل و قد تركوا الشرب من الماء المعين، و منهل علوم ربّ العالمين، و استبدّوا بعقولهم الكاسدة، و ارتووا من آرائهم اللاّجنة الفاسدة، و مصاحبتهم جميعا للمنكر بالبدعات التى أحدثوها واضحة، و اقبال فاسقهم كالتيار و النار لا يبالى مما غرق و حرق لا غبار عليه و ما فعل عثمان من ضرب ابن مسعود و كسر بعض أضلاعه، و ضرب عمار و إحداث الفتق فيه، و ضربه لأبى ذرّ و إخراجه إلى الرّبذة و نحوها مما تقدّم ذكرها فى شرح الكلام الثالث و الأربعين و غيره شاهد صدق على ما قلناه.

و كذلك اجتماعه مع «بنى ظ» أبيه إلى الحطام و مشاحتهم على الحرام و حضمهم لمال اللّه خضم الابل نبته الرّبيع على ما تقدّم فى شرح الخطبة الثالثة أوضح دليل على ما ذكرنا فبعدولهم جميعا عن اللّه و عن وليّه صرفوا وجوههم عن الجنّة، و أقبلوا بأعمالهم إلى النار، فاستحقّوا الخزى العظيم و العذاب الأليم فى أسفل درك من الجحيم.

ص:42

الترجمة

بعض دیگر از این خطبه در ذمّ و توبیخ طائفه غیر مرضیّه از غاصبین خلافت و بنی امیه و أمثال ایشان می فرماید که:

اختیـار کردنـد ایشان متاع دنیای ناپایـدار را، و تأخیر انداختنـد امورات دار القرار را، و ترک کردنـد زلال صافی را، و آشامیدنـد از آب متغیر گندیده، گویا من نظر میکنم بسوی فاسق ایشان در حالتی که مصاحب شده است با قبایح و منکرات و الفت گرفته به آنها و استیناس یافته به آنها و موافق طبع خود یافته آنها را تا آنکه عمر او بپایان رسید، و سفید شده میانهای سر او و رنگ گرفته به آنها طبیعتهای او.

پس از آن رو آورد در حالتی که کف بر آورده مثل دریای موج دار اصـلا باک ندارد از آنچه غرق گرداند، یا مثل افتادن آتش در گیاه خشـک که هیـچ باک نمی کنـد از آنچه که سوزاند، کجایند عقلهای چراغ بر افروزنده بچراغهای هدایت، و چشـمهای نظر کنندهٔ به نشانهای تقوی، کجاینـد قلبهایی که بخشـیده شـده اند بخدا، و بسـته شدند بر طاعت خدا، ازدحام کردند آن طایفهٔ بد کردار بر متاع دنیای بی اعتبار، و نزاع کردنـد بـا یکـدیگر در بالای حرام، و بلنـد شـد از برای ایشان علم بهشت و جهنم، پس گردانیدنـد از بهشت روهای خود را، و اقبال کردند بسوی دوزخ باعملهای خود، و دعوت کرد ایشان را پروردگار ایشان بعبادت و اطاعت پس رمیدنـد و اعراض نمودند، و دعوت کرد ایشان را شیطان لعین بسوی قبائح پس قبول کردند و اقبال نمودند.

و من خطبة له علیه السّلام و هی المأة و الخامسة

اشارة

و الأربعون من المختار فی باب الخطب

أیّها النّاس، إنّما أنتم فی هذه الدّنیا غرض تنتضل فیه المنایا،

ص:43

مع كلّ جرعة شرق، و فى كلّ أكلة غصص، لا تنالون منها نعمة إلاّ بفراق أخرى، و لا يعمر معمّر منكم يوما من عمره إلاّ بهدم آخر من أجله، و لا تجدّد له زيادة فى أكله إلاّ بنفاد ما قبلها من رزقه، و لا يحيى له أثر إلاّ مات له أثر، و لا يتجدّد له جديد إلاّ بعد أن يخلق جديد، و لا تقوم له نابتة إلاّ و تسقط منه محصودة، و قد مضت أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله منها و ما أحدثت بدعة إلاّ ترك بها سنّة، فاتّقوا البدع، و ألزموا المهيع، إنّ عوازم الامور أفضلها، و إنّ محدثاتها شرارها

اللغة

(الغرض) ما ينصب للرّمى و هو الهدف و (ناضلته) مناضلة و نضالا راميته فنضلته نضلا من باب قتل غلبته فى الرمى، و تناضل القوم و انتضلوا تراموا للسّبق و (الشّرق) محرّكة مصدر من شرق فلان بريقه من باب تعب غصّ و (الغصص) محرّكة أيضا مصدر من غصصت بالطّعام كتعب أيضا، قال الشارح المعتزلى:

و روى غصص جمع غصّة و هى الشجى و (المهيع) من الطّريق وزان مقعد الواضح البيّن.

و (العوازم) جمع العوزم و هى النّاقة المسنّة و العجوز قال الشارح المعتزلى:

عوازم الامور ما تقادم منها، من قولهم: عجوز عوزم، أى مسنّة، و يجمع فوعل على فواعل كدورق و هو جلّ و يجوز أن يكون جمع عازمة و يكون فاعل بمعنى مفعول

أى معزوم عليها أى مقطوع معلوم بيقين صحّتها، و يجىء فاعلة بمعنى مفعولة كثيرا كقولهم: عيشة راضية بمعنى مرضيّة، ثمّ قال: و الأوّل أظهر عندى، لأنّ فى مقابلته قوله: و انّ محدثاتها شرارها، و المحدث فى مقابلة القديم.

الاعراب

قوله: فما بقاء فرع، الفاء فصيحة و الاستفهام إمّا للتّعجب كما فى قوله تعالى:

«ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ » أو للتحقير.

المعنى

اعلم أنّ مقصوده بهذه الخطبة التنفير عن الدّنيا و الترغيب عنها بالتنبيه على معايبها و مثالبها المنفرة منها فقوله(أيّها النّاس انما أنتم فى هذه الدّنيا غرض)من باب التشبيه البليغ و رشّح التشبيه بقوله(تنتضل فيه المنايا)و هى استعارة بالكناية حيث شبّه المنايا بالمتناضلين بالسّهام باعتبار قصدها للانسان كقصد المتناضلين للهدف، و ذكر الانتضال تخييل، و المعنى أنكم فى هذه الدّنيا بمنزلة هدف تترامى فيه المنايا بسهامها، و سهامها هى الأعراض و الأمراض، و جمع المنايا إما باعتبار تعدّد الأسباب من الغرق و الحرق و التردّى فى بئر و السّقوط من حائط و نحوها، و إمّا باعتبار تعدّد من تعرض عليه و كثرة أفراد الأموات، و لكلّ نفس موت مخصّص بها.

(مع كلّ جرعة شرق و فى كلّ اكلة غصص) قال الشّارح البحرانى: كنّى بالجرعة و الاكلة عن لذّات الدّنيا، و بالشرق و الغصص عما فى كلّ منها فى ثبوت الكدورات اللاّزمة لها طبعا من الأمراض و المخاوف و ساير المنقصات لها.

أقول: و محصّل مراده عليه السّلام أنّ صحتها مقرونة بالمحنة، و نعمتها مشفوعة بالنقمة و احسانها معقبة بالاسائة، و لذّتها مشوبة بالكدورة.

و لكمال الاتصال بين هذه الجملة و بين الجملة التالية لها أعنى قوله (لا تنالون منها نعمة إلاّ بفراق اخرى) وصل بينهما و لم يفصل بالعاطف، فانه لما أشار إلى أنّ الدّنيا رنق المشرب ردغ المشرع لذّاتها مشوبة بالكدورات عقّبه بهذه الجملة،

لأنها توكيد و تحقيق و بيان لما سبق، و فيه زيادة تثبيت له.

و المراد بها أنّ الانسان لا يكون مشغولا بنوع من اللّذات الجسمانية إلاّ و هو تارک لغيره، و ما استلزم مفارقة نعمة اخرى لا يعدّ فی الحقيقة نعمة ملتذا بها.

توضيح ذلک ما أشار إليه الشّارح البحرانی: من أنّ كلّ نوع من نعمة فانما يتجدّد شخص منها و يلتذّبه بعد مفارقة مثله، كلذّة اللّقمة مثلا، فانّها تستدعی فوت اللّذة باختها السّابقة، و كذلک لذّة ملبوس شخصی أو مركوب شخصی و سائر ما يعدّ نعما دنيويّة ملتذّا بها، فانّها إنّما تحصل بعد مفارقة ما سبق من أمثالها، بل و أعمّ من ذلک فانّ الانسان لا يتهيّأ له الجمع بين الملاذّ الجسمانيّة فی وقت واحد، بل و لا اثنين منها، فانه حال ما يكون آكلا لا يكون مجامعا و حال ما هو فی لذّة الأكل لا يكون يلتذّ بمشروب، و لا حال ما يكون خاليا على فراشه الوثير يكون راكبا للنزهة و نحو ذلک.

(و لا يعمّر معمّر منكم يوما من عمره إلاّ بهدم آخر من أجله) لظهور أنّ بقائک إلى الغد مثلا لا يحصل إلاّ بانقضاء اليوم الذی أنت فيه و هو من جملة أيّام عمرک و بانقضائه ينقص يوم من عمرک، و تقرب إلى الموت بمقدار يوم، و اللّذة بالبقاء المستلزم للقرب من الموت ليست لذّة فی الحقيقة (و لا تجدّد له زيادة فی أكله إلاّ بنفاد ما قبلها من رزقه) أی من رزقه المعلوم أنّه رزقه و هو ما وصل إلى جوفه مثلا، فانّ ما لم يصل جاز أن يكون رزقا لغيره، و من المعلوم أنّ الانسان لا يأكل لقمة إلاّ بعد الفراغ من أكل اللّقمة الّتی قبلها فهو اذا لا يتجدّد له زيادة فی أكله إلاّ بنفاد رزقه السّابق و ما استلزم نفاد الرّزق لا يكون لذيذا فی الحقيقة.

(و لا يحيى له أثر الاّ مات له أثر) قال الشّارح البحرانی: أراد بالأثر الذكر أو الفعل، فانّ ما كان يعرف به الانسان فی وقت ما من فعل محمود أو مذموم أو ذكر حسن أو قبيح و يحيى له بين النّاس يموت منه ما كان معروفا به قبله من الآثار و ينسى.

ص:46

(و) كـذلک (لا يتجدّد له جديد) من زيادات بدنه و نقصانه و أوقاته (الاّ بعد أن يخلق له جديد) إلاّ بتحلّل بدنه و معاقبة شـيخوخته بشـبابه و مستقبل أوقاته لسالفها.

(و) كـذلک (لاـ تقوم له نابتـة إلاـّ و تسـقط منه محصودة) أراد بالنابتـة مـا ينشأ من الأولاد و الأحفاد، و بالمحصودة من يموت من الآباء و الأجداد، و لذلک قال (و قد مضت اصول)يعنى الآباء(نحن فروعها).

و لما اسـتعار الاصول و الفروع اللّذين هما من وصف الأشـجار و نحوها للسّـلف و الخلف و كان بناء الاستعارة على تناسى التشبيه حسن التّعجب بقوله(فما بقاء فرع بعد ذهاب أصـله)لأنّ الشجر إذا انقطع أصله أو انقلع لا يبقى لفرعه قوام، و لا يكون له ثبات و مثل هذا التّعجب له المبنى على تناسى التشبيه قول الشّاعر:

فبتّ ألثم عينها و من عجب إنّى اقبّل أسيافا سفكن دمى.

و قد مرّ مثال آخر فى التّقسيم السّادس من تقسيمات الاستعارة فى أوائل هذا الشّرح.

قال السـيّد ره (منها) أى بعض هـذه الخطبـة فى النّهى عن متابعـة البدعات و التّنبيه على ضـلالها و الأمر بالتجنّب عنها، و قد مضـى معنى البدعـة و تحقيق الكلام فيها فى شـرح الكلام السّابع عشـر، و قال الشّارح المعتزلى هنا: البدعة كلّ ما احدث لم يكن على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، فمنها الحسن كصلاة التراويح، و منها القبيح كالمنكرات التّى ظهرت فى أوائل الخلافة العثمانيّة و إن كانت قد تكلّفت الاعذار عنها.

إذا عرفت ذلک فنقول قوله:(و ما احدثت بدعة إلاّ ترک بها سـنّة) معناه انّ السّـنة مقتضـيه لترک البدعة و حرمتها بقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: كلّ بدعة ضـلالة و كلّ ضـلالة فى النّار، فاحداث البدعة يوجب ترک السنة أعنى مخالفة قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا محالة، و فى هذا تعريض على الخلفاء فى بدعاتهم التى أحدثوها بعد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم على ما تقدّمت تفصـيلها فى الخطبة التى رويناها عن أمير المؤمنين عليه السّلام فى شرح الخطبة الخمسين فتذكّر.

(فاتقوا البدع و الزموا المهيع) أى الطريق الواضح و النّهج المستقيم و هى الجادّة الوسطى الّتى من سلكها فاز و نجى، و من عدل عنها ضلّ و غوى، و هى الّتى تقدّمت ذكرها فى شرح الفصل الثّانى من الكلام السّادس عشر عند شرح قوله هناك: اليمين و الشّمال مضلّة و الطريق الوسطى هى الجادّة، عليها باقى الكتاب و آثار النّبوة، و منها منفذ السّنة، فليراجع ثمّة.

و علّل وجوب التجنّب من البدع و لزوم سلوك المهيع بقوله:(إنّ عوازم الامور أفضلها) أراد بها الامور القديمة التى كانت على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و على التفسير الآخر الامور المقطوع بصحتّها و الخالية عن الشكوك و الشبهات و المصداق واحد.

(و انّ محدّثاتها شرارها) لكونها خارجة عن قانون الشريعة مستلزمة للهرج و المرج و المفاسد العظيمة، ألا ترى إلى البدعة التّى أحدثها عمر من التفضيل فى العطاء فضلا عن سائر بدعاته أىّ مفاسد ترتّبت عليها حسب ما عرفتها فى شرح الكلام المأة و السّادس و العشرين، و اللّه الموفق و المعين.

الترجمة

از جملۀ خطب شريفۀ آن امام مبين و وصىّ رسول ربّ العالمين است در مذمّت دنيا و تنبيه بر معايب آن غدّار بى وفا مى فرمايد:

أى گروه مردمان جز اين نيست كه شما در اين دنيا بمنزلۀ هدف و نشانگاهيد كه تير اندازند در او مرگ ها، با هر آشاميدنى از شراب دنيا اندوهى است گلو گير، و در هر خوردنى محنتها است گلو گرفته، نمى رسيد از دنيا بنعمتى مگر بجدا شدن از نعمت ديگر، و معمّر نمى شود هيچ طويل العمرى از شما يک روزى از عمر خود مگر بويرانى يک روز ديگر از عمر او، و تجديد كرده نمى شود از براى او زيادتى در خوردن او مگر به نابود شدن آنچه پيش از اين زيادتى است از روزى

او، و زنده نمی شود از برای او اثری مگر آنکه می میرد از برای او اثر دیگر، و تازه نمی شود از برای او هیچ تازۀ مگر بعد از آنکه کهنه شود از برای او تازۀ دیگر، و قائم نمی شود از برای او رویندۀ مگر آنکه می افتد از او رویندہ خشک شده، و بتحقیق که گذشت اصلهائی که ما فرعهای ایشانیم یعنی پدرانی که ما فرزندان ایشانیم، پس چه عجب است باقی ماندن فرع بعد از رفتن اصل او.

از جملۀ فقرات این خطبه در نهی از متابعت بدعت می فرماید:

و پدید آورده نشد هیچ بدعتی مگر آنکه ترک کرده شد بجهت آن بدعت سنّتی، پس پرهیز نمائید از بدعتها، و لازم شوید براه روشن آشکارا، بدرستی که أمرهای قدیمه بهترین أمرها است، و بدرستی که امور متجدّدۀ تازه پیدا شده بدترین امور است، زیرا که مخالف دین خاتم النّبیّین است.

و من کلام له علیه السّلام و قد استشاره عمر بن الخطاب

اشارة

فی الشخوص لقتال الفرس بنفسه و هو المأة

و السادس و الاربعون من المختار فی باب الخطب

و قد رواه غیر واحد من الخاصّة و العامّة علی اختلاف تطلع علیه:

إنّ هذا الأمر لم یکن نصره و لا خذلانه بکثرة و لا بقلّة، و هو دین اللّه الّذی أظهره، و جنده الّذی أعدّه و أمدّه، حتّی بلغ ما بلغ، و طلع حیث ما طلع، و نحن علی موعود من اللّه، و اللّه منجز وعده، و ناصر جنده، و مکان القیّم بالأمر مکان النّظام من الخرز، یجمعه و یضمّه، فإذا انقطع النّظام تفرّق الخرز و ذهب ثمّ لم یجتمع بحذافیره

أبـدا، و العرب اليوم و إن كـانوا قليلا ـ فهم كثيرون بالإسـلام، عزيزون بالاجتمـاع، فكن قطبا و اسـتدر الرّحى بالعرب، و أصـلهم دونک نار الحرب، فإنّک إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليک العرب من أطرافها و أقطارها، حتّى يكون ما تدع ورائک من العورات أهمّ إليک ممّا بين يـديک، إنّ الأعاجم إن ينظروا إليک غدا يقولوا هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلک أشدّ لكلبهم عليک و طمعهم فيک، فأمّا ما ذكرت من مسـير القوم إلى قتال المسـلمين، فإنّ اللّه سـبحانه هو أكره لمسـيرهم منک، و هو أقـدر على تغيير ما يكره، و أمّا ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، و إنّما كنّا نقاتل بالنّصر و المعونة.

اللغة

فى بعض النّسـخ بـدل قوله (أعـدّه) أعزّه و (طلع) الكوكـب طلوعا ظهر و طلع الجبل علاه و (نظمت) الخرز نظما من باب ضـرب جعلته فى خيط جامع له و هو النظام بالكسـر و (الخرز) محرّكة معروف و الواحد خرزة كقصب و قصبة و (الحذفور) و زان عصفور الجانب كالحذفار و الجمع حذافير، و أخذه بحذافيره أى بأسـره أو بجوانبه و (صـلى) اللّحم يصليه صليا من باب رمى شواه أو ألقاه فى النّار للاحراق كأصلاه و صلاه و يده بالنّار سـخنها و صلى النّار و بها كرضى صليا و صليّا قاسى حرّها، و أصلاه النّار و صلا إيّاه و فيها و عليها أدخله إيّاها و أثواه فيها و (العورة) فى الثغر و الحرب خلل يخاف منه و الجمع عورات بالسّكون

للتخفيف و القياس الفتح لأنّه اسم و هو لغة هذيل و (الكلب) محرّكة الحرص و الشدّة.

الاعراب

قوله: و طلع حيث ما طلع، حيث ظرف مكان فى محلّ النصب على الظّرفيّة أو جرّ بمن إن كان طلع بمعنى ظهر، و إن كان بمعنى علا فهو مفعول لطلع كما فى قوله تعالى: «اَللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ »، و على أىّ تقدير فلفظ ما بعده مصدريّة و فى بعض النّسخ حيث طلع بدون ما، جملة يجمعه و يضمّه حال من النّظام، و العامل فيها معنى التشبيه، و يجوز الوصف، و اليوم ظرف لقليلا و تقدّمه للتوسّع و اللاّم فيه للعهد الحضورى، و الباء فى قوله: بالعرب، للاستعانة، و دونك، حال من فاعل أصل أى متجاوزا الاصلاء أو الصلى المستفاد منه عنك أو من نار الحرب فتقديمه على ذيها على التوسع، و يمكن كونه حالا من مفعول أصل أى متجاوزين عنك فافهم.

المعنى

اشارة

اعلم أنّ هذا الكلام قاله عليه السّلام لعمر فى وقعة القادسيّة أو نهاوند على اختلاف من الرواة تطلع عليه، و ذلك حين أراد عمر أن يغزو العجم و جيوش كسرى، و قد استشاره عمر و استشار غيره فى الشخوص و الخروج لقتال الفرس بنفسه فأشاروا عليه بالشخوص و نهاه عليه السّلام عن ذلك و أشار إلى وجه الصّواب و الرأى الصّواب بكلام مشتمل على أنواع البلاغة فقال (إنّ هذا الأمر) مؤكّدا بإنّ واسميّة الجملة لأنّ المخاطب إذا كان متردّدا فى الحكم حسن التقوية بمؤكّد، قال الشيخ عبد القاهر: أكثر مواقع إنّ بحكم الاستقراء هو الجواب، لكن يشترط فيه أن تكون للسّائل ظنّ على خلاف ما أنت تجيبه به، هذا و تعريف المسند إليه بالاشارة و ايراده اسم الاشارة لقصد التعظيم و التفخيم على حدّ قوله سبحانه ذلک الكتاب تنزيلا لبعد درجته و رفعة محلّه منزلة بعد المسافة، و المراد به الاسلام.

ص:51

(لم يكن نصره و خذلانه بكثرة و لا بقلّة) نشر على ترتيب اللّف (و هو دين اللّه الذى أظهره) أى جعله غالبا على سائر الأديان بمقتضى قوله: ليظهره على الـدّين كلّه و لو كره المشـركون، و فى الاتيـان بالموصول زيادة تقرير للغرض المسوق له الكلام و هو ربط جاش عمرو سائر من حضر، و إزالة الخور و الفشل عنهم.

و لهـذا الغرض أيضا عقّبه بقوله (و جنـده الذى أعدّه و أمدّه) أى هيّأه أو جعله عزيزا و أعطاه مددا و كثرة (حتّى بلغ ما بلغ) من العزّة و الكثرة (و طلع حيث مـا طلع) أى ظهر فى مكـان ظهوره و انتشـر فى الآفاق، أو طلع من مطلعه أى أقطار الأرض و أطرافها، أو أنّه علا مكان علوّه و المحلّ الذى ينبغى أن يعلى عليه، و على أىّ تقدير فالاتيان بالموصول فى القرينة الاولى أعنى قوله: بلغ ما بلغ، و ابهام مكان الطلوع فى هذه القرينة على حدّ قوله تعالى: «فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ ».

قال أبو نواس:

و لقد نهزت مع الغواة بدلوهم و اسمت سرح اللحظ حيث أساموا

و بلغت ما بلغ امرء بشبابه فاذا عصارة كلّ ذاك اثام

ثمّ أكّـد تقويـة قلوبهم و تشديدها بقوله (و نحن على موعود من اللّه) أى وعدنا النصـر و الغلبة و الاسـتخلاف بقوله: «وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضـى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ».

و عقّبه بقوله (و اللّه منجز وعده و ناصـر جنده) من باب الايغال الذى قدّمنا ذكره فى ضمن المحسّنات البديعيّة من ديباجة الشّرح، و قد كان المعنى يتمّ دونه لظهور أنّ اللّه منجز لوعده لا محالة، لكن فى الاتيان به زيادة تثبيت لقلوبهم و تسكين لها.

ثمّ قـال:(و مكـان القيّم بالأـمر)أى الاـمراء و الولا(مكان النظام من الخرز)و هو من التشبيه المؤكـد بحـذف الأداة، و الغرض به تقرير حال المشبّه و وجه الشبّه

قول(يجمعه و يضـمّه)يعنى أنّ انتظـام أمر الرّعيـة إنما هو برئيسـهم كما أنّ انتظام الخرز إنّما هو بالنظام و الخيط الّـذى ينتظم به و محلّه من الرّعيّـة محلّه من الخرز (فـاذا انقطع النظام) و انضم (تفرّق الخرز و ذهب) و انتشر (ثمّ لـم يجتمع بحـذافيره) أى بجوانبه (أبـدا) و كـذلک إذا ارتفع الأمير من بين الرعيّة و لـم يكن فيهم فسد حال الرّعية و ضاع نظم امورهـم.

ثمّ رفع الفزع عن عمر بقلّة جنده و كثرة العدوّ فقال (و العرب اليوم و ان كانوا قليلا) بالعدد(فهم كثيرون بالاسلام)قال الشارح البحرانى: أراد بالكثرة القوّة و الغلبة مجازا اطلاقا للاسم مظنّة الشـىء على الشـىء (عزيزون) أى غالبون (بالاجتماع) أى باجتماع الرّأى و اتّفاق القلوب، و هو خير من كثرة الأشخاص مع النفاق.

و لما مهّـد ما مهّده من المقدّمة أمره بالقيام فى مقامه و الثبات فى مركزه فقال (فكن قطبا) قائما بمكانک (و اسـتدر الرّحى) أى رحى الحرب (بالعرب) و اسـتعانتهم (و اصـلهم) أى ادخلهم (دونک نار الحرب) لأنّهم ان سلموا و غنموا فهو الغرض، و ان انقهروا و غلبوا كنت مرجعا لهم و ظهرا يقوى ظهورهم بک و تتمكّن من اصلاح ما فسد من امورهم.

و لمّا أمره بالثبات فى مقامه نبّهه على مفاسد الشخوص و ما فيه من الضّرر و هو أمران:

أحـدهما مـا أشار إليه بقوله:(فانک إن شـخصت من هـذه الأرض) و نهضت معهم إلى العـدوّ (انتقضت عليک العرب من أطرافها) أى من أطراف الأرض (و أقطارها) و ذلک لقرب عهـدهم يومئـذ بالاسـلام و عـدم اسـتقراره فى قلوبهم و ميل طبائعهم الى الفتنـة و الفساد، و مع علمهم بخروجـک و تركک للبلادهاج طمعهم و صار فتنتهم على الحرمين و ما يضاف إليهما (حتّى يكون ما تـدع ورائک من العورات) و خلل الثغور (أهمّ إليک ممّا بين يديک)و الأمر الثانى ما أشار إليه بقوله:(انّ الأعاجم إن) تخرج اليهم بنفسک

و (ينظروا إليک غـدا) طمعوا فيک و (يقولوا هذا أصل العرب) أی به قوامهم و ثباتهم (فاذا قطعتموه استرحتم) إذ لا أصل لهم سواه و لا لهم ظهر يلجئون به (فيكون ذلک أشـدّ لكلبهم) و حرصـهم (عليک و) أقوى ل (طمعهم فيک)ثمّ إنّ عمر حسب ما نـذكره بعد تفصـيلا قد كان قال له عليه السّـلام فی جملة ما قال: إنّ هؤلاء الفرس قد قصدوا المسير إلى المسلمين و قصدهم إيّاهم دليل قوّتهم و أنا أكره أن يغزونا قبل أن نغزوهم فأجابه عليه السّـلام بقوله:(فأمّا ما ذكرت من مسـير القوم إلى قتال المسـلمين فانّ اللّه سـبحانه هو أكره لمسـيرهم منک) و أشـدّ كراهيّة لذلک (و هو أقدر على تغيير ما يكره).

قال الشّارح البحرانی، و هـذا الجواب يدور على حرف، و هو أنّ مسـيرهم إلى المسـلمين و ان كان مفسدة إلاّ أنّ لقائه لهم بنفسه فيه مفسدة أكبر، و إذا كان كـذلک فينبغی أن يـدفع العظمی و يكل دفع المفسـدة الاخرى إلى اللّه تعالى فانّه كاره لها و مع كراهيّته لها فهو أقـدر على إزالتها.

(و أمّا ما ذكرت من) كثرة القوم و (عددهم فانا لم نكن نقاتل) الأعداء (فيما مضى) أی فی زمن رسول اللّه و صدر الاسلام (بالكثرة و إنّما كنّا نقاتل بالنصر و المعونة) أی بنصر اللّه سبحانه و معونته.

و يصدّقه قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصّابِرِينَ »

تبصرة

قد أشـرنا فيما مضـى إلى أنّ هذا الكلام مما رواه الخاصّة و العامّة، و قد اختلف فی الحال الّتی قاله فيها لعمر، فقيل: قاله عليه السّلام له فی غزاة القادسيّة، و قيل فی غزوة نهاوند، و لا بأس بايراد ما رووه.

ص:54

فأقول: روی المحدّث العلاّمة المجلسی فی المجلّد التاسع من البحار عن المفید فی الارشاد فی فضل ما جاء عن أمیر المؤمنین فی معنی صواب الرّأی و إرشاد القوم إلی مصالحهم و تدارکه علی ما کان یفسدهم لو لا تنبیهه علی وجه الرّأی عن سبابة بن سوار عن أبی بکر الهذلی قال:

سمعت رجالا من علمائنا یقولون: تکاتبت الأعاجم من أهل همدان و أهل الری و اصفهان و قومس(1) و نهاوند و أرسل بعضهم إلی بعض أنّ ملک العرب الذی جاءهم بدینهم و أخرج کتابهم قد هلک، یعنون النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و أنّه ملکهم من بعده رجل ملکا یسیرا ثمّ هلک، یعنون أبا بکر، ثمّ قام بعده آخر قد طال عمره حتّی تناولکم فی بلادکم و اغزاکم جنوده، یعنون عمر بن الخطاب، و أنه غیر منته عنکم حتی یخرجوا من فی بلادکم من جنوده و تخرجون إلیه و تغزون فی بلاده، فتعاقدوا علی هذا و تعاهدوا علیه.

فلمّا انتهی الخبر إلی من بالکوفة من المسلمین أنهوه إلی عمر بن الخطاب فلمّا انتهی إلیه الخبر فزع لذلک فزعا شدیدا، ثمّ أتی مسجد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فصعد المنبر فحمد اللّه و أثنی علیه ثمّ قال:

معاشر المهاجرین و الأنصار إنّ الشیطان قد جمع لکم جموعا و أقبل بها لیطفئ نور اللّه ألا إنّ أهل همدان و أهل اصبهان و أهل الری و قومس و نهاوند مختلفة ألسنتها و ألوانها و أدیانها، قد تعاقدوا و تعاهدوا أن یخرجوا من بلادهم إخوانکم من المسلمین و یخرجوا إلیکم فیغزوکم فی بلادکم، فأشیروا إلیّ فاوجزوا و لا تطنبوا فی القول فانّ هذا یوم له ما بعده من الأیّام فتکلّموا.

فقام طلحة بن عبید اللّه فحمد اللّه و أثنی علیه ثمّ قال: یا أمیر المؤمنین قد حنکتک(2)

1- (1) قومس صقع کثیر من بلاد خراسان و اقلیم بالاندلس، ق

2- (2) حنکتک الاموری راضتک و هدبهتک و جرستک الدهوری حنکتک و احکمتک التجارب ای جعلتک خبیرا بالامور مجرّبا و عجمتک البلایا ای خبرتک من العجم و هو البعث تقول عجمت العود اذا عضضته لتنظر أصلب هو أم رخو، بحار

الأمور و جرستک الـدّهور و عجمتک البلایا و أحکمتک التّجارب، و أنت مبارک الأمر و میمون النقیبة و قد ولیت فخیّرت و اختبرت و لم تکشف من عواقب قضاء اللّه إلاّ عن خیار فاحضر هذا الأمر برأیک و لا تغب عنه ثمّ جلس.

فقال عمر: تکلّموا فقام عثمان بن عفان فحمد اللّه و أثنی علیه ثمّ قال: أمّا بعد یا أمیر المؤمنین إنّی أری أن تشخص أهل الشّام من شامهم و أهل الیمن من یمنهم و تسیر أنت فی أهل هذین الحرمین و أهل المصرین الکوفة و البصرة فتلتقی جمیع المشرکین بجمیع المؤمنین، فانک یا أمیر المؤمنین لا تستبقی من نفسک باقیة بعد العرب، و لا تمتع من الدّنیا بعزیز و لا تلوذ منها بحریز فاحضره برأیک و لا تغب عنه ثمّ جلس فقال عمر: تکلّموا فقال: أمیر المؤمنین علیّ بن أبی طالب علیه السّلام: الحمد للّه حتّی تمّ التحمید و الثناء علی اللّه و الصّلاة علی رسوله ثمّ قال: أمّا بعد فانّک إن أشخصت أهل الشّام من شامهم سارت أهل الرّوم إلی ذراریهم، و إن أشخصت أهل الیمن من یمنهم سارت الحبشة الی ذراریهم، و إن شخصت من هذین الحرمین انتقضت علیک العرب من أطرافها و أکنافها حتّی تکون ما تدع وراء ظهرک من عیالات العرب و العجم أهمّ إلیک ممّا بین یدیک، فأمّا ذکرک کثرة العجم و رهبتک من جموعهم فانا لم نکن نقاتل علی عهد رسول اللّه بالکثرة، و إنما کنّا نقاتل بالنّصرة و أمّا ما بلغک من اجتماعهم علی المسیر إلی المسلمین فانّ اللّه لمسیرهم أکره منک لذلک و هو أولی بتغییر ما یکره، و إنّ الأعاجم إذا نظروا إلیک قالوا: هذا رجل العرب فان قطعتموه قطعتم العرب و کنت أشدّ لکلبهم و کنت قد ألبتهم(1) علی نفسک و أمدّهم من لم یکن یمدّهم، و لکنّی أری أن تقرّ هؤلاء فی أمصارهم و تکتب إلی أهل البصرة فلیفترقوا علی ثلاث فرق فلیقم فرقة علی ذراریهم حرسا لهم، و لیقم فرقة علی أهل عهدهم لئلا ینتقضوا، و لتسر فرقة إلی إخوانهم مددا لهم.

1- (1) التألیب التجمیع

فقال عمر: أجل هذا الرأى، و قد كنت أحبّ أن اتابع عليه، و جعل يكرّر قول أمير المؤمنين عليه السّلام اعجابا و اختيارا له.

قال الشيخ المفيد (ره): فانظروا أيّدكم اللّه إلى هذا الموقف الذى ينبى بفضل الرّأى، إذ تنازعه اولو الألباب و العلم، و تأمّلوا فى التوفيق الذى قرن اللّه به أمير المؤمنين عليه السّلام فى الأحوال كلّها و فزع القوم إليه فى المعضل من الامور، و اضيفوا ذلك إلى ما أثبتناه من الفضل فى الدّين الّذى أعجز متقدّمى القوم حتّى اضطرّوا فى علمه إليه، تجدوه من باب المعجز الّذى قدّمناه و اللّه ولىّ التّوفيق.

قال الشّارح المعتزلى فى شرح هذا المقام: و اعلم أنّ هذا الكلام قد اختلف فى الحال التّى قاله فيها لعمر، فقيل قاله له فى غزوة القادسيّة، و قيل فى غزوة نهاوند، و الى هذا القول الأخير ذهب محمّد بن جرير الطّبرى فى التاريخ الكبير، و إلى هذا القول الأوّل ذهب المداينى فى كتاب الفتوح.

أمّا وقعة القادسيّة فكانت فى سنة أربع عشر للهجرة استشار عمر المسلمين فى أمر القادسيّة فأشار إليه علىّ بن أبى طالب عليه السّلام فى رواية أبى الحسن علىّ بن محمّد ابن سيف المداينى أن لا يخرج بنفسه و قال: إنّك إن تخرج تكن للعجم همّة لاستيصالك لعلمهم أنّك قطب الرّحى للعرب فلا يكون للاسلام بعدها دولة و أشار عليه غيره من النّاس أن يخرج بنفسه فأخذ برأى علىّ، ثم أورد الشارح وقعة القادسيّة و لا حاجة بنا إلى ايرادها ثمّ قال:

فأما وقعة نهاوند فانّ أبا جعفر محمّد بن جرير الطّبرى ذكر فى كتاب التاريخ انّ عمر لمّا أراد أن يغزو العجم و جيوش كسرى و هى مجتمعة بنهاوند استشار الصّحابة.

فقام عثمان فتشهّد فقال: أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشّام فيسيروا من شامهم و تكتب إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثمّ تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين البصرة و الكوفة فتلقى جميع المشركين بجميع المسلمين فانّك إذا سرت بمن معك و من عندك تكن فى نفسك بالكاثر من عدد

القوم و كنت أعزّ عزّا و أكثر انّك لا تستبقى بعد اليوم باقية و لا تمنع من الدّنيا بعزيز و تكون منها فى حرز حريز، إنّ هذا يوم له ما بعده فاشهده برأيك و نفسك و لا تغب عنه.

قال أبو جعفر: و قام طلحة فقال: أمّا بعد يا أمير المؤمنين فقد أحكمتك الامور و عجمتك البلايا و حنكتك التّجارب و أنت و شأنك و أنت و رأيك لا تنبو فى يديك و لا نكل أمرنا إلاّ إليك، فأمرنا نجب، و ادعنا نطع، و احملنا نركب، و قدمنا ننقد، فانّك ولىّ هذا الأمر و قد بلوت و جربت و اختبرت فلم ينكشف شىء من عواقب الامور لك إلاّ عن خيار.

فقال علىّ بن أبى طالب: أمّا بعد فانّ هذا الأمر لم يكن نصره و لا خذلانه بكثرة و لا قلّة، إنما هو دين اللّه الّذى أظهره و جنده الّذى أعزّه و أمدّه بالملائكة حتّى بلغ ما بلغ، فنحن على موعود من اللّه و اللّه منجز وعده و ناصر جنده، و انّ مكانك منهم مكان النّظام من الخرز يجمعه و يمسكه، فان انحلّ تفرّق ما فيه و ذهب ثمّ لم يجتمع بحذافيره أبدا، و العرب اليوم و إن كانوا قليلا فانّهم كثير، و عزيز بالاسلام، أقم مكانك و اكتب إلى أهل الكوفة فانّهم أعلام العرب و رؤسائهم، و ليشخص منهم الثلثان و ليقم الثّلث، و اكتب إلى أهل البصرة أن يمدّوهم ببعض من عندهم، و لا تشخص الشّام و لا اليمن إنّك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الرّوم إلى ذراريهم و إن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم و متى شخصت من هذه الأرض، انتقضت عليك العرب من أطرافها و أكنافها حتّى يكون ما تدع ورائك أهمّ إليك ممّا بين يديك من العورات و العيالات، إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غدا قالوا: هذا أمير العرب و أصلهم فكان ذلك أشدّ لكلبهم عليك و أمّا ما ذكرت من مسير القوم فانّ اللّه هو أكره لمسيرهم منك و هو أقدر على تغيير ما يكره، و أمّا ما ذكرت من عددهم فانا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة و إنّما كنّا نقاتل بالصّبر و النّصر.

فقال عمر: أجل هذا الرأى و قد كنت أن اتابع عليه، فأشيروا علىّ برجل

اولیّه ذلک الثغر، قالوا أنت أفضل رأیا فقال: أشیروا علیّ به و اجعلوه عراقیّا قالوا أنت أعلم بأهل العراق و قد وفدوا علیک فرأیتهم و کلّمتهم، قال: أما و اللّه لأولّینّ أمرهم رجلا- یکون غمدا لأوّل الأسنّة فقیل: و من هو یا أمیر المؤمنین؟ قال: النّعمان بن مقرن، قالوا: هولها و کان النّعمان یومئذ بالبصرة فکتب إلیه عمر فولاّه أمر الجیش.

قال أبو جعفر: کتب الیه عمر: سر إلی نهاوند فقد ولیتک حرب الفیروزان و کان المقدم علی جیوش کسری فان حدث بک حدث فعلی النّاس حذیفة بن الیمان، فان حدث به حدث فعلی النّاس نعیم بن مقرن، فان فتح اللّه علیکم فاقسم علی النّاس ما أفاء اللّه علیهم و لا ترفع إلیّ منه شیئا، و إن نکث القوم فلا ترانی و لا أراک، و قد جعلت معک طلیحة بن جویلد و عمرو بن معدیکرب لعلمهما بالحرب فاستشرهما و لا تولّهما شیئا.

قال أبو جعفر: فسار النّعمان بالعرب حتّی وافی نهاوند و ذلک فی السّنة السّابعة من خلافة عمر، و ترائی الجمعان و نشب القتال و حجزهم المسلمون «المشرکون» فی خنادقهم و اعتصموا بالحصون و المدن و شقّ علی المسلمین ذلک، فأشار طلیحة علیه فقال أری أن تبعث خیلا ببعض القوم و تحمشهم(1) فاذا استحمشوا خرج بعضهم و اختلطوا بکم فاستطردوا لهم فانهم یطمعون بذلک ثمّ نعطف علیهم حتّی یقضی اللّه بیننا و بینهم بما یجب، ففعل النّعمان ذلک فکان کما ظنّ طلیحة و انقطع العجم عن حصونهم بعض الانقطاع فلمّا أمعنوا فی الانکشاف للمسلمین حمل النعمان بالنّاس فاقتتلوا قتالا شدیدا لم یسمع السّامعون مثله، و زلق النعمان فرسه فصرع و اصیب فتناول الرّایة أخوه فأتا حذیفة فدفعها إلیه و کتم المسلمون مصاب أمیرهم و اقتتلوا حتّی أظلم اللّیل و رجعوا و المسلمون ورائهم، فعمی علیهم قصدهم فترکوه و غشیهم المسلمون بالسیوف، فقتلوا منهم ما لا یحصی، و أدرک المسلمون الفیروزان و هو هارب و قد هارب و انتهی إلی ثنیّة مشحونة ببغال موقّرة عسلا فحبسته علی أصله فقتل

1- (1) حمشه و أحمشه جمعه و أغضبه و القوم ساقهم بغضب ق،

فقال المسلمون: إنّ للّه جنودا من عسل، و دخل المسلمون نهاوند فاحتووا على ما فيها و كانت أنفال هذا اليوم عظيمة.

الترجمة

از جملهٔ کلام آن حضرتست در حالتی که مشاوره کرد بأو عمر بن الخطاب در رفتن بمحاربهٔ أهل فارس بنفس خود فرمود: که بدرستی این أمر یعنی اسلام نیست یاری نمودن او و نه خواری او بزیادتی لشکر و نه بکمی آن و آن امر دین خدائیست غالب گردانید او را بر همه أدیان و لشکر او است که مهیا فرمود و قوّت داد آنرا بر دشمنان تا این که رسید آن مقامی را که رسید و بلند شد هر چه بلند شد و ما مستقرّیم بر وعدهٔ خداوند تعالی و خدا وفا کنندهٔ وعده خود است و نصرت دهندهٔ لشکر خود و مکان قائم بأمر مردمان و رئیس ایشان مکان خیاطه است از مهرهٔ که جمع میکند آن را و انضمام می دهد او را بهم، پس اگر بریده شود مهره متفرّق و پراکنده می شود مهرها و از هم بپاشند، پس از آن جمع نمی شود بتمامی خود هیچوقت و مردمان عرب اگر چه امروز اندکند نسبت بکافران پس ایشان بسیارند بجهت اسلام عزیزند بحسب اجتماع و اتّفاق پس باش مثل قطب آسیا از جای خود حرکت مکن و بگردان آسیای حرب را با عرب و در آرایشان را نه خود را در آتش مقاتله و محاربه، پس بدرستی که تو اگر بیرون روی از این زمین یعنی مدینهٔ منوّره فرود آیند بتو عربها از اطراف و جوانب تا این که باشد آنچه که ترک کردهٔ آنرا در پشت خود از مواضع مخافت بر اسلام و أهل آن مهم تر بسوی تو از آنچه که در پیش تو است از محاربهٔ دشمن بدرستی که عجمها اگر نظر کنند بسوی تو فردا گویند این مرد اصل عرب و أمیر ایشانست پس اگر شما پاره پاره کردید او را راحت می شوید پس باشد رفتن تو بمحاربه ایشان باعث شدت حرص ایشان بر تو و طمع ایشان در تو، پس امّا آنچه ذکر کردی از آمدن أهل فارس بمحاربه مسلمانان پس بدرستی که خدای تعالی ناخوش گیرنده تر است از تو رفتار ایشان را

و او قـادر تر است بر تغيير آن چه كه نـاخوش مى گيرد و أمّا آنچه كه ذكر كردى از بسـيارى عـدد ايشان پس بـدرستى كه ما نبوديم كه دعوا كنيم در زمان گذشـته با بسـيارى لشـكر و جز اين نيست كه بوديم كه محاربه مى كرديم بمعاونت و نصـرت پروردگار، يعنى در حرب اعدا توكل بخدا بايد نمود و از كثرت أعدا نبايد ترسيد.

و من خطبة له عليه السّلام و هى الماة و السابعة

اشارة

و الاربعون من المختار فى باب الخطب

فبعث محمّدا صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالحقّ ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته، و من طاعة الشّيطان إلى طاعته، بقرآن قد بيّنه و أحكمه ليعلم العباد ربّهم إذ جهلوه، و ليقرّوا به بعـد إذ جحدوه، و ليثبّتوه بعد إذ أنكروه، فتجلّى سـبحانه لهم فى كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أريهم من قدرته، و خوّفهم من سطوته، و كيف محق من محق بالمثلات، و احتصد من احتصد بالنّقمات. و إنّه سيأتى عليكم من بعدى زمان ليس فيه شيء أخفى من الحقّ، و لا أظهر من الباطل، و لا أكثر من الكذب على اللّه و رسوله، و ليس عند أهل ذلك الزّمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلى حقّ تلاوته، و لا أنفق منه إذا حرّف عن مواضعه، و لا فى البلاد شيء أنكر من

المعروف، و لا أعرف من المنكر، فقد نبذ الكتاب حملته، و تناساه حفظته، فالكتاب يومئذ و أهله طريدان منفيّان، و صاحبان مصطحبان فى طريق واحد لا يؤويهما مؤو، فالكتاب و أهله فى ذلك الزّمان فى النّاس و ليسا فيهم، و معهم و ليسا معهم، لأنّ الضّلالة لا توافق الهدى و إن اجتمعا، فاجتمع القوم على الفرقة، و افترقوا عن الجماعة، كأنّهم أئمّة الكتاب و ليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلاّ اسمه، و لا يعرفون إلاّ خطّه و زبره، و من قبل ما مثلوا بالصّالحين كلّ مثلة، و سمّوا صدقهم على اللّه فرية، و جعلوا فى الحسنة عقوبة السّيّئة. و إنّما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم، و تغيّب آجالهم، حتّى نزل بهم الموعود الّذى تردّ عنه المعذرة، و ترفع عنه التّوبة، و تحلّ معه القارعة و النّقمة، أيّها النّاس من استنصح للّه وفّق، و من اتّخذ قوله دليلا هدى للّتى هى أقوم، فإنّ جار اللّه آمن، و عدوّ اللّه خائف. و إنّه لا ينبغى لمن عرف عظمة اللّه أن يتعظّم، فإنّ رفعة الّذين يعلمون ما عظمته أن يتواضعوا له، و سلامة الّذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له، فلا تنفروا من الحقّ نفار الصّحيح من الأجرب، و البارىء من ذى السّقم، و اعلموا أنّكم لن تعرفوا الرّشد حتّى تعرفوا

الّذى تركه، و لن تأخذوا بميثاق الكتاب حتّى تعرفوا الّذى نقضه، و لن تمسّكوا به حتّى تعرفوا الّذى نبذه، فالتمسوا ذلک من عند أهله، فإنّهم عيش العلم، و موت الجهل، هم الّذين يخبركم حكمهم عن علمهم، و صمتهم عن منطقهم، و ظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدّين، و لا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق، و صامت ناطق.

اللغة

(تجلّى) الشىء انكشف و ظهر و (محق) الشىء محقا من باب منع أبطله و محاه و محق اللّه الشىء أذهب منه البركة و قيل هو ذهاب الشّىء كلّه حتّى لا يرى له أثر و (المثلات) جمع المثلة بفتح الميم و ضمّ الثاء المثلّثة فيهما و هى العقوبة كذا فى الاقيانوس و فى القاموس، مثل بفلان نكل كمثل تمثيلا و هى المثلة بضمّ الثاء و سكونها و الجمع مثولات و مثلات و قال الفيومى: و مثلت بالقتيل مثلا من باب قتل و ضرب اذا جدعته و ظهرت آثار فعلك عليه تنكيلا و التشديد مبالغة و الاسم المثلة وزان غرفة و المثلة بفتح الميم و ضمّ الثاء العقوبة.

و (حصد) الزرع و النبات و احتصده قطعه بالمنجل و حصدهم بالسّيف و احتصدهم استأصلهم و (النّقمة) بالكسر و بالفتح و كفرحة المكافاة بالعقوبة جمعه نقم ككلم و عنب و نقمات ككلمات و (بار) الشىء يبور من باب قال إذا فسد و (زبرت) الكتاب زبرا كتبته فهو زبور فعول بمعنى مفعول كرسول و الجمع زبر قال سبحانه: «وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ » و الزّبر بالكسر الكتاب و جمعه زبور مثل قدر و قدور.

و (مثلوا) يروى بالتخفيف و التشديد معا أى نكلوا و (القارعة) الدّاهية

ص:63

تفجؤ الانسان و قال الشّارح المعتزلى: المصيبة تقرع أى تلقى بشدّة و قوّة، و قوله. فانّ رفعة الذين، لفظة رفعة فى بعض النّسخ بضمّ الرّاء و فى أكثرها بالفتح و ضبط القاموس بالكسر قال: رفع ككرم رفاعة صار رفيع الصّوت و رفعة بالكسر شرف و علا قدره فهو رفيع كذا فى الاوقيانوس.

الاعراب

قوله: ليعلم العباد، متعلّق بقوله: بيّنه أو أحكمه أو كليهما على سبيل التنازع و قوله: و كيف، عطف على قوله: من سطوته، و من الموصولة فى قوله: من محق و من احتصد فى محلّ النّصب مفعول به، و فاعل الأفعال الأربعة راجع إلى اللّه سبحانه، و قوله: ليس فيه شىء أخفى لفظة أخفى إمّا بتقدير الرّفع صفة لشىء و يؤيّده رفع لفظ أظهر و أكثر المعطوفين عليه كما فى بعض النسخ، و إمّا بتقدير النّصب على أنّه خبر ليس و يكون فيه متعلقا به، و على الأوّل فهو خبر مقدّم و ليس مع اسمه و خبره فى محل الرّفع صفة لزمان، و على تقدير نصب أخفى فيكون ما عطف عليه منصوبا كما فى نسخة الشّارح المعتزلى و غيره، و مثله لفظ أبور و أنفق و أنكر و أعرف، و تروى جميعا بالرّفع و النّصب معا.

و قوله: و من قبل ما مثلوا بالصّالحين، لفظة ما مع الفعل بعدها فى حكم المصدر و محلّه الرّفع بالابتداء، و من قبل خبرها أى مثلهم أو تمثيلهم بالصّالحين من قبل ذلک. و لا يجوز جعل ما موصولة و الجملة بعدها صلتها الخلوّها من الرّبط و على فى قوله: و سمّوا صدقهم على اللّه فرية، متعلّقة بفرية لا بصدقهم قال الشّارح المعتزلى، فان امتنع أن يتعلّق حرف الجرّ به لتقدّمه عليه و هو مصدر فليكن متعلّقا بفعل مقدّر دل عليه هذا المصدر الظّاهر.

و قوله: و جعلوا فى الحسنة عقوبة السّيئة، باضافة العقوبة و فى بعض النّسخ العقوبة السّيئة قال الشّارح المعتزلى: و الرّواية الاولى بالاضافة أكثر و أحسن.

ص:64

و قوله: إنّه من استنصح، الضمير الشأن قال الشيخ عبد القاهر: إنّ لضمير الشأن مع إنّ حسنا ليس بدونها بل لا يصحّ بدونها نحو: إنّه من يتّق و يصبر، و إنّه من يعمل سوء، و انّه لا يفلح الكافرون، قال الشّارح المعتزلى: ما فى قوله: ما عظمته بمعنى أىّ شىء، و من روى بالنّصب جعلها زائدة

المعنى

اشارة

اعلم أنّ مدار هذه الخطبة على فصول أربعة:

الفصل الاول

فى الاشارة إلى بعثة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الغرض من بعثته

و هو قوله (فبعث اللّه محمّدا بالحقّ) و انّما بعثه (ليخرج عباده من عبادة الأوثان) و الأصنام (إلى عبادته و من طاعة الشيطان إلى طاعته) و لتخليص الخلق من عشق الدّنيا و رّق الطّبيعة و عبوديّة الهوى، و تشويقهم إلى حظائر القدس و مجالس الانس، و إيقاظهم عن مراقد الأبدان و نوم الغافلين، و ايصالهم إلى منازل الأبرار و المقرّبين و لم يقتصر سبحانه على مجرّد بعثه و إرساله، بل بعثه صلّى اللّه عليه و آله (ب) ما يدلّ على صدق دعواه و مقاله من البراهين و الدلائل الباهرات و المعجزات الخارقة للعادات و أعظمها (قرآن قد بيّنه و أحكمه) أى كشفه و أوضحه و جعله متقنا مضبوطا مستقيما نظمه خاليا عن الخلل و الاختلاف كما قال عزّ من قائل:

«هذا بَيانٌ لِلنّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ » و قال «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ » و فى موضع آخر «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً »).

و تخصيص القرآن بالذّكر من بين سائر المعجزات لما أشرنا إليه من أنّه أعظم

معجزاته و أقويها و آكدها فى باب التّحدى، و ذلک لأنّ الغالب على العرب حين بعثه صلوات اللّه عليه و آله إنشاء الخطب و الرّسائل و المبالغة فى فصاحة الکلام و بلاغته و حسن البيان و سلاسته، و مراعات المطابقة لمقتضى الحال و المحافظة على محاسن اللّفظ و بدائع النکت الغريبة، و لطائف المناسبات العجيبة و وجوه الاستعارات و التخيلات، و أنحاء المجاز و الکنايات، و سائر ما يزيد فى الکلام رونقا و تاثيرا فى القلوب.

فبعث اللّه النّبىّ متحدّيا بالقرآن کتابا ساطعا تبيانه قاطعا برهانه بحجج و بيّنات و رسوم و آيات عجز عن الاتيان بما يماثلها أو يدانيها مصاقع الخطباء مشتملا على رموز و أسرار و علوم و أنوار تحيّرت فى إدراکها عقول الأدباء، و مواعظ و حکم تبلّدت عن فهمها أذهان الحکماء، و لم يتصدّ لمعارضة أقصر سورة من سوره واحد من الفصحاء، و لم ينهض للقدح فى کلمة من کلماته ناهض من أزکياء البلغاء، مع طول المدّة و کثرة العدّة، و شدّة الحرص و قوة الکدّ و غاية العصبيّة و نهاية الانانية و الافراط فى المضادّة و المضارّة، و الرّسوخ فى المنافرة و المفاخرة فاختاروا المقاتلة بالسّيف و السّنان على المعارضة بالکلام و البيان و الحجّة و البرهان، بعد ما خيّروا بين الأمرين.

فعلم أنّ المأتىّ به خارج عن مقدرة البشر، و إنّما هو أمر من عند خالق القوى و القدر، و به يهتدى إلى الرّشاد، و يحصل المعرفة بالمبدإ و المعاد کما قال عليه السّلام (ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه) يعنى ببيان القرآن و أحکامه يحصل العلم بالربّ تعالى و ذلک لما اشتمل عليه من الآيات الدّالة على نعوت الجلال و صفات الجمال، و أدلّة التوحيد و براهين التّفريد مضافا إلى أنّه بنفسه مع قطع النّظر عن تلک الآيات کاف فى الهداية إلى الحقّ الأوّل سبحانه بما فيه من وصف الاعجاز حسب ما اشرنا إليه، هذا.

و العجب من الشارح البحرانى أنّه قال فى شرح هذا المقام: و مدار هذا الفصل على بيان بعثة الرّسول، و بيان غاية البعثة، و السّبب المعدّ للوصول إلى تلک الغاية

ص:66

ثمّ بيان غاية تلك الغاية، و الاشارة إلى البعثة بقوله: فبعث إلى قوله: بالحقّ، و أشار إلى غايتها بقوله: ليخرج إلى طاعته، و أشار إلى سبب تلك الغاية بقوله: بقرآن قد بيّنه، و أشار إلى غاية تلك الغاية أعنى غاية طاعة اللّه بقوله: ليعلم العباد إلى قوله: أنكروه، انتهى.

و أنت خبير بأنّ طاعة اللّه سبحانه و عبادته إنّما تحصل بعد حصول العلم بالرّب، لأنّها فرع الدّين و هذا أصله و الأصل مقدّم على الفرع فكيف يمكن جعله غاية لها و ما هو إلاّ من مفاسد قلّة التدبّر.

(و ليقرّوا به بعد إذ جحدوه و ليثبتوه بعد إذ أنكروه) إن كان المراد بالاقرار الاقرار باللّسان وحده و بالاثبات الاثبات بالجنان يكون عطف الجملة الثّانية على الاولى من باب التأسيس، و إن اريد بكلّ منهما الأعمّ فالمعنى بالجملتين واحد و الاختلاف فى العبارة، و الاتيان بهما للتفنّن و على أىّ تقدير فالاثبات و الاقرار من جنود العقل، و الجحود و الانكار من جنود الجهل كما يفيده الحديث المروىّ فى الكافى فى باب العقل و الجهل عن أبى عبد اللّه عليه السّلام هذا.

و لما ذكر أنّ بالقرآن يحصل العلم بالرّب سبحانه و الاقرار به و إثباته أشار إلى كيفيّة حصول هذا العلم بقوله:(فتجلّى لهم سبحانه) أى ظهر ظهورا بيّنا (فى كتابه) ربما يفسّر الكتاب هنا بعالم الايجاد و لما كان لفظ التجلّى موهما للظّهور برؤية البصر اتبعه بقوله (من غير أن يكونوا رأوه) من باب الاحتراس الذى عرفته فى المحاسن البديعيّة من ديباجة الشّرح يعنى أنّه سبحانه تجلّى لعباده و ظهر لهم لا برؤية البصر بل برؤية البصيرة (بما أراهم من قدرته) و ذكّرهم من بدائع مصنوعاته و حكمته و عجائب مبدعاته و صنعته كما قال عزّ من قائل:

«إِنَّ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِی تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » و قال «وَ جَنّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ »

«صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » و قال «وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » إلى غير ذلك ممّا لا نطيل بذكرها و قد مضى فى شرح الخطبة التّسعين لا سيّما شرح الفصل السّادس منها ما فيه غنية للطالب و كفاية للمهتدى فليراجع ثمّة.

(و خوّفهم من سطوته) و حذرهم من نقمته كما قال عز و جلّ: «ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ » و قال «إِنّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » و غير ذلك من الآيات المشتملة على التّحذير بقصص الأوّلين، و التخويف بما جرى على السّلف الماضين.

(و) أنّه (كيف محق من محق بالمثلات) أى أهلك من أهلكه منهم و أذهب آثارهم عن وجه الأرض بالعقوبات النّازلة عليهم (و احتصد من احتصد بالنّقمات) أى استأصل من استأصله بما عذّبهم به مكافاة لسوء أعمالهم

الفصل الثانى

فى الاخبار عن زمان يأتى بعده بالأوصاف المذكورة

و هو قوله:(و أنّه سيأتى عليكم من بعدى زمان) الأظهر أنّ المراد به زمان بنى اميّة و أيّام خلافتهم لاتّصافه بما وصفه من أنّه (ليس فيه شىء أخفى من الحقّ و لا أظهر من الباطل و لا أكثر من الكذب على اللّه و رسوله) و هو ظاهر للخبير بالسير و الأخبار.

فقد روى عن شعبة و هو امام المحدّثين عند العامّة أنّه قال: تسعة أعشار الحديث كذب، و عن الدّارقطنى ما الحديث الصحيح إلاّ كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود، و قد كان جعل الأخبار الكاذبة و اشتهارها فى زمن بنى اميّة.

قال ابن عرفة المعروف بنفطويه و هو من أكابر محدّثى العامّة و أعلامهم

فی تـاریخه: إنّ أکثر الأحـادیث الموضوعـة فی فضائـل الصّـحابة افتعلت فی أیّـام بنی امیّـة تقرّبا الیهم بما یظنّون أنّهم یرغمون به أنف بنی هاشم.

و یشهد بذلک ما تقدّم روایته فی شرح الکلام السّابع و التّسعین من الخبر الذی رویناه من البحار عن کتاب سلیم بن قیس الهلالی.

(و لیس عنـد أهل ذلک الزّمان سـلعة أبور من الکتاب) أی متاع أکسد و أفسد من کتاب اللّه سـبحانه (إذا تلی حقّ تلاته) و فسّـر علی الوجه الـذی انزل علیه و علی المعنی الـذی اریـد منه، و ذلـک لمنافـاة المعنی المراد و الوجه الحقّ لأغراض أهل ذلک الزّمان الغالب علی أهله الباطل و اتّباع الهوی.

(و لا أنفق منه) بیعا و أکثر رواجا (إذا حرّف عن مواضـعه) و مقاصده الأصـلیّة و ذلک لموافقة أغراضـهم الفاسدة (و لا فی البلاد شیء أنکر من المعروف و لاـ أعرف من المنکر) لما ذکرناه فی شـرح الکلام السابع عشـر من أنّ المعروف لما خالف أغراضـهم و مقاصـدهم طرحوه حتّی صار منکرا بینهم یستقبحون فعله، و المنکر لما وافق دواعیهم لزموه حتّی صار معروفا بینهم یستحسنون أخذه.

(فقـد نبـذ الکتاب) وراء ظهره (حملته) أی أعرض عنه و ترک التـدبّر فیه و العمل به قرّاؤه الحاملون له کمثل الحمار یحمل أسـفارا (و تناساه حفظته) أی تغافلوا عن اتّباعه و عن امتثال أوامره و نواهیه (فالکتاب یومئـذ و أهله) الّـذین یتلونه حقّ تلاوته و هم أئمّة الدّین و أتباعهم الّذین یعملون به و یتّبعونه (طریـدان منفیـان) لأـنّ أهـل ذلـک الزّمان برغبتهم إلی الباطل و عـدولهم عن الحقّ معرضون عن الکتاب الهادی إلی الحقّ و عن أهله الأدلاّء الیه، بل مؤذون لهم فیما یخالفونهم فیه مما یقتضـیه أحکام الکتاب، فکان إعراضهم عنه و عنهم إبعادا لهما و نفیا و طردا (و صاحبان مصـطحبان فی طریق واحد) أی متلازمان متّفقان علی الدلالة فی طریق الحقّ (لا یؤویهما مؤو) أی لا یضـمّهما أحد من ذلک الزّمان إلیه و لا ینزلهما عنده لنفرته عنهما و مضادّتهما لهواه.

(فالکتاب و أهله فی ذلک الزّمان فی النّاس) و بینهم ظاهرا (و لیسا فیهم)

ص:69

حقيقـة لعـدم اتّباعهمـا و الغاء فائـدتهما فأشـبها ما ليس بموجود و معهم بالمصاحبـة الاتفاقيـة فى الوجود، و ليسا معهم لانتفاء ثمرتهما و منافعهما عنهم (لأنّ الضّلالة لا توافق الهدى) يعنى ضلالتهم لا توافق هدى الكتاب و أهله فكانا مضادّين لهم (و إن اجتمعا) فى الوجود.

(فاجتمع القوم على الفرقة) أى اتّفق أهل ذلک الزّمان على الافتراق من الكتاب و تركه و طرده (و افترقوا عن الجماعة) أى الجماعة المعهودة و هم أهل الكتاب العاملون به.

قـال الشـارح البحرانى (ره) فى شـرح هـذه القرينـة و سابقته، أى اتّفقوا على مفارقـة الاجتماع و ما عليه الجماعـة، أمّا فى وقته عليه السّلام فكالخوارج و البغاة، و أمّا فيما يسـتقبل بعـده من الزّمان فكالآخـذين بالآراء و المذاهب المتفرّقة المحدثة فى الدّين و الاجتماع على الفرقة يلازم الافتراق عن الجماعة، انتهى.

و ما ذكرنا أقرب و أنسب بالسـياق و أولى فافهم (كأنّهم أئمة الكتاب) يحرّفونه و يغيّرونه و يبدّلونه و يأوّلونه عن وجهه على ما يطابق أغراضهم الفاسدة و يجبرون على مخالفته كما هو شان الامام مع الماموم (و ليس الكتاب إمامهم) الواجب عليهم اتّباعه و اللاّزم لهم اقتفاء اثره.

و حيث إنهم خالفوه و نبذوه وراء ظهورهم (فلم يبق عندهم منه) فى مقام التّمسک و الاسـتناد (إلاّ اسمه و لا يعرفون) من آثاره و شئونه (إلاّ خطّه و زبره) أى رسـمه و كتابته فقط دون اتّباع مقاصـده (و من قبل ما مثلوا بالصّالحين كلّ مثلـة) أى من قبل الحالات المتقدّمة التى اشـير اليها تنكيلهم بالصّالحين غاية تنكيل و عقوبتهم أشدّ عقوبة.

و لعلّه اشارة إلى ما صـدر من بنى اميّـة فى أوائل سـلطنتهم، فقـد روى العلاّمـة الحلّى قدّس اللّه روحه فى كشف الحقّ عن صاحب كتاب الهاوية أنّ معاوية قتل من المهاجرين و الأنصار و أولادهم أربعين ألفا، و فعل ابنه يزيد اللّعين بالحسـين عليه السّلام و أصـحابه فى الطّف غنى عن البيان، و كذلک ما فعله عبد الملک بن مروان و عامله

الحجّاج عليهما لعائن اللّه سبحانه بالعراق و الحجاز و غيرهما مشهور و مأثور، هذا.

و يحتمل أن يكون الاشارة بالكلام السّابق أعنى قوله: و إنّه سيأتى عليكم من بعدى زمان، إلى قوله: و من قبل إلى ملك فراعنة الأمّة أعنى بنى العبّاس خذلهم اللّه، و يكون المراد بقوله: و من قبل الاشارة إلى زمن بنى اميّة الكائن قبل زمن بنى العبّاس، فانّ اتّصاف كلا الزّمانين بالأوصاف المذكورة لا غبار عليه.

و قوله:(و سمّوا صدقهم على اللّه فرية) أى سمّوا صدق الصّالحين افتراء على اللّه سبحانه و نسبوهم فى ما يقولون إلى الكذب (و جعلوا فى الحسنة عقوبة السيّئة) يعنى أنّهم بغلبة الشّرور و الفساد على طباعهم رأوا حسنات الصّالحين سيئات، فعاقبوهم عليها و عذّبوهم بها كما يعاقب المسىء بإسائته.

الفصل الثالث

فى النّصح و الموعظة و تنبيه المخاطبين

على وجوب قصر الآمال على مفاسد طول الأمل الذى هو من أعظم الموبقات و أخزى السيّئات حسب ما عرفته فى الخطبة الثانية و الأربعين و شرحها قال عليه السّلام هنا:(و إنّما هلك) أراد به الهلاك الاخروى (من كان قبلكم) من القرون الماضية (بطول آمالهم) فى الدّنيا الموجب للاستغراق فى لذّاتها و الانهماك فى شهواتها المبعدة عن اللّه سبحانه (و تغيّب آجالهم) عنهم الموجب للغفلة عنها و عن أخذ الزّاد ليوم المعاد (حتّى نزل بهم الموعود) أى الموت (الذى تردّ عنه المعذرة) أى لا يقبل فيه اعتذار معتذر (و ترفع عنه التّوبة) لأنّ بابها تنسدّ حين نزوله.

قال تعالى: «وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً» (و تحلّ معه القارعة) و المصيبة التى تقرع النّاس بالإفزاع و الأهوال (و) تتبعها (النقمة) و النكال.

ص:71

و لمّـا خوّفهم من طول الأمـل عقّبه بالارشاد و الدّلالـة على ما فيه صـلاحهـم فقال (أيّها النّاس إنّه من اسـتنصح اللّه وفّق) أى من اتّخـذ اللّه ناصـحا له واعيـا لكلاـمه حافظـا لأوامره و نواهيه وفّق لكلّ خير (و من اتّخـذ قوله دليلا) فى مطالبه و مقاصـده (هـدى ل)لطريقـة(الّتى هى أقوم)الطّرق و أنهجها.

و فى هـذه القرينـة تلميح إلى قوله تعالى:«إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِيَ أَقْوَمُ » قال الطّبرسـى: يهدى إلى الديانة و الملّة و الطريقة الّتى هى أشـدّ اسـتقامة يقـال هـذه الطريق و للطّريق و إلى الطّريق، و قيل: معناه يرشـد إلى الكلمـة الّتى هى أعـدل الكلمات و أصوبها و هى كلمة التّوحيد، و قيل: يهدى إلى الحال الّتى هى أعدل الحالات و هى توحيد اللّه و الايمان به و برسله و العمل بطاعته انتهى.

و الأخير أظهر بمقتضى عموم وظيفته، و فى تفسير أهل البيت عليهم السّلام أنه يهدى إلى الامام، فى رواية اخرى يهدى إلى الولاية.

و لمـا ذكر أنّ اسـتنصاح اللّه يسـتلزم التّوفيق و اتخاذ قوله دليلا يسـتلزم الهـدى رتب عليه قوله:(فإنّ جار اللّه آمن) تنبيها على ثمرة التوفيق و الهداية و هو حصول الجوار من اللّه و القرب المحصّل لأمنه (و) به يعرف أنّ (عدوّ اللّه خائف) لأنّ ترک استنصاحه تعالى مستلزم للخذلان و عدم اتّخاذ قوله دليلا موجب للضلال المبعدين عنه سبحانه و الجالبين لعداوته الذى هو محلّ الخوف و الخطر.

الفصل الرابع

اشارة

فى الأمر بالتّواضع و التّسليم و الانقياد للّه سبحانه

و بالمتابعة لأولياء الدّين و الرجوع اليهم و الأخذ منهم و هو قوله (و إنّه لا ينبغى لمن عرف عظمة اللّه) سـبحانه و جلاله و جبروته و سلطانه (أن يتعظّم) أى يظهر العظمة و يتكبّر، و تخصيص النّهى عن التعظّم بمن عرف عظمته تعالى لاحتقاره نفسه عند ملاحظته لنفسه و نسبته لها إلى جلاله تعالى، فهو أسرع انفعالا و أحقر فى نفسه أن يتكبّر على اللّه.

فهو نظير قوله سبحانه: «قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » فانّ شرطها فی التعوّذ منه کونه تقیا، لأنّ التقیّ إذا تعوّذ بالرّحمن منه ارتدع عمّا یسخط اللّه کما تقول: إن کنت مؤمنا فلا تظلمنی قال أمیر المؤمنین علیه السّلام: علمت أنّ التّقیّ ینهاه التّقی عن المعصیة، هذا.

و علّل حسن التّواضع بقوله (فانّ رفعة الّذین یعلمون ما عظمته أن یتواضعوا له) یعنی أنّ تواضعهم سبب لرفعة درجاتهم و علوّ مقامهم عند الخالق و الخلایق فی الدّنیا و الآخرة أمّا فی الدّنیا فمعلوم بالبدیهة و العیان غنیّ عن البیان، و أمّا فی العقبی فلدلالة الأخبار الکثیرة علیه.

روی فی البحار عن أبی بصیر قال: سمعت أبا جعفر علیه السّلام یقول: إنّ موسی بن عمران حبس عنه الوحی ثلاثین صباحا، فصعد علی جبل بالشّام یقال له اریحا، فقال: یا ربّ لم حبست عنّی وحیک و کلامک الذنب أذنبته فها أنا بین یدیک فاقتص لنفسک رضاها، و إن کنت إنما حبست عنّی وحیک و کلامک لذنوب بنی اسرائیل فعفوک القدیم، فأوحی اللّه إلیه یا موسی تدری لم خصصتک بوحیی و کلامی من بین خلقی؟ فقال: لا أعلمه یا ربّ، قال: یا موسی إنّی اطلعت علی خلقی اطلاعة فلم أر فی خلقی أشد تواضعا منک، فمن ثمّ خصصتک بوحیی و کلامی من بین خلقی، قال علیه السّلام: فکان موسی إذا صلّی لم ینفتل حتّی یلصق خدّه الأیمن بالأرض و خدّه الأیسر بالأرض.

و فی عدّة الدّاعی عن الباقر علیه السّلام قال: أوحی اللّه تعالی إلی موسی أ تدری لم اصطفیتک بکلامی من دون خلقی؟ قال: لا یا ربّ قال: یا موسی إنی قلّبت عبادی ظهرا لبطن فلم أر أذلّ نفسا منک، إنک إذا صلّیت وضعت خدّیک علی التراب.

و فی روایة اخری قلّبت عبادی ظهرا لبطن فلم أر أذلّ لی نفسا منک فأحببت أن أرفعک من بین خلقی.

و عن النبیّ صلّی اللّه علیه و آله ثلاثة لا یزید اللّه بهنّ إلاّ خیرا: التواضع لا یزید اللّه به إلاّ ارتفاعا، و ذلّ النّفس لا یزید اللّه به إلاّ عزّا، و التعفّف لا یزید اللّه به إلاّ غنی.

و فى احياء العلوم لأبى حامد الغزالى قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: ما زاد اللّه عبدا بعفو إلاّ عزّا و ما تواضع أحد للّه إلاّ رفعه اللّه.

قال المسيح عليه السّلام: طوبى للمتواضعين فى الدّنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة طوبى للمصلحين بين النّاس فى الدّنيا هم الّذين يرثون الفردوس، طوبى للمطهرة قلوبهم فى الدّنياهم الّذين ينظرون إلى اللّه تعالى يوم القيامة و قال ابن عباس قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إذا تواضع العبد رفعه اللّه إلى السّماء السّابعة و قال صلّى اللّه عليه و آله: التواضع لا يزيد العبد إلاّ رفعة فتواضعوا يرحمكم اللّه و عن الفضيل و قد سئل عن التواضع ما هو، فقال: أن تخضع للحقّ و تنقاد له و لو سمعته من صبىّ قبلته و لو سمعته من أجهل النّاس قبلته، هذا.

و التّواضع من جنود العقل و يقابله التكبّر الّذى نشرح حاله فى التّنبيه الآتى و هو من جنود الجهل، و الأوّل من منجيات الأخلاق و فضائل الأحوال، و الثانى من موبقات الصفات و رذائل الخصال، و لا يحصل التواضع إلاّ بمعرفة النفس و معرفة الرّب تعالى، فمهما عرف نفسه حقّ المعرفة علم أنّه أذلّ من كلّ ذليل و أقلّ من كلّ قليل، و أنّه لا يليق به إلاّ التواضع و الذلّة و المهانة، و إذا عرف ربّه علم أنّه لا يليق العظمة و الكبرياء إلاّ به.

و علّله أيضا بقوله (و سلامة الّذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له) يعنى سلامة من علم عموم قدرته سبحانه و غلبة عزّته تعالى من النّار و من غضب الجبّار إنّما تحصل بالاستسلام و ترك الاستكبار و الأوّل من جنود العقل، و الثّانى من جنود الجهل.

قال بعض شرّاح الكافى: الاستسلام هو الطاعة و الانقياد لكلّ ما هو حقّ، و هو من صفات المؤمن، و عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: المؤمنون هيّنون ليّنون إن قيدوا انقادوا و ان انيخوا استناخوا، و ضدّ الانقياد الاستكبار و الانفة، و الفرق بينه و بين الكبر أنّ الكبر حالة نفسانية كائنة فى النفس ربما لم يظهر أثره فى الخارج بخلاف الاستكبار

فانّه عبارة عن إظهار التكبر.

و لما أمرهم بالتواضع و الاستسلام للّه سبحانه المستلزمين لأخذ الحقّ و قبوله من أهله اتبعه بقوله:(فلا تنفروا من الحقّ)و أهله و هم أولياء الدّين(نفار الصحيح من الأجرب و البارىء من ذى السّقم)أى أشدّ النّفار كما فى الشّبه بهما، هذا و لما نهاهم عن النفار من الحقّ و أمرهم بلزومه عقّبه بقوله (و اعلموا أنكم لن تعرفوا الرّشد حتّى تعرفوا الّذى تركه) الرّشد يساوق الحقّ كما أنّ الغىّ يساوق الباطل، و الغرض بهذه الجملة التنبيه على أنّ معرفة الرّشد أى الحقّ تتوقّف على معرفة تاركه أى أئمّة الضّلال و أهل الباطل إذ مع عدم معرفتهم ربما يشتبه فيزعم أنّ أقوالهم حقّ فيأخذ بها و يقع فى الخبط و الضلال.

كما اشير إليه فى الخطبة الثامنة و الثلاثين بقوله: و إنما سمّيت الشبّهة شبهة لأنّها تشبه الحقّ فأما أولياء اللّه فضياءهم فيها اليقين و دليلهم سمت الهدى و أمّا أعداء اللّه فدعائهم فيها الضّلال و دليلهم العمى، و قد مضى فى شرح هذه الخطبة ما ينفعك ذكره فى هذا المقام، فاللاّزم على طالب الرّشد أن يعرف أئمة الغىّ و الضلال و يجتنب عنهم.

و بما ذكر يظهر أيضا معنى قوله:(و لن تأخذوا بميثاق الكتاب حتّى تعرفوا الّذى نقضه و لن تمسّكوا به حتّى تعرفوا الّذى نبذه) توضيح ذلك أنّ كتاب اللّه سبحانه لما كان من أسباب الرّشد كما قال تعالى: «إِنّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ » و كان التمسّک به منقذا من الضّلال كما قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى حديث الثقلين: انّى قد تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدى الثقلين و أحدهما أكبر من الآخر كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض و عترتى أهل بيتى، لاجرم كان الأخذ و التمسّک به واجبا.

و لما كان معنى الأخذ و التمسّک هو اتّباعه و معرفة معناه حقّ العلم و العمل بمواثيقه و أحكامه الّتى هى عهد اللّه تعالى لزم على ذلک معرفة الناقضين لمواثيقه و النابذين لأحكامه وراء ظهورهم، و هم المحرّفون المبدّلون له و المغيّرون لأحكامه

و المفسّرون له بآرائهم المتبوّءون مقعدهم من النّار، و إنّما توقف الأخذوا لتمسّك على معرفة هؤلاء ليحترز عن الرّجوع اليهم و الى تفاسيرهم كيلا يتبوّء مقعده مثلهم من النار.

و محصّل المراد من هذه الجملات الثلاث التّنبيه على وجوب التبرّى من أئمّة الضّلال و المعاداة لأعداء اللّه سبحانه و قد دلّت عليه النصوص الكثيرة.

مثل ما فى البحار من السرائر من كتاب انس العالم للصفوانى قال: إنّ رجلا قدم على أمير المؤمنين عليه السّلام فقال: يا أمير المؤمنين إنّى احبّك و احبّ فلانا و سمّى بعض أعدائه فقال: أمّا الآن فأنت أعور فإمّا أن تعمى و إمّا أن تبصر.

و قيل للصّادق عليه السّلام: إنّ فلانا يواليكم إلاّ أنّه يضعف من البراءة من عدوّكم فقال هيهات كذب من ادّعى محبّتنا و لم يتبرّء من عدوّنا.

و روى عن الرّضا عليه السّلام أنه قال: كمال الدّين ولايتنا و البراءة من عدوّنا.

ثمّ قال الصفوانى: و اعلم أنّه لا يتمّ الولاية و لا تخلص المحبّة و لا تثبت الموده لآل محمّد عليهم السّلام إلاّ بالبرائة من أعدائهم قريبا كان أو بعيدا، فلا تأخذك به رأفة فانّ اللّه عزّ و جلّ يقول: «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ».

و فيه من تفسير العيّاشى عن أبى حمزة الثمالى قال: قال أبو جعفر عليه السّلام يا أبا حمزة انّما يعبد اللّه من عرف اللّه، و أمّا من لا يعرف اللّه كأنّما يعبد غيره هكذا(1) ضالاّ، قلت:

أصلحك اللّه و ما معرفة اللّه؟ قال: يصدّق اللّه و يصدّق محمّدا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى موالاة علىّ و الائتمام به و بأئمّة الهدى من بعده، و البراءة إلى اللّه من عدوّهم، و كذلك عرفان اللّه، قال قلت: أصلحك اللّه أىّ شىء اذا علمته أنا استكملت حقيقة الايمان؟ قال: توالى أولياء اللّه و تعادى أعداء اللّه و تكون مع الصّادقين كما أمرك اللّه، قال: قلت: و من أولياء اللّه و من أعداء اللّه؟ فقال: أولياء اللّه محمّد رسول اللّه و علىّ و الحسن و الحسين

1- (1) قوله هكذا كانه (عليه السلام) أشار الى الخلف أو الى اليمين أو الشمال، أى حادّ عن الطريق الموصل الى النجاة فلا يزيده كثرة العمل الاّ بعدا عن المقصود كمن ضلّ عن الطريق (بحار)

و علیّ بن الحسین، ثمّ انتهی الأمر الینا ثمّ ابنی جعفر و أومأه إلی جعفر علیه السّلام و هو جالس، فمن والی هؤلاء فقد والی أولیاء اللّه و کان مع الصّادقین کما أمره اللّه قلت و من أعداء اللّه أصلحک اللّه؟ قال: الأوثان الأربعة قال: قلت: من هم؟ قال:

ابو الفصیل(1) ، و رمع، و نعثل، و معاویة و من دان دینهم، فمن عادی هؤلاء فقد عادی أعداء اللّه.

و من عقاید الصّدوق قال: اعتقادنا فی الظّالمین أنّهم ملعونون و البراءة منهم واجبة، قال اللّه عزّ و جلّ: «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللّهِ کَذِباً أُولئِکَ یُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَ یَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِینَ کَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِینَ اَلَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ وَ یَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ کافِرُونَ ».

و قال ابن عبّاس فی تفسیر هذه الآیة: إنّ سبیل اللّه عزّ و جلّ فی هذا الموضع هو علیّ بن أبی طالب.

و الأئمة فی کتاب اللّه عزّ و جلّ إمامان: إمام هدی و إمام ضلالة، قال جلّ ثناؤه «وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمّا صَبَرُوا » و قال عزّ و جلّ فی أئمة الضلالة: «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً یَدْعُونَ إِلَى النّارِ وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ لا یُنْصَرُونَ وَ أَتْبَعْناهُمْ فِی هذِهِ الدُّنْیا لَعْنَةً وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِینَ ».

و لمّا نزلت هذه الآیة: «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِیبَنَّ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْکُمْ خاصَّةً » قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله من ظلم علیا مقعدی هذا بعد وفاتی فکأنما جحد نبوّتی و نبوّة الأنبیاء من قبلی، و من تولّی ظالما فهو ظالم.

«یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَکُمْ وَ إِخْوانَکُمْ أَوْلِیاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْکُفْرَ عَلَى الْإِیمانِ وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَأُولئِکَ هُمُ الظّالِمُونَ » و قال اللّه عزّ و جلّ: «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللّهُ عَلَیْهِمْ » و قال عزّ و جلّ «لا تَجِدُ قَوْماً یُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ یُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ کانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِیرَتَهُمْ »

1- (1) أبو الفصیل أبو بکر لأنّ الفصیل و البکر متقاربان فی المعنی و رمع مقلوب عمر و نعثل هو عثمان کما فی کتب اللغة (بحار)

و قال عزّ و جلّ: «وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّارُ » و الظلم هو وضع الشىء فى غير موضعه، فمن ادّعى الامامة و ليس بامام فهو ظالم ملعون.

و قال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جحد عليا إمامته من بعدى فانّما جحد نبوّتى، و من جحد نبوّتى فقد جحد اللّه ربوبيّته.

و قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعلىّ عليه السّلام: يا علىّ أنت المظلوم بعدى من ظلمك فقد ظلمنى و من أنصفك فقد أنصفنى و من جحدك فقد جحدنى و من والاک فقد والانى و من عاداک فقد عادانى و من أطاعک فقد أ طاعنى و من عصاک فقد عصانى، الى غير ذلک مما لا نطيل بذکرها.

فقد علم بذلک کلّه وجوب التّبرّى عن أئمّة الضّلال و التولّى لأئمّة الهدى.

و ذلک لما نبّه أمير المؤمنين عليه السّلام على التنفير عن الفرقة الاولى بمعرفتهم و معرفة ما هم عليه من الخطاء و الجهل و الشبّه أمر باتّباع الفرقة الاخرى و الرجوع اليهم بقوله:(فالتمسوا) و اطلبوا (ذلک) أى ما سبق ذکره يعنى الحقّ و الرشد و ميثاق الکتاب و کيفية التمسّک به (من عند أهله) أراد به نفسه الشريف و الطيّبين من أولاده أعنى الأئمة المعصومين و ينابيع العلم و اليقين(فانهم عيش العلم و موت الجهل)أى بهم حياة العلم و ممات الجهل و استعار لهم هذين الوصفين باعتبار أنّ بهم ينتفع بالعلم و يحصل ثمراته و آثاره کما أنّ بحياة الشىء يوجد آثاره و ينتفع به، و کذلک بهم يبطل الجهل و يضمحلّ کما أنّ بالموت يبطل حياة الحىّ و يفنى.

(هم الذين يخبرکم حکمهم عن علمهم) يجوز أن يراد بالحکم ما صدر عنهم من الأحکام الشرعية و التکاليف الالهية، و أن يراد به القضاء و فصل الخصومات فى الوقائع الشخصيّة، و على أىّ تقدير يدلّ ما صدر عنهم من القضاء و الأحکام على غزارة علمهم و جمّ معرفتهم عليهم السّلام، و ينبئک بذلک ما قدّمناه فى شرح قوله عليه السّلام: و عندنا أهل البيت أبواب الحکم، فى شرح الکلام المأة و التاسع عشر فتذکّر.

(و صمتهم من منطقهم) فانّ لصمت اللّسن ذى الحکمة الغزيرة هيئة

و حالـة و وقـارا يـدل على حسن منطقه و علمه بمـا يقـول (و ظـاهرهم عن بـاطنهم) أى حسن أفعـالهم و حركـاتهم الظاهريّـة يكشف عن كمالاتهم و ملكاتهم النفسانيّـة (لا يخالفون الـدّين) لأنهم قوامه و أولياؤه و ملازمون له، معصومون من الذنوب، مبرّؤون من العيوب (و لا يختلفون فيه) أى لا يختلف أحـدهم للآخر فيما يؤدّونه من أحكام اللّه و يبلّغونه من أوامره، لأنّ علومهم كلّها من نبع واحد ملقاة عن مهبط الوحى و معـدن الرّسالـة، و بعـد اتّحاد المنبع لا يتصوّر الاختلاف لمكان العصـمة المانعـة عن تعمـد الكذب و الغلط و السّهو و الخطاء النّاشى منها الاختلاف.

روى فى الكافى عن أبى جعفر عليه السّلام قال: قال اللّه عزّ و جلّ فى ليلة القدر:

فيها يفرق كلّ أمر حكيم، يقول: ينزل فيها كلّ أمر حكيم، و المحكم ليس بشيئين، فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم اللّه عزّ و جلّ، و من حكم بـأمر فيه اختلاف فرأى أنّه مصـيب فقـد حكم بحكم الطّاغوت، الحـديث و قـد مرّ بتمامه فى شـرح الفصل التّاسع من الخطبة الاولى.

و فى البحـار من معـانى الأخبـار عن الحسـين الأشـقر قـال: قلت لهشـام بن الحكم ما معنى قولكم: إنّ الامام لا يكون إلاّ معصوما؟ قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن ذلك فقال: المعصوم هو الممتنع باللّه من جميع محارم اللّه، و قال اللّه تبارك و تعالى:

«وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللّٰهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ».

قال المحدّث العلاّمة المجلسـىّ: قال الصّدوق فى معانى الأخبار بعد خبر هشام: الدّليل على عصـمة الامام أنّه لما كان كلّ كلام ينقل عن قائله يحتمل وجوها من التأويل كان أكثر القرآن و السنّة مما اجتمعت الفرقة على أنّه صحيح لم يغيّر و لم يبدّل و لم يزد فيه و لم ينقص منه محتملا لوجوه كثيرة من التّأويل، وجب أن يكون مع ذلک مخبر صادق معصوم من تعمّد الكذب و الغلط منبىء عمّا عنى اللّه عزّ و جلّ فى الكتاب و السّنّة على حقّ ذلک و صدقه، لأنّ الخلق مختلفون فى التّأويل، كلّ فرقة تميل مع القرآن و السّنة إلى مذهبها، فلو كان اللّه تبارک و تعالى تركهم بهذه الصّفة من غير مخبر عن كتابه صادق فيه لكان قد سوّغهم الاختلاف

فى الدّين و دعاهم اليه إذ أنزل كتابا يحتمل التأويل و سنّ نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سنّة تحتمل التأويل و أمرهم بالعمل بهما، فكأنّه قال: تأوّلوا و اعملوا، و فى ذلک إباحة العمل بالمتناقضات و الاعتماد للحقّ و خلافه، فلمّا استحال ذلک على اللّه عزّ و جلّ وجب أن يكون مع القرآن و السّنّة فى كلّ عصر من يبيّن عن المعانى الّتى عناها اللّه عزّ و جلّ فى القرآن بكلامه دون ما يحتمل ألفاظ القرآن من التأويل، و يبيّن عن المعانى الّتى عناها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى سنّته و أخباره دون التأويل الّذى يحتمله الأخبار المرويّة عنه المجمع على صحّة نقلها، و إذا وجب أنّه لا بدّ من مخبر صادق وجب أن لا يجوز عليه الكذب تعمّدا، و لا الغلط فيما يخبر به عن مراد اللّه عزّ و جلّ و عن مراد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى اخباره و سنّته، و إذا وجب ذلک وجب أنّه معصوم، انتهى كلامه رفع مقامه.

فقد ظهر بذلک أنّه لا يتصوّر منهم الاختلاف فى شرائع الدّين لا من أحدهم للآخر و لا من كلّ منهم فيما يصدر عنه من الأحكام المتعدّدة كما ظهر به وجوب الرجوع فى فهم مرادات الكتاب و السّنّة إليهم حسب ما نبّه عليه أمير المؤمنين عليه السّلام بقوله آنفا: فالتمسوا ذلک من عند أهله، فافهم و اغتنم.

(فهو) أى الدّين بينهم (شاهد صادق) أى شاهد صدق يشهد على اتّفاقهم فيه و عدم اختلافهم و خلافهم له (و صامت ناطق) أى ساكت باعتبار كونه أمرا عرضيّا اعتباريّا لا وجود له فى الأعيان، و ناطق باعتبار افادته لكونهم ملازمين له و متّفقين عليه و إنبائه عن أنّهم على الحقّ و الحقّ معهم، هذا.

و ما ذكرناه فى تفسير هاتين الفقرتين أظهر و أولى ممّا قاله الشارح البحرانى حيث قال: و قوله: شاهد صادق أى شاهد يستدّلون به على الأحكام و الوقائع النّازلة بهم و بغيرهم لا يكذّب من حيث هو شاهد، و صامت ناطق لكونه حروفا و أصواتا، و إنما ينطق بألسنتهم فهو بمنزلة النّاطق، انتهى.

قال الشّارح المعتزلى: فالدّين بينهم شاهد صادق يأخذون بحكمه كما يأخذ

ص:80

بحكم الشاهد الصادق، و صامت ناطق لأنه لا ينطق بنفسه بل لا بدّ له من مترجم فهو صامت فى الصّورة و فى المعنى أنطق النّاطقين، لأنّ الأوامر و النواهى و الآداب كلّها مبنيّة عليه و متفرّعة عنه، انتهى.

و أنت خبير بما فيما قالاه من الضّعف و الفساد و كونه أجنبيّا على تقدير صحّته من مساق كلام الامام عليه السّلام فافهم و تأمّل.

تنبيه

لمّا كانت هذه الخطبة الشريفة متضمنة للأمر بالتواضع و النّهى عن التكبّر و اشرنا إلى فضل التّواضع و حسنه أحببنا أن نشرح صفة الكبر و نبيّن ما ورد فيه من الأدلّة الدّالة على قبحه و خسّته و كونه من الموبقات، و الكلام فيه فى مقامات

المقام الاول

فى الآيات و الأخبار الواردة فى النّهى عن تلك الصّفة

، و المتضمّنة لقبحها و ذمّها و ما يترتّب عليه من الخزى و العقاب.

فأقول: قال اللّه تعالى فى سورة الزّمر: «وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ » و فى سورة المؤمن: «اَلَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ » و فى سورة المؤمن أيضا: «وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ » أى صاغرين ذليلين.

و فى سورة بنى اسرائيل: «وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً » قال الطبرسى: معناه لا تمش على وجه الأشر و البطر و الخيلاء و التكبّر و قوله: إنّك لن تخرق الأرض، هذا مثل ضربه اللّه تعالى، قال:

إنّک أيّها الانسان لن تشقّ الأرض من تحت قدمک بكبرک، و لن تبلغ الجبال بتطاولک، و المعنى أنّک لن تبلغ ممّا تريد كثير مبلغ كما لا يمكنک أن تبلغ هذا فما وجه المنابذة على ما هذا سبيله مع أنّ الحكمة زاجرة عنه، و انّما قال ذلک، لأنّ من النّاس من يمشى فى الأرض بطرا يدقّ قدميه عليها ليرى بذلک قدرته و قوّته و يرفع رأسه و عنقه، فبيّن سبحانه أنه ضعيف مهين لا يقدر أن يخرق الأرض بدقّ قدميه عليها حتّى ينتهى إلى آخرها، و أنّ طوله لا تبلغ طول الجبال و إن كان طويلا، هذا.

و الآيات الناهية فى الكتاب العزيز كثيرة لا حاجة إلى ايرادها.

و اما الاخبار ففى الكافى باسناده عن أبى حمزة الثمالى قال. قال علىّ بن الحسين صلوات اللّه عليهما: عجبا للمتكبّر الفخور الذى كان بالأمس نطفة ثمّ هو غدا جيفة.

و عن عيسى بن ضحاک قال: قال أبو جعفر عليه السّلام: عجبا للمختال الفخور و إنّما خلق من نطفة ثمّ يعود جيفة و هو فيما بين ذلک لا يدرى ما يصنع به.

و عن علىّ بن إبراهيم عن أبيه عن النّوفلىّ عن السّكونى عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رجل فقال: يا رسول اللّه أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعة.

فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أما أنّک عاشرهم فى النّار.

و عن حكيم قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن أدنى الالحاد، قال عليه السّلام: إنّ الكبر أدناه.

و عن العلاء بن الفضيل عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: قال أبو جعفر عليه السّلام: العزّ رداء اللّه، و الكبر ازاره، فمن تناول منه شيئا أكبّه اللّه فى جهنّم.

و عن عبد الأعلا بن أعين قال: قال أبو عبد اللّه عليه السّلام: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: إنّ أعظم الكبر غمس الخلق و سفه الحقّ، قلت: و ما غمس الخلق و سفه الحقّ؟ قال:

يجهل الحقّ و يطعن على أهله، فمن فعل ذلک فقد نازع اللّه ردائه.

و عن أعظم بن كثير عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: إنّ فى جهنّم لواديا للمتكبّرين

يقال له سقر شكى إلى اللّه شدّة حرّة و سأله أن يأذن له أن يتنفّس فتنفّس فأحرق جهنّم.

و عن علىّ بن إبراهيم، عن أبيه عن ابن أبى عمير عن بعض أصحابه عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: ما من عبد إلاّ و فى رأسه حكمة و ملك يمسكها فاذا تكبّر قال له: اتّضع وضعك اللّه، فلا يزال أعظم النّاس فى نفسه و أصغر النّاس فى أعين الناس، و إذا تواضع رفعها اللّه عزّ و جلّ ثمّ قال له: انتعش نعشک اللّه فلا يزال أصغر الناس فى نفسه و أعظم النّاس فى أعين النّاس.

و فى احياء العلوم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يدخل الجنّة من كان فى قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر، و لا يدخل النّار من كان فى قلبه مثقال حبّة من خردل من ايمان.

و قال أبو هريرة: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يقول اللّه تعالى: الكبرياء ردائى و العظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنّم و لا ابالى.

و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: بئس العبد عبد تجبّر و اعتدى و نسى الجبّار الأعلى، بئس العبد عبد تجبّر و اختال و نسى الكبير المتعال، بئس العبد عبد غفل و سهى و نسى المقابر و البلى، بئس العبد عبد عتا و بغى و نسى المبدأ و المنتهى.

و قـال أبو هريرة قـال النّبى صـلّى اللّه عليه و آله: يحشـر الجبّـارون و المتكبّرون يوم القيامـة فى صور الـذّر تطؤهم النّاس لهوانهم على اللّه تعالى.

و عن محمّد بن واسع قال: دخلت على بلال بن أبى بردة فقلت له: يا بلال إنّ أباک حدّثنى عن أبيه عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أنّه قال: إنّ فى جهنّم واديا يقال له هبهب حقّ على اللّه أن يسكنه كلّ جبار فايّاک يا بلال أن تكون ممّن يسكنه.

الثانى فى حقيقة الكبر و ماهيته

و هو الانتفاخ و التعزّز الحاصل من استعظام النّفس و استحقار الغير،

و بعبارة اخرى هو أن يرى نفسه فوق غيره فى صفات الكمال فيحصل من ذلك فيه نفخة و اهتزاز و تلك النفخة هى الكبر، و لذلك قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أعوذ بک من نفخة الكبرياء، و هذه الحالة إذا حصلت فى النفس اقتضت أعمالا فى الظاهر تصدر عن الجوارح هى ثمرات تلک الخصلة الرّذيلة، فالكبر هى الحالة النّفسانيّة و الخلق الباطنى، و ثمرات تلک الخضلة و آثارها فى الظّاهر تسمّى تكبّرا كالترفّع فى المجالس و التقدّم على الغير و توقع السّلام و النظر بعين التحقير، فان حاجّ أو ناظر أنف أن يردّ عليه، و إن وعظ استنكف من قبول الحقّ، و إن وعظ أعنف فى النّصح، و إن ردّ عليه شىء من قوله غضب، و إن علّم لم يرفق بالمتعلّمين و استذلّهم و امتنّ عليهم، و إن نظر إلى العامّة نظر إليهم بعين الاحتقار كأنه ينظر إلى الحمير استجهالا لهم و استحقارا.

الثالث فى المتكبر عليه

و الفرق بين الكبر و العجب بذلک، فانّ العجب لا يستدعى غير المعجب بل لو لم يخلق الانسان إلاّ وحده يمكن أن يكون معجبا، بخلاف الكبر فانّه يتوقّف على أن يكون هنا غير فيرى نفسه فوق هذا الغير فى صفات الكمال، و ذلک الغير هو المتكبّر عليه، و ينقسم الكبر باعتبار المتكبّر عليه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الاول

التكبّر على اللّه سبحانه

و هو من أفحش أنواع الكبر و أقبحها و أوبقها، و لا منشأ له إلاّ محض الجهل و الحمق و الطّغيان، و ذلک مثل ما كان فى نمرود حيث كان يحدّث نفسه بأنّه يقاتل ربّ السّماء، و فى فرعون حيث قال أنا ربّكم الأعلى و فى شدّاد حيث بنى إرم ذات العماد، و نحو ذلک ممّا صدر عن المدّعين للرّبوبيّة و المترفّعين عن درجة العبودية، «وَ إذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَ مَا الرَّحْمنُ »

«أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَ زادَهُمْ نُفُوراً ».

القسم الثانى

التكبّر على الأنبياء و الرّسل و الأوصياء عليهم السّلام

من حيث تعزّز النفس و ترفّعها عن الانقياد لبشر مثل سائر النّاس، و ذلك تارة يصرف عن الفكر و الاستبصار فيبقى فى ظلمة الجهل بكبره و هو ظانّ أنّه محقّ فيه، و تارة يمنع مع المعرفة و لكن نفسه لا تطاوع الانقياد للحقّ و التّواضع للرّسل كما حكى اللّه عن قولهم: «ما أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْ ءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَكْذِبُونَ » و قوله: «إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا » «وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ ».

و قال سبحانه فيما اخبر عن كفّار قريش فى رسول اللّه: «وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها » استبعدوا أن يكون من يأكل الطعام و يطلب المعاش فى الأسواق رسولا مطاعا و استحقروه لفقره حتّى تمنّوا له الكنز لينفق منه و يستغنى به عن النّاس و تمنّوا له البستان ليأكل من ثمارها.

و أخبر عنهم أيضا بقوله: «وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » يعنون بالقريتين مكّة و الطّائف و بالرّجل العظيم الوليد بن المغيرة من مكة و أبا مسعود عروة بن مسعود الثقفى من الطائف، و انما قالوا ذلک لأنّ الرجلين كانا عظيمى قومهما ذوى الأموال الجسيمة فزعموا أنّ من كان كذلک أولى بالنّبوّة من غلام يتيم لا مال له فردّ اللّه عليهم بقوله: «أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّکَ » أى النّبوة بين الخلق يعنى أ بأيديهم مفاتيح الرسالة يضعونها حيث شاءوا، بل هى بيد اللّه سبحانه يعطيها من يشاء.

و من هذا القسم تكبّر المتخلّفين على أمير المؤمنين عليه السّلام و تكبّر امراء بنى امية و بنى مروان و بنى العبّاس لعنهم اللّه أجمعين على أئمّة الدّين.

ص:85

القسم الثالث

التكبّر على العباد

، و ذلک بأن يستعظم نفسه و يستحقر غيره، فيدعوه ذلک إلى التّرفع عليه و يأباه عن الانقياد إليه و هذا أيضا قبيح من وجهين:

أحدهما أنّ الكبر و العزّ و العظمة و الجلال لا يليق إلاّ بالملک القادر المتعال فمن أين يليق هذا الوصف بالعبد الضّعيف الذّليل المهين، فمتى تكبّر فقد نازع اللّه فى جلاله و انتحل وصف كماله، و ما أشدّ جرئته على مولاه، و ما أقبح ما ادّعاه و تعاطاه، و لذلک قال عزّ من قائل: العظمة ازارى و الكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما قصمته، أراد أنّهما مختصّان بى اختصاص الازار و الرّداء و المنازع فيهما منازع فى الصفّة المخصوصة بى.

و ثانيهما أنّه ربما يدعو إلى مخالفة أمر اللّه و نهيه، لأنّ المتكبّر إذا سمع الحقّ من أحد استنكف من قبوله، و لذلک ترى اكثر المناظرين فى المسائل العلمية يزعمون أنّهم يتباحثون للافادة و الاستفادة فمهما اتّضح الحقّ على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله و ركب مركب العصبية و العناد، و يتجاحد تجاحد المنكر، و يحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس، لئلاّ يظهر للنّاس مغلوبيّته، و من ذلک كان علماء الآخرة يتجنّبون عن المناظرة فى المجالس.

و قد روى السيّد المحدّث الجزائرى أنّ المولى الصّالح العالم عبد اللّه التسترى كان إذا سأل مولانا المقدّس الأردبيلى عطّر اللّه مرقده عن مسألة و تكلّما فيها سكت الأردبيلى فى أثناء الكلام، و قال حتّى اراجعها فى الكتب، ثمّ أخذ بيد التّسترى و يخرجان من النّجف الأشرف إلى خارج البلد فاذا انفردوا قال المولى الأردبيلى: هات يا أخى تلک المسألة فيتكلّم فيها و يحقّقها الأردبيلى على ما يريد المولى التسترى، فسأله و قال يا أخى هذا التحقيق هلاّ تكلّمت به هناک حيث ما سألتک؟ فقال: إنّ كلامنا كان بين النّاس و عسى أن يكون فيه تنافس و طلب الظفر منک أو منّى و الآن لا أحد معنا سوى اللّه سبحانه.

و كيف كان فهذا الخلق من أخلاق الكافرين و المنافقين الّذين حكى اللّه عنهم

بقوله: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهـذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » فكلّ من يناظر للافحام و الغلبة لا يغتنم الحقّ إذا ظفر به فقد شاركهم فى هذا الخلق و تبعهم عليه.

و أوّل من صدر عنه التّكبر على أمر اللّه تعالى هو ابليس اللّعين حيث إنّه لما دعى إلى السّجود لآدم عليه السّلام قال: أنا خير منه خلقتنى من نار و خلقته من طين، فحمله الكبر على الاباء من السّجود الّذى أمره اللّه به، و كان مبدؤه الكبر على آدم و الحسد له فجرّه ذلک إلى التكبّر على أمر اللّه فكان ذلک سبب الطّرد و الابعاد، و اهلاكه أبد الآباد.

الرابع فى ما به التكبر

فاعلم أنّ أسباب الكبر سبعة:

الاول العلم

و ما أسرع الكبر إلى العلماء و لذلک قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آفة العلم الخيلاء فلا يلبث العالم أن يتعزّز بعزّ العلم و يستشعر فى نفسه جمال العلم و كماله و يستعظم نفسه و يستحقر النّاس و يستجهل و يتوقّع أن يبدءوه بالسّلام، فان بدء واحدا منهم بالسّلام أو ردّ عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة يمتنّ به عليه و رأى ذلک صنيعة عنده و اعتقد أنّه أكرمه و فعل به ما لا يستحقّه.

و السّبب لكبره هو خوضه فى تحصيل العلوم و هو ردىّ النّفس خبيث الدّخلة سىّ ء الأخلاق فانّه لم يشتغل أوّلا بتهذيب نفسه و تزكية قلبه بالمجاهدات و الرياضات فبقى خبث الجوهر فاذا خاض فى العلم أىّ علم كان صادف العلم من قبله منزلا خبيثا فلم يطب ثمره و لم يظهر فى الخير أثره.

و لذلک قال عيسى بن مريم عليه السّلام: بالتّواضع تعمر الحكمة لا بالتكبّر و كذلک فى السّهل ينبت الزرع لا فى الجبل.

و قال وهب: العلم كالغيث ينزل من السّماء حلوا صافيا فتشربه الأشجار

بعروقهـا فتحوله على قـدر طعومها فيزداد المرّ مرارة و الحلو حلاوة، فكـذلک العلم يحفظه الرّجال فتحوله على قـدر هممها و أهوائها فيزيد المتكبّر كبرا و المتواضع تواضـعا، لأنّ من كان همّته الكبر و هو جاهل إذا حفظ العلم وجـد ما يتكبّر به فازداد كبرا، و إذا كان الرّجل خائفا مع جهله و ازداد علما علم أنّ الحجّة قد تأكّدت فى حقّه فيزداد خوفا و إشفاقا و ذلاّ و تواضعا.

الثانى العمل و العبادة

و كثيرا مـا ترى العبّاد و الزّهـاد يترشّح الكبر منهم على غيرهم بسـبب زعمهم أنّهم ناجون و النّاس هالكون فيرى نفسه ناجيا و هو الهالک حقيقة، و لذلک قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إذا سمعتم الرّجل يقول هلک النّاس فهو أهلكهم

الثالث النّسب

فترى من له نسب شريف يتكبّر على من ليس له ذلک النّسب.

الرابع التفاخر بالحسن و الجمال

و ذلک أكثر ما يجرى بين النّسوان.

الخامس الثروة و المال

و ذلـک يجرى بين الملوک فى خزائنهم و بين التجـار فى بضايعهم و بين الـدّهاقين فى أراضـيهم و بين المتجمّلين فى لباسـهم و خيولهم و مراكبهم فيستحقر الغنى الفقير و يتكبّر عليه.

السادس القوّة و شدّة البطش

فيتكبّر بها على أهل الضّعف.

السابع الملک و السّلطنة و كثرة الأتباع و الخدم و الجنود و الجيوش

، و ذلک يجرى بين الملوک فى الافتخار بكثرة العساكر و الرعيّـة و الخـدم، و بالجملة فكلّ ما هو نعمة و أمكن أن يعتقد كمالا و إن لـم يكن كمالا فى نفسه أمكن أن يتكبّر به حتّى أنّ المخنّث ليتكبّر على أقرانه بزيادة معرفته و قدرته فى صـنعة المخنّثين، لأنّه يرى ذلک كمالا يفتخر به، و إن لـم يكن فعله إلاّ نكالا، و كـذلک الفاسق قد يفتخر بكثرة الشّـرب و الفجور و يتكبّر به لزعمه أنّ ذلک كمال و إن كان خزيا و وبالا و نكالا.

الخامس فی معالجة الکبر

فاعلم وفّقک اللّه تعالی و ألهمک الخیر أنّ الکبر من أعظم المهلکات، و قلّما ینفکّ عن شیء منه أحد و إزالته فرض عین و لا یزول بمجرّد التمنّی بل بالمعالجة و استعمال الأدویة القامعة له، و علاجه انّما یحصل بامور أربعة:

الاول معرفة الرّب تعالی الثانی معرفة النّفس الثالث معرفة الغرض الدّاعی إلی خلقته الرابع معرفة المفاسد المترتّبة علی الکبر.

أما الاول

فانّ من عرف ربّه و أنّه القادر الّذی لا یعجزه شیء، و القویّ الّذی لا یضعفه شیء، و الأزلیّ الّذی لیس له بداء، و الدّائم القیّوم بأمر الأشیاء، و الفّعال لما یرید أو یشاء، و الممسک للسّموات و الأرض من الزّوال، و المستولی علی الخلایق فی کلّ حال، إلی غیر ذلک من صفاته الحسنی و أمثاله العلیا عرف أنّ العزّ و العظمة و الجلال و الجمال و الجبروت و الکبریاء لا تلیق إلاّ بجنابه، و أنّها إزاره و رداءه، و أنّ غیره مقهور تحت قدرته، ضعیف تحت قوّته، مسخّر تحت ارادته، منقاد لمشیّته ذلیل مهین مستکین لا یملک لنفسه نفعا و لا ضرّا و لا موتا و لا حیاتا و لا نشورا.

و اما الثانی

فقد أشار إلیه أمیر المؤمنین علیه السّلام بقوله: ابن آدم أنّی لک و الفخر فان أوّلک جیفة و آخرک جیفة و فی الدّنیا حامل الجیف، و نشرح حال هذه الجیف فانها لیست کجیف الحیوانات.

اما الجیفة الاولی و هی المنی فقد أوجب الشّارع الغسل بخروجها من الانسان و أغلظ نجاسته حتّی فهم بعض الأصحاب من تغلیظه وجوب تطهیر الثیاب و البدن منه مرّتین کما فی البول.

و اما الجيفة الاخيرة فانّه بعذر هوق روحه يكون ميتة أخبث و أنجس و أوحش من ميتة الكلب و الخنزير، و ذلك لأنّ مسّ ميتة الكلب بالرّطوبة لا يوجب إلاّ غسل اليد و تطهيرها بخلاف مسّ ميتة الانسان فقد أوجب الشارع فيه مضافا إلى تطهير الملاقى غسل المسّ مبالغة فى خبث جيفته و قذارته، و ترى الأحياء أوحشوا جانب الميّت و تجنّبوا عنه و خافوا منه و لا يخافون من ميتة سائر الحيوانات و لا يستوحشون منها و اما كونه حامل الجيف فهو أظهر من أن يذكر لأنّه أخسّ من جمار يحمل العذرة، لأنّ الحمار يحملها اضطرارا و بالاجبار و الانسان يحملها بالرّضا، و الاختيار و هو يحملها على الظّهر و هذا على البطن، و إلى هذه الحالات الثلاث و ما بعدها اشير فى قوله سبحانه: «قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ » فقد أشارت الآية إلى أوّل خلق الانسان و إلى آخر أمره و إلى وسطه، فليفهم معناها و ليتفكّر فى مغزاها.

فقد أتى عليه حين من الدّهر لم يكن شيئا مذكورا، و قد كان فى حيّز العدم و أىّ شىء أخسّ و أقلّ من المحو و العدم، فبدء اللّه بخلقه من أرذل الأشياء ثمّ من أقذرها إذ خلقه من سلالة من طين ثمّ من ماء مهين ثمّ من علقة ثمّ من مضغة ثمّ جعله عظاما فكسى العظام لحما، فهذا بداية وجوده.

و ما صار شيئا مذكورا إلاّ و هو على أخسّ الأوصاف و أرذلها إذ لم يخلق كاملا بل خلقه جمادا ميّتا لا يسمع و لا يبصر و لا يحسّ و لا يشعر و لا ينطق و لا يبطش و لا يدرك و لا يفهم و لا يميّز و لا يعلم فبدء بموته قبل حياته، و بضعفه قبل قوّته، و بعجزه قبل قدرته، و بجهله قبل علمه، و بعماه قبل بصره، و بصممه قبل سمعه، و ببكمه قبل نطقه، و بضلاله قبل هداه، و فقره قبل غناه.

فهذا معنى قوله «مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ » ثمّ امتنّ عليه فقال:

«ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ » أى يسّر له سبيل الخير و الشرّ و أرشده إلى طريق الضّلال و الهدى يسلك الأوّل و يترك الثّانى كما قال: «إِنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمّا شاكِراً وَ إِمّا كَفُوراً » و قال: «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ ».

فانظر إلى عظم ما أنعم اللّه سبحانه به عليه حيث نقله من حالة الذّلة و القلّة و الخسّة و القذارة إلى رتبة العزّ و الشّرف و الرّحمة و الكرامة، فصار موجودا بعد العدم، و حيّا بعد الموت، و ناطقا بعد البكم، و بصيرا بعد العمى، و قويّا بعد الضّعف و عالما بعد الجهل، و مهديّا بعد الضّلال، فكان فى ذاته لا شىء و أىّ شىء أخسّ و أحقر من لا شىء، و أىّ قلّة أقلّ من العدم المحض، ثمّ صار باللّه شيئا و إنّما خلقه من التراب الذّليل الّذى يوطأ بالأقدام، و النطفة القذرة ليعرّفه خسّة نفسه و مهانة ذاته، و أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربّه، و يعلم عظمة بارئه و جلالة مبدئه و أنّه لا يليق الكبرياء و الجلال إلاّ بحضرة ربوبيّته.

فمن كان هذا بدؤه و هذا حاله كيف يسوغ له البطر و الكبر و الخيلاء و الفخر نعم هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسّته شمخ بأنفه و تعظّم.

و لو أكمله و فوّض إليه اموره و أدام له الوجود باختياره لكان أكثر من ذلك يطغى و نسى المبدأ و المنتهى، و لكنّه سلّط عليه فى دوام وجوده الأمراض الهائلة و الأسقام العظيمة، و الآلام المختلفة، و الطّبائع المتضادّة من الصّفراء و السّوداء و البلغم و الدّم يهدم بعضها بعضا شاء أم أبى، رضى أم سخط، فيجوع كرها، و يعطش كرها، و يمرض كرها، و يموت كرها، لا يملك لنفسه خيرا و لا شرّا و لا نفعا و لا ضرّا، يريد أن يعلم الشىء فيجهله، و يريد أن يذكر الشىء فينساه، و يريد أن ينسى الشىء و يغفل عنه فلا يغفل عنه، و يريد أن يصرف قلبه إلى ما يهمّه فيجول فى أودية الوساوس و الأفكار بالاضطرار فلا تملك قلبه قلبه و لا نفسه نفسه، و يشتهى الشىء فربما يكون هلاكه فيه، و يكره الشىء و ربّما يكون حياته فيه، يستلذّ الأطعمة و هى تهلكه و ترديه، و يستبشع الأدوية و هى تنفعه و تحييه، و لا يأمن فى لحظة من ليله و لا نهاره أن يسلب سمعه و بصره و تفلج أعضائه و يختلس عقله و يختطف و يسلب جميع ما يهواه فى دنياه، فهو مضطّر ذليل إن ترك بقى و إن اختطف فنى، عبد مملوك لا يقدر على شىء من نفسه و لا على شىء من غيره، فأىّ شىء أذلّ منه لو عرف نفسه و انّى يليق الكبر لو لا جهله، فهذا أوسط أحواله

و أمّا آخره فهو الموت المشار إليه بقوله: «ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ » و معناه انّه يسلب روحه و سمعه و بصره و علمه و قدرته و حسّه و إدراكه و حركته فيعود جمادا كما كان أوّل مرّة، لا يبقى إلاّ شكل أعضائه و صورته، لا حسّ فيه و لا حركة، ثمّ يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان فى الأوّل نطفة مذرة.

ثمّ تبلى أعضاؤه، و تتفتت أجزاؤه، و تنخرّ عظامه، و تصير رميما رفاتا، و يأكل الدّود أجزائه فيبتدىء بحدقتيه فيقلعهما، و بخديّة فيقطعهما، و بسائر أجزائه فيصير روثا فى أجواف الدّيدان، و يكون جيفة يهرب منه الحيوان، و يتنفّر منه كلّ انسان، و يكرهه لشدّة الانتان، و أحسن أحواله أن يعود إلى ما كان، فيصير ترابا يعمل منه الكيزان، و يعمر منه البنيان، فيصير مفقودا بعد ما كان موجودا و صار كأن لم يغن بالأمس حصيدا، كما كان فى أوّل أمره أمدا مديدا.

و ليته بقى كذلك، و يأمن ممّا يتلوه من المعاطب و المهالک، فما أحسنه لو ترک ترابا لابل يحييه بعد طول البلى ليقاسى شدّة البلاء، و إليه أشار بقوله:

«ثمّ إذا شاء أنشره» فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرّقة، و أعضائه المتفتّتة، و يسرع إلى أهوال القيامة، فينظر إلى قيامة قائمة و سماء مشقّقة، و أرض مبدّلة و جبال مسيّرة، و نجوم منكدرة، و شمس منكسفة. و أحوال مظلمة و كثرة عرق ملجمة، و ملائكة غلاظ شداد، و أهوال تتفتّت منها الأكباد.

و يرى الصّحائف منشورة فيقال له: «اِقْرَأْ كِتابَکَ كَفى بِنَفْسِکَ الْيَوْمَ عَلَيْکَ حَسِيباً » فيقرأ فيه مساويه الّتى كان افتخاره بها، و استكباره بأسبابها، فعند ذلک يقول: «يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلاّ أَحْصاها » فيقال له: هلّم إلى الحساب و استعدّ للجواب أو تصير إلى أليم العذاب فينقطع قلبه من قول ذلک الخطاب.

فما لمن هذا حاله و التكبّر و التعزز و الكبرياء و الخيلاء، بل ماله و للفرح فى لحظة واحدة فضلا عن البطر و الأشر مدّة متمادية، و لو ظهر آخره و العياذ باللّه أحبّ أن يكون ترابا، و لا يكون إنسانا يسمع خطابا، و لا يشاهد الجحيم له مآبا

و لو رأى أهل الـدّنيا العبـد المذنب فى النّار لصـعقوا من وحشة خلقته و قبح صورته، و لو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه، و لو وقعت قطرة من شرابه فى بحار الدّنيا لصارت أشدّ عفونة من الجيفة.

فمن هـذا حاله فى العاقبـة كيف يفرح و يبطر، و كيف يتجبّر و يتكبّر، و كيف يرى نفسه شـيئا، و يعتقـد له فضـلا، و أىّ عبـد لم يـذنب ذنبا استحقّ به العقوبة إلاّ أن يعفو له الكريم بفضله، و يغفره باحسانه و منّه.

أ رأيت من جنى على ملـك قاهر قادر، و اسـتحقّ بجنايته القتل أو السـيّاسة فجلس فى السّـجن و هو ينتظر أن يخرج إلى العرض و يقام عليه العقوبة على ملاء من الخلق، و ليس يدرى أ يعفى عنه أم يعاقب، كيف يكون ذلّه، أفترى أنه يتكبّر على من فى السّـجن، و ما من عبد مذنب إلاّ و الدّنيا سجنه، و قد استحقّ العقوبة من اللّه و لا يدرى كيف يكون آخر أمره فيكفيه لو تفكّر ذلك حزنا و خوفا و إشفاقا و مهانة و ذلاّ.

و أما الثالث

فاعلم أنّ الغرض من خلقـة الانسان هو العبوديّـة و الاطاعـة، قال تعالى: «وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ» فاذا لا فضل لأحد أفراد هـذا النّوع على الآـخر إلاـّ بحصول ذلـك الغرض منه أعنى القيـام بوظـائف العبوديّـة، و به يترقّى إلى درجـات الكمال، و يتقرّب إلى الربّ المتعال، و يكرم عنده كما قال عزّ من قائل:

«يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ».

يعنى إنّ أكثركم عند اللّه ثوابا و أرفعكم عند اللّه منزلة أتقيكم لمعاصيه و أعملكم بطاعته.

روى الطبرسـى فى مجمع البيان فى وجه نزول الآية أنّ ثابت بن قيس بن شماس كان فى اذنه وقر، و كان إذا دخل تفسّحوا له حتّى يقعد عند النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله فيسمع

ما يقول، فدخل المسجد يوما و النّاس قد فرغوا من الصّلاة و أخذوا مكانهم، فجعل يتخطّى رقاب النّاس و يقول: تفسّحوا، حتّى انتهى إلى رجل، فقال له: اصبت مجلسا فاجلس، فجلس خلفه مغضبا، فلمّا انجلت الظّلمة قال: من هذا؟ قال الرّجل: أنا فلان، فقال ثابت: ابن فلانة؟ ذكر أمّا له كان يعيّر بها فى الجاهليّة فنكس الرّجل رأسه حياء فقال صلوات اللّه و سلامه عليه و آله: من الذّاكر فلانة؟ فقام ثابت فقال: أنا يا رسول اللّه، فقال: انظر فى وجوه القوم، فنظر إليهم، فقال: ما رأيت يا ثابت؟ قال: رأيت أبيض و أحمر و أسود، قال فانّك لا تفضّلهم إلاّ بالتقوى و الدّين فنزلت هذه الآية.

و قيل لمّا كان يوم فتح مكّة أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلالا حتّى علا ظهر الكعبة و أذّن، فقال عتاب بن اسيد: الحمد للّه الذى قبض أبى حتّى لم ير هذا اليوم، و قال الحارث بن هشام: أما وجد محمّد غير هذا الغراب الأسود مؤذّنا، و قال سهيل بن عمر: ان يرد اللّه شيئا لغيّره، و قال أبو سفيان: إنّى لا أقول شيئا أخاف أن يخبره به ربّ السّماوات، فأتى جبرئيل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأخبره بما قالوا فدعاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سألهم عمّا قالوا فأقرّوا به، و نزلت الآية و زجرهم عن التّفاخر بالأنساب و الازراء بالفقر و التكاثر بالأموال.

فقد ظهر بذلك أنّ جهة الفضل فى أفراد النّوع الانسانى منحصرة فى الورع و التقوى فقط.

و يدلّ عليه أيضا ما روى أنّ رجلا سأل عيسى بن مريم أىّ النّاس أفضل فأخذ قبضتين من التّراب فقال: أىّ هاتين أفضل، النّاس خلقوا من تراب، فأكرمهم أتقيهم.

و كان أمير المؤمنين عليه السّلام لمّا عوتب على التّسوية فى العطاء و عدم التفضيل لاولى السابقات و الشّرف من المهاجرين و الأنصار على غيرهم، و اعترض عليه بعدم ترجيح المولى على العبيد و عدم التّفرقة بين الأبيض و الأسود أجاب عليه السّلام بقوله: إنّى نظرت فى كتاب اللّه فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلا.

و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم صعد المنبر يوما و ذكر ما كانوا يتفاخرون و يتكبّرون به فى الجاهليّة، فقال: إنّه موضوع تحت قدمى إلى يوم القيامة و لم ينزل من المنبر حتى زوّج بنت عمّته صفيّة ابنة عبد المطلب من المقداد مع كونه من أفقر النّاس حالا و أقلّهم مالا.

و قد سوّى بينهم أيضا فى أعظم الأمور و أهمّها و هو أمر الدّماء فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

المسلمون اخوة تتكافا دماؤهم و يسعى بذمّتهم أدناهم.

فاذا كان دم السّلطان مساويا لدم الكنّاس فأىّ مزيّة له عليه.

فقد علم بذلك أن لا تفضيل فى غير الورع و التّقوى و الدّين و أنّه لا يجوز الافتخار و التفاخر به بل لا يجوز التفاخر بالتقوى أيضا و لا ينبغى المباهاة به.

و يؤمى إليه ما رواه الطبرسى عن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: إنّ اللّه عزّ و جلّ جعل الخلق قسمين: فجعلنى فى خيرهم و ذلک قوله: و أصحاب اليمين و أصحاب الشّمال فأنا من أصحاب اليمين و أنا خير أصحاب اليمين، ثمّ جعل القسمين أثلاثا فجعلنى فى خيرها ثلثا و ذلک قوله و أصحاب الميمنة و أصحاب المشئمة و السابقون السّابقون، فأنا من السابقين و أنا خير السابقين، ثمّ جعل الأثلاث قبائل فجعلنى فى خيرها قبيلة و ذلک قوله: «وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ » الآية، فأنا أتقى ولد آدم و لا فخر و أكرمهم على اللّه و لا فخر ثمّ جعل القبائل بيوتا فجعلنى فى خيرها بيتا و ذلک قوله عزّ و جلّ: «إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » فأنا و أهل بيتى مطهّرون من الذّنوب فانّ غرضه بذلک بيان شأنه للناس لا التفاخر، و لهذا قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المقامين:

و لا فخر، فبالغ فى نفيه بلاء النافية للجنس.

و الى هذا المعنى ينظر ما جاء فى الحديث من أنّ اللّه سبحانه أوحى الى موسى اذا جئت للمناجاة فاصحب معک من تكون خيرا منه، فجعل موسى عليه السّلام لا يعترض أحدا و هو لا يجسر أن يقول إنّى خير منه، فنزل عن الناس و شرع فى أصناف الحيوانات حتى مرّ بكلب أجرب فقال: أصحب هذا، فجعل فى عنقه حبلا ثمّ مرّ به، فلما كان به فى بعض الطريق شمر الحبل و أرسله، فلما جاء إلى مناجاة الرّبّ سبحانه

قال تعالى: يا موسى أين ما أمرتک به؟ قال: يا ربّ لم أجده، فقال تعالى: و عزّتى و جلالى لو أتيتنى بأحد لمحوتک من ديوان النّبوة.

فاذا كان مثل موسى مع كونه نبيّا أولى العزم و أفضل أهل زمانه كما هو اعتقادنا فى الأنبياء و الرّسل لم يجسر أن يقول لأحد من آحاد النّاس و لفرد من أفراد الحيوان حتّى الكلب الأجرب أنا خير منه فكيف لغيره.

و أىّ معنى للتعزّز و التكبّر و التّفاخر على عباد اللّه و قد قال اللّه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ » مع أنّ الامور التى يتكبّر المتكبّر بها على غيره و يزعمها كمالا ـ لنفسه ليست كمالا ـ ذاتيا فى الحقيقة، و لا تليق أن يتعزّز بها.

لان المتكبر به ان كان النسب ففيه أنّ التكبّر إن كان بالنسب البعيد «ففيه أن النّسب البعيد ظ» لكلّ إنسان هو الماء و الطّين لا تفاوت بين أفراده من هذه الجهة كما لا تفاوت بينهم فى الجدّ و الجدّة قال أمير المؤمنين عليه السّلام فى الديوان المنسوب إليه:

النّاس من جهة التّمثال أكفاء أبوهم آدم و الامّ حوّاء

و إن يكن لهم فى أصلهم شرف يفاخرون به فالطين و الماء

و إن كان بالنّسب القريب ففيه انّه إذا كان خسيسا فى ذاته ذميما فى صفاته فلا يجبر نقصانه كمال آبائه و أسلافه قال الشاعر:

لئن فخرت بآباء ذوى شرف لقد صدقت و لكن بئس ما ولدوا

و قال آخر:

كن ابن من شئت و اكتسب أدبا يغنيک مضمونه من النسب

إنّ الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبى

على أنّ التعزّز بالنسب تعزّز بكمال غيره و لا ينفعه ذلک فى الدّنيا و لا فى العقبى، و لذلک كان أمير المؤمنين عليه السّلام يقول بعد تلاوة «أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ حَتّى »

«زُرْتُمُ الْمَقابِرَ »: أ فبمصارع آبائهم يفخرون، أم بعديد الهلكى يتكاثرون، إلى آخر ما يأتى فى الكلام المأتين و التاسع عشر، و قال سلمان (رض):

أبى الاسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

و قال صاحب بن عبّاد:

لعمرک ما الانسان إلاّ بدينه فلا تترک التّقوى اتّكالاً على نسب

لقد رفع الاسلام سلمان فارس و قد وضع الشرک الشريف أبا لهب

ألاـ ترى إلى ابن نوح فانّه مع كونه ابن نبىّ مرسل من اولى العزم ما نجاه ذلک النّسب الشريف و لا نفعه، بل كان من المغرقين، و فى جهنّم من الخالدين، «وَ نادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی وَ إِنَّ وَعْدَکَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْکَمُ الْحاکِمِینَ قالَ یا نُوحُ إِنَّهُ لَیْسَ مِنْ أَهْلِکَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَیْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّی أَعِظُکَ أَنْ تَکُونَ مِنَ الْجاهِلِینَ » فلم يستجب فيه دعوته و نفى عنه بنوّته لمخالفته لأبيه و عصيانه له.

و روى عن سيّد السّاجدين عليه السّلام أنّه قال: إنّما خلقت النّار لمن عصى اللّه و لو كان سيّدا قرشيّا، و الجنّة لمن أطاع اللّه و لو كان عبدا حبشيّا.

و ناهيک فى المنع من التكبّر بالنّسب قوله عزّ من قائل: «فَإِذا نُفِخَ فِی الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَیْنَهُمْ یَوْمَئِذٍ وَ لا یَتَساءَلُونَ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِینُهُ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِینُهُ فَأُولئِکَ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِی جَهَنَّمَ خالِدُونَ ».

بل أقول: إنه إذا كان البناء على افتخاره بأصله و نسبه القريب فليفتخر بأقرب اصوله و أنسابه و هو النّطفة القذرة و الدّودة الّتى خرجت من مبال أبيه، فأين الافتخار بالدّودة و أنّى التعزّز بالعلقة و المضغة.

قال سبحانه: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِینٍ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِی قَرارٍ مَکِینٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً » فالأصل تراب يوطأ بالأقدام، و الفصل نجس تغسل منه الأبدان فمن كان هذا أصله و فصله كيف يسوغ له التكبّر بالأنام، و لنعم ما قيل:

يا ابن التراب و ماكول التّراب غدا أقصر فإنّك مأكول و مشروب

و أما العلم فهو إنّما يكون كمالا إذا أوجب ارتفاع درجة العالم و قربه من اللّه سبحانه، و إلاّ فالجهل منه أفضل البتّة، و قد مضى فى شرح الفصل الثّانى من الخطبة السّادسة و الثّمانين ما فيه كفاية فى ذم العلماء السّوء.

و أقول هنا مضافا إلى ما سبق: من أنّ العالم مهما خطر بخاطره عظم قدره بالاضافة إلى الجاهل فليتفكّر فى الخطر العظيم الذى هو بصدده، فانّ خطره أعظم من خطر غيره كما أنّ قدره أعظم من قدر غيره، فقد يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد، و ذلک لمكان علمه.

و قد ضرب اللّه مثلا للعالم العامل بغيره تارة بالحمار فقال: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً » و أخرى بالكلب فقال: «وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ » إلى قوله «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » نزلت فى بلعم بن باعور فقد اوتى اسم الأعظم و قال ابن عبّاس اوتى كتابا فأخلد إلى شهوات الأرض أى سكن حبّه اليها فمثّله بالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث أى سواء أتيته الحكمة أو لم اوته لا يدع شهوته.

و يكفى العالم هذا الخطر فبعد معرفته بأنّ الكبر لا يليق إلاّ بذات اللّه سبحانه و أنّه مختصّ به و علمه بانّه إذا تكبّر يصير ممقوتا عنده تعالى بغيضا اليه محروما من قربه، و بأنّ المطلوب منه الذّل و التّواضع و هو موجب لمحبّته تعالى، فلا بدّ أن يكلّف نفسه ما يحبّه مولاه و ما فيه رضاه، فهذا يزيل التكبّر عن قلبه.

و يمكن ازالته أيضا بالتفكّر فى امور ثلاثة.

أحدها أن يلتفت إلى ما سبق من ذنوبه و خطاياه حتّى يصغر قدره فى عينيه.

الثّانى أن يلاحظ لما هو فيه من وصف العلم من حيث انه نعمة من اللّه سبحانه فى حقّه فيرى ذلک منه تعالى حتّى لا يعجب بنفسه، و إذا لم يعجب لم يتكبّر.

الثالث ملاحظة سوء الخاتمة فربما يمكن أن يختم عاقبته بالسّوء و عاقبة المتكبّر عليه بالحسنى حتّى يشغله الخوف عن التكبّر عليه.

و أما الحسن و الجمال فما أعجب التكبّر به مع كونه سريع الزّوال، و اللاّزم على المتعزّز بجماله أن ينظر إلى قبح باطنه لا إلى حسن ظاهره، فلو لا حظ باطنه رأى فيه من القبائح و الخبائث ما يكدّر تعزّزه، فانه وكّل به الأقذار فى جميع أجزائه الرّجيع فى امعائه، و البول فى مثانته، و المخاط فى أنفه، و البزاق فى فيه، و الوسخ فى اذنيه، و الدّم فى عروقه، و الصّديد تحت بشرته، و يخرج منه فى كلّ يوم من الأقذار ما يتأذّى بنفسه من رؤيته و من فضول ريحه إلى شامته فضلا عن غيره فانّما مثله كالقبور المجصّصة يرى ظاهرها مليحا و باطنها قبيحا، و لو ترك نفسه فى حياته يوما لم يتعهّدها بالتنظيف و التّطهير لشارت منه الأنتان و الأقذار و صار أنتن من الدّواب المهملة التى لا تتعهّد نفسها قطّ فحسنه كخضراء الدّمن و كالأزهار فى الرّبيع بينما تعجبها إذ صارت هشيما تذروه الرّياح.

و اما الغنى و كثرة المال و فى معناه الملك و السلطنة فلأنّه أيضا سريع الزوال و فى معرض الانتقال، بينا تراه غنيا إذ صار فقيرا، أو فقيرا إذ صار غنيّا، و ترى المغبوط مرحوما و المرحوم مغبوطا، فما أقبح التكبّر بشىء ليس اختياره بيده، و ما أذلّ الغنى إذ انتزع ماله أو اختلسه سارق، و ما أذلّ السّلطان إذ انتزع من ملكه و غلب عليه فى سلطنته، مع أنّ ما بيد الغنى ليس إلاّ أقلّ قليل من مال الدّنيا قد كان قبله فى يد غيره و سيصير فى يد آخر، و الدّنيا كلّها عند اللّه سبحانه لا تزن جناح بعوضة و الاّ لما سقى الكافر شربة ماء، و عند نظر أولياء اللّه أزهد من عرق خنزير فى يد المجذوم.

فما هذا شأنه لا يليق التعزّز به، و ناهيک فى ذلک الأخبار الواردة فى ذمّ الدّنيا و أكثر خطب أمير المؤمنين عليه السّلام فى هذا الكتاب مسوق لهذا الغرض على أنّ الغنى لو تأمل لوجد فى اليهود و النّصارى من يزيد عليه فى الغنى و الثروة و التجمّل، فافّ لشرف يسبقک به الكافر و افّ لشرف يأخذه السارق فى لحظة واحدة فيعود صاحبه

ص:99

ذليلا مفلسا.

و اما القوة و شدة البطش فيكفى فى المنع من التكبّر به أن يعلم ما سلّط عليه من العلل و الأمراض، و أنّه لو توجع عرق واحد فى يده لصار أعجز من كلّ عاجز و أذلّ من كلّ ذليل، و أنّه لو سلبه الذّباب شيئا لم يستنقذه منه، و أنّ بقّة لو دخلت فى أنفه أو نملة دخلت فى أذنه لقتلته، و أنّ شوكة لو دخلت فى رجله لأعجزته، و أنّ حمى يوم تحلّل من قوّته ما لا ينجبر فى مدّة، فمن لا يطيق شوكة و لا يقاوم بقّة و لا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغى أن يفتخر بقوّته.

ثمّ إن قوى الانسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل، و أىّ افتخار فى صفة يسبقه فيها البهائم.

و أمّا الزهد و العبادة فيزول التكبّر بهما على الفاسق بالتفكّر فى سوء الخاتمة و حسنها، فربّما يموت الفاسق و يختم له بالخير، و يزلّ العابد فيختم له بالشرّ.

ألا ترى إلى برصيصاء عابد بنى إسرائيل كيف سائت خاتمته على ما عرفت فى شرح الفصل السّادس من الخطبة الثانية و الثمانين.

و إلى خليع بنى إسرائيل كيف حسنت عاقبته و كان من قصّته أنّه لكثرة فساده يسمّى خليع بنى إسرائيل، فمرّ يوما برجل يقال له عابد بنى إسرائيل، و كان على رأس العابد غمامة تظلّله فلمّا مرّ الخليع به قال الخليع فى نفسه: أنا خليع بنى إسرائيل و هذا عابد بنى إسرائيل، فلو جلست إليه لعلّ اللّه يرحمنى، فجلس إليه فقال العابد: أنا عابد بنى إسرائيل و هذا خليع بنى إسرائيل فكيف يجلس إلىّ، فأنف منه و قال له: قم عنّى، فأوحى اللّه إلى نبىّ ذلک الزّمان مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع و أحبطت عمل العابد، و فى رواية اخرى فتحوّلت الغمامة إلى رأس الخليع.

و كيف كان فقد ظهر ممّا ذكرنا أنّ الأمور الّتى يزعمها المتكبّر كمالا له و يتعزّز بها على غيره ليست كمالا فى الحقيقة، بل هى منقصة و وبال.

و يرشد إلى ما ذكرته ما روى عن النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّ اللّه سبحانه أوحى إليه

أن يقول لمن يتعزّز بالحسن و الجمال: «تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النّارُ »، و لمن يتعزّز بالفصاحة:

«اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ »، و لمن يتعزّز بالنّسب: «فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ »، و لمن يتعزّز بالمال و الولد: «يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ »، و لمن يتعزّز بالقوّة:

«عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ »، و لمن يتعزّز بالملک: «لِمَنِ الْمُلْکُ الْيَوْمَ لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ ».

و اما الامر الرابع

أعنى معرفة معايب الكبر و مفاسده فنقول: إنّ هذه الصّفة الخبيثة لا منفعة فيها للمتكبّر البتة بل هى مضرّة له فى الدّنيا و الآخرة.

أما فى الدنيا فلا يجابها انحطاط درجته عند الخلايق و كراهتهم له و بعدهم عنه فهو لا يحبّهم و هم لا يحبّونه كما هو مشاهد بالعيان معلوم بالتجربة و الوجدان، و يبتليه اللّه سبحانه فى أغلب الأوقات بالذّل و الهوان.

و يدلّ عليه ما قدّمنا روايته فى المقام الأوّل عن الكافى عن علىّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبى عمير عن بعض أصحابه عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: ما من عبد إلاّ و فى رأسه حكمة و ملک يمسكها فاذا تكبّر قال له: اتّضع وضعک اللّه فلا يزال أعظم النّاس فى نفسه و أصغر النّاس فى أعين النّاس الحديث.

و قد مثّل الصادقان عليهما السّلام الدّنيا ببيت سقفه مخفوض، فالدّاخل إليه لا بدّ من أن يطأطأ رأسه عند الدّخول و من رفع رأسه تلک الحالة شجّه السّقف و أخرج دمه و رمى بعمامته من فوق رأسه و فضحه بين الاقران الّذين كان يريد الترفّع عليهم.

و ناهيک فى التنبيه على عظم ضرره ما رواه فى الكافى عن عدّة من أصحابه عن أحمد بن محمّد عن مدرک بن عبيد عمّن حدّثه عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: إنّ يوسف لما قدم عليه الشّيخ يعقوب عليه السّلام دخله عزّ الملک فلم ينزل إليه فهبط عليه جبرئيل فقال: يا يوسف ابسط راحتک، فخرج منها نور ساطع فصار فى جوّ السّماء، فقال يوسف: يا جبرئيل ما هذا النّور الذى خرج من راحتى؟ فقال: نزعت النبوّة من عقبک عقوبة لما لم تنزل إلى الشّيخ يعقوب فلا يكون من عقبک نبىّ.

و اما فی الاخرة فلا یجابها دخول النّار و سخط الجبّار جلّ جلاله کما یشهد به ما قدّمنا فی المقام الأوّل من الآیات و الأخبار، و ناهیک فی ذلک التذکر بحال ابلیس اللّعین فانّه مع کونه خطیب الملائکة و قد عبد اللّه فی السّماء ستّة آلاف سنة کیف حبط أجره و انحط قدره و حزم الحضرة الرّبوبیّة و الألطاف الآلهیّة و استحقّ مقت الجبّار و الخلود فی النّار بمحض الانائیّة و الاستکبار علی ما یأتی مشروحا فی الخطبة القاصعة و هی المأة و الحادیة و التسعون من المختار فی باب الخطب، و ما التوفیق إلاّ باللّه.

الترجمة

از جمله خطب شریفۀ آن امام مبین و ولیّ ربّ العالمین است در بیان بعثت حضرت خاتم الأنبیاء صلوات اللّه و سلامه علیه و آله و إشاره بفوائد بعثت می فرماید:

پس مبعوث فرمود خداوند تبارک و تعالی محمّد مصطفی صلّی اللّه علیه و آله را براستی و درستی تا این که خارج نماید بندگان را از عبادت بتان بسوی عبادت پروردگار، و از طاعت شیطان بسوی طاعت حضرت کردگار، با قرآنی که بیان فرمود آنرا و محکم ساخت آنرا تا این که بدانند بندگان پروردگار خودشان را وقتی که جاهل بودند بأو، و تا اقرار کنند بآفریدگار بعد از این که منکر بودند بوحدانیّت او، و تا اثبات کنند وجود او را بعد از این که نمی شناختند او را پس ظاهر گردید حق سبحانه و تعالی از برای ایشان در کتاب عزیز خود بدون این که دیده باشند او را به آن چه نمود بایشان از قدرت خود، و ترسانید ایشان را از غضب و سطوت خود، و چه گونه محو و نابود کرد آن کسی را که نابود کرد از قرون ماضیه با عقوبات نازله، و دروید و مستأصل ساخت کسی را که مستأصل نمود با عذابهای هائله.

و بدرستی که زود باشد که بیاید بشما از پس رفتن من بعالم قدس زمانی که نباشد در او چیزی که پنهان تر باشد از حق، و نه آشکاراتر از باطل، و نه بیشتر از دروغ بخدا و رسول او، و نباشد نزد اهل آن زمان متاع کاسدتر از قرآن زمانی که تلاوت شده باشد حقّ تلاوت آن، و نه متاع رایج تر از قرآن زمانی که تغییر داده شود

از مواضع خود، و نباشد در شهرها چیزی که قبیح تر باشد از معروف، و نه چیزی که پسندیده تر باشد از منکر، پس بتحقیق که بیندازند قرآن را حاملان او، و فراموش کنند او را حافظان او، پس قرآن در آن روز و اهل آن منفی و مطرود باشند و دو مصاحب صحبت گیرنده باشند با یکدیگر در یک طریق در حالتی که منزل ندهد ایشان را منزل دهندهٔ، پس کتاب و اهل آن در آن زمان در میان مردمان باشند بصورت و أبدان و نباشند در میان ایشان بحسب معنی، و با ایشان باشند ظاهرا و نباشند با ایشان باطنا از جهة این که ضلالت موافقت نمی نماید با هدایت اگر چه مجتمع شوند در یک زمان پس متفق باشند قوم آن روزگار بر جدائی از قرآن، و جدا باشند از جماعت محقّه گویا ایشان پیشوایان کتاب عزیزند و کتاب عزیز پیشوای ایشان نیست، پس باقی نماند نزد ایشان از قرآن مگر نام او، و نشناسند مگر خطّ او را او کتاب او را، و پیش از این است مثله و عقوبت نمودن ایشان بصالحان با هر گونه عقوبت، و تسمیه کردن ایشان راست گوئی صالحان را بر خدای تعالی افترا و بهتان، و گردانیدن ایشان در حسنات عقوبت سیئات را.

و بدرستی که هلاک شدند کسانی که بودند پیش از شما بجهت طول آرزوها و پنهان بودن اجلها تا این که نازل شد بایشان مرگ موعود که ردّ می شود از او عذر خواهی، و برداشته می شود از او توبه و پشیمانی، و حلول می کند بأو مصیبت شدیده و نقمت ای گروه مردمان هر کسی طلب نصیحت کند از خدای تعالی موفّق می شود، و هر کس اخذ نماید فرمایش خدا را دلیل خود هدایت یابد براه راست، پس بدرستی که همسایهٔ خدا ایمن است از عذاب، و دشمن خدا ترسانست از عقاب.

و بدرستی که سزاوار نیست مر کسی را که معرفت رساند بعظمت خدا این که اظهار بزرگی نماید، پس بتحقیق که بلندی مرتبهٔ کسانی که می دانند چیست عظمت و جلال خدا در این است که تواضع نمایند او را، و سلامتی کسانی که می دانند چیست قدرت آفریدگار در این است که انقیاد و اطاعت نمایند بر او، پس نفرت نکنید از حق مثل نفرت صحیح المزاج از کسی که ناخوشی جرب داشته باشد، و مثل نفرت سالم

البدن از صاحب مرض، و بدانید که بدرستی شما نخواهید شناخت طریق حق را تا این که بشناسید آن کسی را که ترک نموده او را، و نمی توانید فراگیرید عهد و پیمان قرآن را مگر این که معرفت رسانید آن کسی را که نقض عهد او را کرده و نمی توانید چنگ بزنید بقرآن تا این که عارف شوید کسی را که انداخته آن را، پس طلب کنید این را از نزد أهل أو، پس بدرستی که ایشان حیات علمند و ممات جهل، ایشان کسانی هستند که خبر می دهد شما را حکم ایشان از علم ایشان، و سکوت ایشان از گفتار ایشان، و ظاهر ایشان از باطن ایشان، مخالف نباشند دین را و اختلاف نمی کنند در او، پس دین در میان ایشان شاهدی است راست گو، و ساکتی است زبان دار.

و من خطبة له علیه السّلام فی ذکر اهل البصرة و هی المأة

اشارة

و الثامنة و الاربعون من المختار فی باب الخطب

کلّ واحد منهما یرجو الأمر له، و یعطفه علیه دون صاحبه، لا یمتّان إلی اللّه بحبل، و لا یمدّان إلیه بسبب، کلّ واحد منهما حامل ضبّ لصاحبه، و عمّا قلیل یکشف قناعه به، و اللّه لئن أصابوا الّذی یریدون لینتزعنّ هذا نفس هذا، و لیأتینّ هذا علی هذا، قد قامت الفئة الباغیة، فأین المحتسبون، قد سنّت لهم السّنن، و قدّم لهم الخبر، و لکلّ ضلّة علّة، و لکلّ ناکث شبهة، و اللّه لا أکون کمستمع اللّدم یسمع النّاعی، و یحضر الباکی.

ص:104

اللغة

عن النّهاية (المتّ) التوسّل و التوصّل بحرمة أو قرابة أو غير ذلک و (السّبب) فى الأصل الحبل الّذى يتوصّل به إلى ماء، ثمّ استعير لكلّ ما يتوصّل به إلى شىء كقوله تعالى: «وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ » أى الوصل و المودّات و (الضبّ) الغضب و الحقد و (المحتسب) طالب الحسبة، و هى الأجر و يقال احتسب عليه أى انكر و (سنّ) الأمر بيّنه (و لكلّ ضلّة) فى ما رأيناه من النّسخ بفتح الضّاد، و المضبوط فى القاموس و الاوقيانوس بكسرها، قال فى القاموس: الضّلال و الضّلالة و الضلّ و يضمّ و الضّلضلة و الاضلولة بالضمّ و الضلّة بالكسر و الضّلل محرّكة ضدّ الهدى إلى أن قال: و الضلّة بالضمّ الحذق بالدّلالة و بالفتح الحيرة و الغيبة بخير أو شرّ و (اللّدم) اللّطم و الضّرب بشىء ثقيل يسمع وقعه، و عن الصّحّاح اللّدم ضرب المرأة صدرها و عضديها فى النياحة.

الاعراب

الظاهر أنّ جملة لا يمتّان إلى اللّه استيناف بيانى أو نحوى، و تحتمل الحال، و عن فى قوله: و عمّا قليل، بمعنى بعد، و ما زائدة على حدّ قوله تعالى: «عَمّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ » و الباء فى قوله: به، للسببيّة، و الضّمير راجع إلى الضّب، و جملة يسمع فى محلّ الجرّ صفة للمستمع.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة مسوقة لاقتصاص حال طلحة و الزبير فى نكثهما بيعته عليه السّلام و نهوضهما إلى حربه عليه السّلام، و نبّه على أنّ غرضهما من البغى و الخروج اليه هو الملک و الامارة، فأشار أوّلا إلى أنّ كلاّ منهما يرى نفسه أحقّ بالامارة من الآخر و هو قوله:

(كلّ واحد منهما يرجوا الأمر) أى أمر الامارة، فاللاّم للعهد (له) أى يرى اختصاصه به (و يعطفه) أى يجذبه و يثنيه (عليه دون صاحبه) لمزعمه أنّه أولى به منه حال كونهما (لا يمتّان) و لا يتوسّلان فى الحرب و قتال المسلمين (إلى اللّه) تعالى (بحبل، و لا يمدّان اليه بسبب) يعنى أنّه لا حجّة لهما يعتذران بها إلى

اللّه سبحانه فی البغی و الخروج و علی الاستیناف البیانی فالمعنی أنّه علیه السّلام لما ذکر أنّ کلاّ منهما یرجوه لنفسه و یعطفه علیه کان لقائل أن یقول: هذا العطف و الرّجاء هل کان لغرض دینیّ منهما و تصلّب فی الاسلام؟ فأجاب بأنّ غرضهما لیس التقرّب إلی اللّه تعالی و التمسّک بعهده.

و علی الاستیناف النحویّ فالمقصود به شرح حالهما، فانّه لمّا ذکر أنّ رجاء کلّ واحد منهما کون الخلافة له، و قصد کلّ جذبها إلیه أردفه بذلک تنبیها علی أنّهما خالفا اللّه سبحانه إذ لم یعتصما بحبله، بل تفرّقا عنه و قد أمرهم اللّه بالاعتصام و نهاهم عن التفرّق بقوله «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِیعاً وَ لا تَفَرَّقُوا ».

قال الطبرسیّ فی معنی حبل اللّه أقوال: احدها أنّه القرآن ثانیها أنّه دین الاسلام و ثالثها ما رواه أبان بن تغلب، عن جعفر بن محمّد علیهما السّلام قال: نحن حبل اللّه الّذی قال «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِیعاً » قال الطبرسیّ: و الأولی حمله علی الجمیع و الّذی یؤیّده ما رواه أبو سعید الخدری عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: یا أیّها النّاس إنّی قد ترکت فیکم حبلین، إن أخذتم بهما لن تضلّوا بعدی: أحدهما أکبر من الآخر کتاب اللّه حبل ممدود من السّماء إلی الأرض، و عترتی أهل بیتی الا و إنهما لن یفترقا حتّی یردا علیّ الحوض.

ثمّ ذکر انهما مع اتّفاقهما علی الخلاف مختلفان فی نفس الأمر و أنّ (کلّ واحد منهما حامل ضبّ) و حقد (لصاحبه) و یشهد به اختلافهما قبل وقوع الحرب فی الأحقّ بالتّقدیم فی الصّلاة، فأقامت عائشة محمّد بن طلحة و عبد اللّه بن الزّبیر یصلّی هذا یوما و هذا یوما إلی أن تنقضی الحرب.

ثمّ إنّ عبد اللّه بن الزّبیر ادّعی أنّ عثمان نصّ علیه بالخلافة یوم الدّار، و احتجّ فی ذلک بأنّه استخلفه علی الصّلاة، و احتجّ تارة اخری بنصّ صریح زعمه و ادّعاه، و طلب طلحة من عائشة أن یسلّم النّاس علیه بالامارة و أدلی إلیها بالسّمیة و أدلی الزّبیر بأسماء اختها فأمرت النّاس أن یسلّموا علیهما معا بالامارة، و اختلفا

أیضا فی تولّی القتال فطلبه کلّ منهما اوّلا ثم نکل عنه.

(و عمّا قلیل یکشف) کلّ منهما(قناعه به)أی یکشف قناعه الـذی اسـتتر به و یظهر حاله به بسـبب حقده، فاسـتعار لفظ القناع لظاهره السّاتر لباطنه (و اللّه لئن أصابوا الّذی یریـدون) و یتمنّون (لینتزعنّ هذا نفس هذا و لیأتینّ هذا علی هذا) أی لیثبّ کلّ منهما إلی صاحبه و یسـعی الیه و یقتله، و هذا لا غبار علیه لأنّ الملک عقیم ثمّ قال (قد قامت الفئة الباغیة فأین المحتسبون) أی الطّالبون للأجر و الثّواب و العاملون للّه أو المنکرون للمنکر، و الاسـتفهام للتحسّر و التحزّن مـن فقـدان المتصـلّبین فی الـدّین، و الراسـخین فی الاسـلام، و التّأسف علی عـدم حضورهم فی تلک المعرکة و قتال الفئة الباغیة، و فی بعض النسخ: فأین المحسنون.

(و قد سـنّت لهم السّنن) أی بیّنت للمحتسبین أو للفئة الباغیة الطّرق (و قدّم لهم الخبر) أی أخبرهم رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم بخروج الناکثة و القاسـطة و المارقة و بأنّ علیّا علیه السّلام یقاتلهم، و قد روی هذا الخبر عن النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم غیر واحد من العامّة و الخاصّة، و قدّمنا روایته فی شـرح الفصل الخامس من الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشـقیة فی حدیث طویل عن امّ سـلمة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و أقول هنا: روی فی البحار من أمالی الشّیخ باسناده عن أخی دعبل عن الرّضا عن آبائه علیهم السّلام قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأمّ سلمة: اشهدی علی أنّ علیّا یقاتل النّاکثین و القاسطین و المارقین.

و من الامالی بهذا الاسـناد عن الباقر علیه السّلام عن جابر الأنصاری قال: إنّی لأدناهم من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فی حجّة الوداع بمنی فقال صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم: لاعرفنّکم ترجعون بعدی کفارا لیضرب بعضکم رقاب بعض، و أیم اللّه لئن فعلتموها لتعرفنّنی فی الکتیبة التی تضاربکم، ثمّ التفت صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی خلفه ثمّ قال: أو علیّ أو علیّ أو علیّ، فرأینا أنّ جبرئیل غمزه و أنزل اللّه عزّ و جلّ «فَإِمّا نَذْهَبَنَّ بِکَ فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ » بعلیّ «أَوْ نُرِیَنَّکَ الَّذِی وَعَدْناهُمْ فَإِنّا عَلَیْهِمْ مُقْتَدِرُونَ » ثمّ نزلت «قُلْ رَبِّ إِمّا تُرِیَنِّی ما »

«يُوعَدُونَ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظّالِمِينَ وَ إِنّا عَلى أَنْ نُرِيَکَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ثمّ نزلت «فَاسْتَمْسِکْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْکَ » - من أمر عليّ بن أبى طالب - «إِنَّکَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » و انّ عليّا علم للسّاعة لک و لقومک و لسوف تسئلون عن محبّة عليّ بن أبى طالب.

و من الكافى باسناده عن الفضيل بن غياض عن أبى عبد اللّه عليه السّلام عن أبيه قال:

قال: بعث اللّه محمّدا صلّى اللّه عليه و آله بخمسة أسياف ثلاثة منها شاهرة، و سيف منها مكفوف، و سيف منها سلّه إلى غيرنا و حكمه إليه، ثمّ قال: و أما السّيف المكفوف فسيف عليّ على أهل البغى و التأويل، قال اللّه تعالى «وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللّهِ » فلمّا نزلت هذه الآية قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّ منكم من يقاتل على التأويل كما قاتلت على التنزيل، فسئل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من هو؟ فقال: خاصف النّعل، يعنى أمير المؤمنين عليه السّلام فقال عمّار بن ياسر: قاتلت بهذه الرّواية مع النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثلاثا و هذه الرّابعة، و اللّه لو ضربونا حتّى بلغوا بنا السّعفات من هجر لعلمنا أنا على الحقّ و أنّهم على الباطل.

و من مناقب ابن شهر آشوب عن أبى عليّ الموصلى و الخطيب التّاريخى و أبى بكر بن مردويه بطرق كثيرة عن عليّ عليه السّلام قال: امرت بقتال النّاكثين و القاسطين و المارقين.

و من كشف الغمة قال ابن طلحة: قال البغوى فى شرح السّنة عن ابن مسعود قال: خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأتى منزل امّ سلمة فجاء عليّ عليه السّلام فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يا امّ سلمة هذا و اللّه قاتل النّاكثين و القاسطين و المارقين، إلى غير هذا ممّا رواه فى البحار عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فى كشف الغمّة من المناقب لأبى المؤيد الخوارزمى عن أبى رافع أنّ النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: يا أبا رافع كيف انت و قوم يقاتلون عليّا و هو على الحقّ و هم على الباطل؟ يكون حقّا فى اللّه جهادهم، فمن لم يستطع جهادهم بيده فيجاهدهم

بلسانه، فمن لم يستطع بلسانه فيجاهدهم بقلبه، و ليس وراء ذلک شیء، قال: قلت:

ادع اللّه لی إن أدرکتهم أن یعیننی و یقوّینی علی قتالهم فلمّا بایع النّاس علیّ بن ابی طالب علیه السّلام و خالفه معاویة و سار طلحة و الزّبیر إلی البصرة قلت: هؤلاء القوم الّذین قال فیهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما قال، فباع أرضه بخیبر و داره بالمدینة و تقوی بها هو و ولده ثمّ خرج مع علیّ علیه السّلام بجمیع أهله و ولده، و کان معه حتّی استشهد علیّ علیه السّلام، فرجع إلی المدینة مع الحسن علیه السّلام و لا أرض له بالمدینة و لا دار فأقطعه الحسن علیه السّلام ارضا بینبع من صدقة علیّ و أعطاه دارا، هذا.

و لمّا کان هنا مظنّة سؤال و هو أن یقال: إذا کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سنّ السّنن و اخبر بحال هؤلاء البغاة و أبان عن کونهم علی الباطل فکیف کان خروج هؤلاء و کیف نکثوا عن بیعتهم مع تقدّم هذا الخبر منه و اشتهاره بین النّاس؟ أجاب علیه السّلام عنه بقوله (و لکلّ ضلّة علّة و لکلّ ناکث شبهة) یعنی أنّهم لما نکثوا و ضلّوا عن الطّریق لعلّة أوجبت الضّلال و شبهة أوجبت النکث أمّا العلّة فهی الحقد و الحسد و الطمع فی الملک و حبّ الدّنیا، و أمّا الشّبهة فهی الطّلب لدم عثمان هذا.

و قیل إنّ المعنی أنّ لکلّ ضلالة غالبا علّة، و لکلّ ناکث شبهة بخلاف هؤلاء، فانّهم یعدلون عن الحقّ مع وضوحه بغیر عذر و شبهة.

ثمّ أقسم علیه السّلام بقوله (و اللّه لا أکون کمستمع اللّدم یسمع النّاعی و یحضر الباکی) أراد بمستمع اللّدم الضّبع هو صوت الحجر یضرب به الأرض أو حیلة یفعلها الصّائد عند باب جحرها فتنام و لا تتحرّک حتّی یجعل الحبل فی عرقوبها فیخرجها فیکون نظیر ما تقدّم فی الکلام السّادس من قوله: و اللّه لا اکون کضبع تنام علی طول اللّدم حتی یصل الیها طالبها و یختلها راصدها، و قد مضی منّا هناک ما یتّضح به هذا المقام، فالمقصود انّی لا اغترّ و لا اغفل عن کید الأعداء فأسمع النّاعی بقتل طائفة من المسلمین و احضر الباکی علی قتلاهم فلا احاربهم حتّی یحیطوا بی و قیل: المراد إنّی لا أکون کمن یسمع اللّطم و الضرب و البکاء ثمّ لا یصدق حتّی یجیء لمشاهدة الحال، أی لا أکون کمن علم بوقوع نازلة و شاهد اماراتها ثمّ

لم يتداركها حتّى يراها عيانا.

و قد تقدّم فى شرح المختار السّادس إلى المختار الثالث عشر اقتصاص حال النّاكثة و كيفيّة بغيهم و خروجهم و جملة من أخبارهم و ذكرنا قصّة الجمل فى شرح الكلام الحادى عشر، و ذكرنا فى تضاعيف الشّرح و نذكر بعد ذلک أيضا إنشاء اللّه بعض اخبارهم، و أقتصر هنا على ايراد خبرين مناسبين للمقام فأقول:

روى فى البحار من الارشاد قال: لما اتّصل بأمير المؤمنين صلوات اللّه عليه مسير عايشة و طلحة و الزّبير من مكّة إلى البصرة حمد اللّه و أثنى عليه ثمّ قال: قد سارت عائشة و طلحة و الزّبير كلّ منهما يدّعى الخلافة دون صاحبه، و لا يدّعى طلحة الخلافة إلاّ أنّه ابن عمّ عايشة، و لا يدّعيها الزبير إلاّ أنّه صهر أبيها، و اللّه لئن ظفروا بما يريدان ليضربنّ الزبير عنق طلحة، و ليضربنّ طلحة عنق الزّبير ينازع هذا على الملک هذا، و لقد علمت و اللّه أنّ الراكبة الجمل لا تحلّ عقدة و لا تسير عقبة و لا تنزل منزلة إلاّ إلى معصية اللّه حتّى تورد نفسها و من معها موردا يقتل ثلثهم، و يهرب ثلثهم، و يرجع ثلثهم، و اللّه إنّ طلحة و الزّبير ليعلمان أنّهما مخطئان و ما يجهلان، و لربّ عالم قتله جهله و علمه معه لا ينفعه، و اللّه لتنبحنّها كلاب الحوأب، فهل يعتبر معتبر و يتفكّر متفكّر لقد قامت الفئة الباغية فأين المحسنون.

و فى الكافى فى باب ما يفصل به بين دعوى المحقّ و المبطل فى أمر الامامة علىّ بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن ابن محبوب عن سلام بن عبد اللّه و محمّد بن الحسن و علىّ بن محمّد عن سهل بن زياد و أبو علىّ الأشعرى عن محمّد بن حسان جميعا عن محمّد بن علىّ عن علىّ بن أسباط عن سلام بن عبد اللّه الهاشمىّ قال محمّد بن علىّ و قد سمعته منه عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: بعث طلحة و الزّبير رجلا من عبد القيس يقال له: خدائن إلى أمير المؤمنين، إلى آخر ما يأتى فى شرح الكلام المأة و التّاسع و السّتين إن شاء اللّه.

الترجمة

از جملۀ خطب شريفۀ آن حضرت است در ذكر أهل بصره و مذمت زبير

و طلحة می فرماید:

هر یک از طلحه و زبیر امیـد دارند که أمر خلافت از برای او باشد و بر می گرداند هر یکی آن را بنفس خود نه بصاحبش در حالتی که تقرّب نمی جویند بسوی خدا بریسمان پیمان، و توسّل نمی کنند بسوی او با رشتۀ عهد، هر یک از ایشان حمل کنندۀ حقد و غضب است از برای رفیق خود و بعد از زمان قلیل بر می دارد پرده تزویر خود را بسبب آن کینه که در دل دارد، قسم بخدا اگر برسند به آن چه که می خواهند هر آینه البته بر میکند این یکی جان آن یکی را، و البته می آید این یکی بسـر آن دیگری بتحقیق که برخاستند جماعت ظالم پس کجایند طالبان أجر و ثواب.

بتحقیق که بیان کرده شد از برای ایشان سـنّتهای پیغمبر، و مقدّم داشـته شد بجهت ایشان أخبار حضـرت سید البشر، و از برای هر ضلالت علّت و سـببی هست، و از برای هر ناقض بیعت شـبهه ایست، بحقّ خـدا نمی توانم بشوم مثل شـنونده صدای زدن برو و سـینه با دست که شنود خبر مرگ دهنده، و حاضـر شود نزد گریه کننده، یعنی بعد از این که أمارات و علامات بغی و عدوان این طائفه ظاهر شد باید با ایشان محاربه و مقاتله نمائیم، و جائز نیست که در جای خود با غفلت بنشینیم.

و من کلام له علیه السّلام قبل موته و هو المأة و التاسع

اشارة

و الاربعون من المختار فی باب الخطب

.

و هو مرویّ فی الکافی علی اختلاف تطلع علیه أیّها النّاس کلّ امرء لاق ما یفرّ منه فی فراره و الأجل مساق النّفس، و الهرب منه موافاته، کم اطّردت الأیّام أبحثها عن مکنون هذا الأمر فأبی اللّه إلاّ إخفائه، هیهات علم مخزون، أمّا وصیّتی

فاللّه لا تشـركوا به شيئا، و محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلا تضيّعوا سنّته أقيموا هذين العمودين و أوقدوا هذين المصباحين، و خلاكم ذمّ ما لم تشـردوا، حمل كلّ امرء منكم مجهوده، و خفّف عن الجهلة، ربّ رحيم، و دين قويم، و إمام عليم، أنا بالأمس صاحبكم و أنا اليوم عبرة لكم، و غـدا مفارقكم، غفر اللّه لى و لكم، إن ثبتت الوطأة فى هـذه المزلّـة فـذاک، و إن تـدحض القدم فإنّا كنّا فى أفياء أغصان و مهبّ رياح، و تحت ظلّ غمام اضـمحلّ فى الجوّ متلفّقها، و عفى فى الأرض مخطّها، و إنّما كنت جارا جاوركم بدنى أيّاما، و سـتعقبون منّى جثّة خلاء ساكنـة بعـد حراک، و صامتـة بعد نطوق ليعظكم هدوىّ و خفوت أطراقى و سـكون أطرافى فإنّه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ، و القول المسـموع، وداعيكم وداع امرء مرصد للتّلاقى، غدا ترون أيّامى، و يكشف لكم عن سرائرى، و تعرفوننى بعد خلوّ مكانى، و قيام غيرى مقامى.

اللغة

(الطّرد) الابعاد و تقول طزدته أى نفيته عنّى، و الطريـدة ما طردته من صـيد و غيره، و الطّريـدان اللّيل و النهار، و أطردت الرّجل على صـيغة الافعال، إذا أمرت باخراجه و (شرد) البعير شرودا من باب قعد ندّ و نفر، و الاسم الشراد

بالكسر و (حمل كلّ امرء منكم مجهوده) فى بعض النّسخ على البناء للمفعول من باب التّفعيل و رفع كلمة كلّ، و فى بعضها على المعلوم من باب التفعيل أيضا و نصب كلّ، فالفاعل هو اللّه سبحانه، و فى بعضها حمل كضرب على المعلوم و رفع كلّ و (خفف) على بناء المجهول و (الوطأة) بالفتح موضع القدم و المرّة من الوطى و هو الدّوس بالرّجل.

و (دحض) الرّجل دحضا من باب منع زلق و زلّ و (الأفياء) جمع فىء و هو الظلّ الحادث بعد الزّوال و (مهبّ الرّياح) محلّ هبوبها و فى بعض النّسخ و مهاب رياح بصيغة الجمع و (اضمحل) السّحاب تقشّع و الشىء ذهب و فنى و (الجوّ) ما بين السّماء و الأرض و (متلفقّها) بكسر الفاء من تلفّق الشىء انضمّ و التأم و لفقت الثّوب لفقأ من باب ضرب ضممت احدى شقتيه إلى الأخرى للخياطة و (المخطّ) بالخاء المعجمة ما يحدث فى الأرض من الخطّ الفاصل بين الظلّ و النّور.

و (ستعقبون) بالبناء على المجهول من الاعقاب و هو اعطاء الشىء عقيب الشىء يقال أكل أكلة أعقبته سقما أى أورثته و (حراك) كسحاب الحركة و (هدوى) فى بعض النّسخ بالهمز على الأصل و فى بعضها بتشديد الواو بقلب الهمزة واوا و (خفت) الصّوت خفوتا سكن و (اطراقى) إمّا بكسر الهمزة من اطرق إطراقا أى أرخى عينيه إلى الأرض، أو بفتحها جمع طرق بالكسر بمعنى القوّة كما فى القاموس، أو بالفتح و هو الضرب بالمطرقة، و قيل جمع طرقة بالفتح أى صنايع الكلام يقال: هذا طرقته أى صنعته و الأوّل أظهر و أضبط، و فى بعض النّسخ أطرافى بالفاء فهو جمع الطرف بالتسكين و هو تحريك العين و الجفن إلاّ أنّ جمعه لم يثبت إلاّ عند القتيبى و قال الزّمخشرى: الطّرف لا يثنى و لا يجمع لأنّه مصدر و كذا ذكره الجوهرى.

و (سكون أطرافى) جمع الطرف بالتحريك كجمل و جمال، و المراد بها الأعضاء و الجوارح كاليدين و الرّجلين و (الوداع) بفتح الواو اسم من ودّعته توديعا و هو أن تشيعه عند سفره، و أمّا الوداع بالكسر فهو اسم من أودعته موادعة أى

صالحته و (رصدته) إذا قعدت له على طريقه ترقّبه و أرصدت له العقوبة أى أعددتها له و حقيقتها جعلها على طريقة كالمترقّبة له، و مرصد فى بعض النّسخ على صيغة اسم المفعول فالفاعل هو اللّه تعالى أو نفسه عليه السّلام، و فى بعضها على صيغة اسم الفاعل فالمفعول نفسه عليه السّلام أو ما ينبغى اعداده و تهيئته.

الاعراب

قوله: فى فراره متعلّق بقوله لاق، و جملة أبحثها منصوبة المحلّ على الحالية و علم مخزون خبر لمبتدأ محذوف أى ذلك العلم علم مخزون، و قوله: فاللّه لا تشركوا به شيئا و محمّدا صلّى اللّه عليه و آله، منصوبان على الاضمار على شريطة التفسير، و فى بعض النسخ بالرّفع على الابتداء و الأوّل أرجح كما قرّر فى الأدبيّة لاستلزام الثّانى كون الجملة الطّلبيّة خبرا فتأمّل، و قوله: و خلاكم ذمّ بالرّفع فاعل خلا أى عداكم و هى كلمة تجرى مجرى المثل.

قال الشّارح البحرانى: و أوّل من قالها قصير مولى حذيمة حين حثّ عمرو بن عدى اخت حذيمة على طلب ثاره من الزّباء فقال له عمرو: و كيف لى بذلك و الزّباء أمنع من عقاب الجوّ، فقال له قصير اطلب الأمر و خلاك ذمّ.

و قوله: ربّ رحيم و دين قويم و إمام عليم، برفع الجميع على الخبر أى ربّكم ربّ رحيم و دينكم دين قويم و هكذا على الابتداء و الخبر محذوف أى لكم ربّ رحيم و دين قويم آه قال الشّارح المعتزلى: و من النّاس من يجعل ربّ رحيم فاعل خفّف على رواية من رويها فعلا معلوما، و ليس بمستحسن، لأنّ عطف الدين عليه يقتضى أن يكون الدّين أيضا مخففّا، و هذا لا يصحّ انتهى.

و قال المحدّث العلاّمة المجلسىّ: إنّ فى أكثر النّسخ خفف على بناء المعلوم فقوله: ربّ فاعله و لا يضرّ عطف الدّين و الامام عليه لشيوع التّجوّز فى الاسناد.

ص:114

أقول: و ههناوجه آخر على رواية حمل و خفف بالبناء على المجهول، و هو أن يكون ربّ مرفوعا بفعل محذوف على حدّ قوله سبحانه:

«يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ » على قراءة يسبح بصيغة المجهول، كأنّه قيل: من حمل و خفّف، فقال: ربّ رحيم و دين قويم، و هذا الوجه أيضا مبنيّ على التجوّز فى الاسناد.

و قوله: ليعظكم بكسر اللاّم و نصب الفعل كما فى أكثر النّسخ، و يحتمل الجزم لكونه أمرا أو فتح اللاّم و رفع الفعل أيضا.

و قوله: وداعيكم وداع امرء مرفوعان على المبتدأ و الخبر، و إضافة و داعى إلى ضمير المفعول أى وداعى إيّاكم، و فى بعض النّسخ بنصب وداع، و فى بعضها بجرّها، و كلاهما مبنيّ على حذف الخافض أى كوداع امرء فالنّصب على حدّ قوله تعالى «وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ » أى من قومه، و الثانى على حدّ قول امرء القيس

«أشارت كليب بالأكفّ الأصابع»

أى إلى كليب، و فى نسخة الشّارح المعتزلى و داعى لكم وداع امرء و روى فيها أيضا ودّعتكم وداع امرء على صيغة المتكلّم من باب التّفعيل، فالوداع منصوب بالمصدريّة و غدا ظرف للأفعال بعده.

المعنى

اشارة

اعلم أنّ هذا الكلام قد قاله عليه السّلام لما ضربه ابن ملجم المرادى عليه لعائن اللّه و هو مسوق فى معرض التوصية و التّذكير، فأيّة بالنّاس و نبّههم على لحوق ضرورة المنفور منه طبعا بقوله:

(أيّها النّاس كلّ امرء لاق ما يفرّ منه فى فراره) يعنى أنّ الانسان يفرّ من الموت ما دام حيّا، فهو فى مدّة الفرار و هى الحياة الدّنيا يلاقى ما يفرّ منه البتّة كما قال تعالى «قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِی تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِیکُمْ »(و الأجل مساق النّفس) يجوز أن يراد بالأجل غاية العمر كما فى قوله تعالى «فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ »

«لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ » فيكون المساق بمعنى ما يساق إليه، و أن يراد به المدّة المضروبة لبقاء الانسان أعنى مدّة العمر فيكون المساق بمعنى زمان السّوق، فانّ مدّة بقاء النّفس فى هذا البدن مساق إلى غايتها.

(و الهرب منه) أى من الأجل بالمعنى الأوّل أو ممّا يفرّ منه إن اريد به المعنى الثانى(موافاته)لأنّ الهرب منهإنّما يكون بعلاج و حركة يفنى بهما بعض المدّة، و إفناء المدّة يلزمه الموافاة فأطلق لفظ الموافاة على الهرب من باب اطلاق اسم اللاّزم على الملزوم،أو لأنّه إذا قدّر زوال عمر أو دولة فكلّ تدبير يدبّره الانسان يصير سببا لحصول ما يهرب منه كما أنّ كلّ دواء و معالجة إذا صادف قرب مجىء الأجل يكون مضرّا بالبدن و إن كان بحيث اذا لم يصادفه كان نافعا مجرّبا عند الأطباء مع أنّ المرض و المزاج فى كلتا الصّورتين واحد بناء على إبطال أفعال الطبيعة و أنّ نفع الأدوية إنّما هو فعل اللّه تعالى عند الدّواء، و مع قطع النظر عن ذلك إذا صادف الدّواء الأجل يصير أحذق الأطباء عاجزا غافلا عمّا ينفع المريض، فيعطيه ما يضرّه و إذا لم يصادفه يلهم أجهل الأطبّاء بما ينفعه كما هو المجرّب.

و كيف كان فقوله عليه السّلام: و الهرب منه موافاته، جار مجرى المبالغة فى عدم كون الفرار منجيا من الموت و عاصما عنه حتّى جعل نفس الهرب منه ملاقاة له و لم يقل و الهارب منه يوافيه.

(كم اطّردت الأيام) أى صيّرتها طريدة قال الشارح المعتزلى فالاطّراد أدلّ على العزّ و القهر من الطرد (أبحثها) و افتّشها (عن مكنون هذا الأمر فأبى اللّه إلاّ إخفائه) قال الشّارح المعتزلى: كأنه عليه السّلام جعل الأيّام أشخاصا يأمر باخراجهم و ابعادهم عنه، أى ما زلت أبحث عن كيفية قتلى و أىّ وقت يكون بعينه و فى أىّ أرض يكون يوما يوما، فاذا لم أجده فى اليوم اطردته و استقبلت يوما آخر فأبحث فيه أيضا فلا أعلم فأبعده و اطرده و أستأنف يوما آخر، و هكذا حتّى وقع المقدور.

قال الشّارح: و هذا الكلام يدلّ على أنه عليه السّلام لم يكن يعرف حال قتله مفصّلة من جميع الوجوه، و أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أعلمه بذلك مجملا، لأنّه قد ثبت

أنّه صلّى اللّه عليه و آله قال له: ستضرب على هذه و أشار إلى هامته فتخضب منها هذه، و أشار إلى لحيته و ثبت أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال له: أتعلم من أشقى الأوّلين؟ قال: نعم عاقر النّاقة فقال له: أتعلم من أشقى الآخرين؟ قال: لا، فقال: من يضرب ههنا فتخضب هذه و كلام أمير المؤمنين عليه السّلام يدلّ على أنّه بعد ضرب ابن ملجم له لا يقطع على أنّه يموت من ضربته، ألا تراه يقول: إن ثبتت الوطأة فى هذه المزّلة فذاك آه.

و يظهر منه أنّ الشارح زعم أنّ مراده عليه السّلام بمكنون هذا الأمر وقت قتله و مكانه المعينان بالتفصيل.

و حذا حذوه الشارح البحرانى حيث قال: و ذلك المكنون هو وقته المعيّن بالتفصيل و مكانه، فان ذلك ممّا استأثر اللّه بعلمه كقوله تعالى «إِنَّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ » و قوله «وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » و إن كان قد أخبره الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بكيفية قتله مجملا - إلى أن قال - و أمّا بحثه هو فعن تفصيل الوقت و المكان و نحوهما من القراين المشخصة و ذلك البحث إمّا بالسّؤال من الرّسول مدّة حياته و كتمانه ايّاه، أو بالفحص و التّفرّس من قراين أحواله فى ساير أوقاته مع النّاس، فأبى اللّه إلاّ أن تخفى عنه تلك الحال انتهى.

اقول: و لا يكاد ينقضى عجبى من هذين الفاضلين كيف توهّما أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام لم يكن عالما بزمان موته و لا مكانه إلاّ اجمالا، و أنّه لم يكن يعرفهما تفصيلا إن هذا إلاّ زعم فاسد و رأى كاسد.

أمّا الشّارح المعتزلى فمع روايته الأخبار الغيبيّة له عليه السّلام و إذعانه على صحّتها حسبما تقدّمت فى التّنبيه الثانى من شرح الخطبة الثانية و التّسعين كيف خفى عليه وجه الحقّ و كيف يتصوّر فى حقّ من هو عالم بما كان و ما يكون و من يقول:

فاسألونى قبل أن تفقدونى فو الّذى نفسى بيده لا تسألونى عن شىء فيما بينكم و بين السّاعة و لا عن فئة تهدى مائة و تضلّ مائة إلاّ أنبئكم بناعقها و قائدها و سائقها و مناخ ركابها و محطّ رحالها و من يقتل من أهلها قتلا و يموت منهم موتا، الى آخر ما مرّ

فى الخطبة الّتى أشرنا اليها، أنّه لم يكن يعرف زمان موته و مكانه.

و أمّا الشّارح البحرانى فمع كونه من فضلاء علماء الامامية قدّس اللّه ضرايحهم كيف قصرت يده عن الأخبار العامية و الخاصية المفيدة لعلم الأئمّة عليهم السّلام بما كان و ما يكون و ما هو كائن و لمعرفتهم عليهم السّلام بوقت موتهم و موت شيعتهم، و أنّهم يعلمون علم المنايا و البلايا و الانساب، و هذه الأخبار قريبة من التواتر بل متواترة معنى و قد مضى جملة منها فى تضاعيف الشّرح لا سيّما فى شرح الفصل الثّانى من الخطبة المأة و الثّامنة و العشرين، و يأتى شطر منها فى مواضعها اللاّيقة، و قد روى المخالف و المؤالف قول أمير المؤمنين للحارث الأعور الهمدانى:

يا حار همدان من يمت يرنى من مؤمن أو منافق قبلا

يعرفنى طرفه و أعرفه بنعته و اسمه و ما فعلا

فانّ من كان حاضرا عند كلّ ميّت، عارفا بوقت موته كيف لا يعرف وقت موت نفسه.

و كفاك دليلا على ما ذكرنا أنّ الكلينىّ قد عقد فى الكافى بابا على ذلک، و قال:

باب أنّ الأئمّة عليهم السّلام يعلمون متى يموتون و أنّهم لا يموتون إلاّ باختيار منهم، و روى فى ذلک الباب عن علىّ بن محمّد عن سهل بن زياد عن محمّد بن عبد الحميد عن الحسن بن الجهم قال: قلت للرّضا عليه السّلام: إنّ أمير المؤمنين عليه السّلام قد عرف قاتله و اللّيلة الّتى يقتل فيها، و الموضع الّذى يقتل فيه، و قوله لما سمع صياح الأوز فى الدّار:

صوايح تتبعها نوايح، و قول امّ كلثوم: لو صلّيت اللّيلة داخل الدّار و أمرت غيرک يصلّى بالنّاس فأبى عليها، و كثر دخوله و خروجه تلک اللّيلة بلا سلاح، و قد عرف عليه السّلام ان ابن ملجم قاتله بالسّيف كان هذا ممّا لم يحسن «لم يجز لم يحلّ خ ل» تعرّضه؟ فقال عليه السّلام: ذلک كان و لكنه عليه السّلام خيّر فى تلک اللّيلة لتمضى مقادير اللّه عزّ و جلّ.

و هذا الحديث و إن كان ضعيفا عند بعض لكنّه سهل عند آخرين معتضد بأخبار أخر.

قال العلاّمة المجلسى (ره) فى شرحه: منشا الاعتراض أنّ حفظ النّفس واجب عقلا و شرعا، و لا يجوز إلقاؤها الى التّهلكة، فقال عليه السّلام: ذلک كان و لكنّه خيّر

أى خيّره اللّه بين البقاء و اللّقاء فاختار لقاء اللّه، و هو مبنىّ على منع كون حفظ النّفس واجبا مطلقا، و لعلّه كان من خصائصهم عدم وجوب ذلک عند اختيارهم الموت و حكم العقل فى ذلک غير متّبع مع أنّ حكم العقل فى مثل ذلک غير مسلّم.

و فى بعض النّسخ أعنى نسخ الكافى حيّن بالحاء المهملة و النّون أخيرا، بدل خير، قال الجوهرىّ: حيّنه جعل له وقتا يقال: حيّنت النّاقة إذا جعلت لها فى يوم و ليلة وقتا تحلبها فيه انتهى، فالمعنى أنّه كان بلغ الأجل المحتوم المقدّر و كان لا يمكن الفرار منه.

قال المحدّث العلاّمة المجلسىّ: و حاصله أنّ من لا يعلم أسباب التّقديرات الواقعة يمكنه الفرار عن المحذورات و يكلّف به، و أمّا من كان عالما بجميع الحوادث، فكيف يكلّف الفرار و إلاّ يلزم عدم وقوع شىء من التّقديرات فيه، بل هم عليهم السّلام غير مكلّفين بالعمل بهذا العلم فى أكثر التّكاليف.

فانّ النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمير المؤمنين عليه السّلام كانا يعرفان المنافقين و يعلمان سوء عقايدهم و لم يكونوا مكلّفين بالاجتناب عنهم و ترک معاشرتهم و عدم مناكحتهم أو قتلهم و طردهم ما لم يظهر منهم شىء يوجب ذلک.

و كذا علم أمير المؤمنين عليه السّلام بعدم الظّفر بمعاوية و بقاء ملكه بعده لم يكن سببا لأن يترک قتاله، بل كان يبلغ فى ذلک غاية جهده إلى أن استشهد صلوات اللّه عليه مع أنّه كان يخبر بشهادته و استيلاء معاوية بعده.

و كذا الحسين عليه السّلام كان عالما بغدر أهل العراق به و أنّه سيستشهد هناک مع أولاده و أقاربه و أصحابه، و يخبر بذلک مرارا و لم يكن مكلّفا بالعمل بهذا العلم بل كان مكلّفا بالعمل بهذا الأمر حيث بذلوا له نصرتهم و كاتبوه و راسلوه و وعدوه البيعة و بايعوا مسلم بن عقيل رضى اللّه عنه انتهى.

و قال المجلسىّ أيضا فى موضع آخر من شرح الكافى: الظاهر من ساير الأخبار أنّه عليه السّلام كان عالما بشهادته و وقتها و كان ينتظرها و يخبر بوقوعها و يستبطئها فى اللّيلة التى وعدها و يقول: ما منع قاتلى من قتلى انتهى.

ص:119

فقد ظهر و اتّضح بذلک کلّه أنّه علیه السّلام کان یعرف تفصیلا زمان قتله و مکانه کما ظهر دفع الاشکال فیه و الاعتراض علیه بأنّه مع المعرفة التفصیلیّة کان الواجب علیه حفظ نفسه و عدم إلقاءه لها إلی التهلکة.

فان قلت: سلّمنا هذا کلّه و لکن ما تصنع بقوله علیه السّلام کم اطّردت الأیّام أبحثها عن مکنون هذا الأمر فأبی اللّه إلاّ إخفاءه؟ قلت: یمکن توجیهه بأن یکون المراد بهذا الأمر خفاء الحقّ و مظلومیّة أهله و ظهور الباطل و غلبة أصحابه و کثرة أعوانه، لأنّه علیه السّلام سعی فی أوّل الأمر فی أخذ حقّه غایة السّعی فلم یتیسّر و جرت امور لم یکن یخطر ببال أحد وقوع مثله، و فی آخر الأمر لمّا انتهی إلیه و حصل له الأنصار و الأعوان و جاهد فی اللّه حقّ الجهاد و غلب علی المنافقین سنحت فتنه التحکیم الّتی کانت من غرایب الامور ثمّ بعد ذلک لمّا جمع العساکر و أراد الخروج إلیهم وقعت الطامة الکبری، فالمراد بالمکنون سرّ ذلک و سببه فظهر لی و أبی اللّه إلاّ إخفاءه عنکم لضعف عقولکم عن فهمه، إذ هی من غوامض مسائل القضاء و القدر.

و هذا التوجیه أورده المحدّث المجلسیّ فی مرآت العقول نقلا عن بعضهم و استحسنه.

و محصّله أنّ المراد بالأمر المکنون فی کلامه علیه السّلام سرّ غلبة الباطل علی الحقّ و علّة مظلومیة أهل الحقّ، و المراد باخفاء اللّه إیاه إخفاءه منهم لا منه علیه السّلام، فیکون هذا الکلام منه نظیر قوله علیه السّلام فی الکلام الخامس: بل اند مجت علی مکنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشیة فی الطوی البعیدة.

قوله (هیهات علم مخزون) أی بعد الاطلاع علی ذلک السّر فانه علم مخزون و من شأن المخزون أن یسرّ و یخفی.

ثمّ شرع فی الوصیّة فقال:(أما وصیّتی فاللّه لا تشرکوا به شیئا) أی وحّدوه و أخلصوا العمل له و الزموا أوامره و نواهیه (و محمّدا صلّی اللّه علیه و آله فلا تضیّعوا سنّته) أی لا تهملوها، و هو أمر بلزوم شرایع الدّین و سلوک نهج الشرع المبین.

ص:120

و أكّد الأمر بالتّوحيد و اتّباع السّنة النّبويّة بقوله(أقيموا هذين العمودين)و استعار لهما لفظ العمود، لأنّ مدار الاسلام و نظام امور المسلمين فى المعاش و المعاد على توحيد اللّه سبحانه و اتباع سنّة رسوله، كما أنّ مدار الخيمة و القسطاط على العمود، و المراد باقامتهما الاعتقاد بهما و العمل بمقتضيات الايمان بهما.

(و اوقدوا هذين المصباحين) و هو استعارة اخرى و الجامع أنّهما يهديان إلى الصّراط المستقيم و جنّات النّعيم، و يدلاّن على حظاير القدس و مجالس الانس، كما أنّ بالمصباح يهتدى فى غياهب الدّجى إلى الطريق المطلوب، و ذكر الايقاد ترشيح للاستعارة (و خلاكم ذمّ ما لم تشردوا) أى سقط عنكم ذمّ و تجاوزكم فلا ذمّ يلحقكم ما لم تنفروا.

قال فى مرآت العقول: و الغرض النّهى عن التّفرق و اختلاف الكلمة، أى لا ـ ذمّ يلحقكم ما دمتم متّفقين فى أمر الدّين متمسّكين بحبل الأئمّة الطاهرين أو المراد النّهى عن الرّجوع عن الدّين و إقامة سنّته.

و قوله (حمل كلّ امرء منكم مجهوده) كلام متّصل بما قبله، لأنّه لمّا قال ما لم تشردوا أنبأ عن تكليفهم كلّما وردت به السّنة النّبويّة أى كلّف كلّ أحد منكم مبلغ وسعه و طاقته.

و لمّا كان هذا الكلام بظاهره يعطى أنه سبحانه كلّف كلّ أحد بما هو مبلغ طاقته و نهاية و سعه فبيّن عليه السّلام أنّ التّكليف على حسب العلم و استدرک بقوله (و خفّف عن الجهلة) يعنى أنّ الجهّال ليسوا مكلّفين بما كلّف به العلماء و قد قال اللّه سبحانه:

«إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ».

و هو بظاهره يدلّ على أنّ الجاهل معذور فى أكثر الأحكام.

و قوله (ربّ رحيم) قد عرفت جهات الاحتمال فى وجه اعرابه، و باختلافها يختلف المعنى فافهم، و وصف الرّب بالرّحمة لمناسبته بالتخفيف عن الجهلة (و دين قويم) ليس فيه أود و اعوجاج (و إمام عليم) أراد به الإمام فى كلّ زمان، و يحتمل شموله لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله تغليبا، و ربّما يخصّ بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و وصفه بالعلم لكونه عالما بكيفيّة سلوك مسالك الآخرة و قطع مراحلها و منازلها و الهادى فيها بما يقتضيه حكمته من القول و العمل.

و عقّب وصيّته بالتّنبيه على مجارى حالاته لاعتبار الحاضرين و اتّعاظ المشاهدين فقال (أنا بالأمس صاحبكم) أى كنت صحيحا مثلكم نافذ الحكم فيكم، و صاحب الأمر و النّهى، أو صاحبكم الذى تعرفوننى بالقوّة و الشّجاعة (و اليوم عبرة لكم) تعتبرون باشرافى على الموت و ضعفى عن الحراك بعد ما كنت اصرع الابطال و اقتل الأقران (و غدا مفارقكم غفر اللّه لى و لكم) هذا الكلام نصّ فى علمه عليه السّلام تفصيلا بزمان موته حسبما قدّمناه.

و تأويل الشّارح المعتزلى له بأنّه لا يعنى غدا بعينه بل ما يستقبل من الزّمان كما يقول الانسان الصّحيح: أنا غدا ميّت فمالى أحرص على الدّنيا خروج عن ظاهر الكلام بلا دليل.

فان قلت: الدّليل عليه قوله (إن ثبتت الوطأة فى هذه المزلّة فذاک) فانّه يدلّ على أنّه عليه السّلام لم يكن يقطع بموته.

قلت: هذا الكلام من قبيل تصوير العالم نفسه بصورة الشّاک لبعض المصالح على حدّ قوله تعالى:

«أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ ».

و كيف كان فمقصوده أنّه إن ثبتت القدم بالبقاء فى هذه الدّنيا بأن لا يؤدّى الجرح إلى الهلاک فذاک المراد أى مرادكم، فانّه عليه السّلام كان آنس بالموت من الطّفل بثدى امّه، أو مرادى لأنّه عليه السّلام كان راضيا بقضاء اللّه فمع قضاء اللّه حياته

و ارادته له لا ـ يريـد غير مـا أراده سـبحانه(و ان تـدحض القـدم)و تزلق و هو كنايـة عن الموت(فانّا كنّا فى أفياء أغصان)و ظلالها(و مهبّ ريـاح)أى محلّ هبوبها (و تحت ظلّ غمام اضـمحلّ)و فنى(فى الجوّ)أى ما بين السّماء و الأرض (متلفّقها)و ملتئمها(و عفى)و انمحى(فى الأرض مخطّها)أى أثرها و علامتها و الغرض بهـذه الجملات أنّى إن متّ فلا عجب، فانّا كنّا فى امور فانيـة شبيهـة بتلك الامور، لأنّها كلّها سريعـة الانقضاء لا ثبات لها و لا بقاء، أو لا أبالى فانّى كنت فى الـدّنيا غير راكن إليها كمن كان فى تلك الامور، و فيه حثّ للقوم أيضا على الزّهد فى الدّنيا و ترك الرّغبة فى زخارفها.

و قيل: أراد على وجه الاسـتعارةبالأغصانالأركان من العناصر الأربعـة، وبالأفياءتركيبها المعرض للزّوال، وبالرّياحالأرواح، وبمهبّهاالأبدان الفايضة هى عليها بالجود الالهى، وبالغمامالأسباب العلويّة من الحركات السّماويّة و الاتّصالات الكوكبيّة و الأرزاق المفاضة على الانسان فى هذا العالم الّتى هى سبب بقائه، و كنّيباضمحلال متلفّقها فى الجوّعن تفرّق الأسباب العلويّة للبقاء و فنائها، وبعفاء مخطّها فى الأرضعن فناء آثارها فى الأبدان.

(و إنما كنت جارا) أى مجاورا (جاوركم بـدنى أيّاما) تخصـيص المجاورة بالبـدن لأنّها من خواصّ الأجسام أو لأنّ روحه عليه السّلام كان معلّقا بالملاء الأعلاء و هو بعـد فى الـدّنيا (و سـتعقبون منّى) أى تعطون عقيب فقـدى و تجـدون بعد رحلتى (جثّة خلاء) أى جسدا و بدنا خاليا من الرّوح و الحواسّ (ساكنـة بعـد حراك و صامتـة بعـد نطوق) أى متبدّلـة الحركة بالسّكون و النّطق بالسّكوت (ليعظكم هدّوى) و سكونى (و خفوت اطراقى) أى سكون ارخاء عينى إلى الأرض و هو كناية عن عدم تحريك الأجفان، و قد مرّ وجوه اخر فى بيان اللغة فتذكّر (و سـكون أطرافى) أى الرّاس و اليـدين و الرجلين و غيرهـا من الجوارح و الأعضاء و جناس الخط بين قوله اطرافى و اطرافى غير خفىّ (فانّه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ و القول المسموع) لأنّ الطّباع أكثر اتعاظا و انفعالا عن مشاهدة

ما فيه من العبرة من الوصف له بالقول المسموع و لو كان بأبلغ لفظ و أفصح عبارة ثمّ أخذ فى توديعهم فقال (و داعيكم وداع امرء مرصد للّتلاقى) أى وداعى إيّاكم كوداع رجل مترقّب و منتظر للملاقات من ربّه تعالى و ساير الوجوه مرّ فى بيان اللّغة (غدا ترون أيّامى) أى بعد مفارقتى إيّاكم و تولّى بنى اميّة و غيرهم أمركم تعرفون فضل أيّام خلافتى و إنى كنت بارّا بكم عطوفا عليكم و كنت على الحقّ (و يكشف لكم عن سرائرى) و يظهر أنّى ما أردت فى حروبى و ساير ما أمرتكم به إلاّ وجه اللّه عزّ و جلّ و ابتغاء مرضاته (و تعرفوننى بعد خلوّ مكانى و قيام غيرى مقامى) أى تعرفون عدلى و قدرى بعد قيام غيرى مقامى بالامارة و الخلافة و تظاهره بالمنكرات، لأنّ الأشياء إنما تتبيّن بضدّها كما قال أبو تمام:

راحت وفود الأرض عن قبره فارغة الأيدى ملاء القلوب

قد علمت ما ورثت إنما تعرف قدر الشمس بعد الغروب

و قيل: و السرّ فيه أنّ الكمل إنما يعرف قدرهم بعد فقدهم، إذ مع شهودهم لا يخلو من يعرفهم عن حسد منه لهم، فكمال قدرهم مخبوء عن عين بصيرته لغشاوة حسده الّتى عليها هذا.

و قال المحدّث العلاّمة المجلسىّ فى شرح هذه الفقرات من رواية الكافى الآتية: اقول: و يحتمل أن يكون المراد بقوله: غدا، أيام الرجعة و يوم القيامة فانّ فيهما تظهر شوكتهم و رفعتهم و نفاذ حكمهم فى عالم الملك و الملكوت، فهو عليه السّلام فى الرّجعة ولىّ انتقام العصاة و الكفّار و تمكين المتّقين الأخيار فى الأصقاع و الأقطار، و فى القيامة ولىّ الحساب و قسيم الجنّة و النار و غير ذلك مما يظهر من درجاتهم و مراتبهم السنية فيها، فالمراد بخلوّ مكانه خلوّ قبره عن جسده فى الرّجعة أو نزوله عن منبر الوسيلة و قيامه إلى شفير جهنّم يقول للنار: خذى هذا و اتركى هذا فى القيامة.

قال: و فى أكثر نسخ الكتاب أى الكافى: و قيامى غير مقامى، و هو أنسب بالأخير، و على الأوّل يحتاج إلى تكلّف شديد كأن يكون المراد قيامه عند اللّه تعالى

ص:124

فى السموات و تحت العرش و فى الجنان فى الغرفات و فى دار السّلام كما دلّت عليه الرّوايات.

قال: و فى نسخ النّهج و بعض نسخ الكتاب: و قيام غيرى مقامى، فهو بالأوّل انسب و يحتاج فى الأخير إلى تكلّف تامّ بأن يكون المراد بالغير القائم عليه السّلام فانّه إمام الزّمان فى الرّجعة، و قيام الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مقامه للمخاصمة فى القيامة.

قال: و يخطر بالبال أيضا أنّه يمكن الجمع بين المعنيين، فيكون أسدّ و أفيد بأن يكون ترون أيّامى و يكشف اللّه عن سرائرى فى الرّجعة و القيامة لاتّصاله بقوله: وداع مرصد للتّلاقى، و قوله عليه السّلام: و تعرفونى كلاما آخر إشارة إلى ظهور قدره فى الدّنيا كما مرّ فى المعنى الأوّل، و هذا أظهر الوجوه لا سيّما على النّسخة الأخيرة انتهى.

تذكرة

قد أوردنا فى شرح الكلام التّاسع و السّتين قصّة شهادة أمير المؤمنين عليه السّلام تفصيلا، و أحببت أن اورد هنا بعض ما قيل فى رثائه عليه السّلام.

فأقول: روى فى شرح المعتزلى عن أبى الفرج الاصبهانى قال: أنشدنى عمى الحسن بن محمّد قال: أنشدنى محمّد بن سعد لبعض بنى عبد المطلب يرثى عليّا و لم يذكر اسمه:

يا قبر سيّدنا المجنّ سماحة صلّى الإله عليك يا قبر

ما ضرّ قبرا أنت ساكنه أن لا يحلّ بأرضه القطر

فليغدينّ سماح كفّك بالثرى و ليورقنّ بجنبك الصخر

و اللّه لو بك لم أجد أحدا إلاّ قتلت لفاتنى الوتر

و قال عبد اللّه بن عبّاس بن عبد المطلب:

و هزّ علىّ بالعراقين لحية مصيبتها جلّت على كلّ مسلم

و قال سيأتيها من اللّه نازل و يخضبها أشقى البريّة بالدّم

فعاجله بالسّيف شلّت يمينه لشؤم قطام عند ذاک ابن ملجم

فيا ضربة من خاسر ضلّ سعيه تبوّء منها مقعدا فی جهنّم

ففاز أمير المؤمنين بحظّه و إن طرقت إحدى اللّئام بمعظم

ألا إنّما الدّنيا بلاء و فتنة حلاوتها شيبت بصبر و علقم

و قالت امّ الهيثم بنت الأسود النخعية و هی الّتی استوهبت جثّة ابن ملجم من الحسن عليه السّلام فوهبها لها فحرّقتها بالنّار.

ألا يا عين ويحک فاسعدينا ألا تبکی أمير المؤمنينا

رزينا خير من رکب المطايا و حبّسها و من رکب السّفينا

و من لبس النّعال و من حذاها و من قرء المثانی و المئينا

و کنّا قبل مقتله بخير نرى مولى رسول اللّه فينا

يقيم الدّين لا يرتاب فيه و يقضى بالفرايض مستبينا

و يدعو للجماعة من عصاه و ينهک قطع أيدی السّارقينا

و ليس بکاتم علما لديه و لم يخلق من المتجبّرينا

لعمر أبی لقد أصحاب مصر على طول الصحابة أرجعونا

و غرّونا بأنّهم عکوف و ليس کذاک فعل العاکفينا

أ فی شهر الصّيام فجعتمونا بخير النّاس طرّا أجمعينا

و من بعد النبیّ فخير نفس أبو حسن و خير الصّالحينا

کأنّ النّاس إذ فقدوا عليّا نعام جال فی البلد سنينا

و لو أنّا سئلنا المال فيه بذلنا المال فيه و البنينا

أشاب ذؤابتی و أطال حزنی أمامة حين فارقت القرينا

تطوف بها لحاجتها إليه فلمّا استيئست رفعت رنينا

و عبرة امّ کلثوم إليها تجاوبها و قد رأت اليقينا

فلا تشمت معاوية بن صخر فانّ بقيّة الخلفاء فينا

و جمّعت الامارة عن تراض إلى ابن نبيّنا و إلى أخينا

ص:126

و لا نعطى زمام الأمر فينا سواه الدّهر آخر ما بقينا

و إنّ سراتنا و ذوى حجانا تواصوا أن نجيب إذا دعينا

بكلّ مهنّد عضب و جرد عليهنّ الكماة مسوّمينا

روى أحمد بن حازم قال لما بلغ نعى أمير المؤمنين عليه السّلام إلى عايشة سجدت للّه شكرا، و لمّا بلغ إلى معاوية فرح فرحا شديدا و قال: إنّ الأسد الّذى كان يفترش ذراعيه فى الحرب قد قضى نحبه ثمّ قال:

قل للأرانب ترعى أينما سرحت و للظّباء بلا خوف و لا وجل

تكملة

قد أشرنا سابقا إلى أنّ هذا الكلام له عليه السّلام مروىّ فى الكافى على اختلاف لما أورده السيّد فى الكتاب فأحببت أن أورد ما هناك، و هو ما رواه عن الحسين بن الحسن الحسنى رفعه، و محمّد بن الحسن عن إبراهيم بن إسحاق الأحمرى رفعه قال:

لمّا ضرب أمير المؤمنين عليه السّلام حفّ به العوّاد و قيل له: يا أمير المؤمنين أوص، فقال عليه السّلام ثنوالى وسادة ثمّ قال:

الحمد للّه قدره متّبعين أمره، أحمده كما أحبّ، و لا إله إلاّ اللّه الواحد الأحد الصّمد كما انتسب، أيّها النّاس كلّ امرء لاق فى فراره مامنه يفرّ، و الأجل مساق النّفس اليه، و الهرب منه موافاته، كم اطّردت الأيام أبحثها عن مكنون هذا الأمر فأبى اللّه عزّ ذكره إلاّ إخفائه، هيهات علم مكنون (مخزون خ ل)، أمّا وصيّتى فأن لا تشركوا باللّه جلّ ثناؤه شيئا، و محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلا تضيّعوا سنّته، أقيموا هذين العمودين، و أوقدوا هذين المصباحين، و خلاكم ذمّ ما لم تشردوا، حمل كلّ امرء منكم مجهوده، و خفّف عن الجهلة، ربّ رحيم، و امام عليم، و دين قويم، أنا بالأمس صاحبكم، و اليوم عبرة لكم، و غدا مفارقكم، إن تثبت الوطأة فى هذه المزلّة فذاك المراد، و إن تدحض القدم فانّا كنّا فى أفياء أغصان و ذرى رياح و تحت ظلّ غمامة اضمحلّ فى الجوّ متلفّقها، و عفى فى الأرض مخطّها،

و إنّما كنت جارا جاوركم بـدنى أيّاما، و سـتعقبون منّى جثّة خلاء ساكنة بعد حركة، و كاظمة بعد نطق ليعظكم هدوّى، و خفوت أطرافى، و سكون أطرافى، فـانّه أوعـظ لكم من النّاطق البليغ، ودّعتكم وداع مرصـد التّلاقى، غـدا ترون أيّامى، و يكشف اللّه عزّ و جلّ عن سـرائرى، و تعرفونى بعد خلوّ مكانى، و قيامى غير مقامى، أنا إن أبق فأنا ولىّ دمى، و إن أفن فالفناء ميعادى، العفو لى قربة و لكم حسـنة فاعفوا و اصفحوا ألا تحبّون أن يغفر اللّه لكم، فيا لها حسرة على كلّ ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجّة أو تؤدّيه امامه على شقوة، جعلنا اللّه. و إيّاكم ممّن لا يقصر به عن طاعة اللّه رغبة أو يحلّ به بعد الموت نقمة، فانّما نحن له و به.

ثمّ أقبل على الحسن عليه السّلام فقال: يا بنىّ ضربة مكان ضربة و لا تأثم.

بيان

قـال فى مرآت العقول «حفّ به» أى أحاط و «العوّاد» جمع عائـدوهم الزّائرون للمريض و «الوسادة» ما يتّكاء عليه فى المجلس، و ثنيّها إمّا للجلوس عليها ليرتفع و يظهر للسّامعين، أو للاتّكاء عليها لعدم قدرته على الجلوس مستقلا.

و قوله «الحمـد للّه قـدره» أى حمدا يكون حسب قدره و كما هو أهله قائم مقام المفعول المطلق «متّبعين أمره» حال من فاعل الحمد، لأنّه فى قوّة أحمـده «كما أحبّ» أى حمـدا يكون محبوبه و موافقا لرضاه «كما انتسب» أى نسب نفسه إليه فى سورة التوحيد و لذا تسـمّى نسـبة الرّب و «الأجل» منتهى العمرو هو مبتداء و «مساق النّفس» مبتداء ثان و «إليه» خبره و الجملة خبر المبتدأ الأوّل.

«و محمّدا» منصوب بالاغراء بتقدير الزموا و «الفاء» للتفريع و «ذرى رياح» أى ما ذرته و جمعته شـبّه ما فيه الانسان فى الدّنيا من الأمتعة و الأموال بماذرته الرّياح فى عدم ثباتها و قلّة الانتفاع، فانّها تجمعها ساعة و تفرقها اخرى، أو المراد

محال ذروها و «كاظمة بعد نطق» قال الفيروزآبادى: كظم غيظه ردّة و حبسه و الباب أغلقه.

«ودّعتكم» على صيغة المتكلّم من باب التفعيل و «يكشف اللّه عن سرائرى» لأنّ بالموت ينكشف بعض ما يسرّه الانسان من النّاس من حسناته المتعدّية إليهم «إن أبق فأنا ولىّ دمى» صدق الشرطيّة لا يستلزم وقوع المقدّم، و قد مرّ الكلام فيه فلا ينافى ما مرّ من قوله: و غدا مفارقكم «فالفناء ميعادى» كما قال جلّ ثناؤه «كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ».

«العفو لى قربة و لكم حسنة» يحتمل أن يكون استحلالا من القوم كما هو الشّايع عند المودعة أى عفوكم عنّى سبب مزيد قربى و حسناتكم، أو عفوى لكم قربة و عفوى عنكم حسنة، فيكون طلب العفو على سبيل التّواضع و من غير أن يكون منه إليهم جناية، و فى أكثر النّسخ و إن أعف فالعفو لى قربة، أى إن أعف عن قاتلى، فقوله: و لكم حسنة، لصعوبة ذلك عليكم حيث تريدون التّشفّى منه و تصبرون على عفوى بعد القدرة على الانتقام.

«فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا » عنّى على الوجه الأوّل أو عن غير قاتلى ممّن له شركة فى هذا الأمر، أو عن جرايم اخوانكم و زلاّتهم و ظلمهم عليكم أو إذا جىء عليكم بمثل هذه الجناية لئلا يناقض قوله عليه السّلام: ضربة مكان ضربة، مع أنّه يحتمل أن يكون معناه إن لم تعفوا فضربة لكن الأمر بالعفو عن مثل هذا الملعون بعيد

الترجمة

از جمله کلام آن امام است پيش از مرگ خود مى فرمايد:

أى مردمان هر مردى از شما ملاقات كننده است در گريختن خود به آن چه كه مى گريزد از آن، و مدت عمر محل جريان نفس است بنهايت آن، و گريختن از مرگ رسيدنست بآن، بسا گردانيدم روزگار را رانده شده از خود در حالتى كه نيك تفحّص مى كردم از پوشيدۀ اين كار پس امتناع فرمود حق تعالى مگر پنهان كردن آن را، چه دور

است مطّلع شدن بآن، این علم علمیست پوشیده شده.

و أمّا وصیّت من بشما پس اینست که پروردگار عالمیان را شریک قرار ندهید و محمّد بن عبد اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ضایع نگردانید سنّت و شریعت او را، بر پا دارید این دو ستون اسلام را، و بر افروزید این دو چراغ هدایت را و خالی باشد از شما مذمّت مادامی که رم ننمائید از توحید پروردگار و شریعت سیّد مختار.

برداشت هر مردی از شما تکلیفی که باندازۀ وسع و طاقت او است، و تخفیف داده شد بار تکلیف از جاهلان و ضعیفان، خدای شما خدائیست مهربان، و دین شما دینی است راست، و امام شما امامی است عالم و آگاه، من دیروز مصاحب شما بودم، و امروز که با این حالت ضعف افتاده ام عبرتم از برای شما، و فردا مفارقت کننده ام از شما بیامرزد خدای تعالی مرا و شما را، اگر ثابت بشود قدم من در این دنیا که محلّ لغزش است پس اینست مقصود شما، و اگر بلغزد قدم پس بدرستی که ما بودیم در سایهای شاخهای درخت و محلّ وزیدن بادها و در زیر سایۀ أبرها که نیست شد و نابود گشت و در هوا جمع شده آن ابرها و مندرس شد در زمین اثر آنها.

و جز این نیست که بودم من همسایه که همسایگی نمود با شما بدن من چند روزی و زود باشد که بیابید بعد از من بدنی که خالی باشد از روح، چنان بدنی که ساکن باشد بعد از حرکت، و خاموش باشد بعد از گفتار، تا وعظ نماید بشما سکون من و چشم در پیش افکندن من، و ساکن شدن أطراف بدن من.

پس بدرستی که مرگ پند دهنده تر است از برای عبرت یابندگان از گفتار بلیغ و فصیح، و از قول مسموع صریح، وداع کردن من شما را وداع مردیست که مهیا شده از برای ملاقات پروردگار، فردا می بینید روزهای مرا، و کشف می شود شما را از سرّهای من، و بشناسید عدالت و قدر مرا بعد از خالی بودن مکان من از من، و ایستادن غیر من بجای من با امارت و خلافت و بی مبالاتی او در دین.

و من خطبة له عليه السّلام فی الملاحم و هی المأة

اشارة

و الخمسون من المختار فی باب الخطب

و أخـذوا يمينا و شـمالا ظعنا فی مسالک الغیّ، و ترکا لمذاهب الرّشد، فلا تسـتعجلوا ما هو کائن مرصد، و لا تسـتبطئوا ما يجیء به الغد، فکم من مسـتعجل بمـا إن أدرکه ودّ أنّه لم يـدرکه، و ما أقرب اليوم من تباشـير غـد، يا قوم هـذا إبّان ورود کلّ موعود، و دنوّ من طلعـة ما لا تعرفون، ألا و من أدرکها منّا يسری فيها بسراج منير، و يحذو فيها على مثال الصّالحين، ليحلّ فيها ربقا، و يعتق رقّا، و يصدع شعبا، و يشعب صدعا، فی سترة عن النّاس لا يبصـر القائف أثره و لو تابع نظره، ثمّ ليشـحذنّ فيها قوم شحذ القين النّصل، يجلی بالتّنزيل أبصارهم، و يرمی بالتّفسـير فی مسامعهم، و يغبقون کأس الحکمة بعد الصّـبوح. منها و طال الأمد بهم ليسـتکملوا الخزی، و يستوجبوا الغير حتّی إذا اخلولق الأجل، و استراح قوم إلی الفتن، و اشتالوا عن لقاح حربهم، لم يمنّوا على اللّه بالصّبر، و لم يستعظموا بذل أنفسهم

ص:131

فى الحقّ، حتّى إذا وافق وارد القضاء انقطاع مدّة البلاء، حملوا بصائرهم على أسيافهم، و دانوا لربّهم بأمر واعظهم، حتّى إذا قبض اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رجع قوم على الأعقاب، و غالتهم السّبل، و اتّكلوا على الولائج، و وصلوا غير الرّحم، و هجروا السّبب الّذى أمروا بمودّته، و نقلوا البناء عن رصّ أساسه فبنوه فى غير موضعه، معادن كلّ خطيئة، و أبواب كلّ ضارب فى غمرة، قد ماروا فى الحيرة، و ذهلوا فى السّكرة، على سنّة من آل فرعون، من منقطع إلى الدّنيا راكن، أو مفارق للدّين مباين.

اللغة

(ظعن) ظعنا من باب منع و ظعنا بالتّحريک سار و (التباشير) أوائل الصّبح و كلّ شىء، و (إبّان) الشىء بكسر الهمزة و تشديد الباء الموحّدة وقته و زمانه و (الرّبق) بالكسر فالسّكون حبل فيه عدّة عرى يشدّ به البهم و كلّ عروة ربقة بالكسر و الفتح و الجمع ربق و رباق و أرباق و (يشحذنّ) على البناء للمفعول من الشّحذ و هو التّحديد و (القين) الحدّاد و (النّصل) حديدة الرّمح و السّهم و السّيف ما لم يكن له مقبض و (الغبوق) وزان صبور الشّرب بالعشىّ و غبقه سقاه ذلک و (الصّبوح) كصبور أيضا الشّرب بالغداة، و صبّحهم سقاهم صبوحا و قد يطلق الغبوق و الصّبوح على ما يشرب بالعشىّ و الغداة.

و (الغير) بكسر الغين المعجمة و فتح الياء المثنّاة قال فى مجمع البحرين:

ص:132

فى الحديث: الشكر أمان من الغير، و مثله من يكفر باللّه يلقى الغير، أى تغيّر الحال و انتقالها عن الصّلاح إلى الفساد و (شالت) النّاقة ذنبها و أشالته رفعته فشال الـذّنب نفسه لازم متعدّ و (اللقاح) بالفتح اسم ماء الفحل لقحت النّاقة من باب سـمع لقاحا أى قبلت اللّقاح فهى لاقح أى حامل و (غاله) السّيل أهلكه كاغتاله و (الرّص) مصدر من رصّ الشىء ألصق بعضه ببعض و ضمّ كرصّصه قال تعالى:

«كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ » و تراصّوا فى الصفّ تلاصقوا و انضمّوا و (مار) الشىء من باب قال تحرّك بسرعة قال سبحانه:

«يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً »

الاعراب

قال الشّارح المعتزلى: ينصب ظعنا و تركا على المصدريّة و العامل فيهما من غير لفظهما و هو أخذوا، انتهى.

و الصّواب أنّهما حالان من فاعل أخذوا على التّأويل بالفاعل، أى ظاعنين و تاركين، و يا قوم بكسر الميم منادى مرّخم، و قوله: فى سترة خبر لمبتدأ محذوف و جملة لا يبصـر القائف أثره حال مؤكّدة نحو: ولىّ مدبرا، و جملة يجلى بالتّنزيل فى محلّ الرّفع صفة لقوم، و قوله: حتّى اذا اخلولق الأجـل، جواب اذا محـذوف بقرينـة جواب اذا الآتيـة أعنى قوله: حملوا بصائرهم، و جملـة لم يمنّوا حال من فاعل اشـتالوا، و قوله: معادن كلّ خطيئة، خبر لمبتدأ محذوف و الجملة فى محلّ الرّفع صفة لقوم.

و قوله: على سـنّة من آل فرعون من منقطع آه ظرف مسـتقرّ حال من فاعل ذهلوا، و من الاولى نشويّة ابتدائيّة و الثّانية أيضا للابتداء، و مجرور الثانية بدل من مجرور الاولى بدل اشتمال نظير قوله تعالى:

«نُودِیَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَیْمَنِ فِی الْبُقْعَةِ الْمُبارَکَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ » قال ابن هشام: من فیهما للابتـداء و مجرور الثانیـة بدل من مجرور الأولی بدل اشتمال لأنّ الشّجرة کانت نابتة بالشّاطیء، انتهی.

و ربّما یعترض علیه بانّه لا بدّ علی ذلک من تقدیر ضمیر یعود علی المبدل منه، و اجیب عنه بأنّ تکرار من یغنی عن تقدیر الضّمیر، هذا.

و یحتمل کون من الثانیة للتّبیین فهی إمّا بیان لمجرور من الاولی علی حدّ قوله تعالی:

«وَ یَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ کُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ یُکَذِّبُ بِآیاتِنا ».

أو بیان لمعادن کلّ خطیئة، و الأوّل أقرب لفظا و الثّانی معنی، فافهم.

المعنی

اشارة

اعلم أنّه علیه السّلام یذکر فی هذه الخطبة قوما من فرق الضّلال زاغوا عن طریق الهدی إلی سمت الرّدی و مدارها علی فصول:

الفصل الاول

قوله علیه السّلام:(و أخدوا یمینا و شمالا ظعنا فی مسالک الغیّ و ترکا لمذاهب الرّشد) أی مرتحلین فی مسالک الغیّ و الضّلال، و تارکین لمذاهب الرّشد و السّداد، فانّ الیمین و الشّمال مضلّة و الطّریق الوسطی هی الجادّة علی ما تقدّم تفصیلا فی شرح الفصل الثّانی من الکلام السّادس عشر، فمن أخذ بالشّمال و الیمین ضلّ لا محالة عن النّهج القویم و الصراط المستقیم.

ثمّ نهاهم عن استعجال ما کانوا یتوقّعونه من الفتن الّتی أخبرهم الرّسول صلّی اللّه علیه و آله

و هو علیه السّلام بوقوعها فی مستقبل الزّمان، و کانوا یسألونه علیه السّلام عنها و یستبطئون حصولها فقال:(فلا تستعجلوا ما هو کائن مرصد) أی مترقّب و معدّ (و لا تستبطئوا ما یجیء به الغد) و علّل النّهی عن الاستعجال بقوله (فکم من مستعجل بما إن أدرکه) حریص علیه (ودّ أنّه لم یدرکه) و ذلک لأنّه ربّما یستعجل أمرا غفلة عمّا یترتّب علیه من المفاسد و المضارّ، و جهلا بما یتضمّنه من الشّرور و المعایب فاذا أدرکه ظهر له ما کان مخفیّا عنه فیودّ أن لا ینیله و لا یدرکه قال سبحانه:

«وَ عَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ».

و لمّا نهاهم عن استبطاء ما یجیء به الغد أشار إلی قربه بقوله (و ما أقرب الیوم من تباشیر غد) و أوائله کما قال الشّاعر: غد ما غد ما أقرب الیوم من غد.

ثمّ قال علیه السّلام:(یا قوم هذا إبّان ورود کلّ موعود) أی وقت وروده و زمانه و المستفاد من شرح البحرانی أنّ المقصود بهذه الجملة تقریب ذلک الموعود من الفتن، و من شرح المعتزلی أنّها إشارة إلی قرب وقت القیامة و ظهور الفتن التی یظهر أمامها، و الانصاف أنّ کلامه علیه السّلام متشابه المراد، لأنّ السیّد (ره) حذف أوّل الخطبة و ساقها علی غیر نسق، فأوجب ذلک إبهام المرام و إعضال الکلام، و کم له (ره) من مثل هذا الاسلوب المخالف للسّلیقة فی هذا الکتاب الموجب للغلق و الاضطراب هذا.

و قوله:(و دنوّ من طلعة ما لا تعرفون) أی هذا وقت قرب ظهور ما لا تعرفون من تلک الملاحم و الفتن الحادثة بالتّفصیل.

قال الشّارح المعتزلی: لأنّ تلک الملاحم و الأشراط الهایلة غیر معهود مثلها، نحو دابّة الأرض، و الدّجال و فتنته و ما یظهر علی یده من المخاریق و الامور الموهمة، و واقعة السّفیانی و ان یقتل فیها من الخلائق الذی لا یحصی عددهم، انتهی ثمّ أشار إلی سیرة أهل بیته علیه السّلام عند ظهور هذه الفتن فقال (ألا و من أدرکها منّا) أهل البیت (یسری فیها) أی فی ظلمات هذه الفتن (بسراج منیر) أی بنور

الامامة و الولاية، فلا توجب ظلماتها انحرافه عن طريق الهدى، و لا توقع له شبهة فى عقيدته الصّادقة الصّافية بل يسلك فيها مسلك الحقّ المبين (و يحذو فيها على مثال) أسلافه (الصّالحين) و يقتفى آثار أولياء الدّين (ليحلّ فيها ربقا و يعتق رقّا) أى يستفكّ الهدى و ينقذ مظلومين من أيدى الظّالمين، و يحتمل أن يكون كناية عن حلّه فيها ربق الشّک من أعناق النّفوس و عتقها من ذلّ الجهل (و يصدع شعبا و يشعب صدعا) أى يفرّق ما اجتمع و اتّفق من الضّلال و يصلح ما تشتّت و تفرّق من الهدى.

و قوله:(فى سترة عن النّاس) قال الشّارح المعتزلى هنا بعد بنائه على أنّ المراد بالموصول فى قوله عليه السّلام سابقا: و من أدركها، هو مهدىّ آل محمّد سلام اللّه عليه و على آبائه الطّاهرين: إنّ هذا الكلام يدلّ على استتار هذا الانسان المشار إليه و ليس ذلک بنافع للاماميّة فى مذهبهم و إن ظنّوا أنّه تصريح بقولهم، و ذلک لأنّه من الجايز أن يكون هذا الامام يخلقه اللّه فى آخر الزّمان و يكون مستترا مدّة و له دعاة يدعون إليه و يقرّرون أمره ثمّ يظهر بعد ذلک الاستتار و يملک الممالیک و يقهر الدّول و يمهّد الأرض كما ورد فى الخبر انتهى.

أقول: قد أشرنا فى شرح الخطبة المأة و الثّامنة و الثلاثين أنّ المهدىّ صاحب الزّمان عليه صلوات الرّحمن مخلوق موجود الآن، و أنّ خلاف المعتزلة و من حذا حذوهم فيه و إنكارهم لوجوده بعد ممّا لا يعبأ به بعد قيام البراهين العقليّة و النقلية و دلالة الأصول المحكمة على وجوده كما هو ضرورىّ مذهب الاماميّة رضوان اللّه عليهم، و كتب أصحابنا فى الغيبة كفتنا مؤنة الاستدلال فى هذا المقام و كيف كان فلو اريد بالموصول خصوص امام الزّمان عليه السّلام لا بدّ أن يكون المراد بقوله: فى سترة عن النّاس، غيبته و استتاره عن أعين النّاس، و يكون قوله (لا يبصر القائف أثره و لو تابع نظره) إشارة إلى شدّة استتاره و عدم إمكان الوصول إليه و لو استقصى فى الطلب و بولغ فى النّظر و التّأمل إلاّ للأوحدىّ من النّاس إذا اقتضت الحكمة الالهيّة، و لو اريد به العموم كان المقصود به ما قاله الشّارح

البحرانى حيث قـال: و ما زالت أئمـة أهل البيت عليهم السّـلام مغمورين فى النّاس لا يعرفهم إلاّ من عرّفوه أنفسـهم حتّى لو تعرّفهم من لا يريدون معرفته لم يعرفهم، لست أقول لم يعرف أشخاصهم بل لا يعرف أنّهم أهل الحقّ و الأحقّون بالأمر.

(ثمّ ليشحذنّ فيها قوم شحذ القين النّصل) قال الشّارح المعتزلى: يريد ليحرضنّ فى هذه الملاحم قوم على الحرب و قتل أهل الضّـلال، و ليوطننّ عزائمهم كما يشحذ الصّيقل السّيف و يطلق حدّه.

و قـال الشّارح البحرانى: أى فى أثناء ما يأتى من الفتن تشحذ أذهان قوم و تعـدّ لقبول العلوم و الحكمـة كما يشحذ الحـدّاد النّصل، و لفظ الشّحذ مستعار لاعداد الأذهان، و وجه الاستعارة الاشتراك فى الاعداد التّام النّافع، فهو يمضى فى مسائل الحكمة و العلوم كمضىّ النّصل فما يقطع به و هو وجه التّشبيه المذكور، انتهى.

أقول: فعلى قول الأوّل يكون المراد بقوله عليه السّلام: قوم، أنصار إمام الزمان عليه السّلام و أصحابه، و على قول الثّانى يكون المراد به علماء الامّـة المستجمعين لكمالات النفوس، السّـالكين لسبيـل اللّه من جـاء منهم قبلنا و من يأتى فى آخر الزمان و وصف هؤلاء بقوله (يجلى بالتنزيل أبصارهم و يرمى بالتّفسير فى مسامعهم) أى يكشف الرّين و تدفع ظلمات الشّكوك و الشّبهات عن أبصار بصائرهم بالقرآن و التّدبر فى بديع اسلوبه و معانيه، و يرمى بتفسيره حقّ التفسير فى مسامعهم، و الجملة الثّانية بمنزلة التّعليل للأولى، يعنى أنّهم لتلقّيهم تفسيره على ما يحقّ و ينبغى من أهل الذكر الذينهم معادن التنزيل و التّأويل و تحصيلهم المعرفة عنهم عليهم السّلام بمعانيه و مبانيه و اسراره الباطنة و الظّـاهرة و حكمه الجليّـة و الخفيّـة ارتفعت غطـاء الشّـبهات و غشاوة الشّـكوكات عن ضـمائرهم و بصائرهم، فاستعدّت أذهانهم لادراك المعارف الحقّة و الحكم الالهيّة، و لم يزل الأسرار الرّبانيّة و العنايات الالهيّة تفاض اليهم صباحا و مساء.

و هو معنى قوله:(و يغبقون كأس الحكمة بعد الصّبوح)و هو من باب الاستعارة

بالكناية حيث شبّه الحكمة التى هى عبارة عن المعارف المتضمّنة لصلاح النشأتين بالشّراب، و الجامع عظم المنفعة و اللّذة فيهما و إن كانت منفعة الأولى للأرواح و بها التذاذها و كمالها، و نفع الثّانى للأبدان و منه حظّها، و اثبات الكأس تخييل، و ذكر الغبوق و الصّبوحترشيح.

الفصل الثانى

(منها) قوله عليه السّلام(و طال الأمد بهم ليستكملوا الخزى و يستوجبوا الغير)قال الشارحان البحرانى و المعتزلى: هذا الفصل من كلامه يتّصل بكلام قبله لم يذكره الرّضىّ قد وصف فيه فئة ضالّة قد استولت و ملكت و املى لها اللّه سبحانه انتهى.

ان قيل: كيف ساغ جعل طولالأمدعلّة لاستكمالالخزى؟ قلت: اللاّم هنا ليست على التّعليل حقيقة بل هى على العلّية المجازيّة كما فى قوله سبحانه «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا و حزنا» حيث شبّه ترتّب كونه عدوّا و حزنا على الالتقاط بترتّب العلّة الغائية على معلولها، فاستعمل فيه اللاّم الموضوعة للعليّة، و فيما نحن فيه أيضا لمّا كان طول المدّة سببا لتماديهم فى الغىّ و الغفلة، و فعلهم للآثام و المعاصى بسوء اختيارهم، و كان فعل المعاصى جالبا لكمالالخزى،و موجبا لتغيّر النّعم، فجعلوا بفعلهم للمعاصى بمنزلة الطّالبين لكمال الخزى، ثمّ رتّب استكمالالخزيعلى طولالأمدو استعمل اللاّم الموضوعة للعليّة فيه و مثله قوله تعالى:

«وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ ».

و محصّل المرام أنّهم بطول بقائهم فى الدّنيا ركبوا الذّنوب و المعاصى، فاستحقّوا بذلك الخزى و النّكال، و استوجبوا تغير النّعمة بسوء الأعمال

لأنّ «اَللّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ » قال «وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْ ءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذٰلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَ هَلْ نُجازِى إِلاَّ الْكَفُورَ ».

(حتّى إذا اخلولق الأجل) قال الشّارح البحرانى: أى صار خليقا، و ليس بشىء، لأنّ اخلولق لم يذكر له إلاّ الفاعل فهو فعل تامّ بمعنى قرب، و ما ذكره معنى اخلولق إذا ذكر له اسم و خبر و كان فعلا ناقصا مثل: اخلولق السّماء أن تمطر أى صار خليقا للأمطار، و كيف كان فالمراد أنّه قرب انقضاء مدّة هؤلاء الضّالين المستكملين للخزى و المستوجبين للغير.

(و استراح قوم إلى الفتن) أى مال و صبا قوم من الشّيعة و أهل البصرة إلى فتن تلك الفئة الضّالّة، و وجدوا الرّاحة لأنفسهم فى توجّههم إليها(و اشتالوا عن لقاح حربهم)أى رفع هؤلاء المستريحون أنفسهم عن تهيّج الحرب بينهم و بين هذه الفئة، و شبّه الحرب بالنّاقة اللاّقح و أثبت لها اللّقاح تخييلا، و المراد أنّهم تركوا محاربتهم و رفعوا أيديهم عن سيوفهم إمّا لعجزهم عن القتال أو لعدم قيام القائم بالأمر فهادنوهم و ألقوا اليهم السّلم.

حالكونهم (لم يمنّوا على اللّه بالصّبر) على مشاقّ القتال، و فى رواية: بالنّصر، أى بنصرهم للّه (و لم يستعظموا بذل أنفسهم فى) طلب (الحقّ) و نصرته (حتّى إذا وافق وارد القضاء انقطاع مدّة البلاء) أى ورد القضاء الالهى بانقطاع بلاء هذه الفئة الضّالة و انقضاء ملكهم و أمارتهم و أذن اللّه فى استيصالهم بظهور من يقوم بنصر الحقّ و دعوته اليه (حملوا) أى هؤلاء المستريحون إلى الفتن (بصائرهم على أسيافهم) لحرب أهل الضّلال، قال الشّارح المعتزلى: و هذا معنى لطيف، يعنى أنّهم أظهروا بصائرهم و عقايد قلوبهم للنّاس و كشفوها و جرّدوها من أجفانها مع تجريد السّيوف من أجفانها فكأنها شىء محمول على السيوف يبصره من يبصر السيوف، فترى فى

غاية الجلاء و الظهور كما ترى السيوف المجرّدة (و دانوا لربّهم بأمر واعظهم) أشار به إلى الامام القائم عجّل اللّه ظهوره، هذا.

و للشّراح فى شرح هذا الفصل من كلامه عليه السّلام اضطراب عظيم، و تحيّروا فى مراجع الضمائر الموجودة فيه، و اضطرّوا فى إصلاح نظم الكلام إلى التأويلات الباردة التى يشمئزّ عنها الأفهام، و نحن شرحناه بحمد اللّه على ما لا يخرجه من السلاسة و النظم بمقتضى سليقتنا، و العلم بعد موكول إلى صاحب الكلام عليه السّلام

الفصل الثالث

اشارة

فى اقتصاص حال المرتدّين بعد قبض الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ظاهر هذا الفصل يعطى أن يكون قبله كلام أسقطه الرّضىّ حتى يكون هذا الكلام غاية له، و إلاّ فلا ارتباط له بالفصل المتقدّم.

يقول عليه السّلام:(حتّى إذا قبض اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رجع قوم على الأعقاب) و تركوا ما كانوا عليه من الانقياد للشريعة و امتثال أوامر اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و المراد بهؤلاء القوم الغاصبون للخلافة و متّبعوهم و المقتفون اثرهم (و غالتهم السبل) أى أهلكتهم سبل الضلال و عدو لهم عن سبيل الحقّ قال سبحانه:

«وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ».

و قد فسّر السبيل فى هذه الآية و فى غير واحد من الآيات بالأئمة و ولايتهم، و فسّر السبل بأئمة الضلال و ولايتهم و قد مضى طرف من الأخبار فى هذا المعنى فى شرح الفصل الثانى من الكلام السابع عشر و أقول هنا: روى فى البحار من تفسير فرات بن إبراهيم عن جعفر بن محمّد الفزارى معنعنا عن حمران، قال سمعت أبا جعفر يقول فى قول اللّه:

«وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ».

قال: علیّ بن أبی طالب و الأئمة من ولد فاطمة علیهم السّلام هم صراط اللّه، فمن أتاهم سلک السبیل و من کنز جامع الفواید و تأویل الآیات عن علیّ بن إبراهیم عن أبیه عن النضر عن یحیی الحلبی عن أبی بصیر عن أبی جعفر فی قوله:

«وَ أَنَّ هذا صِراطِی مُسْتَقِیماً فَاتَّبِعُوهُ ».

قال: طریق الامامة فاتّبعوه.

«وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ».

أی طرقا غیرها.

و عن محمّد بن القاسم عن السیاری عن محمّد بن خالد عن حماد عن حریز عن أبی عبد اللّه علیه السّلام أنه قال قوله عزّ و جلّ:

«یا لَیْتَنِی اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِیلاً ».

یعنی علیّ بن أبی طالب علیه السّلام و من تفسیر الامام قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: ما من عبد و لا أمة اعطی بیعة أمیر المؤمنین علیه السّلام فی الظاهر و نکثها فی الباطن و أقام علی نفاقه إلاّ و إذا جاءه ملک الموت لقبض روحه تمثّل له إبلیس و أعوانه، و تمثّلت النیران و أصناف عفاریتها لعینیه و قلبه و مقاعده مقاعد الناکث من مضایقها، و تمثّل له أیضا الجنان و منازله فیها لو کان بقی علی ایمانه و وفی ببیعته فیقول له ملک الموت: انظر إلی تلک الجنان التی لا یقادر قدر سرّائها و بهجتها و سرورها إلاّ اللّه ربّ العالمین کانت معدّة لک، فلو کنت بقیت علی ولایتک لأخی محمّد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یکون إلیها مصیرک یوم فصل القضاء، و لکن نکثت و خالفت فتلک النیران و أصناف عذابها و زبانیتها و أفاعیها الفاغرة أفواهها و عقاربها الناصبة أذنابها و سباعها الثائلة مخالبها و سایر أصناف عذابها هو لک و إلیها مصیرک فعند ذلک یقول:

«يا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ».

و قبلت ما أمرنى به و التزمت من موالاة علىّ عليه السّلام ما ألزمنى.

(و اتكلوا على الولايج) أى اعتمدوا فى آرائهم الفاسدة و بدعهم المبتدعة على أهلهم و خواصّهم فى نصرة ذلك الرّأى و ترويج تلك البدعة (و وصلوا غير الرّحم) أى رحم آل محمّد و اللاّم عوض عن المضاف إليه يعنى أنّهم قطعوا رحم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله بحسبانهم أنّها لا تنفع، و وصلوا غيرها لانتفاعهم فى دنياهم بها.

و هؤلاء هم الّذين أشار إليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الحديث المروىّ فى البحار من أمالى الشّيخ و ابنه عن المفيد معنعنا عن حمزة بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول على المنبر: ما بال أقوام يقولون إنّ رحم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا ينفع يوم القيامة، بلى و اللّه إنّ رحمى لموصولة فى الدّنيا و الآخرة، و إنّى أيّها النّاس فرطكم يوم القيامة على الحوض، فاذا جئتم قال الرّجل يا رسول اللّه أنا فلان بن فلان فأقول: أمّا النّسب فقد عرفته و لكنّكم أخذتم بعدى ذات الشّمال و ارتددتم على أعقابكم القهقرى.

و فيه منه باسناده عن حمزة بن أبى سعيد الخدرى أيضا عن أبيه عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: أ تزعمون أنّ رحم نبىّ اللّه لا ينفع قومه يوم القيامة؟ بلى و اللّه إنّ رحمى لموصولة فى الدّنيا و الآخرة، ثمّ قال: يا أيّها النّاس أنا فرطكم على الحوض فاذا جئت و قام رجال يقولون يا نبىّ اللّه أنا فلان بن فلان، و قال آخر يا نبىّ اللّه أنا فلان بن فلان، و قال آخر يا نبىّ اللّه أنا فلان بن فلان، فأقول: أمّا النّسب فقد عرفت و لكنّكم أحدثتم بعدى و ارتددتم القهقرى قال العلاّمة المجلسىّ بعد رواية هذا الحديث: الظّاهر أنّ المراد بالثلاثة الثّلاثة.

(و هجروا السبب الّذى أمروا بمودّته) أراد بهم آل محمّد عليهم السّلام أيضا لكونهم سببا لمن اهتدى بهم فى الوصول إلى اللّه سبحانه.

ص:142

و يدلّ عليه ما رواه فى البحار من أمالى الشّيخ و ابنه بسنده عن محمّد بن المثنى الأزدى أنّه سمع أبا عبد اللّه عليه السّلام يقول. نحن السّبب بينكم و بين اللّه عزّ و جلّ و قد أمرنا اللّه بمودّتهم فى قوله:

«قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى ».

و قال رسول اللّه فى مرويّ البحار من كتاب العمدة من مناقب الفقيه ابن المغازلى الشّافعى باسناده إلى ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: لمّا خلق اللّه الخلق اختار العرب فاختار قريشا و اختار بنى هاشم فأنا خيرة من خيرة، ألا فأحبّوا قريشا و لا تبغضوها فتهلكوا، ألا كلّ سبب و نسب منقطع يوم القيامة إلاّ سببى و نسبى، ألا و إنّ عليّ بن أبى طالب عليه السّلام من نسبى و حسبى فمن أحبّه فقد أحبّنى و من أبغضه فقد أبغضنى.

قال الشّارح المعتزلى فى شرح قوله: و هجروا السّبب: يعنى أهل البيت، و هذا إشارة إلى قول النّبى صلّى اللّه عليه و آله: خلفت فيكم الثقلين: كتاب اللّه و عترتى أهل بيتى، حبلان ممدودان من السّماء إلى الأرض لا يفترقان حتّى يردا عليّ الحوض فعبّر أمير المؤمنين عن أهل البيت بلفظ السّبب لما كان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: حبلان، و السبب فى اللغة الحبل، انتهى.

أقول: و قد استعير لهم عليهم السّلام لفظ الحبل فى غير واحد من الآيات، قال شيخنا أبو عليّ الطبرسى فى تفسير قوله تعالى:

«وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا » قيل فى معنى حبل اللّه أقوال: أحدها أنّه القرآن ثانيها أنّه دين الاسلام و ثالثها ما رواه أبان بن تغلب عن جعفر بن محمّد عليهما السّلام قال: نحن حبل اللّه الذى قال: و اعتصموا بحبل اللّه جميعا، و الأولى حمله على الجميع.

و الّذى يؤيّده ما رواه أبو سعيد الخدرى عن النّبيّ أنّه قال: يا أيّها النّاس إنّى قد تركت فيكم حبلين إن أخذتم بهما لن تضلّوا بعدى أحدهما اكبر من الآخر كتاب اللّه حبل ممدود من السّماء إلى الأرض، و عترتى أهل بيتى ألا و إنّهما لن

يفترقا حتّى يردا علىّ الحوض.

و فى البحار من تفسير علىّ بن إبراهيم فى هـذه الآيـة قال: التّوحيـد و الولاية و فى رواية أبى الجارود فى قوله تعالى: «وَ لاٰ تَفَرَّقُوا »، قال: إنّ اللّه تبـارك و تعـالى علم أنّهم سـيفترقون بعـد نبيّهم و يختلفون، فنهـاهم اللّه عن التفرّق كما نهى من كان قبلهم، فأمرهـم أن يجتمعوا على ولاية آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا يتفرّقوا.

و فى البحار أيضا من كنز جامع الفوايـد و تأويل الآيات رواية عن صاحب نهج الايمان، عن الحسـين بن جبير باسـناده إلى أبى جعفر الباقر عليه السّلام فى قوله تعالى:

«إِلاّٰ بِحَبْلٍ مِنَ اللّٰهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النّٰاسِ ».

قال: حبل من اللّه كتاب اللّه، و حبل من النّاس علىّ بن أبى طالب عليه السّلام.

و فيه من الكتاب المذكور أيضا مسندا عن حصين بن مخارق عن أبى الحسن موسى عن آبائه عليهم السّلام فى قوله عزّ و جلّ:

«فَقَدِ اسْتَمْسَکَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقىٰ ».

قال: مودّتنا أهل البيت.

و فى الصّافى من معانى الأخبار عن النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من أحبّ أن يستمسک بالعروة الوثقى الّتى لا انفصام لها فليستمسک بولاية أخى و وصيّى علىّ بن أبى طالب فانّه لا يهلک من أحبّه و تولاه، و لا ينجو من أبغضه و عاداه.

(و نقلوا البناء عن رصّ أساسه فبنوه فى غير موضـعه) أى نقلوا بناء الدّين و الايمان عن أساسه المرصوص المسـتحكم اللاّصق بعضه ببعض، فبنوه فى غير موضـعه و هو اشارة إلى عـدو لهم بالخلافة عن أصـلها و مكانها اللاّيق به إلى غيره، و هو توبيخ و تفريع آخر لأولئک المنافقين بعد و لهم عن أولياء المؤمنين و أئمة الدّين، كما وبخّ اللّه اخوانهم فى هذا المعنى بقوله:

«أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللّهِ وَ رِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ ».

يعنى أنّ المحقّ اسّس بنيان دينه على قاعدة محكمة و أساس وثيق و هو الحقّ الّذى هو التّقوى من اللّه و طلب مرضاته بالطّاعة، و المبطل أسّس بنيانه على قاعدة هى أضعف القواعد و هو الباطل و النّفاق الذى مثله مثل شفا جرف هار فى قلّة الثّبات فهوى به الباطل فى نار جهنّم.

ثمّ وصفهم، بأوصاف اخرى فقال (معادن كلّ خطيئة) قال الشّارح البحرانى أى إنّهم مستعدّون لفعل كلّ خطيئة و مهيّؤن لها، فهم مظانّها، و لفظ المعادن استعارة، انتهى.

أقول: و الظّاهر أنّ المراد أنّهم معدن كلّ خطيئة صدرت من هذه الامّة و أصل كلّ ذنب واقع منهم و منشاه و مبدء الشّرور و المساوى، و ذلك باغتصابهم للخلافة إذ لو استقرّت فى أهلها أعنى أهل بيت العصمة و الطهارة لحملوا النّاس على الحنيفيّة البيضاء، و جرى الامور على وفق الحقّ فضّلوا و أضلّوا.

«وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ » روى فى الصّافى عن العيّاشى عن الباقر عليه السّلام ما ذا أنزل ربّكم فى علىّ؟ قالوا:

أساطير الأوّلين سجع أهل الجاهليّة فى جاهليّتهم ليحملوا أوزارهم ليستكملوا الكفر ليوم القيامة و من أوزار الّذين يضلّونهم يعنى كفر الّذين يتولّونهم و عن علىّ بن إبراهيم القمّى قال: يحملون آثامهم يعنى الّذين غصبوا امير المؤمنين و آثام كلّ من اقتدى بهم، و هو قول الصّادق عليه السّلام: و اللّه ما اهريقت

محجمـة من دم و لا قرع عصا بعصا و لا غصب فرج حرام و لا اخـذ مال من غير حلّه إلاّ و زر ذلک فی أعناقهما من غير أن ينقص من أوزار العاملين شیء.

و فی حـديث مفضّل بن عمر الوارد فی الرّجعة عن الصّادق عليه السّلام بعد اقتصاصه مسير المهدی عليه السّلام إلی قبر جدّه رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و إخراجه بضجيعيه و أمره بصلبهما قال: فيأمر المهـدی ريحا فتجعلهم كأعجاز نخل خاوية، ثمّ يأمر بانزالهما فينزلان فيحييهما باذن اللّه تعالی و يأمر الخلايق بالاجتماع، ثمّ يقصّ عليهم قمص أفعالهم فی كلّ كور و دور حتّی يقصّ عليهم قتل هابيل بن آدم عليه السّلام، و جمع النّار لابراهيم، و طرح يوسف فی الجبّ، و حبس يونس فی بطن الحوت، و قتل يحيی، و صلب عيسی، و عذاب جرجيس، و دانيال، و ضـرب سـلمان الفارسـی، و اشـعال النّار علی باب أمير المؤمنين و فاطمة و الحسـنين عليهم السّلام و إرادة إحراقهم بابها، و ضرب صديقة الكبری فاطمة الزّهراء بسوط، و رفس بطنها و إسقاطها محسنا، و سمّ الحسن عليه السّلام، و قتل الحسين و ذبح أطفاله و بنی عمّه و أنصاره و سبی ذراری رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و إراقـة دماء آل محمّد، و كلّ دم مؤمن، و كلّ فرج نكح حراما، و كلّ ربا اكـل، و كلّ خبث و فاحشـة و ظلم منـذ عهـد آدم إلی قيام قائمنا، كلّ ذلک يعـد ده عليهما و يلزمهما إيّاه و يعترفان به ثمّ يأمر بهما فيقتصّ منهما فی ذلک الوقت مظالم من حضر، الحديث.

(و) بمـا ذكرنا ظهر أيضا أنّهم (أبواب كلّ ضارب فی غمرة) يعنی أنّ كلّ من أراد الباطل و الضّلال فليقصـد هؤلاء و ليرمق أعمالهم و ليتّبع آثارهم، إذ كلّ ضلال قد خرج منهم و انتشر فی مشارق الأرض و مغاربها، فهم أبواب الضلال كما أنّ الأئمة عليهم السّلام أبواب الهدی.

روی فی البحار من كنز جامع الفوايد و تأويل الآيات عن حماد بن عيسی عن بعض أصحابه رفعه إلی أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال:

«وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِی اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدیً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ »

ص:146

«ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ ».

قال: هو الأوّل ثانى عطفه إلى الثّانى، و ذلک لما أقام رسول اللّه أمير المؤمنين علما للناس و قال: و اللّه لا نفى بهذه له أبدا (قد ماروا فى الحيرة) أى تردّدوا فى أمرهم، فهم حائرون تائهون لا يعرفون جهة الحقّ فيقصدونه، و ذلک بعدو لهم عن أئمة الدين و أدلاّء الشّرع المبين.

روى العلاّمة المجلسىّ من كتاب المحاسن عن محمّد بن علىّ بن محبوب عن العلا عن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السّلام يقول: إنّ من دان اللّه بعبادة يجهد فيها نفسه بلا إمام عادل من اللّه فانّ سعيه غير مقبول، و هو ضالّ متحيّر، و مثله كمثل شاة ضلّت عن راعيها و قطيعها فتاهت ذاهبة و جائية يومها، فلمّا أن جنّها الليل بصرت بقطيع غنم مع راعيها فجاءت إليها فباتت معها فى ربضها(1)، فلمّا أن ساق الرّاعى قطيعه أنكرت راعيها و قطيعها فهجمت متحيّرة تطلب راعيها و قطيعها، فبصرت بسرح(2) قطيع غنم آخر فعمدت نحوها و حنّت إليها، فصاح بها الرّاعى: ألحقى بقطيعک فانّک تائهة متحيّرة قد ضللت عن راعيک و قطيعک فهجمت زعرة متحيّرة لا راعى لها يرشدها إلى مرعاها أو يردّها، فبينا هى كذلک إذا اغتنم الذّئب ضيعتها فأكلها، و هكذا يا محمّد بن مسلم من أصبح من هذه الامّة لا إمام له من اللّه عادل أصبح تائها متحيّرا إن مات على حاله تلک مات ميتة كفر و نفاق، و اعلم يا محمّد أنّ أئمة الحقّ و أتباعهم على دين اللّه.

و قد تقدّمت هذه الرّواية فى التّذنيب الثّالث من شرح الفصل الرّابع من الخطبة الاولى برواية الكافى و أوردتها هنا لاقتضاء المقام، و توضيح كلام الامام عليه السّلام (و ذهلوا فى السّكرة) أى غابت أذهانهم فى سكرة الجهل (على سنّة من آل فرعون) أى على طريقة اتباع فرعون الّذين قال اللّه فيهم: «أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ » كما أنّ الأئمة عليهم السّلام على سنّة آل موسى و شيعته، و المراد أنّهم

1- (1) ربض الغنم مرعاها

2- (2) السرح المال السائم

على طريقة أهل الظلم و الضّلال كما أنّ الأئمة عليهم السّلام على طريقة أهل العدل و الهدى.

و قد صرّحوا بذلک فی غير واحد من الرّوايات مثل ما فی البحار عن العياشی عن أبی الصّباح الكنانی قال: نظر أبو جعفر إلى أبی عبد اللّه عليهما السّلام فقال: هذا و اللّه من الذين قال اللّه:

«وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ». الآية و قال سيّد العابدين علیّ بن الحسين عليهما السّلام: و الذی بعث محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالحقّ بشيرا و نذيرا إنّ الأبرار منّا أهل البيت و شيعتهم بمنزلة موسى و شيعته، و إنّ عدوّنا و أشياعهم بمنزلة فرعون و أشياعه.

و فيه من تفسير فرات بن إبراهيم عن الحسين بن سعيد باسناده عن علیّ بن أبی طالب عليه السّلام قال: من أراد أن يسأل عن أمرنا و أمر القوم فانا. و أشياعنا يوم خلق اللّه السّموات و الأرض على سنّة موسى و أشياعه، و إنّ عدوّنا يوم خلق اللّه السّموات و الأرض على سنّة فرعون و أشياعه، فنزلت فينا هذه الآيات:

«نَتْلُوا عَلَيْکَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِی الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِی نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ وَ نُرِیَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ».

و إنّى اقسم بالّذى خلق «فلق ظ» الحبّة و برىء النّسمة ليعطفنّ عليكم هؤلاء عطف الضّروس(1) على ولدها.

و فيه عن علىّ بن إبراهيم قال: حدّثنى أبى عن النّضر عن ابن حميد عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: لقى المنهال بن عمرو علىّ بن الحسين صلوات اللّه عليهما فقال له: كيف أصبحت يا ابن رسول اللّه؟ قال: ويحك أما آن لک أن تعلم كيف أصبحت؟ أصبحنا فى قومنا مثل بنى إسرائيل فى آل فرعون يذبّحون أبنائنا و يستحيون نسائنا (من منقطع إلى الدّنيا راكن أو مفارق للدّين مباين) أو لمنع الخلوّ يعنى أنّ صنفا منهم منقطع إلى الدّنيا منهمک فى لذّاتها مكبّ على شهواتها، و الصّنف الآخر مفارق للدّين مزايل له و إن لم يكن له دنيا كما ترى كثيرا من أحبار النّصارى و رهبانهم، يتركون الدّنيا و يزهدون فيها و هم من أهل الضّلال.

تنبيه

قال الشّارح المعتزلىّ فى شرح هذا الفصل الأخير من الخطبة:

فان قلت: أليس الفصل صريحا فى تحقيق مذهب الاماميّة؟ قلت: لا، بل نحمله على أنّه عنى عليه السّلام أعدائه الّذين حاربوه من قريش و غيرهم من افناء العرب فى أيّام صفّين، و هم الّذين نقلوا البناء، و هجروا السّبب و وصلوا غير الرّحم، و اتّكلوا على الولايج، و غالتهم السّبل، و رجعوا على الأعقاب كعمرو بن العاص و المغيرة بن شعبة و مروان بن الحكم و الوليد بن عقبة و حبيب بن مسلمة و بسر بن أرطاة و عبد اللّه بن الزّبير و سعيد بن العاص و جوشب، و ذى الكلاع و شرجيل بن الصمت و أبى الأعور السّلمى و غيرهم ممّن تقدّم ذكرنا لهم فى الفصول المتعلّقة بصفين و أخبارها، فانّ هؤلاء نقلوا الامامة عنه عليه السّلام إلى معاوية، فنقلوا البناء عن رصّ أصله إلى غير موضعه.

فان قلت: لفظ الفصل يشهد بخلاف ما تأوّلته لأنّه عليه السّلام قال: حتّى إذا

1- (1) ضرسهم الزمان شدّ عليهم و ناقة ضروس سيئة الخلق تعضّ حالبها.

قبض اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رجع قوم على الأعقاب، فجعل رجوعهم على الأعقاب عقيب قبض الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ما ذكرته أنت كان بعد قبض الرّسول بنيّف و عشرين سنة قلت: ليس يمتنع أن يكون هؤلاء المذكورون رجعوا على الأعقاب لمّا مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و أضمروا فى أنفسهم مشاقّة أمير المؤمنين عليه السّلام و أذاه، و قد كان فيهم من يتحكّك به فى أيام أبى بكر و عمر و عثمان و يتعرّض له و لم يكن أحد منهم و لا- من غيرهم تقدّم على ذلك فى حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، و لا يمتنع أيضا أن يريد برجوعهم على الأعقاب ارتدادهم عن الاسلام بالكلّية، فانّ كثيرا من أصحابنا يطعنون فى ايمان بعض من ذكرناه، و يعدّونهم من المنافقين، و قد كان سيف رسول اللّه يقمعهم و يردعهم عن إظهار ما فى أنفسهم من النفاق، فأظهر قوم منهم بعده ما كانوا يضمرونه من ذلك خصوصا فيما يتعلّق بأمير المؤمنين الّذى ورد فى حقّه: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلاّ ببغض علىّ بن أبى طالب عليه السّلام، و هو خبر محقّق مذكور فى الصّحاح.

فان قلت: يمنعك من هذا التّأويل قوله: و نقلوا البناء عن رصّ أساسه فجعلوه فى غير موضعه، و ذلك لأنّ إذا ظرف و العامل فيها قوله: رجع قوم على الأعقاب، و قد عطف عليه قوله: و نقلوا البناء، فاذا كان الرّجوع على الأعقاب واقعا فى الظرف المذكور و هو وقت قبض الرّسول صلّى اللّه عليه و آله وجب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعا فى ذلك الوقت أيضا، لأنّ أحد الفعلين معطوف على الآخر، و لم ينقل أحد وقت قبض الرّسول صلّى اللّه عليه و آله البناء إلى معاوية عن أمير المؤمنين عليه السّلام، و إنّما نقل عنه إلى شخص آخر و فى إعطاء العطف حقّه إثبات مذهب الاماميّة صريحا.

قلت: إذا كان الرّجوع على الأعقاب واقعا وقت قبض النّبى صلّى اللّه عليه و آله فقد قلنا بما يجب من وجود عامل فى الظرف، و لا يجب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعا فى تلك الحال أيضا بل يجوز أن يكون واقعا فى زمان آخر إمّا بأن يكون الواو للاستيناف لا للعطف، أو بأن يكون العطف فى مطلق الحدث لا فى وقوع الحدث فى عين ذلك الزّمان المخصّص كقوله تعالى:

«حَتّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ ».

فالعامل فى الظرف استطعما، و يجب أن يكون استطعامهما وقت إتيانهما أهلها لا محالة، و لا يجب أن يكون جميع الأفعال المذكورة المعطوفة واقعة حال الاتيان أيضا، ألا ترى أنّ من جملتها، فأقامه، و لم يكن إقامة الجدار حال إتيانهما القرية بل متراخيا عنه بزمان ما اللّهم إلاّ أن يقول قائل أشار بيده إلى الجدار فقام، أو قال له قم فقام، لأنّه لا يمكن أن يجعل إقامة الجدار مقارنا للاتيان إلاّ على هذا الوجه، و هذا لم يكن و لا قاله مفسّر، و لو كان قد وقع على هذا الوجه لما قال له: لو شئت لا تّخذت عليه أجرا لأنّ الأجر إنّما يكون على اعتمال عمل فيه مشقّة و إنّما يكون فيه مشقّة إذا بناه بيده و باشره بجوارحه و أعضائه.

قال الشّارح: و اعلم أنّا نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السّلام على ما يقتضيه سودده الجليل و منصبه، و دينه القويم من الاغضاء عمّا سلف ممّن سلف، فقد صاحبهم بالمعروف برهة من الدّهر، فامّا أن يكون ما كانوا فيه حقّهم أو حقّه فتركه لهم رفعا لنفسه عن المنازعة أو لما رآه من المصلحة، و على تحمّلى التّقديرين فالواجب علينا أن نطبق بين آخر أفعاله و أقواله بالنّسبة اليهم و بين أوّلها، فان بعد تأويل من يتأوّل كلامه فليس بأبعد من تأويل أهل التّوحيد و العدل الآيات المتشابهة فى القرآن، و لم يمنع بعدها من الخوض فى تأويلها محافظة على الاصول المقرّرة فكذلك ههنا، انتهى كلامه هبط مقامه.

أقول: و أنت خبير بما فيه من وجوه الكلام و ضروب الملام اما اولا فلأنّ قوله: لا بل نحمله على أنّه عنى أعداءه الّذين حاربوه من قريش و غيرهم فى أيّام صفّين، فيه أنّه لا وجه لهذا الحمل بل ظاهر كلامه عليه السّلام بمقتضى الاطلاق يشمل كلّ من اتّصف بالأوصاف الّتى ذكره عليه السّلام، و من المعلوم أنّ اتّصاف المتخلّفين الثلاثة و متبعيهم بالأوصاف المذكورة أظهر و أشهر من اتّصاف أهل

صفّين بها، لأنّهم أوّل من فتح باب غصب الخلافة و نقلوها عن أمير المؤمنين عليه السّلام إلى أنفسهم و تبعهم أشياعهم فنقلوها عنه عليه السّلام إليهم.

بل أقول: انّه لو لا جسارة الثّانى على إحراق باب بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إخراج أمير المؤمنين عليه السّلام من البيت للبيعة ملبّبا و ضربه لفاطمة عليها السّلام و كسره ضلعها، و غصب فدك و قطعه لرحم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و هتكه لناموس أهل بيته، لم يجسر أحد على معارضة أمير المؤمنين عليه السّلام، و لم يخطر على قلب أحد نزع الخلافة عنه عليه السّلام إلى نفسه، و لو لا تولية معاوية للشّام و رضاه بظلمه و جوره و أفعاله المخالفة للشّريعة، و تشييده بصنعه لم يطمع معاوية فى الأمارة و الخلافة و النّهوض لقتال علىّ عليه السّلام، فكلّ فتنة و فساد و أمر مخالف للدّين و لسنّة سيد المرسلين من فروع تلك الشجرة الملعونة على ما عرفته فى شرح الكلام المأة و السّادس و العشرين.

و بالجملة فكلامه عليه السّلام بحكم الاصول و القواعد اللّفظية العموم و الاطلاق، و حمله على طائفة مخصوصة خلاف الأصل لا يصار إليه إلاّ بدليل و ليس فليس.

و أما ثانيا فلأنّ قوله: قلت ليس يمتنع أن يكون هولاء المذكورون رجعوا على الأعقاب لمّا مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أضمروا فى أنفسهم آه فيه إنّ هؤلاء إن كانوا رجعوا على الأعقاب حين موته و أضمروا فى أنفسهم مشاقة أمير المؤمنين عليه السّلام و أذاه فالّذين ذكرناهم أعنى الثلاثة و أشياعهم قد رجعوا على الأعقاب أيضا و أبدوا مشاقته و أذاه عقيب موته صلوات اللّه عليه و آله، يشهدك على ذلك إحراقهم بابه و إخراجهم له من بيته ملبّبا و تدبيرهم لقتله على يد خالد بن الوليد كما روته العامّة و الخاصّة.

و يشهد به أيضا ما رواه الشّارح فى الشّرح فى غير هذا المقام.

قال: روى كثير من المحدّثين أنّ عليّا عقيب يوم السّقيفة تظلّم و تألّم و استنجد و استصرخ حيث ساموه إلى الحضور و البيعة و أنّه قال و هو يشير إلى القبر:

يا نبيّ إنّ القوم استضعفونى و كادوا يقتلوننى، و أنّه قال: وا جعفراه و لا جعفر لى اليوم

وا حمزتاه و لا حمزة لی الیوم.

و بهذا کلّه یظهر لک أنّ رجوع من ذکرناه علی الأعقاب مع نصبهم العداوة لأمیر المؤمنین علیه السّلام و إعلانهم بالمشاقة و الأذی له أظهر من رجوع غیرهم ممّن ذکره الشّارح مع إخفائهم له، و مع هذا فصرف کلام الامام علیه السّلام إلی الآخرین دون الأوّلین لا وجه له.

و أما ثالثا فانّ قوله: و لا یمتنع أیضا أن یرید برجوعهم علی الأعقاب ارتدادهم عن الاسلام بالکلیّة حقّ لا ریب فیه، و لکن قوله: فانّ کثیرا من أصحابنا یطعنون فی ایمان بعض ما ذکرناه و یعدّونهم من المنافقین، فیه أنّ تخصیص الارتداد و النّفاق ببعض من ذکره لا وجه له، بل کلّ من ذکره و ذکرناه مطعون منافق ملعون.

و قد ورد فی غیر واحد من أحادیثنا و إن لم یکن حجّة علی العامّة، ارتدّ النّاس إلاّ ثلاثة نفر: سلمان، و أبو ذر، و المقداد.

و روی فی غایة المرام عن ابن شهر آشوب من طریق العامّة عن سعید بن جبیر عن ابن عباس فی قوله تعالی:

«أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلی أَعْقابِکُمْ وَ مَنْ یَنْقَلِبْ عَلی عَقِبَیْهِ فَلَنْ یَضُرَّ اللّهَ شَیْئاً وَ سَیَجْزِی اللّهُ الشّاکِرِینَ ».

یعنی بالشّاکرین علیّ بن أبی طالب، و المرتدّین علی أعقابهم الّذین ارتدّوا عنه.

فقد ظهر بذلک أنّ الارتداد عن الاسلام فی الحقیقة هو الارتداد عن أمیر المؤمنین فکلّ من ارتدّ عنه فقد ارتدّ عنه، و التّخصیص بقوم دون قوم تعسّف و تعصّب.

و أما رابعا فانّ قوله: بل یجوز أن یکون واقعا فی زمان آخر، بعید و جعل الواو للاستیناف سخیف، و العطف فی مطلق الحدث خلاف الظّاهر، و القیاس علی الآیة فاسد، لأنّ العاطف هنا هی الواو، و هی للجمع و التّشریک، و الکلام من

باب التنازع، فيدلّ على وقوع الجملات المتعاطفة فى زمان القبض إن قلنا إنّ العامل فى إذا الشرطيّة هو الجواب دون الشّرط، و أمّا الآية فالعاطف فيها هى الفاء و هى تفيد التّرتيب و التّعقيب، فلا يلزم من عدم وقوع إقامة الجدار حين الاتيان هناک عدم وقوع نقل البناء حين القبض فيما نحن فيه.

و التّحقيق أنّ قوله: فأقامه، عطف على قوله: فوجدا، و ليس عطفا على استطعما، فلا يلزم عمله فى الظّرف لأنّ المعطوف على المعطوف على الجواب لا يجب أن يكون مشتركا للجواب فى جميع الأحكام و عاملا فيما يعمله، بخلاف المعطوف على نفس الجواب.

و هذا كلّه مبنىّ على التنزّل و المماشاة، و إلاّ فنقول: إنّ إقامة الجدار قد كانت حال إتيان القرية و التراخى بزمان ما لا ينافيه، لأنّهم قد صرّحوا فى إفادة الفاء للتعقيب أنّه فى كلّ شىء بحسبه، فيقال: تزوّج فلان فولد له ولد، إذا لم يكن بينهما إلاّ مدّة الحمل، و دخلت البغداد فالبصرة إذا لم يقم فى بغداد و لم يتوقّف بين البلدين.

هذا على قول بعض المفسّرين من أنّه نقض الجدار و بناه، و أمّا على قول من قال إنّه أقامه بيده، و كذا على قول من قال: إنّه مسحه بيده فقام، كما رواه فى الكشّاف و غيره عن البعض الآخرين فلا يكون هناک تراخ أصلا، إذ لا فرق بين الاشارة باليد كما فرضه الشّارح و بين المسح بها كما رواه الزّمخشرى.

ثمّ استبعاد الشّارح لذلک بأنّه لو كان على هذا الوجه لم يستحقّ اجرة لأنّ الاجرة إنّما يكون على اعتمال عمل فيه مشقّة، مدفوع بأنّ الاجرة إنّما هى على عمل فيه منفعة للغير سواء كان فيه مشقّة أم لا، لا سيّما عمل له منفعة عظيمة مثل إقامة الجدار، فقد قيل كما فى الكشّاف: إنّ طوله فى السّماء مأئة ذراع.

و أما خامسا فانّ قوله: و اعلم أنّا نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السّلام آه، تمويه باطل بصورة الحقّ، فانّ سودد أمير المؤمنين عليه السّلام و منصبه و حلمه إنّما كان مقتضيا للعفو و الصّفح و الاغضاء و الاغماض فيما يتعلّق بأمر الدّنيا، و قد كان عليه السّلام

كـذلك حسـبما عرفت من مكارم أخلاقه فى تضاعيف الشّـرح و تعرفه بعـد ذلك فى مواقعه انشاء اللّه أيضا، و أمّا أمر الدّين و ما فيه صـلاح الشّـرع المبين فلاـ يجوز له فيه الاغضـاء و الاغماض أصـلا، بل لا بـدّ له من باب اللّطف و الأمر بالمعروف و النّهى عن المنكر التّنبيه على هفوات المتخلّفين الضالين المضـلّين الغاصبين للخلافـة من دون أن يأخـذه فى اللّه لومـة لائم، ليتنبّه النّاس من مراقد الغفلة، و يلتفتوا إلى سوء ما فعلوه من البدعات المبتدعة، و يرتدعوا عن حسن الاعتقاد و الظنّ لهم، و لا يتّخذوا من دون اللّه و لا رسوله و لا المؤمنين وليجة.

و أما سادسا فانّ قوله: فان بعـد ذلک فليس بأبعد من تأويل أهل التوحيد و العدل الآيات المتشابهة، فيه أنّ تأويلنا للآيات المتشابهة مثل قوله «وَ جاءَ رَبُّکَ » و «إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ » و «اَلرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْـتَوى » و نحوها إنما هو لقيام الأدلّـة القاطعـة و البراهين العقليـة و النقليـة و الاصول المحكمة الملجئة لنا على التأويل، و أما فيما نحن فيه فأىّ دليل و برهان و داع دعى إلى التأويل؟ و أىّ أصل محكم اقتضى ذلک لو لم يقتض خلافـه؟ و غير خفىّ على الخبير المنصف المجـانب للتعصّب و التعسّف أنّ أهل السّـنّة حيث ضاق بهم الخناق لم يبق لهم إلاّ التمسک بحسن الظنّ على السلف، و الحال أنّ الظنّ لا يغنى من الحقّ شيئا، و اللّه الهادى إلى سواء السبيل.

الترجمة

از جمله خطب شريفهٔ آن بزرگوار است كه اشاره فرموده در آن بواقعات عظيمه مى فرمايد:

و فرا گرفتنـد گمراهـان امـت طريـق يمين و شـمال و راه افراط و تفريط را در حـالتى كه كـوچ كنندگاننـد در راه جهـل و ضـلالت، و ترک نمايندگانند راه رشد و سـعادت را، پس طلب ننمائيد بشتاب آنچه كه واقع شونده است و مهيا، و دير مشماريد آنچه كه مى آورد آنرا فردا پس بسا بشتاب طلب كننده است چيزى را كه اگر

ص:155

درک نماید آن را دوست می گیرد در نیافتن آن را، و چه نزدیکست امروز بأوایل فردا.

ای قوم این زمان وقت وارد شدن هر وعده داده شده است و وقت نزدیکیست از طلوع و ظهور آنچه که نمی شناسید آن را در فتنه های حادثه و علامات هائله، آگاه باشید قسم بخدا بدرستی کسی که درک نماید آن فتنه ها را از ما سیر می کند در ظلمتهای آن فتنه ها بچراغی که نور بخشنده است، و رفتار می کند در آن بقرار صالحان تا این که بگشاید در آن فتنه ها ریسمانها را از گردن اسیران، و آزاد نماید بندگان را از بندگی، و پراکنده سازد آنچه که بهم پیوسته از منکرات، و بهم بست کند آنچه که پاشیده شده از محسنات، آن شخص در پرده است از أنظار مردمان نمی بیند صاحب قیافه أثر و نشانهٔ آن را اگر چه امعان نظر نماید.

پس از آن البته تیز ساخته شود در آن فتنه ها طائفهٔ بجهة قتال أهل ضلال یا بجهة کسب معارف و کمالات همچو تیز ساختن شمشیر ساز شمشیر را در حالتی که جلا داده بشود با نور قرآن دیدهای بصیرت آن طائفه، و انداخته شود تفسیر قرآن در گوشهای ایشان، و می آشامند کاسهٔ حکمت را در شبانگاه بعد از آشامیدن آن در چاشتگاه از جمله این خطبه است که می فرماید: و طول یافت مدّت بآن أهل ضلال تا این که کامل نمایند ذلت و خواری را، و مستحق باشند بتغییر نعمت پروردگار تا زمانی که نزدیک شد گذشتن آن عهد میل کردند طایفهٔ از أهل بصیرت بآن فتنه ها، و بلند کردند دم را از آبستنی جنگشان در حالتی که منت نگذاشتند به پروردگار با صبر نمودن در کار زار، و بزرگ نشمردند بخش کردن جانهای خودشان را در راه حق تا زمانی که موافقت نمود قضاء فرود آمدهٔ الهی با بریده شدن مدّت بلا، برداشتند أهل معرفت و بصیرت بصیرتهای خودشان را بر شمشیرهای خود، و تقرّب جستند بسوی پروردگار بفرمان واعظ خودشان.

تا زمانی که قبض فرمود خداوند تبارک و تعالی روح رسول خود را بازگشتند

ص:156

گروهی بر پاشنهای خود بارتداد، و هلاک ساخت ایشان را طرق ضلالت، و اعتماد کردند بر خواص و انصار خود، و پیوستند بغیر خویشان پیغمبر، و دوری گزیدند از سببی که مامور شده بودند از جانب خدا بمحبّت آن، و نقل کردند بنای خلافت را از استواری بنیاد خود، پس بنا کردند آن را در غیر محل و مکان خود.

ایشان معدنهای هر خطا و ضلالتند، و درهای هر در آمده در باطل و جهالت، بتحقیق که متردّد شدند در حیرت، و غفلت ورزیدند در مستی جهالت بر طریقهٔ آل فرعون و روش أتباع آن ملعون، هستند بعضی از ایشان منقطعند از عقبا بسوی دنیا مایلند بآن، و برخی مفارقند از دین خدا مباینند از آن.

و من خطبة له علیه السّلام و هی المأة و الواحد

اشارة

و الخمسون من المختار فی باب الخطب

و أستعینه علی مداحر الشّیطان و مزاجره، و الاعتصام من حبائله و مخاتله، و أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شریک له، و أشهد أنّ محمّدا عبده و رسوله، و نجیبه و صفوته، لا یوازی فضله، و لا یجبر فقده، أضاءت به البلاد بعد الضّلالة المظلمة، و الجهالة الغالبة، و الجفوة الجافیة، و النّاس یستحلوّن الحریم، و یستذلّون الحکیم، یحیون علی فترة، و یموتون علی کفرة، ثمّ إنّکم معشر العرب أغراض بلایا قد اقتربت، فاتّقوا سکرات النّعمة، و احذروا بوائق النّقمة، و تثبّتوا فی قتام العشوة، و اعوجاج الفتنة، عند طلوع جنینها،

ص:157

و ظهور كمينها، و انتصاب قطبها، و مدار رحاها، تبدو فى مدارج خفيّة، و تئول إلى فظاعة جليّة، شبابها كشباب الغلام، و آثارها كآثار السّلام، تتوارثها الظّلمة بالعهود، أوّلهم قائد لآخرهم، و آخرهم مقتد بأوّلهم، يتنافسون فى دنيا دنيّة، و يتكالبون على جيفة مريحة، و عن قليل يتبرّء التّابع من المتبوع، و القائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، و يتلاعنون عند اللّقآء، ثمّ يأتى بعد ذلک طالع الفتنة الرّجوف، و القاصمة الزّحوف، فتزيغ قلوب بعد استقامة، و تضلّ رجال بعد سلامة، و تختلف الأهواء عند هجومها، و تلتبس الآراء عند نجومها، من أشرف لها قصمته، و من سعى فيها حطمته، يتكادمون فيها تكادم الحمر فى العانة، قد اضطرب معقود الحبل، و عمى وجه الأمر، تغيض فيها الحكمة، و تنطق فيها الظّلمة، و تدقّ أهل البدو بمسحلها، و ترضّهم بكلكلها، يضيع فى غبارها الوحدان، و يهلک فى طريقها الرّكبان، ترد بمرّ القضاء، و تحلب عبيط الدّمآء، و تثلم منار الدّين، و تنقض عقد اليقين، تهرب منها الأكياس، و تدبّرها الأرجاس، مرعاد مبراق، كاشفة عن ساق، تقطّع فيها الأرحام، و يفارق عليها الإسلام، بريّها سقيم، و ظاعنها مقيم.

ص:158

منها بين قتيل مطلول، و خائف مستجير، يختلون بعقد الأيمان، و بغرور الإيمان، فلا تكونوا أنصاب الفتن، و أعلام البدع، و الزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، و بنيت عليه أركان الطّاعة، و اقدموا على اللّه مظلومين، و لا تقدموا على اللّه ظالمين، و اتّقوا مدارج الشّيطان، و مهابط العدوان، و لا تدخلوا بطونكم لعق الحرام، فإنّكم بعين من حرّم عليكم المعصية، و سهّل لكم سبيل الطّاعة.

اللغة

(الدّحر) الطّرد و الابعاد و الدّفع بعنف على الاهانة كالدّحور و قال سبحانه «وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُوراً » و قال أيضا «اُخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً ».

و مداحر الشّيطان جمع مدحر و هى الأمور الّتى محلّ طرده و إبعاده.

و قال الشّارح البحرانى و المعتزلى: هى الامور الّتى بها يطرد و يبعد، و على قولهما فهى للآلة، و على ذلك فلا يجوز جعلها جمعا لمدحر كما توهّمه البحرانى لأنّ مفعل بفتح الميم للمكان و بالكسر للآلة كما صرّح به جميع علماء الأدبيّة، فلا بدّ من جعلها جمعا حينئذ لمدحرة بكسر الأوّل و الهاء أخيرا و زان مكسحة و مروحة، اللهمّ إلاّ أن يقال: إنّ مدحر بالكسر للآلة أيضا و جمع مفعل على مفاعل قد ورد فى كلامهم مثل ملحف و ملاحف و مقود و مقاود.

فقد تلخص ممّا ذكرنا أنّ مداحر يصحّ جعلها جمع مدحر بالفتح للمكان و مدحر و مدحرة بالكسر فيهما للآلة و نحوه (المزاجر) للامور الّتى

يزجر بها أو هى محلّ الزّجر من زجر الكلب نهنهه جمع مزجر و مزجر و (ختله) يختله بالكسر خدعه، و المخاتل الأمور الّتى بها يختل و يخدع و (يوازى) مضارع آزى بالهمز و لا يقال وازى و (الجهالة الغالبة) فى بعض النّسخ بالموحّدة من الغلبة و فى بعضها بالمثنّاة من الغلاء و هو الارتفاع أو من الغلوّ و هو مجاوزة الحدّ و (يستذلّون الحكيم) فى بعض النّسخ باللاّم من الحلم و (الفترة) انقطاع ما بين النبييّن و (كفرة) بالفتح واحدة الكفرات كضربة و ضربات.

(ثمّ انّكم معشر العرب) فى بعض النّسخ معشر النّاس و (تثبّتوا) من التثبّت و هو التوقّف، و فى بعض النسخ تبيّنوا من التبيّن و بهما أيضا قرء قوله سبحانه:

«إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا » يقال تبيّنه أى أوضحه، و تبيّن الأمر أى وضح يستعمل متعدّيا و لازما كاستبان قال تعالى:

فَ «إِذا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُوا ».

أى اطلبوا بيان الأمر و ثباته و لا تعجلوا فيه و (القتام) الغبار و (العشوة) بتثليث الأوّل ركوب الأمر على غير بيان و وضوح، و بالفتح فقط الظلمة و (الجنين) الولد ما دام فى البطن و (الكمين) الجماعة المختفية فى الحرب.

و (مدار رحاها) مصدر و المكان بعيد و (تبدو فى مدارج) فى بعض النسخ بالواو من البدو و هو الظهور و فى أكثرها تبدء بالهمز مضارع بدء و (شبّ) الفرس يشبّ شبابا بالكسر و شبيبا نشط و رفع يديه جميعا، و فى بعض النسخ، شبابها كشباب الغلام بالفتح و (السّلام) بالكسر الحجارة و (مريحة) من أراح اللّحم و الماء أى أنتن أو من أراح الرّجل إذا مات و (رجف) الشىء رجفا تحرّك و اضطرب شديدا و رجف القوم تهيّا و الحرب.

و (زحف) اليه مشى و فى شرح المعتزلى الزّحف السير على تؤدة كسير الجيوش بعضها إلى بعض و (نجم) الشىء ينجم نجوما من باب قعد ظهر و طلع و قصمت ()

ص:160

العود كسرته و قصمه اللّه أى أذلّه و أهانه و قيل قرب موته و (التّكادم) التّعاض بأدنى الفم و (العانة) القطيع من حمر الوحش و (المسخل) و زان منبر المبرد أى السّوهان و يقال أيضا للمنحت و (الوحدان) جمع واحد كركبان و راكب قال الشّارح المعتزلى: و يجوز أن يكون جمع أوحد مثل سودان و أسود يقال فلان أوحد الدّهر.

و (ثلمت) الاناء أى كسرت حرفه فانثلم و (الطلّ) بالمهملة هدر الدّم و هو مطلول اى مهدر لا يطلب بدمه و (يختلون) فى بعض النّسخ بالبناء على المفعول و فى بعضها بالبناء على الفاعل من ختله خدعه و (عقد) الايمان بصيغة المصدر أو وزان صرد جمع عقدة و (الأنصاب) جمع نصب كأسباب و سبب و هو العلم المنصوب فى الطريق يهدى به، و فى بعض النّسخ بالرّاء و (مدارج الشّيطان) جمع مدرجة و هى السّبل التّى يدرج فيها و (لعق الحرام) جمع لعقة اسم لما يلعق بالاصبع أو بالملعقة و هى بكسر الميم آلة معروفة، و اللعقة بالفتح المرّة منه من لعقه العقه من باب تعب لحسه باصبع و مصدره لعق و زان فلس.

الاعراب

جملة لا يوازى فضله الظّاهر أنّها استيناف بيانىّ، و جملة أضاءت حال من فاعل المصدر أعنى فقده، و يحتمل الاستيناف البيانى أيضا، و النّاس حال من مفعول أضاءت، و قوله: تتوارثها الظلمة بالعهود، الظّرف متعلّق بالفعل أو بالظلّمة، و قوله و عن قليل إلى قوله: عند اللّقاء، جملة معترضة، و عن، بمعنى بعد.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة مسوقة فى معرض الاخبار عن الملاحم و الوقايع الحادثة فى غابر الزّمان، و صدّرها بالاستعانة على ما يجب الاستعانة من اللّه سبحانه عليه، و عقّب ذلك بالشّهادة بالتّوحيد و الرّسالة و ذكر ممادح الرّسول صلّى اللّه عليه و آله فقال:

ص:161

(و أستعينه على مداحر الشّيطان و مزاجره) أى العبادات و الحسنات الّتى هى محلّ طرده و زجره أو بها يطرد و يزجر(و الاعتصام من حبائله و مخاتله)أى المعاصى و السّيئآت الّتى لها يصيد الانسان و يخدع البشر:

قال الشّارح البحرانى: و استعار لها لفظ الحبائل و هى أشراک الصّائد لمشابهتها فى استلزام الحصول فيها للبعد عن السّلامة و الحصول فى العذاب (و أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريک له) قد تقدّم فى شرح الفصل الثّانى من الخطبة الثّانية شرح هذه الكلمة الطيّبة بما لا مزيد عليه فليراجع ثمّة (و أشهد أنّ محمّدا عبده و رسوله) صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (و نجيبه) أى الكريم الحسيب الّذى انتجبه من خلقه، و يروى و نجيّه أى المناجى له و المشرف بمناجاته و مخاطبته و أصله من النّجوى و هى التّخاطب سرّا (و صفوته) أى مختاره و مصطفاه من النّاس، و قد مضى تحقيق ذلک فى شرح الخطبة الثّالثة و التّسعين.

و لمّا كان ههنا مظنّة أن يسأل و يقال: هل يدانيه أحد فى فضله أو يوازيه فى كماله فيقوم مقامه عند افتقاره؟ أجاب بقوله:(لا يوازى فضله) أى لا يحاذى و لا يساوى (و لا يجبر فقده) قال الشارح البحرانى: إذ كان كماله فى قوّتيه النّظرية و العمليّة غير مدرک لأحد من الخلق، و من كان كذلک لم يجبر فقده إلاّ بقيام مثله من النّاس، و إذ لا مثل له فيهم فلا جبران لفقده.

(أضاءت به البلاد بعد الضّلالة المظلمة) نسبة أضاءت إلى البلاد من باب التّوسع، و المراد اهتداء أهل البلاد بنور وجوده الشّريف إلى ما فيه صلاح المعاش و المعاد بعد تيههم فى ظلمة الكفر و الضلالكما تقدّم فى شرح الفصل السّادس عشر من الخطبة الأولى، و عرفت هناک أنّه صلّى اللّه عليه و آله قد بعث و أهل الأرض يومئذ ملل متفرّقة، و أهواء منتشرة، و طرايق متشتّتة، بين مشبّهة و مجسّمة و زنادقة و غيرها (و) كانوا متّصفين ب (الجهالة الغالبة) عليهم (و) موصوفين ب (الجفوة الجافية) يريد بها غلظ الطّبيعة و قساوة القلوب و سفک الدّماء و وصفه بالجافية للمبالغة من قبيل شعر الشّاعر و داهية دهياء، و قد تقدّم توضيح جفوة العرب و غلظهم فى شرح

الفصل الأوّل من الخطبة السّابعة و العشرين.

(و النّاس يستحلّون الحريم) أى حرمات اللّه الّتى يجب احترامها و محرّماته (و يستذلّون الحكيم) أو الحليم كما فى بعض الرّوايات، و الحكمة هو العلم الّذى يرفع الانسان عن فعل القبيح، و الحلم هو العقل و التّؤادة و ضبط النّفس عن هيجان الغضب، و المعلوم من حال العرب استذلال من له عقل و معرفة و تجنّب عن سفک الدّماء و عن النهب و الغارة و إثارة الفتن لزعمهم أنّ ذلک من الجبن و الضّعف (يحيون على فترة) من الرّسل و انقطاع من الوحى الموجب لانقطاع الخير و تقليل العبادات و المجاهدات و موت النفوس بداء الجهل و الضّلالات (و يموتون على كفرة) لعدم هاد يهديهم إلى النّهج القويم و الشّرع المستقيم.

ثمّ شرع عليه السّلام فى إنذار النّاس بالبلايا النّازلة و اقتراب الحوادث المستقبلة فقال (ثمّ إنّكم معشر العرب أغراض بلايا) و أهدافها (قد اقتربت) أوقاتها (فاتّقوا سكرات النعمة) لفظة السّكرات استعارة لما يحدثه النّعم عند أربابها من الغفلة و الخمرة المشابهة للسّكرة (و احذروا بوائق النّقمة) أى دواهى المؤاخذات و العقوبات(و تثبّتوا فى قتام العشوة)و هو أمر لهم بالتّثبت و التّوقّف عند اشتباه الأمور و ترک الاقتحام فيها من غير بصيرة و رويّة.

قال الشّارح البحرانى: استعار لفظ القتام للشّبهة المثيرة للفتن كشبهة قتل عثمان التى نشأت منها وقايع الجمل و صفين و الخوارج، و وجه المشابهة كون ذلک الأمر المشتبه ممّا لا يهتدى فيه خائضوه، كما لا يهتدى القائم فى القتام عند ظهوره و خوضه.

(و اعوجاج الفتنة) أى إتيانها على غير وجهها و انحرافها عن النّهج(عند طلوع جنينها و ظهور كمينها)كنى بالجنين و الكمين عن المستور المختفى من تلک الفتنة و يحتمل إرادة الحقيقة بأن يكون المقصود بروز ما اجتن منها و استتر و ظهور ما كمن منها و بطن(و انتصاب قطبها و مدار رحاها)كنايتان عن استحكام أمرها و انتظامها (تبدو فى مدارج خفيّة و تؤل إلى فظاعة جليّة) يعنى أنّها تكون

ابتداء يسيرة ثمّ تصير كثيرة.

فانّ النّار بالعودين تذكى و إنّ الحرب أوّلها كلام

أو أنّ ظهورها فى مسالک خفيّة حتّى تنتهى إلى شناعة عظيمة (و شبابها كشباب الغلام و آثارها كآثار السّلام) أى إنّ أربابها يمرحون فى أوّل الأمر كما يمرح الغلام ثمّ تؤل إلى أن تعقب فيهم أو فى الاسلام آثارا كآثار الحجارة فى الأبدان، أو أنّ المراد أنّها فى الدّنيا كنشاط الغلام و ما أعقبتها من الآثار فى الآخرة كآثار السّلام.

(يتوارثها الظّلمة بالعهود) أى يتوارثها الظّلام بعهد الأوّل منهم للثّانى و عقد الأمر منه له كما هو دأب أمراء الجور يجعلون لهم ولىّ العهد، أو أنّ توارثهم بما عهدوا بينهم من ظلم أهل البيت و غصب حقّهم، و على تعلّق الظّرف بالظلمة فالمراد أنّه يتوارثها الظالمين بعهد اللّه و النّاقضين لميثاقه و التّاركين لتكاليفه.

(أوّلهم قائد لآخرهم) يقوده إلى الظّلم و الضّلال و النّار (و آخرهم مقتد بأوّلهم) فى الجور و إثارة الفتن و تشييد تلک الآثار (يتنافسون فى دنيا دنيّة) أى يتعارضون و يتبارون فى دنيا لا مقدار لها عند العقلاء(و يتكالبون على جيفة مريحة)أى يتواثبون على جيفة منتنة عند ذوى العقول و الأولياء، و استعار لها لفظ الجيفة باعتبار النّفرة عنها، و لفظ المريحة ترشيح قال الشّاعر:

و ما هى إلاّ جيفة مستحيلة عليها كلاب همّهنّ اجتذابها

ثمّ قال عليه السّلام (و عن قليل) أى بعد حين قليل (يتبرّء التّابع عن المتبوع و القائد من المقود) أى الأتباع من الرّؤساء و الرّؤساء من الأتباع و ذلک التبرّء يوم القيامة كما قاله الشّارح المعتزلى، و قد أخبر اللّه سبحانه عن تبرّء الأتباع بقوله:

«ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِکَ يُضِلُّ اللّهُ الْكافِرِينَ ».

فقولهم لم نكن ندعو هو التبرّء، و أخبر عن تبرّء الرّؤساء بقوله:

«إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنّا » (فيتزايلون) و يفرقون (بالبغضاء و يتلاعنون عند اللّقاء) كما قال تعالى:

«ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ».

قال الشّارح المعتزلى: فان قلت: أ لم يكن قلت إنّ قوله عن قليل يتبرّء التابع من المتبوع يعنى يوم القيامة فكيف يقول (ثمّ يأتى بعد ذلک طالع الفتنة الرّجوف) و هذا إنّما يكون قبل القيامة؟ قلت: لمّا ذكر تنافس النّاس على الجيفة المنتنة و هى الدّنيا أراد أن يقول بعده بلا فصل: ثمّ يأتى بعد ذلک اه لكنّه لمّا تعجّب من تزاحم النّاس و تكالبهم على تلک الجيفة أراد أن يؤكّد ذلک التّعجب فأتى بجملة معترضة بين الكلامين فقال: إنّهم على ما قد ذكرنا من تكالبهم عليها عن قليل يتبرّء بعضهم من بعض و يلعن بعضهم بعضا، و ذلک أدعى لهم لو كانوا يعقلون إلى أن يتركوا التّكالب و التّهارش على هذه الجيفة الخسيسة، ثمّ عاد إلى نظام الكلام فقال: ثمّ يأتى بعد ذلک آه.

و قال الشّارح البحرانى حكاية عن بعضهم: إنّ ذلک التّبرء عند ظهور الدّولة العبّاسية، فانّ العادة جارية بتبرّء النّاس عن الولاة المعزولين خصوصا عند الخوف ممّن تولّى عزل ذلک أو قتلهم، فيتباينون بالبغضاء إذ لم تكن الفتهم و محبّتهم إلاّ لغرض دنياوىّ زال، و يتلاعنون عند اللّقاء، ثمّ قال الشّارح: و قوله: ثم يأتى طالع الفتنة، هى فتنة التتار، إذ الدائرة فيها على العرب.

و قال بعض الشارحين: بل ذلک إشارة إلى الملحمة الكائنة فى آخر الزّمان كفتنة الدّجال.

ص:165

و كيف كـان فوصف الفتنـة بـالرّجوف لكثرة اضـطراب النّـاس أو أمر الاسـلام فيها و أراد بطالعها مقـدّماتها و أوايلها و وصـفها ثانيا بقوله(و القاصـمة الزّحوف)أى الكاسـرة الكثيرة الزّحف و كنّى بقصـمها عن هلاک الخلق فيها و شـبّهها بالرّجل الشّـجاع كثير الزّحف إلى أقرانه أى يمشى إليهم قدما.

ثمّ أشار إلى ما يترتّب على تلک الفتنـة من المفاسد العظام و قال (فتزيغ) أى تميل (قلوب بعد اسـتقامة) على سبيل اللّه (و تضلّ رجال بعد سلامة) فى دين اللّه (و تختلف الأهواء عند هجومها و تلتبس الآراء) الصّـحيحة بالفاسدة (عند نجومها) و ظهورها، فيشـتبه الحقّ بالباطل و يتيه فيهـا الجاهـل و الغافـل (من أشـرف لهـا) أى قابلهـا و صادمها (قصـمته) و هلكته (و من سـعى فيها) أى أسـرع فى إطفائها و اسـكاتها (حطمته) و كسرته (يتكادمون فيها تكادم الحمر) الوحش (فى العانة) أى فى قطيعها.

قال العلامة المجلسى (ره): و لعلّ المراد بتكادمهم مغالبة مثيرى تلک الفتنة بعضهم لبعض، أو مغالبتهم لغيرهم.

و قال الشّارح البحرانى: و شـبّه ذلكبتكادم الحمر فى العانـة،و وجه التّشبيه المغالبـة مع الايماء أى خلعهم ربق التّكليف من أعناقهم و كثرة غفلتهم عمّا يراد بهم فى الآخرة.

(قد اضطرب معقود الحبل) أى قواعد الدّين و الأحكام الشّرعيّة الّتى كلّفوا بها(و عمى وجه الأمر)فى اسناد العمى الى الوجه تجوّز، و المراد عدم اهتدائهم الى وجوه الصـلاح و طرق الفلاح (تغيض) و تنقص (فيها الحكمة) لسـكوت الحكماء عنها و عدم تمكّنهم عن التكلّم بها (و تنطق فيها الظلمة) بما يقتضـيه أهواؤهم عن الظّلم و الفساد لمساعدة الزّمان عليهم (و تدقّ) تلک الفتنة (أهل البدو) أى البادية (بمسحلها) أى يفعل بهم ما يفعل المسحل بالحديد(1) أو

1- (1) الاول مبنى على ان يراد بالمسحل السوهان و الثانى مبنى على ان يراد منه المنحت كما تقدم سابقا، منه

الخشب(و ترضّ هم)أى تدقّهم دقّا جريشا(بكلكلها)أى صدرها شبّه هذه الفتنة بالنّاقة الّتى تبرک على الشىء فتسحقه بصدرها على سبيل الاستعارة بالكناية و إثبات الكلكل تخييل و الرّضّ ترشيح(يضيع فى غبارها الوحدان و يهلک فى طريقها الرّكبان)أى لا يخلص منها أحد و لا ينجو منها لشدّتها و قوّتها، فمن كان يسير وحده فانّه يهلک فيها بالكلّيّة و إذا كانوا جماعة فهم يضلّون فى طريقها فيهلكون، و لفظ الغبارمستعار للقليل اليسير من حركة أهلها أى إذا أراد القليل من النّاس دفعها هلكوافى غبارهامن دون أن يدخلوا فى غمارها، و أمّاالرّكبانو هم الكثير من النّاس فانّهم يهلكون فى طريقها و عند الخوض فيها.

و على كون الوحدان جمع أوحد فالمراد أنّه يضلّ فى غبار هذه الفتنة و شبهها فضلاء عصرها، لغموض الشبّهة و استيلاء الباطل، و يكون الركبان حينئذ كناية عن الجماعة أهل القوّة، فهلاک أهل العلم بالضّلال و هلاک أهل القوّة بالقتل و الاستيصال.

(ترد بمرّ القضاء) أى بالهلاک و البوار و البلايا الصّعبة و ظاهر أنّها واردة عن القضاء الالهى متّصفة بالمرارة(و تحلب عبيط الدّماء)أى الطرىّ الخالص منها و هو كناية عن سفک الدّماء فيها(و تثلم منار الدّين)استعارة للعلماء أو القوانين الشّرع المبين و ثلمها عبارة عن هدمها و عدم العمل بها(و تنقض عقد اليقين)أى العقائد الحقّة الموصلة إلى جوار اللّه تعالى، و نقضها كناية عن تغيّرها و تبدّلها و ترک العمل على وفقها (تهرب منها الأكياس) أى ذوو العقول السّليمة (و تدبّرها الأرجاس) الأنجاس أى ذوو النفوس الخبيثة (مرعاد مبراق) كثيرة الرّعد و البرق أى ذات تهدّد و وعيد و يجوز أن يراد بالرّعد قعقعة السّلاح و صوته و بالبرق لمعانه و ضوئه.

(كاشفة عن ساق) قال ابن الأثير: السّاق فى اللّغة الأمر الشّديد، و كشف السّاق مثل فى شدّة الأمر و أصله من كشف الانسان عن ساقه و تشميره إذا وقع فى أمر شديد، و فى القاموس يذكرون السّاق إذا أرادوا شدّة الأمر و الاخبار عن

هو له قال تعالى:

«يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ ».

أى عن شدّة (تقطع فيها الأرحام و يفارق عليها الاسلام) بجريانها على خلاف قواعد الدّين و قواعد الشّرع المبين.

(بريئها سقيم) قال العلاّمة المجلسىّ (ره): أى من يعد نفسه بريئا سالما من المعاصى أو الآفات أو من كان سالما بالنسبة إلىساير النّاس فهو أيضا مبتلى بها، أو أنّ من لم يكن مائلا إلى المعاصى و أحبّ الخلاص من شرورها لا يمكنه ذلك (و ظاعنها مقيم) اى المرتحل عنها خوفا لا يمكنه الخروج منها أو من اعتقد أنّه متخلّف عنها فهو أيضا داخل فيها لكثرة الشّبه و عموم الضّلالة.

(منها) ما يشبه أن يكون وصفا لحال المتمسّكين بالدّين فى زمان الفتنة السّابقة و هو قوله:(بين قتيل مطلول) أى مهدر الدّم لا يطلب به (و خائف مستجير) أى مستامن يطلب الأمان (يختلون بعقد الأيمان) إن كان يختلون بصيغة المجهول فهو إخبار عن حال المخدوعين الّذين يخدعهم غيرهم بعقد العهود و شدّها بمسح ايمانهم أو بالايمان المعقودة فيما بينهم، و على كونه بصيغة المعلوم فهو بيان لحال الخادعين (و بغرور الايمان) أى بالايمان الّذى يظهره الخادعون فيغرّونهم بالمواعيد الكاذبة أو الذى يظهره هؤلاء الموصوفون فيغرّون النّاس به على اختلاف النّسختين (فلا تكونوا أنصاب الفتن) أى رؤسائها يشار إليهم فيها (و أعلام البدع) الّتى يقتدى بها و هو نظير قوله عليه السّلام فى كلماته القصار: كن فى الفتنة كابن اللّبون لا ظهر فيركب و لا ضرع فيحلب.

(و الزموا ما عقد عليه حبل الجماعة) و هى القوانين الّتى ينتظم بها اجتماع الناس على الحقّ(و بنيت عليه أركان الطاعة)استعارة بالكناية و ذكر الأركان تخييل و البناء ترشيح (و اقدموا على اللّه مظلومين و لا تقدموا على اللّه ظالمين) يعنى أنّه إذا دار الأمر بين الظالمية و المظلومية فكونوا راضين بالمظلوميّة، لأنّ

الظلم قبيح عقلا و شرعا و الظالم مؤاخذ ملعون كتابا و سنة، أو لا تظلموا الناس و إن استلزم ترك الظلم مظلوميّتكم فانّ يوم المظلوم من الظالم أشدّ من يوم الظالم من المظلوم، و المظلوم منصور من اللّه سبحانه قال تعالى:

«وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً ».

و قال أبو جعفر عليه السّلام فى رواية أبى بصير عنه عليه السّلام: ما انتصر اللّه من ظالم إلاّ بظالم، و ذلك قول اللّه عزّ و جلّ:

«وَ كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظّالِمِينَ بَعْضاً ».

(و اتّقوا مدارج الشيطان) و مسالكه (و مهابط العدوان) و محاله أو المواضع الّتى يهبط صاحبه فيها (و لا تدخلوا بطونكم لعق الحرام) أى لا تدخلوا بطونكم القليل منه فكيف بالكثير أو الاتيان باللّعق للتّنبيه على قلّة ما يكتسب من متاع الدّنيا المحرّم بالنّسبة الى متاع الآخرة و حقارته عنده (فانّكم بعين من حرّم عليكم المعصية و سهّل لكم سبيل الطّاعة) أى بعلمه كقوله تعالى:

«تَجْرِي بِأَعْيُنِنا ».

و لا يخفى ما فى هذا التّعليل من الحسن و اللّطف فى الرّدع عن المعاصى و الحثّ على الطاعات، فانّ العبد العالم بأنّه من مرئى من مولاه و مسمع منه يكون أكثر طاعة و أقلّ مخالفة من عبد مولاه غافل عنه و جاهل بأعماله و أفعاله و لتأكيد هذا المعنى عبّر بالموصول و قال: بعين من حرّم آه و لم يقل بعين اللّه هذا و تسهيل سبيل الطاعة باعتبار أنّ اللّه سبحانه ما جعل على المكلّفين فى الدّين من حرج.

الترجمة

از جملۀ خطب شريفۀ آن امام مبين و سيّد وصيّين است در ذكر ملاحم مى فرمايد

ص:169

و طلب یاری میکنم از حضرت ربّ العالمین بر عبادات و طاعات که محلّ طرد و زجر شیطان لعین است، و بر محفوظ شدن از معاصی و سیئات که ریسمانهای صید آن ملعون و اسباب مکر و خدعهٔ آن نابکار است، و شهادت می دهم باین که نیست خدائی جز خدای متعال در حالتی که تنها است شریک نیست مر او را، و شهادت می دهم باین که محمّد بن عبد اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بندهٔ پسندیده و پیغمبر اوست و برگزیده و مختار اوست برابر کرده نمی شود فضل او، و جبران نمی شود فقدان او، روشن شد بوجود شریف آن بزرگوار شهرها بعد از گمراهی ظلمانی و نادانی غالب و غلظت غلیظهٔ طبایع در حالتی که مردمان حلال می شمردند محرمات را، و خوار می شمردند صاحب حکمت و معرفت را زندگانی می کردند در زمان انقطاع پیغمبران، و می مردند بر کفر و طغیان.

پس از آن بدرستی که شما أی جماعت عرب نشانهای بلا هستید که نزدیک شده ظهور آن، پس پرهیز کنید از مستیهای نعمتها، و حذر نمائید از دواهی عذاب، و توقّف کنید در غبار ظلمة شبهه و در کجی فتنه در وقت ظهور و بروز باطن و کمون آن فتنه، و هنگام استقامت قطب و دوران آسیای آن در حالتی که ظاهر می شود آن فتنه در جهای پنهان، و باز گردد بشناعت آشکار، نشو و نمای آن مثل نشو و نمای جوانست، و أثرهای آن مثل اثرهای سنگها است، ارث می برند از یکدیگر آن فتنه را ظالمان با عهود و پیمان، یعنی هر یکی دیگری را ولیّ عهد خود می سازد.

اوّل ایشان پیشوای آخر ایشانست، و آخر ایشان اقتدا کننده است بأوّل ایشان، تعارض می کنند در دنیای پست و بی مقدار، و خصومت می کنند بر جیفهٔ گندیدهٔ مردار، و بعد از زمان قلیل تبرّی می کند تابع از متبوع، و مقتدا از پیشوا پس پراکنده شوند از یکدیگر بعداوت و دشمنی، و لعنت کنند بیکدیگر هنگام ملاقات.

پس از آن می آید طلوع کننده فتنهٔ کثیر الاضطراب، و شکنندهٔ تند رونده، پس میل بباطل می کند قلبها بعد از استقامت آنها، و گمراه می شوند مردمان بعد از

سلامت ایشان، و مختلف می شود خواهشات وقت هجوم آن فتنه، و ملتبس می شود رأیها نزد ظهور آن فتنه، هر کس مقابله گری نمایـد آن را می شکند و هلاک می سازد او را، و هر کس سعی کند در اسکات آن بر می کند و نابود نماید او را.

بگزند و آزار رسانند مردمان آن زمان یکدیگر را در آن فتنه مثل آزار رساندن حمارهای وحشی یکدیگر را در رمه، بتحقیق که مضطرب شد ریسـمان بسـتهٔ اسـلام، و پوشـیده شد روی صـلاح کار، ناقص می شود در آن فتنه حکمت و معرفت و ناطق می شود در آن ستمکاران، و بکوبد آن فتنه أهل بادیه را با منحت و تیشهٔ خود و خورد و مرد کند ایشان را با سـینهٔ خود، و ضایع می شود در غبار آن فتنه تنها روندگان، و هلاک گردد در راه آن فتنه سوارگان.

وارد شود به تلخ ترین قضای الهی، و بدوشد خونهای تازه را، و خراب می کند منارهای دین را، و درهم شکند کوههای یقین را، بگریزند از آن فتنه صاحبان عقل و کیاست، و تدبیر کنند آن را صاحبان پلیدی و نجاست، بسیار صاحب رعد و برقست و کشف کننده است از شدّت، قطع می شود در آن فتنه رحمها، و مفارقت می شود بر آن از دین اسلام، برائت کننده از آن فتنه ناخوش است، و کوچ کنندهٔ آن مقیم است.

از جملهٔ فقرات آن خطبه است در وصف حال مؤمنان آن زمان می فرماید:

ایشان در میان کشته شده است که خونش هدر رفته، و ترسندهٔ که طلب أمان می کند، فریب داده می شوند با سوگندهای بسته شدهٔ دروغی، و با ایمانی که از روی فریب و غرور است، پس نباشـید علامتهای فتنها و نشانهای بدعتها، و لازم شوید به آنچه که بسـته شده بآن ریسـمان اجتماع و ایتلاف که عبارتست از قواعـد شـریعت و بر آنچه که بنا شـده بر آن رکنهای طاعت و عبادت، و اقـدام کنیـد بر خدا در حالتی که مظلوم هستید، و اقدام نکنید بر او در حالتی که ظالم باشـید، و بپرهیزید از راههای شیطان و از محلهای طغیان و عدوان، و داخل نکنید در شکمهای خودتان

ص:171

لقمه های حرام را پس بـدرستی که شـما در نظر کسـی هستیـد که حرام کرده بشـما گناه را، و آسان کرده از برای شـما راه طاعت را چنانچه فرموده «ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِی الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »

و من خطبة له عليه السّلام و هی المأة و الثانی و الخمسون

اشارة

من المختار فی باب الخطب

و شرحها فی فصول

الفصل الاول

اشارة

الحمد للّه الدّال علی وجوده بخلقه، و بمحدث خلقه علی أزليّته، و باشـتباههم علی أن لا شبه له، لا تستلمه المشاعر، و لا تحجبه المساتر، لافتراق الصّانع و المصـنوع، و الحادّ و المحدود، و الرّبّ و المربوب، الأحد بلا تأويل عدد، و الخالق لا بمعنی حركة و نصب، و السّميع لا بأداة، و البصـير لا بتفريق آلة، و المشاهد لا بمماسّة، و البائن لا بتراخی مسافة، و الظّاهر لا برؤية، و الباطن لا بلطافة، بان من الأشياء بالقهر لها، و القـدرة عليها، و بانت الأشـياء منه بالخضوع له، و الرّجوع أليه، من وصـفه فقد حدّه، و من حدّه فقد عدّه، و من عدّه فقد أبطل أزله، و من قال كيف

ص:172

فقد استوصفه، و من قال أين فقد حيّزه، عالم إذ لا معلوم، و ربّ إذ لا مربوب، و قادر إذ لا مقدور.

اللغة

قال الشّارح المعتزلى (الاستلام) فى اللّغة لمس الحجر باليد و تقبيله و لا يهمز لأنّ أصله من السّلام و هى الحجارة كما يقال استنوق الجمل و بعضهم يهمزه انتهى، و قال الفيومى فى المصباح: استلأمت الحجر قال ابن السّكيت: همزته العرب على غير قياس و الأصل استلمت لأنّه من السّلام و هى الحجارة، و قال ابن الاعرابى: الاستلام أصله مهموز من الملائمة و هى الاجتماع، و حكى الجوهرى القولين و مثله الفيروز آبادى، و فى بعض النّسخ بدل لا تستلمه لا تلمسه و (النّصب) محرّكة التّعب.

الاعراب

جملة لا تستلمه المشاعر استيناف بيانىّ، و لفظ الأحد، و الخالق، و السّميع و البصير، و ما يتلوها من الصّفات يروى بالرّفع و الجرّ معا الأوّل على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، و الثّانى على أنّه صفة للّه.

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من الخطبة متضمّن لمباحث شريفة إلهيّة، و معارف نفيسة ربّانية، و مسائل عويصة حكميّة، و مطالب عليّة عقليّة لم يوجد مثلها فى زبر الأوّلين و الآخرين، و لم يسمح بنظيرها عقول الحكماء السّابقين و اللاّحقين و صدّره بتحميد اللّه سبحانه و تمجيده فقال:

(الحمد للّه) و قد مضى شرح هذه الجملة و تحقيق معنى الحمد و بيان وجه اختصاصه باللّه سبحانه فى شرح الفصل الأوّل من الخطبة الأولى، و نقول هنا مضافا

ص:173

إلى ما سبق: إنّ الحمد سواء كان عبارة عن التعظيم و الثّناء المطلق، أو عن الشكر المستلزم لتقدّم النّعمة و الاعتراف بها، فالمستحقّ له فى الحقيقة ليس إلاّ اللّه سبحانه، و لذا أتى بتعريف الجنس و لام الاختصاص الدّالين على أنّ طبيعة الحمد مختصّة به تعالى.

أمّا على أنّه عبارة عن مطلق الثّناء و التّعظيم فلظهور أنّ استحقا قيّتهما إنّما يتحقّق لأجل حصول كمال أو برائة نقص، و كلّ كمال و جمال يوجد فى العالم فانما هو رشح و تبع لجماله و كماله، و أما البراءة عن النقائص و العيوب فممّا يختص به تعالى، لأنّه وجود محض لا يخالطه عدم و نور صرف لا يشوبه ظلمة.

و أما على أنه عبارة عن الشكر المسبوق بالنعمة فلأنّ كلّ منعم دونه فانما ينعم بشىء ممّا أنعم اللّه، و مع ذلک فانما ينعم لأجل غرض من جلب منفعة أو دفع مضرّة أو طلب محمّدة، فهذا الجود و الانعام فى الحقيقة معاملة و تجارة و إن عدّ فى العرف جودا و انعاما، و أما الحقّ تعالى فلما لم يكن إنعامه لغرض و لا جوده لعوض إذ ليس لفعله المطلق غاية إلاّ ذاته كما مرّ تحقيقه فى شرح الخطبة الخامسة و الستين، فلا يستحقّ لأقسام الحمد و الشكر بالحقيقة إلاّ هو، هذا و أردف الحمد بجملة من أوصاف الكمال و نعوت العظمة و الجلال.

الاول أنه (الدّالّ على وجوده بخلقه) و قد مرّ كيفيّة هذه الدّلالة فى شرح الخطبة الخمسين و بيّنا هناک أنّ الاستدلال بهذه الطريقة من باب الاستدلال بالفعل على الفاعل، و مرجعه الى البرهان اللمّى.

(و) الثانى أنه الدّال (بمحدث خلقه على أزليّته) لما قد مرّ ثمة أيضا من أنّ الأجسام كلّها حادثة لأنّها غير خالية عن الحركة و السّكون، و كلّ حادث مفتقر إلى محدّث فان كان ذلک المحدث محدثا عاد القول فيه كالأوّل و يلزم التّسلسل أو كونه محدثا لنفسه و كلاهما باطل، فلا بدّ من محدث قديم لا بداية لوجوده و هو اللّه تعالى و سبحانه.

ص:174

(و) الثالث أنّه الدّالّ (باشتباههم على أن لا شبه له) يعنى أنّه سبحانه بابداء المشابهة بين المخلوقات دلّ على أنّه لا مثل و لا شبيه.

و جهـة المشابهـة بينها إمّا الافتقار إلى المؤثّر كما ذهب إليه الشّارح البحرانى حيث قال: أراد اشـتباههم فى الحاجة إلى المؤثّر و المدّبر، و تقرير هذا الطّريق أن نقول: إن كان تعالى غنيّا عن المؤثّر فلا شبيه له فى الحاجة إليه لكن المقدّم حقّ فالتّالى مثله.

و اعترض عليه بأنّ فيه قصورا من وجهين:

أحدهما أنّ المطلوب فى تنزيه الحقّ تعالى عن الشّبيه هو نفى الشّبه عنه على الاطلاق لا نفى وجه من وجوه الشبّه فقط كالحاجة.

و ثانيهمـا أنّ نفى الحاجـة عنه تعالى ممّا لا يحتاج إلى إثباته له من جهـة تشابه الخلق فيها، بل مجرّد كونه واجب الوجود يلزمه نفى الحاجة عنه إلى غيره لزوما بيّنا، فالاستدلال عليه لغو من الكلام مستدرک، هذا.

و قال بعضهم: المراد بمشابهتهم الاشتباه فى الجسميّة و الجنس و النّوع و الأشكال و المقادير و الألوان و نحو ذلک، و إذ ليس داخلا تحت جنس لبرائته عن التّركيب المستلزم للامكان، و لا تحت النّوع لافتقاره فى التّخصيص بالعوارض إلى غيره، و لا بذى مادّة لاستلزامه التّركيب أيضـا، فليس بـذى شبيه فى الامور المـذكورة و هو قريب ممّا قاله البحرانى لكنّ الأوّل أعمّ فى نفى الشّبيه، و الأحسن منها ما فى الحـديث الأوّل من باب جوامع التوحيد من الكافى عن أمير المؤمنين عليه السّلام عند استنهاضه النّاس لحرب معاوية فى المرّة الثّانية و هو قوله عليه السّلام: و حدّ الأشياء كلّها عند خلقه إبانة لها من شبهه و إبانة له من شبهها.

قال العلامة المجلسـى فى شرحه: أى جعل للأشياء حدودا و نهايات، أو أجزاء و ذاتيّات ليعلم بها أنّها من صفات المخلوقين و الخالق منزّه عن صفاتهم، أو خلق الممكنات الّتى من شأنها المحدوديّة ليعلم بذلک أنّه ليس كذلک كما قال تعالى:

فخلقت الخلق لاعرف، إذ خلقها محدودة لأنّها لم تكن تمكن أن تكون غير

محدودة لامتناع مشابهة الممكن الواجب فى تلک الصّفات الّتى هى من لوازم وجوب الوجود، و لعلّ الأوسط أظهر.

الرابع أنّه (لا تستلمه المشاعر) أى لا تلمسه لأنّ مدرکات المشاعر مقصورة على الأجسام و الأعراض القائمة بها، و هو سبحانه ليس بجسم و لا جسمانىّ، فامتنع إدراک المشاعر و لمسها له، و يحتمل أن يراد بالمشاعر المدارک مطلقا سواء کانت قوّة مادیّة مدرکة للحسيّات و الوهميات أو قوّة عقليّة مدرکة للعقليّات و الفکريات اذ ليس للمدارک مطلقا إلى معرفة کنه ذاته سبيل، و لا على الوصول الى حقيقه صفاته دليل، کما مرّ فى شرح الفصل الثانى من الخطبة الاولى.

(و) الخامس (لا تحجبه المساتر) أى الحجابات الّتى يستر بها، و فى أکثر النّسخ: السواتر بدلها و معناهما واحد، و المراد أنه لا يحجبه حجاب و لا يستتر بشىء من السواتر لأنّ الستر و الحجاب من لوازم ذى الجهة و الجسمية، و هو تعالى منزّه عن ذلک.

فان قلت: قد ورد فى الحديث إنّ اللّه احتجب عن العقول کما احتجب عن الأبصار و أنّ الملاء الأعلى يطلبونه کما أنتم تطلبونه، فکيف التوفيق بينه و بين قول الامام عليه السّلام؟ قلت: ليس المراد من احتجابه عن العقول و الأبصار أن يکون بينه و بين خلقه حجاب جسمانىّ مانع عن إدراکه و الوصول اليه تعالى، بل المراد بذلک احتجابه عنهم لقصور ذواتهم و نقصان عقولهم و قواهم، و کمال ذاته و شدّة نوره و قوّة ظهوره، فغاية ظهوره أوجب بطونه، و شدّة نوره أوجب احتجابه کنور الشمس و بصر الخفاش، و قد حقّقنا ذلک بما لا مزيد عليه فى شرح الخطبة الرّابعة و الستين و شرح الفصل الثانى من الخطبة التسعين، و بما ذکرنا أيضا ظهر فساد ما ربما يتوهّم من أنه إذا لم يکن محجوبا بالسواتر لا بدّ و أن يعرفه کلّ أحد و يراه، هذا.

و قوله (لافتراق الصانع و المصنوع و الحادّ و المحدود و الربّ و المربوب)

التعليل راجع الى الجملات المتقدّمة بأسرها، و المقصود أنّ لكلّ من الصانع و المصنوع صفات تخصّه و تليق به و يمتاز بها و بها يفارق الآخر فالمخلوقية و الحدوث و الاشتباه و الملموسيّة و المحجوبيّة بالسواتر من لواحق المصنوعات و الممكنات و أوصافها اللاّيقة لها، و الخالقيّة و الأزليّة و التنزّه عن المشابهة و عن استلام المشاعر و احتجاب السّواتر من صفات الصّانع الأوّل و ممّا ينبغى له و يليق به، و يضادّ ما سبق من أوصاف الممكنات، فلو جرى فيه صفات المصنوعات أو فى المصنوعات صفاته لارتفع الافتراق و وقع المساواة و المشابهة بينه و بينها، فيكون مشاركا لها فى الحدوث المستلزم للامكان المستلزم للحاجة إلى الصّانع، فلم يكن بينه و بينها فصل و لا له عليها فضل، و كلّ ذلك أعنى المساوات و المشابهة و عدم الفصل و الفضل ظاهر البطلان، هذا و المراد بالحادّ خالق الحدود و النّهايات، و الصّانع و الربّ بينهما تغاير بحسب الاع تبار و هو دخول المالكيّة فى مفهوم الرّبوبيّة دون الصّنع.

السادس (الأحد لا بتأويل عدد) يعنى أنّه أحدىّ الذّات ليس كمثله شىء و أحدىّ الوجود لا جزء له ذهنا و لا عقلا و لا خارجا، و ليست وحدانيّته وحدانيّة عدديّة بمعنى أن يكون مبدء لكثرة تعدّ به كما يقال فى أوّل العدد واحد، و قد مرّ تحقيق ذلك فى شرح الخطبة الرّابعة و السّتين.

(و) السابع (الخالق لا بمعنى حركة و نصب) يعنى أنّه سبحانه موجد للأشياء بنفس قدرته التّامة الكاملة و خلقه الابداع و الافاضة من دون حاجة إلى حركة ذهنيّة أو بدنيّة كما لساير الصّانعين، لأنّ الحركة من عوارض الأجسام، و هو منزّه عن الجسميّة كما لا حاجة فى ايجاده إلى المباشرة و التعمّل حتّى يلحقه نصب و تعب، و إنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

(و) الثامن (السّميع لا بأداة) و هى الأذنان و الصّماخان و القوّة الكائنة تحتهما، لتعاليه عن الآلات الجسمانيّة، بل سمعه عبارة عن علمه بالمسموعات، فهو نوع مخصوص من العلم باعتبار تعلّقه بنوع من المعلوم، و قد تقدّم فى شرح الفصل

السّادس من الخطبة الاولى أنّ السّمع و البصر من الصّفات الذّاتيّة له تعالى، و الاحتياج فيهما إلى الأداة و الآلة يوجب النّقص فى الذّات و الاستكمال و الاستعانة بالآلات المنافى للوجوب الذّاتى.

(و) التاسع (البصير لا بتفريق آلة) أى بفتح العين أو بعث القوّة الباصرة و توزيعها على المبصرات قال الشّارح البحرانى: و هذا المعنى على قول من جعل الابصار بآلة الشّعاع الخارج من العين المتّصل بسطح المرئى أظهر، فانّ توزيعه أظهر من توزيع الآلة على قول من يقول إنّ الادراک يحصل بانطباع صورة المرئى فى العين، و معنى التّفريق على القول الثّانى هو تقليب الحدقة و توجيهها مرّة إلى هذا المبصر و مرّة إلى ذاک كما يقال فلان مفرّق الهمّة و الخاطر إذا وزّع فكره على حفظ أشياء متباينة و مراعاتها كالعلم و تحصيل المال و ظاهر تنزيهه تعالى عن الابصار بآلة الحسّ لكونها من توابع الجسميّة و لواحقها (و) العاشر (المشاهد لا بمماسّة) و فى بعض النّسخ الشّاهد بدل المشاهد، و المعنى واحد قال صدر المتألّهين فى شرح الكافى فى تحقيق ذلک: لأنّ التماس من خواصّ الأجسام، و المشاهدة بالمماسّة للمشهود نفسه كما فى الذّائقة و اللاّمسة، و للمتوسّط بين الشّاهد و المشهود كما فى الشّامّة و السّامعة و الباصرة، و الحاصل أنّ إدراكات الحواسّ الظّاهرة الخمسة و مشاهداتها كلّها لا تتمّ إلاّ بالمماسّة لجسم من الأجسام و إن كان المشهود له و الحاضر بالذّات عند النّفس شيئا آخر غير المموس بالذّات أو بالواسطة (و) الحادى عشر (البائن لا بتراخى مسافة) يعنى أنه مباين للأشياء و مغاير لها بنفس ذاته و صفاته، لأنّه فى غاية التمام و الكمال، و ما سواه فى نهاية الافتقار و النقصان، و ليس تباينه تباين أين و تباعد مكان بتراخى مسافة بينه و بين غيره، لأنّ ذلک من خواصّ الأينيّات، و هو الذى أيّن الأين بلا أين، و قد تقدّم نظير هذه الفقرة

فى الفصل السادس من الخطبة الاولى، و شرحناه بما يوجب الانتفاع به فى المقام فليراجع ثمة (و) الثانى عشر (الظّاهر لا برؤية و) الثالث عشر (الباطن لا بلطافة) يعنى أنّ ظهوره سبحانه ليس كظهور ظاهر الأشياء بأن يكون مرئيا بحاسّة البصر، و لا بطونه كبطونها بأن يكون لطيفا لصغر حجمه أو لطافة قوامه كالهواء، بل نحو آخر من الظّهور و البطون على ما مرّ تحقيقه فى شرح الخطبة التّاسعة و الأربعين و شرح الخطبة الرّابعة و السّتين فليتذكّر.

و الرابع عشر أنّه (بان من الأشياء بالقهر لها و القدرة عليها، و بانت الأشياء منه بالخضوع له و الرّجوع إليه) و هذه الفقرة فى الحقيقة تفسير و توضيح للوصف الحادى عشر، فانّه عليه السّلام لمّا ذكر هناك أنّ بينونيّته ليست بتراخى مسافة أوضح هنا جهة البينونة بأنّه إنّما بان من الأشياء بغلبته و استيلائه عليها و قدرته على ايجادها و إعدامها كما هو اللاّيق بشأن الواجب المتعال، و أنّ الأشياء إنّما بانت منه لخضوعها و ذلّها فى قيد الامكان و رجوعها فى وجودها و كمالاتها إلى وجوده كما هو مقتضى حال الممكن المفتقر.

الخامس عشر أنّه تعالى منزّه عن الصّفات الزّايدة على الذّات، و إليه أشار بقوله (من وصفه فقد حدّه و من حدّه فقد عدّه و من عدّه فقد أبطل أزله) قال العلامة المجلسى فى مرآت العقول فى شرح هذه الفقرة من حديث الكافى: إنّ من وصف اللّه بالصّورة و الكيف فقد جعله جسما ذا حدود، و من جعله ذا حدود فقد جعله ذا أجزاء، و كلّ ذى أجزاء محتاج حادث، أو أنّ من وصف اللّه و حاول تحديد كنهه فقد جعله ذا حد مركّب من جنس و فصل، فقد صار حقيقة مركّبة محتاجه إلى الأجزاء حادثة أو أنّ من وصف اللّه بالصّفات الزّايدة فقد جعل ذاته محدودة بها، و من حدّه كذلك فقد جعله ذا عدد إذ اختلاف الصّفات إنّما يكون بتعدّد أجزاء الذّات أو قال بتعدّد الالهة إذ يكون كلّ صفة لقدمها إليها غير محتاج إلى علّة، و من كان مشاركا فى الالهيّة لا يكون قديما فيحتاج إلى علّة، أو جعله

مع صـفاته ذا عـدد و عروض الصّـفات المغايرة الموجودة ينافى الأزليّة، لأنّ الاتّصاف نوع علاقة توجب احتياج كلّ منهما إلى الآخر، و هو ينافى وجوب الوجود و الأزليّة أو المعنى أنّه على تقدير زيادة الصّـفات يلزم تركّب الصّانع إذ ظاهر أنّ الذّات بدون ملاحظة الصّفات ليست بصانع للعالم، فالصّانع المجموع فيلزم تركّبه المستلزم للحاجة و الامكان، و قيل: فقد عدّه من المخلوقين.

السادس عشـر أنّه منزّه عن الكيف، و إليه أشار بقوله (و من قال كيف فقد استوصـفه) أى طلب وصـفه بصـفات المحلوقين و جعل له وصـفا زايدا على ذاته، و قد علمت أنّ ذلک ممتنع فى حقّه إذ كلّ صفة وجوديّة زايدة على ذاته فهى من مقولة الكيف و من جنس الكيف النّفسانى، فيلزم كون ذاته بـذاته معرّاة عن صـفة كماليّـة، و يلزم له مخالطة الامكان و ينافى كونه واجب الوجود من جميع الجهات، و كلّ ذلک محال عليه تعالى هذا، و قد تقدّم فى شرح الخطبة الرّابعة و الثّمانين تحقيق معنى الكيف و تفصيل تنزّهه تعالى عن الاتّصاف به.

السابع عشر أنّه سبحانه منزّه عن المكان، و إليه أشار بقوله (و من قال أين فقد حيّزه) لأنّ أين سؤال عن الحيّز و الجهة، فمن قال أين فقد جعله فى حيّز مخصوص و هو محـال فى حقّ الواجب تعـالى، لأنّه خالق الحيّز و المكان فيلزم افتقاره إلى ما هو مفتقر إليه، على أنّ كونه فى حيّز معيّن يستلزم خلوّ ساير الأحياز و الأمكنة منه كما هو شأن الأجسام و الجسمانيّات، و هو باطل لأنّه فى جميع الأحياز بالعلم و الاحاطة، و هو الذى فى السّماء إله و فى الأرض إله.

و اعلم أنّ هذه العبارة نظير قوله عليه السّلام فى الفصل الخامس من الخطبة الأولى و من قال فيم فقد ضمنه، و قد ذكرنا فى شرحه ما يوجب البصيرة فى المقام.

الثـامن عشـر أنّه سـبحانه (عـالـم إذ لاـ معلوم و ربّ إذ لا مربوب و قادر إذ لا مقـدور) إذ ظرفيّـة على توهم الزّمان أى كان موصوفا فى الأزل بالعلم و الرّبوبيّة و القدرة، و لم يكن شىء من المعلوم و المربوب و المقدور موجودا فيه.

أمّا أنّه كان عالما بالأشياء و لا معلوم فلأنّ علمه عين ذاته و تقدّم ذاته على

معلوماته الحادثه ظاهر، و لا يتوقّف وجوده على وجود المعلوم كما مرّ تحقيقه فى شرح الفصل السّابع من الخطبة الأولى عند تحقيق قوله: عالما بها قبل ابتدائها فليتذكّر.

و أمّا أنّه كان ربّا إذ لا مربوب لأنّ معنى الربّ هو المالک، و قد كان سبحانه مالكا لأزمّة الامكان و تصريفه من العدم إلى الوجود و من الوجود إلى العدم كيف شاء و متى أراد، و قيل: المراد إنّه كان قادرا على التربية إذ هو الكمال و فعليّتها منوطة على المصلحة.

و أمّا أنّه كان قادرا اذ لا مقدور فلأنّ القادر هو الّذى إن شاء فعل و إن شاء ترک، و بعبارة اخرى هو الّذى يصحّ منه الفعل و الترک، و وجود هذا الوصف له لا يستلزم وجود المقدور و قال الصّدوق فى التّوحيد: و القدرة مصدر قولک قدر قدرة أى ملک فهو قدير قادر مقتدر، و قدرته على ما لم يوجد و اقتداره على إيجاده هو قهره و ملكه له، و قد قال عزّ ذكره: «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» و يوم الدّين لم يوجد بعد.

الترجمة

از جمله خطب شريفۀ آن ولىّ ربّ العالمين و وصىّ أمين خاتم النّبيّين است در تحميد و توحيد و تمجيد حضرت ذو الجلال و خداوند متعال مى فرمايد:

حمد و ثنا خداوندى را سزاست كه هدايت كننده است بوجود خود با ايجاد مخلوقات خود، و با حدوث مخلوقات خود بر أزليّت و سرمديّت خود، و با شبيه نمودن آن مخلوقات بيكديگر بر اين كه هيچ مثل و شبيه نيست مر او را، مسّ نمى توانند بكنند او را حواسّ ظاهره و باطنه، و نمى پوشانند او را پردها و حجابها بجهت ممتاز و مغاير بودن آفريننده و آفريده شده، و حد قرار دهنده و حد قرار داده شده، و تربيت كننده و تربيت داده شده، اين صفت دارد كه يكيست نه يكى كه از مقولۀ أعداد باشد، و خلق كننده است نه با حركت و مشقّت، و شنوا است نه با آلت گوش، و بينا است نه با

ص:181

برگرداندن حدقهٔ چشم، و حاضر است با أشیا نه با مجاورت و مماست، و جداست از آشیانه بدوری راه، و آشکار است نه بدیدن چشمها، و پنهانست نه بسبب لطافت مقدار.

جدا شد ار أشـیا با قهر و غلبه کردن بر آنها، و جدا شد أشـیا از او بسبب خضوع و تواضع نمودن آنها بر او و بسبب بازگشت آنها بسوی او، هر کس وصف کرد او را پس بتحقیق که حد قرار داد او را، و هر که حد قرار دهد بر او پس بتحقیق که در شـمار آورد او را، و کسی که در شمار آورد او را پس بتحقیـق که باطـل گردانیـد أزلیّت او را، و هر کس که بگویـد چگـونه است او پس بتحقیق که طلب وصف او نمود، و هر که گفت او کجـاست پس بتحقیق که مکـان قرار داد بـأو، دانـا بود در وقـتی که هیـچ معلومی نبود، ربّ بود هنگـامی که هیـچ مربوبی نبود، و صاحب قدرت بود زمانی که هیچ مقدوری نبود

الفصل الثانی منها

اشارة

قـد طلع طالع، و لمع لامع، و لاح لائـح، و اعتدل مائل، و اسـتبدل اللّه بقوم قوما، و بیوم یوما، و انتظرنا الغیر انتظار المجدب المطر، و إنّما الأئمـة قوّام اللّه علی خلقه، و عرفـائه علی عباده، لا یـدخل الجنّـة إلاّ من عرفهم و عرفوه، و لا یـدخل النّار إلاّ من أنکرهم و أنکروه، إنّ اللّه تعالی قد خصّکم بالإسـلام، و استخلصکم له، و ذلک لأنّه اسم سلامة و جماع کرامة، اصطفی اللّه تعالی منهجه، و بیّن حججه من ظاهر علم، و باطن حکم، لا تفنی غرائبه، و لا

تنقضى عجائبه، فيه مرابيع النّعم، و مصابيح الظّلم، لا تفتح الخيرات إلاّ بمفاتحه، و لا تكشف الظّلمات إلاّ بمصابيحه، قد أحمى حماه، و أرعى مرعاه، فيه شفاء المشتفى، و كفاية المكتفى.

اللغة

(الجدب) هو المحل وزنا و معنا و هو انقطاع المطر و يبس الأرض و أجدب القوم اجدابا أصابهم الجدب و (عرفت) على القوم من باب قتل عرافة بالكسر فأنا عارف أى مدبّر أمرهم و قائم بسياستهم، و عرفت عليهم بالضمّ لغة فأنا عريف و الجمع عرفاء، و قيل: العريف هو القيّم بامور القبيلة و الجماعة يلى أمورهم و يتعرّف الأمير منه أحوالهم فعيل بمعنى فاعل و (جماع) الشىء بالكسر و التّخفيف جمعه يقال الخمر جماع الاثم و (المرابيع) الأمطار التى تجىء فى أوّل الرّبيع و (حمى) المكان من النّاس حميا من باب رمى منعه عنهم، و الحماية اسم منه و أحميته بالألف جعلته حمى لا يقرب و لا يجترء عليه و كلاء حمى محمى قال الشاعر:

و نرعى حمى الأقوام غير محرّم علينا و لا يرعى حمانا الذى نحمى

قال الشّارح المعتزلى: قد حمى حماه، أى عرضه لأن يحمى كما تقول:

أقتلت الرّجل أى عرضته لأن يضرب.

الاعراب

جملة لا يدخل الجنة، بدل من الجملة السابقة عليها، و لشدّة الاتّصال بينهما ترك العاطف على حدّ قوله تعالى: أمدّكم بما تعلمون أمدّكم بأنعام و بنين، و إضافة المنهج إلى الضمير إما نظير الاضافة فى سعيد كرز، أو بمعنى اللاّم، و الاضافة فى قوله: من ظاهر علم و باطن حكم، من قبيل إضافة الصفة إلى موصوفها،

ص:183

و من فی من ظاهر للتبيين و التفسير كما تقول دفعت إليه سلاحا من سيف و رمح و سهم أو للتميز و التقسيم.

المعنی

اشارة

اعلم أنّ الشارح المعتزلی ذكر فی شرح هذا الفصل من كلامه عليه السّلام أنه خطب بذلک بعد قتل عثمان حين أفضت الخلافة إليه.

إذا عرفت ذلک فأقول قوله عليه السّلام (قد طلع طالع و لمع لامع و لاح لائح) يحتمل أن يكون المراد بالجملات الثلاث واحدا، أی طلع شمس الخلافة من مطلعها و سطع أنوار الامامة من منارها، و ظهر كوكب الولاية من افقه، و أن يكون المراد بالاولى ظهور خلافته و أمارته، و بالثّانية ظهورها من حيث هی حقّ له عليه السّلام و سطوع أنوار العدل بصيرورتها إليه، و بالثّالثة ظهور الحروب و الفتن الواقعة بعد انتقال الأمر إليه عليه السّلام (و اعتدل مائل) أی استقام ما اعوج من أركان الدّين و قوائم الشّرع المبين (و استبدل اللّه بقوم) من أهل الضّلال و الفساد و هم الخلفاء الثلاث و أتباعهم (قوما) من أهل الصّلاح و الرّشاد و هم أمير المؤمنين و تابعوه (و بيوم) انتشر فيه الجور و الاعتساف (يوما) ظهر فيه العدل و الانصاف(و انتظرنا الغير)أی تغيّرات الدّهر و تقلّبات الزّمان قال العلاّمة المجلسیّ (قد): و لعلّ انتظارها كناية عن العلم بوقوعه، أو الرّضا بما قضى اللّه من ذلک، و المراد بالغير ما جرى قبل ذلک من قتل عثمان و انتقال الأمر اليه أو ما سيأتی من الحروب و الوقايع، و الأوّل أنسب بالتشبيه ب(انتظار المجدب المطر)لدلالته على شدّة شوقه بالتّغيرات و فرط رغبته لانتقال الأمر اليه ليتمكّن من إعلاء كلمة الاسلام و ترويج شرع سيّد الأنام عليه و آله آلاف التّحية و السّلام كما أنّ للمجدب شدّة الاشتياق إلى الأمطارثمّ أشار إلى أنّ القيام بامور الأمّة وظيفة الأئمة فقط، و أنّ موالاتهم و متابعتهم واجبة فقال (و إنّ الائمة) أراد به نفسه الشّريف و الطيّبين من أولاده (قوّام اللّه على

خلقه) أى يقومون بمصالحهم و يـدبّرون امورهم، أو أنّهم القائمون بأمر اللّه و نهيه و أحكامه على خلقه، لكونهم خلفائه فى أرضه و حججه على بريّته، و كمـال هـذا القيام عنـد ظهور صاحب الأمر عليه السّلام فانّه الزّمان الّذى تجتمع فيه الخلايق على الايمان، و يرتفع الشّرك بالكلّيّة.

كما يدلّ عليه ما فى الكافى عن أبى خديجة عن أبى عبد اللّه عليه السّلام أنّه سـئل عن القائم، فقال: كلّنا قائم بأمر اللّه واحدا بعد واحد حتّى يجىء صـاحب السّيف فـاذا جـاء صاحب السّيف جاء بأمر غير الّذى كان (و عرفائه على عباده) كمال قال تعالى «وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ » روى فى البحار من بصائر الدّرجات مسندا عن الهلقام عن أبى جعفر عليه السّلام فى قوله:

و على الأعراف رجال، قال عليه السّلام: نحن أولئک الرّجال الأئمـة منّا يعرفون من يـدخل النّار و من يدخل الجنّة كما تعرفون فى قبائلكم الرّجل منكم يعرف من فيها من صالح أو طالح.

و فيه عن الهلقام أيضا عن أبى جعفر عليه السّلام قال: سألته عن قول اللّه عزّ و جلّ «وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ » ما يعنى بقوله و على الأعراف رجال؟ قال عليه السّلام: ألستم تعرفون عليكم عريفا على قبائلكم لتعرفوا من فيها من صالح أو طالح؟ قلت: بلى، قال: فنحن أولئک الرّجال الّذين يعرفون كلاّ بسيماهم.

و فيه من كتاب المقتضب لأحمد بن محمّد بن عياش بسـنده عن أبان بن عمر ختن آل ميثم قال: كنت عند أبى عبد اللّه عليه السّلام فدخل عليه سفيان بن مصعب العبدى فقال: جعلنى اللّه فداک ما تقول فى قوله تعالى ذكره «وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ » الآية قال: هم الأوصياء من آل محمّد الاثنا عشر لا يعرف اللّه إلاّ من عرفهم و عرفوه، قال فما الأعراف جعلت فـداک؟ قال: كتائب من مسک عليها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و الأوصياء يعرفون كلاّ بسيماهم فقال سفيان: فلا أقول فى ذلک شيئا؟ فقال من قصيدة شعرا.

أيا ربعهم(1) هل فيک لى اليوم مربع و هل لليالى كنّ لى فيک مرجع

1- (1) الربع الدار و المحلة و المنزل يرتبعون فيه فى الربيع كالمربع، و الريا الريح الطيبة

و فيها يقول:

و أنتم ولاة الحشر و النشر و الجزا و أنتم ليوم المفزع الهول مفزع

و أنتم على الأعراف و هى كتائب من المسک رياها بکم يتضوّع

ثمانية بالعرش اذ يحملونه و من بعدهم هادون فى الأرض أربع

(لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفهم و عرفوه و لا يدخل النّار إلاّ من أنكرهم و أنكروه) هذه القضيّة قد نصّت عليها فى الأخبار المعتبرة المتظافرة عن أهل بيت العصمة و الطّهارة، و ستطلع عليها و على تحقيق معناها فى التّذييل الآتى.

ثمّ أشار إلى بغض ما منّ اللّه تعالى به على المخاطبين، و هو أعظم نعمائه عليهم فقال (إنّ اللّه قد خصّکم بالاسلام و استخلصکم له) أى استخصّکم له يعنى أنّکم لكرامتكم عند اللّه تعالى و علوّ منزلتكم خصّكم بهذه النّعمة العظمى و العطيّة الكبرى (و ذلک لأنّه اسم سلامة) قال الشّارح المعتزلى و البحرانى: يعنى أنّه مشتقّ من السّلامة، و تبعهما بعض الشّارحين فقال: ظاهر الكلام يعطى أنّ الاسلام من السّلامة مشتقّ فليس بمعنى الانقياد و الدّخول فى السلم.

أقول: لا دلالة فى كلامه عليه السّلام على اشتقاقه منه لو لم يكن دالاّ على خلافه، بل الظّاهر أنّ معناه أنّ الاسلام اسم لمسمّى فيه سلامة من غضب الجبّار و من النّار، فانّ من فاز بالاسلام سلم من سخط اللّه و عقوبته.

(و) هو أيضا (جماع كرامة) أى مجمعه إذ به يفاز الجنان، و يتحصل الرّضوان و النّعيم الأبد و اللّذة السّرمد (اصطفى اللّه منهجه) أى اختار طريق الاسلام و ارتضاه من بين ساير الطرق و المناهج، و المراد بطريق الاسلام إما نفس الاسلام، و تسميته بالطريق باعتبار ايصاله إلى قرب الحقّ سبحانه و كونه محصّلا لرضاه تعالى، و قد عبّر عنه بالصّراط و هو الطّريق فى قوله تعالى:

«اِهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ ».

على بعض تفاسيره، و يدلّ على اختيار اللّه سبحانه و اصطفائه له قوله تعالى:

«اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ».

و أمّا الطريق المخصوص به أعنى الطّريق الّذى لا بدّ لمن تديّن بدين الاسلام أن يسلكه و هى طريق الشّريعة أعنى الفروع العمليّة، و الدّليل على اصطفائه عزّ و جلّ لها جعلها ناسخة لسائر الشّرايع و إبقائها بقاء الدّهر، شرع محمّد صلّى اللّه عليه و آله مستمرّ إلى يوم القيامة (و بيّن حججه) أى أوضح الأدلّة الدّالة على حقيّته (من ظاهر علم و باطن حكم) أى تلك الأدلّة على قسمين: أحدهما علم ظاهر و هى الأدلّة النّقلية من الكتاب و السنّة، و ثانيهما حكمة باطنة و هى الأدلّة العقليّة.

أمّا تفسير الحكم بالحكمة فقد دلّ عليه ما فى الصافى عن الكافى عن الباقر عليه السّلام قال: مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب و الحكمة و هو صبىّ صغير، ثمّ تلا قوله تعالى «يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ».

و فى مجمع البحرين فى الحديث ادع اللّه أن يملاء قلبى علما و حكما، أى حكمة.

و أمّا تفسير الحكمة بالعقل فقد نصّ عليه الكاظم عليه السّلام فى رواية الصافى عن الكافى عنه عليه السّلام فى تفسير قوله تعالى:

«وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ ».

قال: الفهم و العقل، فقد ظهر و اتّضح مما ذكرنا أنّ المراد بالحكم الباطن هو دليل العقل (لا تفنى غرائبه و لا تنقضى عجائبه) يعنى أنّ غرائب الاسلام و عجائبه دائمة تجدّد يوما فيوما، ألا ترى كيف أعزّه اللّه و أهله فى بدو الأمر و أذلّ الكفر و أهله و نصر اللّه المسلمين على الكافرين و أظهرهم عليهم على قلّة الأوّلين و كثرة الآخرين و أيّد الاسلام بالملائكة المسوّمين يوم بدر و حنين، و نكص الشيطان اللّعين على عقبيه لما تراءت الفئتان و قال «إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللّهَ » رب

العالمين، مضافة إلى المعجزات و الكرامات الصادرة من قادة المسلمين و نوّابهم الصّالحين فى كلّ عصر و زمان، و أعظم تلك العجائب و أكمل تلك الغرايب ما يظهر فى آخر الزّمان عند ظهور الدّولة الحقّة القائميّة «عج» و هذه كلّها من عجائب نفس الاسلام و مضافة إليه كما هو غير خفىّ لاولى الأفهام.

(فيه مرابيع النّعم) استعار لفظ المرابيعللبركات و الخيرات التى يفوز بها المسلمون فى الآخرة و الاولى ببركة أخذهم الاسلام دينا أمّا فى الدّنيا فكحقن الدّماء و الظفر بالأعداء و غنيمة الأموال و رفاه الحال، و أمّا فى العقبى فالنّجاة من النّار و الأمن من غضب الجبّار و الفوز بجنّات تجرى من تحتها الأنهار، و برضوان من اللّه أكبر و هو أعظم النّعماء و أشرف الآلاء.

(و مصابيح الظّلم) لفظ المصابيحأيضا استعارة للمعارف الحقّة و العقائد الالهيّة، إذ تصفية القلب بها يرتفع ظلمات الشّبهات و يندفع رين الشكوكات عنه فى الدّنيا بخلاف الّذين كفروا فقد«خَتَمَ اللّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ »، و أمّا فى الآخرة فبسبب تلك المعارف و بعض الأعمال الصّالحة الّتى هى من فروع الدّين و الاسلام يحصل نور للمؤمن فى القبر و البرزخ و القيامة، هذا و يحتمل أن يكون لفظ المصابيح استعارة لأولياء الدّين و أئمّة اليقين قادة المسلمين إذ بهم يهتدى من ظلمات الجهل و الضّلال فى الدّين و الدّنيا، و بأنوارهم يسلك سبيل الجنّة فى الأخرى كما قال عزّ من قائل:

«نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ».

و قد مرّ الكلام فى هذا المعنى مشبعا فى شرح الفصل الأوّل من الخطبة الرّابعة فليراجع ثمة.

(لا تفتح الخيرات إلاّ بمفاتحه) أراد بالخيرات النّعم الأخرويّة و اللّذائذ الدّائمة الباقية و الدّرجات العالية، و مفاتح الاسلام الفاتحة لها عبارة عن فروعات

الاسلام و الأعمال الحسنة و العبادات الّتى كلّ منها سبب لجزاء مخصوص و موصلة الى درجة مخصوصة من درجات الجنان و مفاتح لأبوابها.

كما ورد فى بعض الأخبار: أنّ للجنّة ثمانية أبواب: الباب الأوّل اسمه التّوبة، الثّانى الزّكاة، الثّالث الصّلاة، الرّابع الأمر و النّهى، الخامس الحجّ السّادس الورع، السّابع الجهاد، الثّامن الصّبر، فانّ الظّاهر منه أنّ التّوبة مفتاح للباب الأوّل و الزّكاة للثانى و هكذا.

(و لا تكشف الظلمات إلاّ بمصابيحه) قد طهر توضيحه ممّا قدّمناه آنفا فى شرح قوله: فيه مصابيح الظلم (قد أحمى حماه) المراد بحمى الاسلام المحرّمات الشّرعيّة و قد أحماها اللّه سبحانه أى جعلها عرضة لأن تحمى، أى منع و نهى عن الاقتحام فيها.

و يدلّ على ما ذكرناه ما فى الوسائل عن الصّدوق قال: إنّ أمير المؤمنين عليه السّلام خطب النّاس فقال فى كلام ذكره: حلال بيّن، و حرام بيّن، و شبهات بين ذلك فمن ترک ما اشتبه عليه من الاثم فهو لما استبان له أترک، و المعاصى حمى اللّه فمن يرتع حولها يوشک أن يدخلها و فيه عن الفضل بن الحسن الطبرسى فى تفسيره الصّغير قال: فى الحديث أنّ لكل ملک حمى و حمى اللّه محارمه فمن رتع حول الحمى أوشک أن يقع فيه.

و فيه عن الكراجكى فى كتاب كنز الفوايد بسنده عن سلام بن المستنير عن أبى جعفر الباقر عليه السّلام قال قال جدّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: أيّها النّاس حلالى حلال إلى يوم القيامة، و حرامى حرام إلى يوم القيامة، ألا و قد بينهما اللّه عزّ و جلّ فى الكتاب و بيّنتهما لكم فى سنّتى و سيرتى، و بينهما شبهات من الشّيطان و بدع بعدى من تركها صلح له أمر دينه و صلحت له مرّوته و عرضه، و من تلبّس بها وقع فيها و اتبعها كان كمن رعى غنمه قرب الحمى، و من رعى ما شئته قرب الحمى نازعته نفسه إلى أن يرعاها فى الحمى، ألا و إنّ لكلّ ملک حمى، ألا و إنّ حمى اللّه عزّ و جلّ محارمه، فتوّقوا حمى اللّه و محارمه.

(و أرعى مرعاه) المراد بمرعاه المباحات و المحلّلات الشّرعية، فانّ اللّه سبحانه قد رخّص المكلّفين فى الاقدام عليها و تناولها و التّمتع بها.

(فيه شفاء المشتفى و كفاية المكثفى) إذ به يحصل التّقرب الرّوحانى من الحقّ تعالى، و هو شفاء لكلّ داء و غنى لكلّ فقر، و إليه يؤمى ما فى الحديث القدسى يابن آدم كلّكم ضالّ إلاّ من هديته، و كلّكم مريض إلاّ من شفيته، و كلّكم فقير إلاّ من أغنيته

تنبيه

ما ذكرته فى شرح هذه الفقرات الأخيرة أعنى قوله: من ظاهر علم، إلى آخر الفصل هو الّذى ظهر لى فى المقام و هو الأنسب بسياق الكلام.

و قال الشّارح المعتزلى و البحرانى و تبعهما غيرهما: إنّ المراد بقوله: من ظاهر علم هو القرآن، و ما ذكره إلى آخر الفصل أوصاف له.

قال الشّارح المعتزلى و يعنى بظاهر علم و باطن حكم القرآن ألا تراه كيف أتى بعده بصفات و نعوت لا يكون إلاّ للقرآن من قوله: لا تفنى غرايبه، أى آياته المحكمة و براهينه القاطعة، و لا تنقضى عجائبه، لأنّه مهما تأمّله الانسان استخرج منه بفكره غرايب و عجايب لم يكن عنده من قبل، فيه مرابيع النعم المرابيع سبب لظهور الكلاء، و كذلک تدبر القرآن سبب للنعم الدّينية و حصولها، قد أحمى حماه و أرعى مرعاه، أى عرض حمى القرآن و محارمه لأن يجتنب و عرض مرعاه لأن يرعى، أى يمكن من الانتفاع بما فيه من الزّواجر و المواعظ لأنه خاطبنا بلسان عربىّ مبين، و لم تقنع ببيان ما لا يعلم إلاّ بالشرع حتى نبّه فى أكثره على أدلّة العقل.

و قال الشارح البحرانى: ثمّ أخذ عليه السّلام فى إظهار منّة اللّه عليهم بالقرآن الكريم و تخصيصهم به من بين ساير الكتب و اعدادهم لقبوله من ساير الامم.

ثمّ نبّه على بعض أسباب إكرامه تعالى لهم به أمّا من جهة اسمه فلأنّه مشتق من السّلامة بالدّخول فى الطّاعة.

ص:190

و أمّا من جهة معناه فمن وجوه:

أحدها أنّه مجموع كرامة من اللّه لخلقه لأنّ مدار جميع آياته على هداية الخلق إلى سبيل اللّه القائدة إلى الجنّة الثّانى أنّ اللّه اصطفى منهجه و هو طريقته الواضحة المؤدّية للسّالكين بالسير إلى رضوان اللّه الثّالث أنّه بيّن حججه و هى الأدلّة و الأمارات و قسم الحجج إلى ظاهر علم و أشار به إلى ظواهر الشّريعة و أحكامها الفقهيّة و أدلّة تلك الأحكام، و باطن حكم و أشار به إلى ما يشتمل عليه الكتاب العزيز من الحكمة الالهية و أسرار التوحيد و علم الأخلاق و السياسات و غيرها الرابع أنّه لا تفنى عزائمه(1) و أراد بالعزائم هنا الآيات المحكمة و براهينه العازمة أى القاطعة، و عدم فنائها إشارة إمّا إلى ثباتها و استقرارها على طول المدّة و تغير الأعصار، و إمّا إلى كثرتها عند البحث و التفتيش عنها الخامس و لا تنقضى عجايبه، لأنّه كلّما تأمله الانسان استخرج منه بفكره لطايف معجبة من أنواع العلوم لم يكن عنده من قبل.

السادس فيه مرابيع النعم، استعار لفظ المرابيع لما يحصل عليه الانسان من النعم ببركة القرآن و لزوم أوامره و نواهيه و حكمه و آدابه أمّا فى الدّنيا فالنعم التى تحصل ببركته لحامليه من القرّاء و المفسّرين و غيرهم ظاهرة الكثرة، و أمّا بالنسبة إلى الآخرة فما يحصل عليه مقتبسو أنواره من الكمالات المعدّة فى الآخرة من العلوم و الاخلاق الفاضلة أعظم نعمة و أتمّ فضل السابع أنّ فيه مصابيح الظلم استعار لفظ المصابيح لقوانيته و قواعده الهادية إلى اللّه فى سبيله.

الثامنأنهلا يفتح الخيرات إلا بمفاتحه،أراد الخيرات الحقيقية الباقية و استعار لفظ المفاتح لمناهجه و طرقه الموصلة إلى تلك الخيرات.

ص:191

1- (1) هكذا فى شرح البحرانى و يستفاد منه أنّ الموجود فى نسخته عزائمه بدل غرائبه

التاسع و لا ينكشف الظّلمات إلاّ بمصابيحه أراد ظلمات الجهل و بالمصابيح قوانينه.

العاشرکونهقد أحمى حماه،استعار لفظ الحمى لحفظه و تدبّره و العمل بقوانينه، و وجه الاستعارة أنّ بذلک يکون حفظ الشّخص و حراسته أمّا فى الدّنيا فمن أيدى کثير من الظّالمين لاحترامهم حملة القرآن و مفسّريه و من يتعلّق به، و أمّا فى الآخرة فلحمايته حفظته و متدبّريه و العامل به من عذاب اللّه کما يحمى الحمى من يلوذ به، و نسبة الأحماء إليه مجاز.

الحادى عشرو کذلکأرعى مرعاهأى هيّأه لأن رعاه، و استعار لفظ المرعى للعلوم و الحکم و الآداب الّتى يشتمل عليه القرآن، و وجه المشابهة أنّ هذه مراعى النفوس الانسانيّة و غذائها الّذى به يکون نشوها العقلى و نماؤها الفعلى، کما أنّ المراعى المحسوسة من النّبات غذاء للأبدان الحيوانيّة الّتى بها يقوم وجودها.

الثّانيعشر فيه شفاء المشتفى، أى طالب الشّفاء منه أمّا فى الأبدان فبالتعوّذ به مع صدق النيّة فيه و سلامة الصّدور، و أمّا فى النّفوس فلشفائها به من أمراض الجهل.

الثالث عشر و کفاية المکتفى، أراد بالمکتفى طالب الکفاية أما من الدّنيا فلأنّ حملة القرآن الطالبين به المطالب الدّنيوية هم أقدر و أکثر الناس على الاحتيال به فى تحصيل مطالبهم و کفايتهم بها، و أمّا فى الآخرة فلأنّ طالب الکفاية منها يکفيه تدبّر القرآن و لزوم مقاصده فى تحصيل مطلوبه منها

تذييل

قد وعدناک تحقيق الکلام فى قوله عليه السّلام: لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفهم و عرفوه و لا يدخل النار إلاّ من أنکرهم و أنکروه، و قد تکلّم فيه الشارحان البحرانى

ص:192

و المعتزلی علی ما یقتضیه سلیقتهما و بلغا فیه غایة و سعهما و بذلا منتهی الجهد إلاّ أنّهما لقصور یدیهما عن أخبار العترة الأطهار الأطیاب لم یکشفا عن وجوه خرایده النّقاب، و خفی علیهما وجه التحقیق و مقتضی النّظر الدّقیق، فأحببت أن اشبع الکلام فی المقام، لکونه حقیقا بذلک مع الاشارة إلی بعض ما قاله الشّارحان الفاضلان، و ینبغی أن نورد أوّلا جملة من الرّوایات الموافقة معنی لکلامه علیه السّلام ثمّ نتبعها بالمقصود.

فأقول: و باللّه التّوفیق قال تعالی:

«وَ عَلَی الْأَعْرافِ رِجالٌ یَعْرِفُونَ کُلاًّ بِسِیماهُمْ » و للمفسّرین فی تفسیر الأعراف قولان:

أحدهما أنّها سور بین الجنّة و النّار أو شرفها و أعالیها، أو الصّراط فیکون مأخوذا من عرف الدّیک و ثانیهما أنّ علی معرفة أهل الجنّة و النّار رجال و الأخبار تدلّ علی التّفسیرین، و ربّما یظهر من بعضها أنّه جمع عریف کشریف و أشراف، فیکون مرادفا للعرفاء، فلا بدّ علی هذا التفسیر من التّقدیر أی علی طریق الأعراف رجال أو علی التجرید، هکذا قال العلاّمة المجلسی:

و هو انّما یستقیم إذا جعلنا الأعراف مأخوذا من المعرفة، و أمّا إذا کان جمعا لعریف فهذا التقدیر لا یرفع الاشکال، إذ یکون محصّل المعنی أنّ علی طریق عرفاء أهل الجنة و النّار رجال و الحال أنّ هذه الرّجال نفس الأعراف و العرفاء، فکیف یکونون علی طریق العرفاء، و التجرید أیضا غیر مستقیم کما لا یخفی فاللاّزم حینئذ جعل الأعراف فی الآیة بمعنی السّور، أو المواضع العالیة و نحوها، أو بمعنی المعرفة، و علی ذلک فلا ینافی وصف الرّجال بکونهم أعرافا أیضا کما فی الأخبار المتقدّمة و الآتیة، لکونهم عرفاء العباد أعنی أنّ کلاّ منهم عریف أو لکونهم عارفین باللّه، أو لأنّهم سبیل معرفة اللّه و نحو ذلک

قال فی الصّافی: و الوجه فی إطلاق لفظ الأعراف علی الأئمة أنّ الأعراف إن کان اشتقاقها من المعرفة فالأنبیاء و الأوصیاء هم العارفون و المعروفون و المعرّفون اللّه و النّاس للنّاس فی هذه النشأة، و إن کان من العرف بمعنی المکان العالی المرتفع فهم الّذین من فرط معرفتهم و شدّة بصیرتهم کأنّهم فی مکان عال مرتفع ینظرون إلی سایر النّاس فی درجاتهم و درکاتهم، و یمیزون السّعداء عن الأشقیاء علی معرفة منهم بهم و هم بعد فی هذه النشأة إذا ظهر لک ذلک فلنورد بعض ما ورد من الأخبار المناسبة للمقام فأقول: روی فی البحار من بصایر الدّرجات و منتخب البصایر معنعنا عن مقرن قال: سمعت أبا عبد اللّه علیه السّلام یقول: جاء ابن الکوا إلی أمیر المؤمنین علیه السّلام فقال: یا أمیر المؤمنین و علی الأعراف رجال یعرفون کلاّ بسیماهم، فقال علیه السّلام نحن الأعراف نعرف أنصارنا بسیماهم، و نحن الأعراف الّذین لا یعرف اللّه عزّ و جلّ إلاّ بسبیل معرفتنا، و نحن الأعراف یعرفنا «یوقفنا» اللّه عزّ و جلّ یوم القیامة علی الصّراط، فلا یدخل الجنّة إلاّ من عرفنا و نحن عرفناه، و لا یدخل النّار إلاّ من أنکرنا و أنکرناه، إنّ اللّه لو شاء لعرف العباد نفسه، و لکن جعلنا أبوابه و صراطه و سبیله و الوجه الذی یؤتی منه، فمن عدل عن ولایتنا أو فضّل علینا غیرنا فانّهم عن الصّراط لناکبون، و لا سواء من اعتصم النّاس به، و لا سواء من ذهب حیث ذهب النّاس، ذهب الناس إلی عیون کدرة(1) یفرغ بعضها فی بعض، و ذهب من ذهب إلینا إلی عیون صافیة تجری بامور لانفاد لها و لا انقطاع و فیه من البصایر و منتخب البصایر أیضا مرفوعا إلی الأصبغ بن نباتة عن سلمان الفارسی (ره) قال: اقسم باللّه لسمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو یقول لعلیّ علیه السّلام:

یا علیّ إنک و الأوصیاء من بعدی أو قال من بعدک أعراف لا یعرف اللّه إلاّ بسبیل معرفتکم و أعراف لا یدخل الجنّة إلاّ من عرفکم و عرفتموه، و لا یدخل النّار إلاّ من أنکرکم

1- (1) ای مکدرة بالشکوک و الشبهات و الجهالات، یفرغ ای یصب بعضها فی بعض کنایة عن أنّ کلاّ منهم یرجع إلی الآخر فیما یجهله و لیس فیهم من یستغنی عن غیره و یکمل فی علمه.

و أنكرتموه.

و فيه من الكتابين المذكورين عن المنبه عن الحسين بن علوان عن سعد بن طريف عن أبى جعفر عليه السّلام قال: سألته عن هذه الآية «و على الأعراف رجال يعرفون كلاّ بسيماهم» قال عليه السّلام: يا سعد آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفهم و عرفوه، و لا يدخل النّار إلاّ من أنكرهم و أنكروه، و أعراف لا يعرف اللّه إلاّ بسبيل معرفتهم و فيه من البصاير عن عبد اللّه بن عامر و ابن عيسى عن الجمال عن رجل عن نصر العطار قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعلىّ عليه السّلام: يا علىّ ثلاث اقسم أنّهنّ حقّ: إنّک و الأوصياء عرفاء لا يعرف اللّه إلاّ بسبيل معرفتكم، و عرفاء لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفكم و عرفتموه، و عرفاء لا يدخل النّار إلاّ من أنكركم و أنكرتموه و فى الصّافى من المجمع و الجوامع عن أمير المؤمنين عليه السّلام نحن نوقف يوم القيامة بين الجنّة و النّار، فمن ينصرنا عرفناه بسيماه فأدخلناه الجنّة، و من أبغضنا عرفناه بسيماه فأدخلناه النّار و من تفسير علىّ بن إبراهيم القمّى عن الصّادق عليه السّلام كلّ أمّة يحاسبها إمام زمانها و يعرف الأئمّة أوليائهم و أعدائهم بسيماهم، و هو قوله «و على الأعراف رجال يعرفون كلاّ بسيماهم» فيعطوا أوليائهم كتابهم بيمينهم فيمرّوا إلى الجنّة بلا حساب و يعطوا اعدائهم كتابهم بشمالهم فيمرّوا على النّار بلا حساب هذا، و الأخبار فى هذا المعنى كثيرة و فيما أوردناه كفاية إذا عرفت هذا فلنعد إلى تحقيق معنى قوله عليه السّلام: لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفهم و عرفوه، و لا يدخل النّار إلاّ من أنكرهم و أنكروه فأقول: أما القضية الاولى فالمراد بها معرفة النّاس بالولاية و الامامة، و معرفتهم للنّاس بالتّشيع و المحبّة، لا المعرفة بأعيانهم فقط، و إنّما لا يدخل الجنّة غير هؤلاء، لأنّ الاذعان بالولاية أعنى معرفة الأئمة حقّ المعرفة و الاعتقاد بامامتهم و بأنّهم مفترض الطاعة هو الرّكن الأعظم من الايمان، و شرط قبوليّة ساير الأعمال و العبادات، و بدونه لا ينتفع بشىء منها كما مرّ تحقيق ذلک و تفصيله

و دللنا علیه فی التّذنیب الثّالث من شرح الفصل الرّابع من الخطبة الاولی.

و یدلّ علیه أیضا الأخبار المتظافرة بل القریبة من التّواتر لو لم تکن متواترة الدّالة إلی أنّ من مات و لم یعرف إمامه مات میتة الجاهلیّة.

و من جملة تلک الأخبار ما فی البحار من کنز الکراجکی مسندا عن الحسن ابن عبد اللّه الرّازی عن أبیه عن علیّ بن موسی الرّضا عن آبائه عن أمیر المؤمنین علیهم السّلام قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من مات و لیس له إمام من ولدی مات میتة جاهلیّة یؤخذ بما عمل فی الجاهلیّة و الاسلام.

و من طریق العامّة عن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و قال:

من مات و لیس فی عنقه بیعة لامام أو لیس فی عنقه عهد لامام مات میتة جاهلیّة و من عیون أخبار الرّضا فیما کتب الرّضا علیه السّلام للمأمون من شرایع الدّین: من مات لا یعرف أئمّته مات میتة جاهلیّة ثمّ المراد بالمعرفة فی قوله علیه السّلام: إلاّ من عرفهم و عرفوه، هو المعرفة فی الدّنیا و فی الآخرة، أمّا معرفة النّاس بالأئمة فی هذه النشأة فبأن یعرفوا أنّ لکلّ زمان إماما و یعرفوا إمام زمانهم بخصوصه و هو حیّ ناطق یجب طاعته فیما یأمر و ینهی و أمّا معرفتهم بهم فی النشأة الآخرة فانّ کلّ امّة تدعی مع امامه قال تعالی:

«یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ فَأُولئِکَ یَقْرَؤُنَ کِتابَهُمْ وَ لا یُظْلَمُونَ فَتِیلاً ».

روی فی البحار من تفسیر علیّ بن إبراهیم بسنده عن الفضل عن أبی جعفر علیه السّلام فی هذه الآیة قال: یجیء رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فی قرنه، و علیّ علیه السّلام فی قرنه، و الحسن فی قرنه، و الحسین فی قرنه، و کلّ من مات بین ظهرانیّ قوم جاءوا معه، و قال علیّ ابن إبراهیم فی هذه الآیة ذلک یوم القیامة ینادی مناد لیقم أبو بکر و شیعته، و عمر و شیعته، و عثمان و شیعته، و علیّ علیه السّلام و شیعته، و قد مرّ فی شرح الفصل الثالث من الخطبة السّادسة و الثّمانین الحدیث الشّریف النّبوی فی ورود الامّة علی النّبیّ

يوم القيامة على خمس رايات، و أنّ الرّاية الخامسة مع أمير المؤمنين عليه السّلام و معه شيعته، فليتذكّر.

و فى البحار من أمالى الشّيخ بسنده عن كثير بن طارق قال سألت زيد بن علىّ بن الحسين عليهم السّلام عن قول اللّه تعالى:

«لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً ».

فقال: يا كثير إنّك رجل صالح و لست بمتّهم و إنّى أخاف عليك أن تهلك أنّ كلّ إمام جائر فان أتباعهم إذا أمر بهم إلى النّار نادوا باسمه فقالوا يا فلان يا من أهلكناهم «كذا» الآن فخلصنا ممّا نحن فيه، ثمّ يدعون بالويل و الثّبور فعندها يقال لهم «لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا و ادعوا ثبورا كثيرا» قال زيد بن علىّ رحمه اللّه: حدّثنى أبى علىّ بن الحسين عن أبيه حسين بن علىّ عليهما السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعلىّ عليه السّلام يا علىّ أنت و أصحابك فى الجنّة أنت و أتباعك يا علىّ فى الجنّة، هذا و بما ذكرناه من أنّ المراد بمعرفة الأئمة عليهم السّلام معرفتهم بالولاية و الامامة لا المعرفة بأعيانهم فقط ظهر لك أنّ هذه المعرفة مخصوصة بالفرقة المحقّة الاماميّة لا توجد فى غيرهم.

فما حكاه الشّارح المعتزلى من أصحابه المعتزلة من أنّهم قائلون بصحة هذه القضيّة، و هى أنّه لا يدخل الجنّة إلاّ من عرف الأئمة ألا ترى أنّهم يقولون الأئمة بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلان و فلان و يعدّوهم واحدا واحدا، فلو أنّ انسانا لا يقول بذلك لكان عندهم فاسقا و الفاسق عندهم لا يدخل الجنّة أبدا أعنى من مات على فسقه، فقد ثبت أنّ هذه القضيّة و هى قوله عليه السّلام: لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفهم قضيّة صحيحة على مذهب المعتزلة انتهى فيه ما لا يخفى إذ مجرّد معرفتهم و تعدادهم واحدا واحدا لا يكفى فى دخول الجنّة و لا يترتّب عليها ثمرة أصلا، و إنّما اللاّزم معرفتهم بوصف الامامة و الخلافة من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلا فصل، و أنّ العصر لا يخلو من إمام إمّا ظاهر مشهور أو

غائب مستور و إنّ امام زماننا الآن حىّ حاضر موجود و إن كان غايبا عن أعيننا، لاقتضاء الحكمة و هو الثّانى عشر من الأئمة و مهدى الامّة سلام اللّه عليه و على آبائه الطاهرين، و هو ينافى القول بخلافة الأوّل و الثّانى و الثّالث كما هو مذهب المعتزلة و ساير العامّة، و ينافى إنكار وجود امام الزّمان عليه السّلام الآن كما عليه بنائهم استبعادا لغيبته بطول المدّة و الزّمان، هذا تمام الكلام فى معرفة النّاس بالأئمة و أمّا معرفتهم عليهم السّلام بالنّاس فقد قلنا إنّ المراد بها أيضا معرفتهم لهم بالتّشيّع و المحبّة، لا المعرفة بذواتهم و أشخاصهم فقط و إلاّ فهم يعرفون المنافقين و الكفّار كما يعرفون شيعتهم و المؤمنين الأبرار فان قلت: نحن نرى كثيرا من شيعتهم و محبّيهم لا تعرفهم الأئمّة و لا يرون أشخاصهم.

قلت: هذا اعتراض سخيف أورده الشّارح البحرانى فى هذا المقام، و أجاب عنه بقوله: لا يشترط فى معرفتهم لمحبّيهم و معرفة محبّيهم لهم المعرفة الشّخصيّة العينيّة، بل الشّرط المعرفة على وجه كلّى و هو أن يعلموا أنّ كلّ من اعتقد حقّ امامتهم و اهتدى بما انتشر من هديهم فهو ولىّ لهم و مقيم لهذا الرّكن من الدّين فيكونون عارفين بمن يتولاّهم على هذا الوجه و يكون من يتولاّهم عارفا بهم لمعرفته بحقّية ولايتهم و اعتقاد ما يقولون و إن لم يشترط المشاهدة و المعرفة الشّخصيّة انتهى.

و لا يكاد ينقضى عجبى من هذا الفاضل كيف ضعف اعتقاده بأئمّة الدّين و شهداء النّاس أجمعين، و هذه العقيدة لا يرتضيها عوام الشّيعة و لا يستحسنها لأنفسهم لو عرضت عليهم، فكيف بالخواص و كيف يجتمع القول بعدم المعرفة الشّخصيّة مع القول بكونهم عليهم السّلام شهداء العباد يوم المعاد على ما دلّت عليه الأخبار الكثيرة المتقدّمة فى شرح الخطبة الحادية و السّبعين و الشّهادة فرع المعرفة التّفصيليّة بلى و اللّه إنّهم عليهم السّلام ليعرفون شيعتهم و محبّيهم و المؤمنين بهم تفصيلا بأشخاصهم و ذواتهم و أعيانهم، و يعرفون حالاتهم و درجاتهم و التفاوت فى مقاماتهم و درجاتهم

بحسب تفاوتهم فی الایمان و المحبّة شدّة و ضعفا و نقصا و کمالا کما یعرفونهم بأسمائهم و أسماء آبائهم و عشایرهم و أنسابهم کلّ ذلک قد قامت علیه الأدلّة المعتبرة.

و دلّت علیه الأخبار القریبة من التواتر بل هی متواترة منها ما فی البحار من کتاب بصائر الدّرجات للصفار عن أحمد بن محمّد عن ابن محبوب عن صالح بن سهل عن أبی عبد اللّه علیه السّلام أنّ رجلا جاء إلی أمیر المؤمنین علیه السّلام و هو مع أصحابه فسلّم ثمّ قال: أنا و اللّه أحبّک و أتولاّک، فقال له أمیر المؤمنین علیه السّلام: ما أنت کما قلت ویلک إنّ اللّه خلق الأرواح قبل الأبدان بألفی عام، ثمّ عرض علینا المحبّ لنا فو اللّه ما رأیت روحک فیمن عرض علینا فأین کنت؟ فسکت الرّجل عند ذلک و لم یراجعه و عن محمّد بن حمّاد الکوفی عن أبیه عن نصر بن مزاحم عن عمرو بن شمر عن جابر عن أبی جعفر علیه السّلام قال: إنّ اللّه أخذ میثاق شیعتنا من صلب آدم فنعرف بذلک حبّ المحبّ و إن أظهر خلاف ذلک بلسانه، و نعرف بغض المبغض و إن أظهر حبّنا أهل البیت و عن أحمد بن محمّد و محمّد بن الحسین معا عن ابن محبوب عن ابن رئاب عن بکیر قال: کان أبو جعفر علیه السّلام یقول: إنّ اللّه أخذ میثاق شیعتنا بالولایة لنا و هم ذرّ یوم أخذ المیثاق علی الذّر بالاقرار له بالرّبوبیّة و لمحمّد صلّی اللّه علیه و آله بالنبوّة و عرض اللّه علی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم امّته فی الطّین و هم أظلّة، و خلقهم من الطّینة الّتی خلق منها آدم، و خلق اللّه أرواح شیعتنا قبل أبدانهم بألفی عام، و عرضهم علیه و عرّفهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و عرّفهم علیّا و نحن نعرفهم فی لحن(1) القول و عن ابن یزید عن ابن فضال عن ظریف بن ناصح و غیره عمّن رواه عن حبابة الوالبیة قالت: قلت لأبی عبد اللّه علیه السّلام: إنّ لی ابن أخ و هو یعرف فضلکم و إنی احبّ

1- (1) اشارة الی قوله تعالی: «فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِیماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِی لَحْنِ الْقَوْلِ»، قال البیضاوی لحن القول اسلوبه و امالته الی جهة تعریض و توریة، و منه قیل للمخطی لاحن لانه یعدل بالکلام عن الصواب، بحار

أن تعلّمنى أ من شيعتكم؟ فقال: و ما اسمه؟ قالت: قلت: فلان بن فلان، فقال عليه السّلام يا فلانة هات الناموس فجاءت بصحيفة تحملها كبيرة فنشرها ثمّ نظر فيها فقال: هو ذا اسمه و اسم أبيه ههنا و بسنده أيضا عن أبى بصير عن أبى عبد اللّه عليه السّلام إنّ حبابة الوالبية كانت إذا وفد الناس إلى معاوية وفدت هى إلى الحسين عليه السّلام و كانت امرأة شديدة الاجتهاد قد يبس جلدها على بطنها من العبادة و أنّها خرجت مرّة و معها ابن عمّ لها و هو غلام فدخلت به على الحسين عليه السّلام فقالت له: جعلت فداك فانظر هل تجد ابن عمّى هذا فيما عندكم و هل تجده ناجيا؟ قال: فقال: نعم نجده عندنا و نجده ناجيا و بسنده عن أبى محمّد البزّاز قال: حدّثنى حذيفة بن أسيد الغفارى «رض» صاحب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: دخلت على علىّ بن الحسين بن علىّ عليهم السّلام فرأيته يحمل شيئا قلت: ما هذا؟ قال: هذا ديوان شيعتنا، قلت: أرنى أنظر فيها اسمى، فقلت إنّى لست أقرء و انّ ابن أخى يقرأ، فدعى بكتاب فنظر فيه فقال ابن اخى: اسمى و ربّ الكعبة، قلت: ويلك أين اسمى؟ فنظر فوجد اسمى بعد اسمه بثمانية أسماء و عن أحمد بن محمّد عن علىّ بن الحكم عن ابن عميرة عن الحضرمى عن رجل من بنى حنيفة قال: كنت مع عمّى فدخل على علىّ بن الحسين عليهما السّلام فرأى بين يديه صحايف ينظر فيها فقال له: أىّ شىء هذه الصّحف جعلت فداك؟ قال: هذا ديوان شيعتنا قال: أ فتأذن أطلب اسمى فيها؟ قال: نعم، فقال: و انّى لست أقرء و ابن اخى معى على الباب فتأذن له يدخل حتّى يقرأ؟ قال: نعم فأدخلنى عمّى فنظرت فى الكتاب فأوّل شىء هجمت عليه اسمى فقلت: اسمى و ربّ الكعبة؟ قال:

ويحك فأين أنا؟ فجزت بخمسة أسماء أو ستّة ثمّ وجدت اسم عمّى، فقال علىّ بن الحسين عليهما السّلام: أخذ اللّه ميثاقهم معنا على ولايتنا لا يزيدون و لا ينقصون إنّ اللّه خلقنا من أعلى علّيين و خلق شيعتنا من طينتنا أسفل من ذلك، و خلق عدوّنا من سجّين، و خلق أوليائهم منهم من أسفل ذلك و عن عبد اللّه بن محمّد عمّن رواه عن محمّد بن الحسن عن عمّه علىّ بن السّرى

الكرخى قال: كنت عند أبى عبد اللّه عليه السّلام فدخل عليه شيخ و معه ابنه فقال له الشّيخ جعلت فداك أمن شيعتكم أنا؟ فأخرج أبو عبد اللّه عليه السّلام صحيفة مثل فخذ البعير فناوله طرفها ثمّ قال له: أدرج، فأدرجه حتّى أوقفه على حروف من حروف المعجم فاذا اسم ابنه قبل اسمه، فصاح الابن فرحا اسمى و اللّه، فرحم الشّيخ ثمّ قال له: أدرج فأدرج فأوقفه أيضا على اسمه كذلک و عن محمّد بن عيسى عن عبد الصّمد بن بشير عن أبى جعفر عليه السّلام قال: انتهى النّبى إلى السّماء السّابعة و انتهى إلى سدرة المنتهى قال: فقالت السّدرة ما جازنى مخلوق قبلک، ثمّ دنى فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى قال: فدفع إليه كتاب أصحاب اليمين و كتاب أصحاب الشّمال، فأخذ كتاب أصحاب اليمين بيمينه و فتحه و نظر فيه فاذا فيه أسماء أهل الجنّة و أسماء آبائهم و قبائلهم، ثمّ نزل و معه الصحيفتان فدفعهما إلى علىّ بن أبى طالب عليه السّلام و فى البحار من كتاب الاختصاص معنعنا عن عبد اللّه بن الفضل الهاشمى قال قال لى أبو عبد اللّه عليه السّلام: يا عبد اللّه بن الفضل إنّ اللّه تبارک و تعالى خلقنا من نور عظمته، و صنعنا برحمته و خلق أرواحكم منّا، فنحن نحنّ إليكم و أنتم تحنّون إلينا، و اللّه لو جهد أهل المشرق و المغرب أن يزيدوا فى شيعتنا رجلا ـ أو ينقصوا منهم رجلا ما قدروا على ذلک، و إنّهم لمكتوبون عندنا بأسمائهم و عشايرهم و أنسابهم، يا عبد اللّه بن الفضل و لو شئت لأريتک اسمک فى صحيفتنا قال: ثمّ دعى الصحيفة فنشرها فوجدتها بيضاء ليس فيها أثر الكتابة فقلت: يا ابن رسول اللّه ما أرى فيها أثر الكتابة، قال:

فمسح يده عليها فوجدتها مكتوبة فوجدت فى أسفلها اسمى، فسجدت اللّه شكرا، هذا و الأخبار فى هذا الغرض كثيرة و قد عقد فى البحار بابا عليها و فيما رويناه كفاية إنشاء اللّه عزّ و جلّ و أمّا القضية الثانية أعنى قوله عليه السّلام: و لا يدخل النّار إلاّ من أنكرهم و أنكروه، فهى لتضمّنها أداة الحصر منحلّة إلى قضيّتين كالقضيّة الاولى إحداهما ايجابيّة و الأخرى سلبيّة

أمّا الايجابيّة فهى أنّ المنكر لهم و من أنكروه فى النّار، و هذه قضيّة صحيحة لا غبار عليها لما قدّمنا من أنّ من مات و لم يعرف إمام زمانه مات ميته الجاهليّة، و ميتة الجاهليّة مستلزمة لدخول النار، و قد مرّ فى التذييل الثالث من شرح الفصل الرّابع من الخطبة الأولى رواية جعفر بن محمّد عليهما السّلام عن أبيه قال: نزل جبرئيل على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال: يا محمّد اللّه يقرؤک السلام و يقول: خلقت السماوات السبع و ما فيهنّ و خلقت الأرضين السبع و من عليهنّ، و ما خلقت موضعا أعظم من الركن و المقام، و لو أنّ عبدا دعانى منذ خلقت السماوات و الأرض ثمّ لقينى جاحدا لولاية علىّ عليه السّلام لأكببته فى سقر، و قد مرّ هناک روايات أخر بهذا المعنى فتذكّر و أمّا السلبيّة فهى أنّ من لا ينكرهم و لا ينكرونه فهو لا يدخل النار، و هى بظاهرها مستلزمة لعدم دخول أحد من غير المنكرين فى النار و إن كان من مرتكبى الكبائر.

و قد أخذ الشارح البحرانى بظاهرها حيث قال: لا يجوز أن يكون من أنكرهم فأنكروه أخسّ ممن يدخل النّار و إلاّ لصدق على بعض من يتولاّهم و يعترف بصدق إمامتهم أنه يدخل النار لكن ذلک باطل لقول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يحشر المرء مع من أحبّ، و لقوله لو أحبّ رجل حجرا لحشر معه، دلّ الخبر على أنّ محبّة الانسان لغيره مستلزم لحشره معه، و قد ثبت أنهم عليهم السّلام إلى الجنّة يحشرون فكذلک من أحبّهم و يعترف بحقيّة إمامتهم، و دخول الجنّة و دخول النار ممّا لا يجتمعان، فثبت أنّه لا واحد ممّن يحبّهم و يعترف بحقّهم يدخل النّار، و قد ظهر إذا صدق هذه الكليّة و وجه الحصر فيها، انتهى أقول: و يصدق هذه الكلّية و يدلّ عليها روايات كثيرة فوق حدّ الاحصاء:

ففى البحار من كتاب فضايل الشّيعة للصّدوق باسناده عن ابن عبّاس قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: حبّ علىّ بن أبى طالب عليه السّلام يأكل السيّئات كما تأكل النّار الحطب.

و من كنز جامع الفوايد و تأويل الآيات قال: روى شيخ الطّايفة باسناده

عن زيد بن يونس الشّحام قال: قلت لأبى الحسن موسى عليه السّلام، الرّجل من مواليكم عاص يشرب الخمر و يرتكب الموبق من الذّنب نتبرّء منه؟ فقال عليه السّلام: تبرّؤا من فعله و لا تبرّؤا من خيره و ابغضوا عمله، فقلت: يسع لنا أن نقول: فاسق فاجر؟ فقال: لا الفاسق الفاجر الكافر الجاحد لنا و لأوليائنا أبى اللّه أن يكون وليّنا فاسقا فاجرا و إن عمل ما عمل، و لكنّكم قولوا: فاسق العمل فاجر العمل مؤمن النّفس خبيث الفعل طيّب الرّوح و البدن، لا و اللّه لا يخرج وليّنا من الدّنيا إلاّ اللّه و رسوله و نحن عنه راضون، يحشر اللّه على ما فيه من الذّنوب مبيضّا وجهه، مستورة عورته، آمنة روعته لا خوف عليه و لا حزن، و ذلک أنّه لا يخرج من الدّنيا حتى يصفى من الذّنوب إمّا بمصيبة فى مال أو نفس أو ولد أو مرض و أدنى ما يصنع بوليّنا أن يريه اللّه رؤيا مهولة فيصبح حزينا لما رآه فيكون ذلک كفّارة له، أو خوفا يرد عليه من أهل دولة الباطل أو يشدّد عليه عند الموت فيلقى اللّه عزّ و جلّ طاهرا من الذّنوب آمنة روعته بمحمّد و أمير المؤمنين صلّى اللّه عليهما، ثمّ يكون أمامه أحد الأمرين إمّا رحمة اللّه الواسعة الّتى هى أوسع من أهل الأرض جميعا، أو شفاعة محمّد و أمير المؤمنين عليهما السّلام فعندها تصيبه رحمة اللّه الواسعة الّتى كان أحقّ بها و أهلها و له إحسانها و فضلها.

و من كتاب المحتضر للحسن بن سليمان من كتاب سيّد حسن بن كبش عن ابن عبّاس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا علىّ إنّ جبرئيل أخبرنى عنک بأمر قرّت به عينى و فرح به قلبى، قال: يا محمّد قال اللّه عزّ و جلّ: اقرء محمّدا منّى السّلام و أعلمه أنّ عليّا إمام الهدى، و مصباح الدّجى، و الحجّة على أهل الدّنيا، و أنّه الصّديق الأكبر و الفاروق الأعظم، و إنّى آليت و عزّتى و جلالى أن لا أدخل النّار أحدا تولاّه و سلّم له و للأوصياء من بعده، حقّ القول منّى لأملانّ جهنّم و أطباقها من أعدائه، و لأملئنّ الجنّة من أوليائه و شيعته و من كتاب اعلام الدّين للدّيلمى من كتاب الحسين بن سعيد عن صفوان عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: من أحبّنا و لقى اللّه و عليه مثل زبد البحر ذنوبا كان حقّا

على اللّه أن يغفر له.

و من كتاب المناقب لابن شاذان باسناده عن أبى الصّلت الهروى قال: سمعت الرّضا عليه السّلام يحدّث عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السّلام قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله يقول: سمعت اللّه عزّ و جلّ يقول: علىّ بن أبى طالب حجّتى على خلقى و نورى فى بلادى و أمينى على علمى لا أدخل النّار من عرفه و إن عصانى، و لا أدخل الجنّة من أنكره و إن أطاعنى.

و من كتاب بشارة المصطفى بسنده عن الحسين بن مصعب قال: سمعت جعفر بن محمّد عليه السّلام يقول: من أحبّنا و أحبّ محبّنا لا لغرض دنيا يصيبها منه، و عادى عدوّنا لا لأحنة كانت بينه و بينه، ثمّ جاء يوم القيامة و عليه من الذّنوب مثل رمل عالج و زبد البحر غفر اللّه تعالى له.

و من تفسير العياشى عن بريد بن معاوية العجلى فى حديث عن أبى جعفر عليه السّلام قال: فقال أبو جعفر عليه السّلام: و اللّه لو أحبّنا حجر لحشر معنا.

و من عيون الأخبار باسناد التّميمى عن الرّضا عليه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من أحبّنا أهل البيت حشره اللّه آمنا يوم القيامة.

و بهذا الاسناد قال: قال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعلىّ عليه السّلام من أحبّك كان مع النّبيين فى درجتهم يوم القيامة و من مات و هو يبغضك فلا يبالى مات يهوديّا أو نصرانيّا.

و من أمالى الشّيخ عن أبى محمّد الفحّام عن عمّه عن أبيه قال: دخل سماعة بن مهران على الصّادق عليه السّلام فقال: يا سماعة من شرّ النّاس عند النّاس؟ قال: نحن يا ابن رسول اللّه، قال: فغضب حتّى احمرّت و جنتاه ثمّ استوى جالسا و كان متّكئا فقال يا سماعة من شرّ النّاس عند النّاس؟ فقلت: و اللّه ما كذبتك يا ابن رسول اللّه نحن شرّ النّاس عند الناس لأنّهم سمّونا كفارا و رفضة، فنظر إلىّ ثمّ قال: كيف بكم إذا سيق بكم إلى الجنّة و سيق بهم إلى النّار فينظرون إليكم فيقولون «ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنّا نَعُدُّهُمْ مِنَ اَلْأَشْرارِ » يا سماعة بن مهران إنّه من أساء منكم إسائة مشينا إلى اللّه تعالى يوم القيامة بأقدامنا فنشفع فيه فنشفّع و اللّه لا يدخل النّار منكم عشرة رجال، و اللّه لا

يدخل النّار منكم ثلاثة رجال، و اللّه لا يدخل النّار منكم رجل واحد، فتنافسوا فى الدّرجات و اكمدوا أعدائكم بالورع.

و من كتاب كنز جامع الفوايد و تأويل الآيات عن محمّد بن علىّ عن عمرو بن عثمان عن عمران عن أبى بصير عن أبى عبد اللّه عليه السّلام فى قول اللّه عزّ و جلّ:

«يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ».

فقال: إنّ اللّه يغفر لكم جميعا الذّنوب، قال: فقلت: ليس هكذا نقرأ، فقال: يا أبا محمّد فاذا غفر الذّنوب جميعا فلمن يعذّب و اللّه ما عنى من عباده غيرنا و غير شيعتنا و ما نزلت إلاّ هكذا إنّ اللّه يغفر لكم جميعا الذّنوب.

و من تفسير العياشى بالاسناد عن جابر عن أبى عبد اللّه عليه السّلام أنّه قال: أهل النّار يقولون «ما لنا لا نرى رجالا كنّا نعدّهم من الأشرار» يعنونكم لا يرونكم فى النّار لا يرون و اللّه أحدا منكم فى النّار.

و فى تفسير علىّ بن إبراهيم فى قوله تعالى:

«فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ » قال منكم يعنى من الشّيعة «إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ » قال معناه أنّ من تولّى أمير المؤمنين عليه السّلام و تبرّء من أعدائه عليهم لعائن اللّه و أحلّ حلاله و حرّم حرامه ثمّ دخل فى الذنوب و لم يتب فى الدّنيا عذّب لها فى البرزخ و يخرج يوم القيامة و ليس له ذنب يسأل عنه يوم القيامة.

و فى الصافى من المجمع عن الرّضا عليه السّلام قال فى هذه الآية: إنّ من اعتقد الحقّ ثمّ أذنب و لم يتب فى الدّنيا عذّب عليه فى البرزخ و يخرج يوم القيامة و ليس له ذنب يسأل عنه.

إلى غير هذه مما لا نطيل بذكرها، و هذه الأخبار كما ترى تعارض الأخبار الواردة فى كون مرتكبى الكبائر فى النار تعارض العموم من وجه، لأنّ هذه

تـدلّ على أنّ العارف بحقّ الأئمـة عليهم السّـلام و المـذعن بولايتهم لا يـدخل النار و إن كان مرتكبا للكبائر، و تلك الأخبار مفيدة لكون ارتكابها موجبا لـدخول النار و لو كان المرتكب من أهل الولايـة و المعرفة، فيتعارضان فى مادّة الاجتماع، و هو العارف المرتكب للكبائر، فان رجّحنا أخبار الكبائر و ألقيناها على عمومها لا بـدّ من حمل هذه الأخبار الدّالة على أنّ العارف بهم لا يدخل النار على الدّخول بعنوان الخلود لظهور أنّ الخلود إنما هو فى حقّ الكفار و المنافقين، و إن رجّحنا تلك الأخبار فلا بـدّ من التخصـيص فى الأخبار الواردة فى طرف الكبائر بحملها على غير أهل المحبّة و المعرفة.

و لو لا خوف الاحتياط و ايجاب الترجيح للجسارة فى الدّين و لعدم المبالات فى شـرع سـيّد المرسلين لرجّحنا أخبار الولاية و قلنا بما قاله الشارح البحرانى بل أقول إنه لا تعارض بين أخبار الطرفين حقيقـة إذ أخبار الولايـة حاكمة على أخبار الكبائر، بل نسـبة بعض الأخبار الأولة إلى الثّانيـة مثل نسـبة الـدّليل إلى الأصل، فانّ بعض هـذه الأخبار كما عرفت مفيـد لكون المعرفـة حابطـة للسـيئات و آكلـة لها أكل النار للحطب، و بعضها دالّ على أنّ أهل المعرفة يبتلى بمحن و مصائب يكون تمحيصا لذنوبه و كفارة لها، فعلى ذلك لا يبقى للعاصى معصية حتى توجب دخول النّار، و بعضـها يفيد كون الولاية موجبة لمغفرة الذّنوب من اللّه سبحانه تفضّلا أو كونها محصلة للشفاعة من النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة عليهم السّلام يوم القيامة.

نعم يبقى الاشكال بين هذه الأخبار و بين الأخبار الدّالّة على حصول الشفاعة لبعض مرتكبى السيّئات بعد دخول النّار و المكث فيها بزمان قليل أو كثير بحسب اختلاف مراتب المعصـية، و هى أيضا كثيرة و طريق الاحتياط هو الوقوف بين مرتبتى الخوف و الرّجاء و الورع و التّقوى فى الدّين و سلوك نهج الشّرع المبين، وفّقنا اللّه سبحانه لما يحبّ و يرضى و نسأله أن يعاملنا بفضله و لا يؤاخذنا بعد له إنّه لما يشاء قدير، و بالاجابة حقيق جدير.

ص:206

الترجمة

از جمله فصلهای آن خطبه است که بعد از قتل عثمان و انتقال أمر خلافت بآن برج فلک امامت فرموده که:

بتحقیق طلوع کرد طلوع کننده و درخشید درخشنده و ظاهر شد ظاهر شونده که عبارتست از ظهور شمس خلافت از مطلع خود که وجود مسعود آن بزرگوار است، و مستقیم و معتدل شد چیزی که منحرف شده بود از ارکان دین، و بدل کرد حق سبحانه و تعالی بقومی که از أهل باطل بودند قومی را از اهل حق، و بروزی که پر از جور و بدعت بود روزی را که ظاهر شد در آن انصاف و عدالت، و منتظر بودیم ما تغیرات روزگار را مثل انتظار کشیدن قحطی رسیده بباران.

و جز این نیست که أئمه طاهرین سلام اللّه علیهم أجمعین قائمین خدا هستند بر مخلوق او و شناساندگان اویند بر بندگان او و داخل نمی شود در بهشت عنبر سرشت مگر کسی که بشناسد أئمه را و أئمه علیهم السّلام او را بشناسند، و داخل نمی شود در آتش سوزان مگر کسی که نشناسد ایشان را و ایشان او را نشناسند.

بدرستی که خداوند متعال مختصّ نمود شما را باسلام و خالص گردانید شما را از برای آن اسلام، و این از جهت آنست که اسلام نام سلامتست و جامع کرامت، پسندیده است خدا از برای شما طریق اسلام را، و بیان فرموده است دلائل آن را از علمی که ظاهر است از کتاب و سنّت، و از حکمتی که باطن است از عقل و فطرت، فانی نمی شود غرائب آن و تمام نمی شود عجائب آن، در اوست بارانهای بهاری، و چراغهای ظلمتها، گشاده نمی شود خیرها مگر با کلیدهای آن، و کشف نمی شود ظلمتها مگر بچراغهای آن.

بتحقیق که منع فرمود قوروق اسلام را که عبارتست از محرّمات شرعیّه، و مرخّص نمود چراگاه آنرا که عبارتست از مباحات بینه، در اوست شفای طلب شفا کننده، و کفایت طلب کفایت نماینده.

ص:207

الفصل الثالث و الرابع منها

اشارة

و هو فى مهلـة من اللّه يهوى مع الغافلين، و يغـدو مع المذنبين، بلا سبيل قاصد، و لا إمام قائد. الفصل الرابع منها حتّى إذا كشف لهم عن جزاء معصـيتهم، و استخرجهم من جلابيب غفلتهم، استقبلوا مدبرا، و استدبروا مقبلا، فلم ينتفعوا بما أدركوا من طلبتهم، و لا بما قضوا من وطرهـم، و إنّى أحذّركم و نفسـى هذه المنزلة، فلينتفع امرء بنفسه، فإنّما البصير من سمع فتفكّر، و نظر فأبصر، و انتفع بالعبر، ثمّ سلك جددا واضـحا، يتجنّب فيه الصـرّعة فى المهـاوى، و الضّـلال فى المغـاوى، و لاـ يعين على نفسه الغـواة بتعسّف فى حقّ، أو تحريف فى نطق، أو تخوّف من صـدق، فأفق أيّها السّامع من سـكرتک، و استيقظ من غفلتک، و اختصـر من عجلتک، و أنعم الفكر فيما جاءک على لسان النّبىّ الأمّىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم ممّا لا بدّ منه، و لا محيص عنه، و خالف من خالف فى ذلک إلى غيره، و دعه و ما رضـى لنفسه، و ضع فخرک، و احطط كبرک،

ص:208

و اذكر قبرک، فإنّ عليه ممرّک، و كما تدين تدان، و كما تزرع تحصد، و ما قدّمت اليوم تقدّم عليه غدا، فامهد لقدمک، و قدّم ليومک، فالحذر الحذر أيّها المستمع، و الجدّ الجدّ أيّها الغافل، «و لا ينبّئک مثل خبير» إنّ من عزائم اللّه فى الذّكر الحكيم الّتى عليها يثيب و يعاقب، و لها يرضى و يسخط، أنّه لا ينفع عبدا و إن أجهد نفسه و أخلص فعله، أن يخرج من الدّنيا لاقيا ربّه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها أن يشرک باللّه فيما افترض عليه من عبادته، أو يشفى غيظه بهلاک نفسه، أو يقرّ بأمر فعله غيره، أو يستنجح حاجة إلى النّاس باظهار بدعة فى دينه، أو يلقى النّاس بوجهين، أو يمشى فيهم بلسانين، اعقل ذلک فإنّ المثل دليل على شبهه، إنّ البهائم همّها بطونها، و إنّ السّباع همّها العدوان على غيرها، و إنّ النّسآء همّهنّ زينة الحياة الدّنيا و الفساد فيها، إنّ المؤمنين مستكينون، إنّ المؤمنين مشفقون، إنّ المؤمنين خائفون.

اللغة

(هوى) يهوى من باب ضرب هويا بالضمّ و الفتح و هواء بالمدّ سقط من أعلى إلى أسفل و (الجلباب) ما يغطى به من ثوب و غيره و قيل ثوب أوسع من الخمار و دون الرّداء و (الطلبة) بالكسر اسم كالطّلب محرّكة و (الجدد) محرّكة

ص:209

ما أشـرق من الرّمل و الأرض الغليظـة المسـتوية و بالضمّ جمع جدّة كغرف و غرفة و هو الطريق و (الصّـرعة) بالفتح الطّرح على الأرض و (المهـاوى) جمع المهواة و هو بفتـح الميم مـا بين الجبلين و قيـل الحفرة و قيـل الوهـدة العميقـة و (المغـاوى) جمع المغوة قـال الشّارح المعتزلى: و هى الشّبهة التى يغوى بها الانسان أى يضلّ و (الغواة) جمع غاو من غوى غيّا انهمک فى الجهل و ضلّ و (استنجح) الحاجة و تنجّحها تنجزّها و استقضاها

الاعراب

جملـة يهوى حال من فاعل الظّرف، و قوله: بتعسّف، متعلّق بقوله يعين، و قوله: الحذر الحذر و الجدّ الجدّ، منصوبات على الاغراء، و قوله: و لا ينبّئک مثل خبير، مثل صـفة لمحـذوف و كـذلک خبير أى لا ينبّئک منبىء مثل امرء خبير، و قوله: انّه لا ينفع عبدا، اسم إنّ على تأويله بالمصدر أى إنّ من عزائمه تعالى عدم نفع عبد، و قوله:

أن يخرج، فاعل ينفع، و قوله: ان يشرک بدل من خصلة أو من هذه الخصال فتكون أو فى الجملات المعطوفة بعدها بمعنى الواو، و جملة إنّ البهايم استيناف بيانىّ، و كذلک جملة إنّ المؤمنين آه

المعنى

اشارة

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السّلام متضمّن لفصلين اما الفصل الاول فقد قال الشّارح المعتزلى و غيره: انّه يصف فيه انسانا من أهل الضّـلال غير معيّن كقوله عليه السّـلام: رحم اللّه امرء اتّقى ربّه و خاف ذنبه أقول: و هو إنّما يتمّ لو علم بعدم سبق ذكر مرجع للضّمير الآتى أعنى قوله:

هو، فى كلامه عليه السّـلام حذفه السيّد على ديدنه فى الكتاب، و أمّا على تقدير سبقه و حذفه كما هو الأظهر فى النّسخ الّتى فيها عنوان هذا الفصل بقوله (منها) بل الظّاهر أيضا فى نسـخة الشّارح المعتزلى الّتى عنوانه فيها بمن خطبـة له عليه السّـلام فلا و كيف كان فقوله (و هو فى مهلة من اللّه يهوى مع الغافلين) أراد أنّ اللّه سبحانه أمدّ فى عمره و أمهله و أخّر أجله و كان ذلک سببا لغفلته فهو يسقط و يتردّى من

درجة الكمال و السّلامة فى مهابط الهلاک و مهوات الغفلة و ينخرط فى سلک ساير الجهّال و الغافلين(و يغدو مع المذنبين)أى يصبح معهم و هو كناية عن موافقته لهم و ملازمته إيّاهم فى ارتكاب المعاصى و انهماک الآثام و الذّنوب (بلا سبيل قاصد و لا إمام قائد) أى من دون أن يسلک سبيلا مستقيما يوصله إلى المطلوب و يتّبع إماما عادلا يقوده إلى الصّواب و أما الفصل الثانى متضمّن للنّصح و الموعظة و تذكير المخاطبين بالموت و تنبيههم من نوم الغفلة و هو قوله (حتّى إذا كشف لهم عن جزاء معصيتهم و استخرجهم من جلابيب غفلتهم) قال الشّارح البحرانى: النفس ذو جهتين جهة تدبير أحوالها البدنيّة بما لها من القوّة العملية، و جهة استكمالها بقوّتها النظرية التى تتلقّى بها من العاليات كمالها، و بقدر خروجها عن حدّ العدل فى استكمال قوّتها العملية تنقطع عن الجهة الأخرى و تكتنفها الهيآت البدنيّة فتكون فى أغطية منها و جلابيب من الغفلة عن الجهة الاخرى بالانصباب إلى ما يقتنيه مما يعدّ خيرا فى الدّنيا و بسبب انصبابها فى هذه الجهة و تمكن تلک الهيآت البدنية منها يكون بعدها عن بارئها و نزولها فى دركات الجحيم عن درجات النعيم و بالعكس كما قال صلّى اللّه عليه و آله و: الدّنيا و الآخرة ضرّتان بقدر ما تقرب من إحداهما تبعد من الأخرى، و ظاهر إنّ بالموت تنقطع تلک الغفلة، و تنكشف تلک الحجب، فيؤمئذ يتذكر الانسان و أنى له الذّكرى، و يكون ما أثبته له يومئذ من تعلّق تلک الهيئات بنفسه و حطها له عن درجات الكمال من السلاسل و الأغلال هو جزاء معصيتهم المنكشف لهم، انتهى، هذا و تشبيه الغفلة بالجلباب من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، و وجه الشّبه إحاطتها بهم و ملازمتها لهم إحاطة الثوب بالبدن و لزومه لهو قوله (استقبلوا مدبرا و استدبروا مقبلا) أراد بالمدبر الّذى استقبلوه ما كان غائبا عنهم من الشقاء و النكال و النقم، و بالمقبل الّذى استدبروه ما كان حاضرا لهم من الآلاء و الأموال و النعم (فلم ينتفعوا بما أدركوا من طلبتهم) أى اللّذات الدّنيوية التى كانت أعظم طلباتهم، لأنّهم تركوها وراء ظهورهم (و لا بما قضوا من

وطرهم) أى الشهوات النفسانية الّتى كانت أهمّ حاجاتهم، لأنها قد زالت عنهم (و انّى أحذّركم و نفسى هذه المنزلة) أراد بها الحالة التى كان الموصوفون عليها من الغفلة و الجهالة، و تشريک نفسه عليه السّلام معهم فى التحذير لتطييب قلوب السامعين و تسكين نفوسهم ليكونوا إلى الانقياد و الطاعة أقرب، و عن الآباء و النفرة أبعد، و فى بغض النسخ بدل المنزلة المزلّة، فالمراد بها الدّنيا الّتى هى محلّ الزّيغ و الزّلل و الخطاء و الخطل و لمّا نبّههم بعدم الانتفاع بالمطالب و المآرب الدّنيوية أردف ذلک بالتنبيه على ما نفعه أعمّ، و صرف الهمّة إليه أهمّ فقال:(فلينتفع امرء بنفسه) بأن يصرفها فيما صرفها فيه أولوا الأبصار و الفكر و يوجّهها الى ما وجّهها إليه أرباب العقول و النظر و إليه أشار بقوله (فانّما البصير) العارف بما يصلحه و يفسده و الخبير المميّز بين ما يضرّه و ينفعه (من سمع) الآيات البيّنات (فتفكّر) فيها (و نظر) إلى البراهين الساطعات (فأبصر) ها و أمعن فيها (و انتفع بالعبر) أى نظر بعين الاعتبار إلى السلف الماضين من الجبابرة و الملوک و السلاطين و غيرهم من الناس أجمعين كيف انتقلوا من ذروة القصور إلى و هدة القبور، و من دار العزّ و المنعة إلى بيت الذّلّ و المحنة، و فارقوا من الأموال و الأوطان، و جانبوا الأقوام و الجيران، و صاحبوا الحيّات و الديدان، و كيف كانت الدّيار منهم بلاقع، و القبور لهم مضاجع و اندرست آثارهم، و انقطعت أخبارهم، و خربت ديارهم، و قسمت أموالهم، و نكحت أزواجهم، و حشر فى اليتامى أولادهم، و أنكرهم صديقهم، و تركهم وحيدا شفيقهم، ففى أقلّ هذه عبرة لمن اعتبر، و تذكرة لمن اتّعظ و تذكّر (ثمّ سلک جددا) أى طريقا (واضحا) و هو الصراط المستقيم، و النهج القويم أى جادّة الشريعة و منهج الدّين الموصل لسالكه إلى حظاير القدس، و مجالس الانس بشرط أن (يتجنّب) و يتباعد (فيه) عن اليمين و الشمال فانّ الطريق الوسطى هى الجادّة و اليمين و الشمال مزلّة و مضلّة توجبان (الصّرعة فى المهاوى و الضلال

فى المغاوى) كما قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: ضرب اللّه مثلا صراطا مستقيما و على جنبتى الصّراط أبواب مفتّحة، و عليها ستور مرخاة و على رأس الصّراط داع يقول جوزوا و لا تعرّجوا، قال: فالصّراط هو الدّين و هو الجدد الواضح هنا، و الدّاعى هو القرآن و الأبواب المفتّحة محارم اللّه، و هى المهاوى و المغاوى هنا، و السّتور المرخاة هى حدود اللّه و نواهيه.

و لمّا نبّه عليه السّلام على ما ينفع المرء و يصلحه نبّه على ما يضرّه و يفسده فقال عليه السّلام (و لا يعين على نفسه الغواة) أى أهل الضّلالات و المنهمكين فى الجهالات (بتعسّف فى حقّ) قال الشّارح البحرانى: أى لا يحملهم على مرّ الحقّ و صعبه، فانّ الحقّ له درجات بعضها سهل من بعض، فالاستقصاء فيه على غير أهله يوجب لهم النّفرة عمّن يقوله و يأمر به، و العداوة له و القول فيه، و قريب منه ما قاله الشّارح المعتزلى أى يتعسّف فى حقّ يقوله أو يأمر به فانّ الرّفق أنجح.

أقول: و ظاهر كلامهما يفيد أنّهما فهما من التّعسف من كلامه عليه السّلام تشديد التّكليف على الغواة و التّضييق عليهم فى الأحكام، فيكون محصّل مقصوده عليه السّلام على ما قالاه الرّفق بهم عند الأمر بالمعروف و النّهى عن المنكر، لئلاّ يجلب العداوة منهم لنفسه بتركه فيصيبه منهم مكروه و ضرر و هذا معنى لا بأس به، و قد مرّ نظيره فى قوله عليه السّلام فى الفصل الثّانى من الكلام السّادس عشر: من أبدى صفحته للحقّ هلک عند جهلة النّاس، إلاّ أنّ الظّاهر أنّه عليه السّلام أراد معنى آخر أى لا يعين الغاوين بما ضرره عايد إليه، و هو تعسّفه فى حقّ و عدم كشفه لهم و تبليغه عليهم و إرجاعهم إليه، و ذلک لما رأى من ترکهم للحقّ و عدو لهم عنه و انهما کهم فى الغىّ و الضّلال و رغبتهم فى الباطل، فيتعسّف تطييبا لنفوسهم و تحصيلا لرضاهم، و عود ضرر هذا التّعسف إليه معلوم حيث يشترى رضاء المخلوق بسخط الخالق.

فعلى ما قلناه يكون المراد بالضّرر الضّرر الأخروى، و بالتّعسف العدول و الانحراف عن قول الحقّ و العمل به (أو تحريف فى نطق) أى يحرّف الكلم

عن مواضعه، و يكذب مداراة معهم و منازلة أذواقهم (أو تخوّف من صدق) أى يتكلّف الخوف من قول الصّدق و إن لم يكن خائفا فى الواقع، و عود ضـرر التّحريف و التّخوف على المحرّف و المتخوّف لاسـتلزامها مداهنـة الغواة، و قـد ذمّ اللّه أقواما بترك الصّـدق و الجهاد فى الحقّ بقوله:

«إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ ».

فاللاّزم على المرء أن لا يأخـذه فى اللّه لومـة لائم، و لا يكون له من ردع من خالف الحقّ و خابط الغيّ و زجره من أوهان و لا ايهان ثمّ أمر السّامعين بأوامر نافعـة و نصـحهم بمواعظ بالغة فقال(فأفق أيّها السّامع من سـكرتك و استيقظ من)رقدتك و(غفلتك)اسـتعار لفظ السّـكرة الغفلـة باعتبار كون الغفلـة موجبـة لترك أعمال العقل كما أنّ السّـكرة كـذلك، و هى اسـتعارة تحقيقيّة و ذكر الافاقة ترشـيح،و شـبه الغفلة بالنّومباعتبار أن لا التفات للغافل كالنّائم، و هى اسـتعارة بالكناية و ذكر الاستيقاظ تخييل (و اختصر من عجلتك) و سرعتك فى امور الدّنيا أى قصّـ ر الاهتمـام بهـا، فـانّ بقائها يسـير و زوالها قريب (و أنعم الفكر) أى أمعن النّظر (فيما جاءک) و كثر دورانه (على لسان النّبيّ الأميّ صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم) قد مضـى تفسـير الامّى من النّهاية فى شـرح الخطبة الثامنة و الثّمانين و أقول هنا: روى فى الاحتجاج عن أبى محمّد العسكرى عليه السّلام فى قوله تعالى:

«وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ ».

إنّ الأـمىّ منسوب إلى امّه أى هو كمـا خرج من بطن امّه لاـ يقرأ و لا يكتب فزعم بعض النّاس و منهم الشّارح المعتزلى أنّ وصف النّبىّ به كان أيضا بذلک الاعتبار، أى لا يحسن أن يقرأ و يكتب، و هو زعم فاسد، بل وصـفه باعتبار نسـبته إلى امّ القرى أعنى مكّة زادها اللّه شـرفا و عزّا و يدلّ على ما ذكرنا ما رواه فى الصّافى فى تفسير قوله تعالى:

«اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ».

من علل الشّرايع عن الجواد عليه السّلام أنّه سئل عن ذلک فقال: ما يقول النّاس؟ قيل يزعمون أنّه سمّى الامّى لأنّه لم يحسن أن يكتب، فقال عليه السّلام: كذبوا عليهم لعنة اللّه أنّى ذلک و اللّه يقول:

«هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ ».

فكيف كان يعلّمهم ما لا يحسن، و اللّه لقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقرأ و يكتب باثنين و سبعين أو قال بثلاث و سبعين لسانا، و انّما سمّى الامّى لأنّه كان من أهل مكّة و مكّة من أمّهات القرى، و ذلک قوله تعالى:

«لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها ». هذا و بيّن ما جاء على لسان النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله بقوله (ممّا لا بدّ منه و لا محيص عنه) أى الموت الذى ليس منه مناص و لا خلاص و لا مهرب و لا مفرّ (و خالف من خالف فى ذلک إلى غيره) يعنى أنّ من خالف فى امعان النّظر فى الموت و أهاويل الفناء و الفوت و أعرض عنه و التفت إلى غيره و اتّبع هواه و أطال أمله و مناه، كادحا سعيا لدنياه فى لذّات طربه و بدوات اربه فخالفه (و دعه و ما رضى لنفسه) فانّ الموافقة له توجب فوات الثّواب و أليم العذاب، و تجرّ الشّقاء الأبد و الخزى السّرمد (وضع فخرک) فانّ من صنع شيئا للمفاخرة حشره اللّه يوم القيامة أسود، رواه فى عقاب الأعمال عن أمير المؤمنين عليه السّلام (و احطط كبرک) لأنّ من مشى على الأرض اختيالا لعنته الأرض و من تحتها و من فوقها، رواه فى عقاب الأعمال عن أبى عبد اللّه عليه السّلام عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و فيه أيضا عن أبى جعفر عليه السّلام قال: قال رسول اللّه: ويل لمن فى الأرض يعارض

جبّار السّماوات و الأرض هذا و قد تقدّم الكلام فی شرح الخطبة المأة و السّابعة و الأربعین فی تحقیق معنی الکبر و کونه من أعظم الموبقات و ما فی ذمّه من الأخبار و الآیات، و کذلک الکلام فی حسن التّواضع مفصّلا و مستوفا فلیراجع ثمة (و اذکر قبرک) و ما فیه من الوحدة و الوحشة و الغربة و الظلمة و الحسرة و النّدامة (فانّ علیه ممرّک) و مجازک و لا بدّ لمن یمرّ علی منزل موحش مظلم أن یذکره و یتزوّد له و یهتمّ بأخذ الزّاد و تکمیل الاستعداد لیتمکّن من الوصول إلی المطلوب و النّجاح بالمقصود (و کما تدین تدان) أی کما تجزی تجزی و هو من باب المشاکلة، و المقصود أنّک کما تعمل للّه سبحانه و تعالی و تعامل معه فاللّه یعامل معک إنّ خیرا فخیرا و إن شرا فشرّا و لنعم ما قیل:

من یفعل الحسنات اللّه یشکرها و الشرّ بالشرّ عند اللّه مثلان

(و کما تزرع تحصد) فانّ من زرع النّواة حصد النّخل باسقات، و من زرع الفجور حصد الثّبور، و من توانا عن الزّرع فی أوانه حرم الحصاد فی ابانه

إذا أنت لم تزرع و أدرکت حاصداندمت علی التقصیر فی زمن البذر

(و ما قدّمت الیوم) لنفسک أو علیها (تقدم علیه غدا) و تقام فیه (فا) جهد نفسک فی تحصیل الخیر و تجنّب الشرّوا (مهد لقدمک) أی مهّد و هیّیء لموضع قدمک من الحسنات و الأعمال الصالحات (و قدّم) الزّاد (لیوم) معاد (ک) و إیاک و التفریط فتقع فی الحسرة و تعقب الندامة و ملامة النفس اللّوامة لدی الحساب یوم القیامة (فالحذر الحذر) من التقصیر و الغفلة (أیها المستمتع) المفتون (و الجدّ الجدّ) للتقوی و الطاعة (أیها الغافل) المغرور (و لا ینبّئک) أحد (مثل) واعظ (خبیر) و عارف بصیر بأحوال الآخرة و أهوالها و لما أمرهم بالحذر و الجد و نبّههم علی أنّ المنبئ لهم خبیر و بصیر بما یحذر منه و یجد علیه، عقّب ذلک بالتنبیه علی بعض ما یجب الحذر منه و الجدّ علی ترکه فقال (إنّ من عزائم اللّه) أی الأحکام التی لا یجوز مخالفتها فی حال من الأحوال

على ما مر تفصيلا فى شرح الفصل السابع عشر من الخطبة الاولى (فى الذكر الحكيم) أى القرآن الكريم أو اللّوح المحفوظ كما قيل، و على الأوّل فلا ينافيه عدم ورود بعض ما يذكره من العزائم فيه بخصوصه لامكان استفادته من عمومات الكتاب أو فحاويه حسبما تطلع عليه انشاء اللّه و وصف العزائم بقوله (الّتى عليها يثيب و يعاقب و لها يرضى و يسخط) أى يرضى و يثيب على الأخذ بها و امتثالها، و يسخط و يعاقب على مخالفتها و تركها (أنه) الضمير للشأن (لا ينفع عبدا و إن أجهد نفسه و أخلص فعله) أمّا إجهاد النفس فيتصوّر فى حقّ كلّ من ارتكب باحدى الخصال الخمس الآتية، و أمّا إخلاص الفعل فانّما يتصوّر فى المرتكب بغير الاولى من الأربع الباقية، و أمّا الأولى فلا لظهور أنّ الاخلاص لا يجتمع مع الرّيا فيكون الشّرطيّة الثّانية بملاحظة الأغلب أو من باب التغليب فتدبّر (أن يخرج من الدّنيا) أى لا ينفع خروجه منها حالكونه (لاقيأ ربّه بخصلة) واحدة (من هذه الخصال) و الحال أنّه (لم يتب منها) و لم يندم عليها، و هذه الخصال خمس:

إحداها (أن يشرك باللّه فيما افترض عليه من عبادته) أى يرائى فى عمله و لم يخلصه للّه سبحانه، و الدليل من الكتاب الحكيم على حرمته قوله تعالى:

«فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» و قوله «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ اَلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ اَلَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ».

و قد مضى تحقيق الكلام فى الرياء و تفصيل أقسامه فى شرح الفصل الأوّل من الخطبة الرابعة و العشرين الثانية ما أشار إليها بقوله (أو يشفى غيظه بهلاک نفسه) أى يقتل نفسه

ص:217

لافراط قوّته الغضبيّة بحيث لا يطفى نار غضبه إلاّ به، و الدليل على حرمته قوله تعالى «وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ».

روى فى عقاب الأعمال عن أبى ولاد الحنّاط قال سـمعت أبا عبد اللّه عليه السّـلام يقول: من قتل نفسه متعمّدا فهو فى نار جهنّم خالدا فيها، هـذا و يحتمل أن يكون المراد بهلاک نفسه الهلاک الاخروى أى لا يتشـفّى من غيظه إلاّ بأن يكتسب إثما و يوبق نفسه مثل أن يكون بينه و بين آخر بغضاء و عداوة فيغتابه أو يفترى عليه أو ينمّ عليه أو يسعى به إلى الملوک أو يسبّه و نحو ذلک ممّا فيه أليم العذاب و نصّ على حرمته محكم الكتاب، هـذا و فى بعض النّسـخ بهلاک نفس بـدل نفسه فيكون المراد أنّه لا يسـكت غضـبه إلاّ بالقتل، و يـدلّ على حرمته و عقابه صريحا قوله تعالى:

«وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً ».

و روى فى عقاب الأعمال بسنده عن حمران قال: قلت لأبى جعفر عليه السّلام:

قول اللّه عزّ و جلّ:

«مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ كَتَبْنا عَلىٰ بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَمِيعاً ».

و إنّما قتل واحـدا، فقال عليه السّـلام: يوضع فى موضع من جهنّم إليه ينتهى شـدّة عـذاب أهلها لو قتل النّاس جميعا كان إنّها يـدخل ذلک المكان، قلت: فانّه قتل آخر قال:

و يضاعف عليه.

و عن أبى عمير قال: حـدّثنى غير واحـد عن أبى عبـد اللّه عليه السّـلام قال: من أعان على قتل مؤمن بشـطر كلمـة جاء يوم القيامة بين عينيه مكتوب آيس من رحمة اللّه.

و عن جابر بن يزيد عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: أوّل ما يحكم اللّه فى القيامة فى الدّماء فيوقف ابنا آدم فيفصل بينهما، ثمّ الّذين يلونهم من أصحاب الدّماء حتّى لا يبقى منهم أحد، ثمّ النّاس بعد ذلك فيأتى المقتول قاتله فيشخب دمه فى وجهه فيقول: هذا قتلنى، فيقول أنت قتلته فلا يستطيع أن يكتم اللّه حديثا و عن سعيد الأزرق عن أبى عبد اللّه عليه السّلام فى رجل قتل رجلا مؤمنا يقال له: مت أىّ ميتة شئت إن شئت يهوديا و ان شئت نصرانيّا، و إن شئت مجوسيّا الثالثة ما أشار اليها بقوله (أو يقرّ بأمر فعله غيره) الظّاهر أنّ المراد به أن يحكى أمرا قبيحا ارتكبه غيره، و يدلّ على أنّه حرام و معصية قوله تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» روى فى عقاب الأعمال عن محمّد بن الفضيل عن أبى الحسن موسى بن جعفر عليهما السّلام قال: قلت له: جعلت فداك الرّجل من اخوانى بلغنى عنه الشىء الذى أكرهه فأسأله عنه فينكر ذلك، و قد أخبرنى عنه قوم ثقات، فقال لى: يا محمّد كذّب سمعك و بصرك عن أخيك و إن شهد عندك خمسون قسامة و قال لك قولا فصدّقه و كذّبهم، و لا تذيعنّ عليه شيئا تشينه به و تهدم به مروّته، فتكون من الذين قال اللّه عزّ و جلّ «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ» الآية و عن المفضّل بن عمر عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: من روى عن مؤمن رواية يريد بها شينه و هدم مروّته ليسقطه من أعين النّاس أخرجه اللّه عزّ و جلّ من ولايته إلى ولاية الشّيطان.

قال الشّارح البحرانى: و روى بعض الشّارحين يعرّ بالعين المهملة قال:

و معناه أن يقذف غيره بأمر قد فعله هو فيكون غيره منصوبا مفعولا به و العامل يعرّ يقال عرّه يعرّه أى عابه و لطخه أقول: و على هذا فيدلّ على حرمته ما يدل على حرمة البهت و الافتراء، قال تعالى:

«إِنَّما يَفْتَرِی الْکَذِبَ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِآیاتِ اللّهِ وَ أُولئِکَ هُمُ الْکاذِبُونَ ».

روی فی عقاب الأعمال عن ابن أبی یعفور عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: من اتّهم مؤمنا أو مؤمنة بما لیس فیهما بعثه اللّه یوم القیامة فی طینة خبال حتّی یخرج ممّا قال، قلت: و ما طینة خبال؟ قال: صدید یخرج من فروج الزّناة، بل یدلّ علیه جمیع ما ورد فی حرمة الغیبة إذ ذلک قسم من الغیبة بل من أعظم أقسامها کما لا یخفی.

الرابعة ما أشار الیها بقوله (أو یستنجح حاجة إلی النّاس باظهار بدعة فی دینه) یعنی أنّه یبدع فی الدّین طلبا لنجاح حاجته، و من المعلوم أنّ کلّ بدعة ضلالة و الضّلالة فی النّار قال تعالی:

«وَ ما کُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّینَ عَضُداً » و قال «وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَیْرِ هُدیً مِنَ اللّهِ ».

و استنجاح الحاجة بالبدعة أشدّ خزیا و أعظم مقتا، کما یدلّ علیه ما فی عقاب الأعمال عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: صونوا دینکم بالورع، و قوّوه بالتّقوی و الاستغناء باللّه عزّ و جلّ عن طلب الحوائج من السّلطان، و اعلموا أنّه أیّما مؤمن خضع لصاحب سلطان أو لمن یخالفه علی دینه طلبا لما فی یدیه أخمله اللّه و مقته علیه و وکله اللّه إلیه، و إن هو غلب علی شیء من دنیاه و صار فی یده منه شیء نزع اللّه البرکة منه و لم یأجره علی شیء ینفقه فی حجّة و لا عمرة و لا عتق و فیه عن هشام بن الحکم عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: کان رجل فی الزّمن الأوّل طلب الدّنیا من حلال فلم یقدر علیها، فطلبها من حرام فلم یقدر علیها، فأتاه الشّیطان فقال له: یا هذا إنّک قد طلبت الدّنیا من حلال فلم تقدر علیها و طلبتها من حرام فلم تقدر علیها أفلا أدلّک علی شیء یکثر به مالک و دنیاک و تکثر به؟؟؟ بعک؟ قال: بلی، قال: تبتدع دینا و تدعو إلیه النّاس، ففعل، فاستجاب له

النّاس فأطاعوه و أصاب من الـدّنيا، ثمّ إنّه فكّر فقال: ما صـنعت ابتـدعت دينا و دعوت النّاس إليه و ما أرى لى توبة إلاّ أن آتى من دعوته إليه فأردّه، فجعل يأتى أصحابه الذين أجابوه فيقول: إنّ الذى دعوتكم اليه باطل و إنّما ابتدعته فجعلوا يقولون: كذبت هذا الحقّ و لكنّك شككت فى دينك فرجعت عنه، فلمّا رأى ذلک عمـد إلى سلسـلة فوتـد لها و تـدا ثمّ جعلها فى عنقه و قال: لا احلّها حتّى يتوب اللّه عزّ و جلّ علىّ، فأوحى اللّه عزّ و جلّ إلى نبىّ من الأنبياء قل لفلان:

و عزّتى لو دعوتنى حتّى ينقطع أو صالک ما استجبت لک حتّى تردّ من مات على ما دعوته إليه فيرجع عنه.

الخامسة ما أشار إليها بقوله (أو يلقى النّاس بوجهين أو يمشـى فيهم بلسانين) قال الشّارح البحرانىّ: أى يلقى كلاّ من الصّديقين مثلا بغير ما يلقى به الآـخر ليفرق بينهما، أو بين العـدوّين ليضـرى بينهما، و بالجملـة أن يقول بلسانه ما ليس فى قلبه فيـدخل فى زمرة المنافقين و وعيد المنافقين فى القرآن:

«إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّارِ ».

أقول: و يدخل أيضا فى زمرة المغتابين فيشـمله الآيات المفيدة لحرمة الغيبة و يدلّ على حرمته من السّـنة ما رواه فى الكافى بسـنده عن ابن أبى يعفور عن أبى عبـد اللّه عليه السّـلام قال: من لقى المسـلمين بوجهين و لسانين جاء يوم القيامة و له لسانان من نار و عن أبى جعفر عليه السّـلام قـال: بئس العبـد عبـد يكون ذا وجهين و ذا لسانين، يطرى أخاه شاهـدا و يأكله غائبا إن أعطى حسـده، و ان ابتلى خـذله و عن عبد الرّحمان بن حماد رفعه قال: قال اللّه تبارک و تعالى لعيسـى: يا عيسـى ليكن لسانک فى السّـر و العلانيـة لسانا واحـدا و كـذلک قلبک إنّى احذّرک نفسک و كفى بى خبيرا، لا يصـلح لسانان فى فم واحد، و لا سـيفان فى غمد واحد، و لا قلبان فى صدر واحد، و كذلک الأذهان، و رواها جميعا فى عقاب الأعمال نحوها.

و فى عقاب الأعمال عن زيد بن علىّ عن آبائه عليهم السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله

یجیء یوم القیامة ذو الوجهین دالعا لسانه فی قفاه و آخر من قدامه یلتهبان نارا حتّی یلهبا جسده ثمّ یقال له: هذا الّذی کان فی الدّنیا ذا وجهین و ذا لسانین یعرف بذلک یوم القیامة.

(اعقل ذلک) أشار به إلی ما یذکره بقوله إنّ البهایم آه (فانّ المثل دلیل علی شبهه) لمّا کان أکثر الأفهام قاصرة عن إدراک الماهیّة العقلیّة للشّیء إلاّ فی مادّة محسوسة کمن لا یعرف حقیقة العلم مثلا فیقال له إنّه مثل اللّبن حیث إنّه غذاء للرّوح النّاقص و یصیر به کاملا کما یتغذّی باللّبن الطّفل النّاقص و به یصیر کماله و هکذا، لا جرم جرت عادة اللّه تعالی و عادة رسله و أولیائه فی بیان الأحکام للنّاس و تبلیغ التکالیف الیهم علی ضرب الأمثال تقریبا للأفهام و أکثر القرآن أمثال ضربت للنّاس ظواهرها حکایة عن حقایقها المکشوفة عند ذوی البصایر قال صدر المتألّهین: کثر فی القرآن ضرب الأمثال لأنّ الدّنیا عالم الملک و الشّهادة، و الآخرة عالم الغیب و الملکوت، و ما من صورة فی هذا العالم إلاّ و لها حقیقة فی عالم الآخرة و ما من معنی حقیقی فی الآخرة إلاّ و له مثال و صورة فی الدّنیا، إذ العوالم و النّشئات مطابقة تطابق النفس و الجسد، و شرح أحوال الآخرة لمن کان بعد فی الدّنیا لا یمکن إلاّ بمثال، و لذلک وجدت القرآن مشحونا بالأمثال کقوله:

«مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » «مَثَلُ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللّهِ » مثله «کَمَثَلِ الْکَلْبِ » مثلهم «کَمَثَلِ الْحِمارِ ».

و لیس للأنبیاء أن یتکلّموا مع الخلق إلاّ بضرب الأمثال، لأنّهم کلّفوا أن یکلّموا النّاس علی قدر عقولهم، و قدر عقولهم أنّهم فی النوم و النائم لا یکشف له شیء إلاّ بمثل، فاذا ماتوا انتبهوا و عرفوا أنّ المثل صادق، فالأنبیاء هم المعبرون لما علیه أهل الدّنیا من الأحوال و الصّفات و ما یؤل علیه عاقبتها فی یقظة الآخرة بکسوة الأمثال الدّنیویة إذا عرفت ذلک فأقول: إنّ أمیر المؤمنین علیه السّلام لمّا کان مقصوده التمثیل و أداء

غرضه بضرب المثل، و المثل ينتفع به العام و الخاص، و كان نصيب العامى من كلّ مثل أن يدرك ظاهره المحسوس و يقف عليه و ينتفع به ترغيبا و ترهيبا لما فيه من نوع مطابقة لأصله و نصيب الخاصى أن يدرك باطنه و يعبّر من ظاهره إلى سرّه و من محسوسه الجزئى إلى معقوله الكلّى كما قال تعالى:

«وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ ».

أراد عليه السّلام أن يكون انتفاع المخاطبين بالمثل الذى يضربه على وجه الكمال و نحو الخصوص، فلذلک قال عليه السّلام: مقدّمة و تنبيها لهم: اعقل ذلک فانّ المثل دليل على شبهه، أى أفهم ما أقول و تدبّر فيه و لا تقصر نظرک إلى ظاهره، بل تفكّر فى معناه حتّى تصل من قشره إلى لبّه، و يمكن لک الاستدلال بالمثل على ممثّله و الانتقال من ظاهره إلى باطنه و الوصول من قشره إلى لبّه و المثل الّذى ضربه هوقوله(إنّ البهايم همّها بطونها)لكمال قوّتها الشّهوية فاهتمامها دائما بالطعام و الشّراب و الأكل و الشّرب و النزو و السّفاد (و إنّ السّباع همّها العدوان)لافراط قوّتها الغضبيّة فلذّتها أبدا فى الاضراء و الافتراس و الغلبة و الانتقام(و إنّ النّساء همهنّ زينة الحياة الدّنيا)لفرط قوّتها الشّهويّة(و الفساد فيها)لشدّة قوّتها الغضبيّة و غرضه عليه السّلام من هذا المثل التنبيه على أنّ كمال الانسان الّذى به فارق غيره هو إدراک ما يخرج عن عالم الحواس و الاحاطة بالمعلومات و التنزّه عن التّعلّقات و التّرقّى إلى الملاء الأعلى، فمن ذهل عن ذلک و عطل نفسه عن تحصيله و أهمله و لم يجاوز عالم المحسوسات فهو الذى أهلک نفسه و أبطل قوّة استعداده بالاعراض عن الآيات و التأمّل فيها، و نزل عن مرتبة الانسانية و أخلد إلى الأرض فان كان تابعا لقوّته الشهويّة البهيميّة فهو نازل عن حقيقة الانسانيّة إلى درجة البهايم، و وافق الأنعام فمثله كمثل الحمار بل البهايم أشرف منه و هو أضلّ منها كما قال تعالى.«أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ »

«أَضَلُّ سَبِيلاً »و ذلک لأنّها ما ابطلت استعدادها لما کان لها و ما أضلّت عن سبیلها الّتی کانت علیها، بل ما من دابّة إلاّ هو آخذ بناصیتها، بخلاف هـذا، فانّه أبطل کماله و انسانیّته و تبع شـهوة بطنه و فرجه و آثر البهیمیّـة و ان کان تابعا لقوته الغضبیّة فهو منحطّ إلی درجة السّـ بعیّة فمثله کمثل الکلب أو الخنزیر أو الضّبع و نحوها و إن کان تابعا لشهوته و غضبه معا فقد انحطّ من کمال الرجولیّة إلی مرتبة الأنوثیّة.

فقد تلخّص مما ذکرنا أنّ غرضه علیه السّـ لام من التمثیل التنفیر عن اتّباع الشهوة و الغضب بالتنبیه علی أنّ الخارج فیهما عن حدّ العدل إلی مرتبة الافراط إمّا أن تشـبه البهیمة أو السبع أو المرأة، و کلّ منها مما یرغب العاقل عنه و لا یرضی به لنفسه، و لذلک قال أوّلا:اعقل ذلک ثمّ إنّه علیه السّـ لام لمـا نفّر عن اتباع هاتین القوّتین عقّب ذلک بصـفات المؤمنین ترغیبا إلیها فقال علیه السّـ لام:(إنّ المؤمنین مسـتکینون) أی خاضعون للّه متواضعون له (إنّ المؤمنین مشفقون) کما قال سبحانه:

«وَ الَّذِینَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها » - أی الساعة - «وَ یَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ » و قال فی موضع آخر:

«وَ الَّذِینَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ » و قال «وَ ذِکْراً لِلْمُتَّقِینَ اَلَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَیْبِ وَ هُمْ مِنَ السّاعَةِ مُشْفِقُونَ ».

(إنَّ المؤمنین خائفون) کما قال تعالی:

«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ إِذا ذُکِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » و قال «وَ الَّذِینَ یُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلی رَبِّهِمْ راجِعُونَ أُولئِکَ یُسارِعُونَ »

«فِي الْخَيْراتِ وَ هُمْ لَها سابِقُونَ ». هذا و انما أتى عليه السّلام فى الجملات الثلاث الأخيرة بالأسماء الظاهرة مع اقتضاء الظاهر الاتيان فى الأخيرتين بالضمير لغرض زيادة تمكين المسند إليه عند السامع كما فى قوله تعالى:

«قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ اَللّهُ الصَّمَدُ » و فى قوله «وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ ».

و هو من محسّنات البلاغة.

تذييل

قال الشّارح المعتزلى فى شرح هـذا الفصل من كلامه عليه السّلام: إنّما رمز بباطن هـذا الكلام إلى الرّؤساء يوم الجمل، لأنّهم حاولوا أن يشفوا غيظهم باهلاكه و إهلاك غيره من المسلمين، و عزوه بأمرهم فعلوه و هو التّأليب على عثمان و حصره و استنجحوا حاجتهم إلى أهل البصرة باظهار البدعة و الفتنة و لقوا النّاس بوجهين و لسانين، لأنّهم بايعوه و أظهروا الرّضا به، ثمّ دبّوا له فجعل دبوبهم هذه مماثلة للشّرك باللّه سبحانه فى أنّها لا تغفر إلاّ بالتّوبة، و هذا هو معنى قوله: اعقل ذلك فانّ المثل دليل على شبهه، و روى فانّ المثل واحد الأمثال أى هذا الحكم بعدم المغفرة لمن أتى شيئا من هذه الأشياء عام و الواحد منها دليل على ما يماثله و يشابهه.

فان قلت: فهـذا تصـريح بمذهب الامامية فى طلحة و الزّبير و عايشة قلت: كلاّ فانّ هذه الخطبة خطب بها و هو سائر إلى البصـرة و لم يقع الحرب بعـد، و رمز فيها إلى المذكورين و قال إن لم يتوبوا و قد ثبت أنّهم تابوا، و الأخبار عنهم بالتّوبة مسـتفيضة، ثمّ أراد أن يؤمى إلى ذكر النّساء للحال الّتى كان وقع إليها من استنجاد أعدائه بالامرأة فذكر قبل ذكر النّساء أنواعا من الحيوان تمهيدا لقاعدة

ذكر النساء فقال: إنّ البهايم همّها بطونها كالحمر و البقر و الابل، و إنّ السبّاع همّها العدوان على غيرها كالاسود الضّارية و النّمور و الفهود و البزاة و الصّقور، و إنّ النساء همّهنّ زينة الحياة الدّنيا و الفساد فيها انتهى أقول: أمّا ما ذكره الشّارح من كون هذا الكلام رمزا إلى قادة الضلال يوم الجمل فغير بعيد، و اتّصافهم بالخصال الخمس التى هى من أوصاف أهل النفاق و الضلال معلوم و مبرهن.

و أمّا جوابه عن الاعتراض الذى اعترض به فسخيف جدّا أمّا أوّلا فلأنّ صدور هذه الخطبة عنه عليه السّلام حين مسيره إلى البصرة و قبل وقوع الحرب لا يرفع الايراد بعد تحقّق اتّصاف الرّؤساء بالخصال المذكورة و أمّا ثانيا فلأنه عليه السّلام لم يقل إن لم يتوبوا بل قال و لم يتب، و كونه رمزا إلى عدم توبتهم و أنهم يموتون بلا توبة أظهر من أن يكون رمزا إلى حصول التوبة و أمّا ثالثا فلأنّ أخبار توبتهم التى ادعى استفاضتها بعد تسليم كونها مستفيضة مما تفرّدت العامّة برواياتها، و لا يتمّ بها الاحتجاج قبال الاماميّة، و قد قدّمنا فى شرح الكلام الثامن بطلان توبة الزبير، و فى شرح الكلام الثانى عشر بطلان توبة الطلحة، و فى شرح الكلام التاسع و السبعين بطلان توبة الخاطئة، و قد مرّ تحقيق بطلان توبة الأوّلين أيضا فى شرح الكلام المأة و السابعة و الثلاثين بما لا مزيد عليه فليتذكّر.

الترجمة

بعض ديگر از آن خطبهٔ شريفه در صفت بعض أهل ضلالست مى فرمايد:

و آن شخص معصيت كار در مهلت است از پروردگار فرو مى افتد با غافلان، و صباح مى كند با گنه كاران، بدون راه راست و بدون پيشوائى كه كشندهٔ خلايق است بطرف حضرت ربّ العزّة و بعض ديگر از اين خطبه متضمّن نصيحت و موعظه است مر مخاطبين را مى فرمايد:

ص:226

تا آنکه چون کشف کند خدای تعالی از جزاء معصیت ایشان، و خارج میکند ایشان را از لباسهای غفلت ایشان استقبال می کنند بچیزی که ادبار کرده بود و غایب بود از ایشان که عبارتست از عقوبات آخرت، و استدبار می کنند بچیزی که حاضر بود ایشان را که عبارتست از لذایذ دنیا، پس نفع نبردند از آنچه دریافتند از مطلوب خودشان، و نه به آنچه که رسیدند از حاجت خود، و بدرستی که من می ترسانم شما را و نفس خود مرا از این حالت غفلت، پس باید که منتفع بشود مرد بنفس خود، پس بدرستی که صاحب بصیرت شخصی است که بشنود پس تفکر نماید، و نظر کند پس بینا گردد، و منتفع بشود با عبرتهای روزگار پس از آن راه برود در راه راست آشکار که دوری ورزد در آن راه از افتادن مواضع پستی و تباهی و از گمراه شدن در مواضع گمراهی، و اعانت نکند بر ضرر خود گمراهان را بجهة کج روی در امر حق یا بجهة تغییر دادن در گفتار، یا بجهة اظهار خوف در راستی و صداقت پس افاقه حاصل کن ای شنونده از بیهوشی خود را بیدار باش از خواب غفلت خود، و مختصر کن از تعجیل و شتاب خودت، و نیک تأمّل نما در آنچه آمده بتو بر زبان پیغمبری که از أهل مکۀ معظمه است از آنچه ناچار است از آن و هیچ گریزی نیست از آن، و مخالفت کن با کسی که مخالفت کند در آن، و متوجّه بشود بطرف غیر آن، و مگذار او را به آن چه که پسندیده است او را از برای خودش، و بگذار فخر خودت را، و پست کن کبر خود را، و ذکر کن قبر خود را پس بدرستی که بر آن قبر است عبور تو، و همچنان که جزا می دهی جزا داده می شوی، و همچنان که زراعت می کنی می دروی، و آنچه که پیش فرستادۀ امروز می آئی بر او فردا پس مهیّا کن از برای آمدن خود بدار بقا، و مقدّم کن از برای روز حاجت خود، پس البته حذر کن و بترس أی گوش دهنده، و البتّه جدّ و جهد کن أی غفلت کننده، و آگاه نکند تو را هیچ کس مانند کسی که آگاهست از کارها، بدرستی که از جمله أوامر محتومۀ پروردگار در ذکر محکم و استوار که بر اخذ آن ثواب می دهد، و بر ترک آن عقاب می نماید، و از برای اطاعت آن خوشنود می شود، و بجهة

مخالفت آن غضب می کند.

اینست که هیچ نفع نمی بخشد بنده را اگر چه بمشقت اندازد نفس خود را و خالص نماید فعل خود را این که خارج بشود از دنیا در حالتی که ملاقات کند پروردگار خود را با یک خصلت از این خصلتهای ذمیمه در حالتی که توبه ننموده باشد از آن:

آنکه شرک آورد بخدا در آنچه که واجب نموده است بر او از عبادت خود، یا شفا بدهد غیظ خود را با هلاک کردن نفس خود، یا اقرار کند بکاری که دیگری او را نموده، یا خواهش روا کردن حاجتی نموده باشد بسوی خلق با اظهار بدعت در دین خود، یا ملاقات کند مردمان را بدو روئی و نفاق، یا مشی کند در میان ایشان با دو زبانی و عدم وفاق درک کن و بهم این مثل را که خواهم زد از برای تو پس بدرستی که مثل دلیل است بر مشابه خود، و آن مثل اینست که: چهار پایان قصد آنها شکمهای آنهاست، و بدرستی که درندگان قصد ایشان ستم و عدوانست، و بدرستی که زنان قصد ایشان زینت زندگانی این جهان و فساد کردنست در آن، بدرستی که مؤمنان متواضعانند، بدرستی که مؤمنان ترسندگانند از غضب پروردگار، بدرستی که مؤمنان خائفند از سخط آفریدگار، اللّهمّ وفّقنا بمحمّد و آله الأطهار

و من خطبة له علیه السّلام و هی المأة و الثالث و الخمسون

اشارة

من المختار فی باب الخطب

و فیه فصلان

الفصل الاول

و ناظر قلب اللّبیب، به یبصر أمده، و یعرف غوره و نجده،

داع دعا، و راع رعا، فاستجيبوا للدّاعى، و اتّبعوا الرّاعى، قد خاضوا بحار الفتن، و أخذوا بالبدع دون السّنن، و أرز المؤمنون، و نطق الضّالّون المكذّبون، نحن الشّعار و الأصحاب، و الخزنة و الأبواب، و لا تؤتى البيوت إلاّ من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سمّى سارقا.

الفصل الثانى (منها)

فيهم كرائم القرآن، و هم كنوز الرّحمن، إن نطقوا صدقوا، و إن صمتوا لم يسبقوا، فليصدق رائد أهله، و ليحضر عقله، و ليكن من أبناء الآخرة فانّه منها قدم، و إليها ينقلب، فالنّاظر بالقلب العامل بالبصر يكون مبتدأ عمله أن يعلم أ عمله عليه أم له، فإن كان له مضى فيه، و إن كان عليه وقف عنه، فإنّ العامل بغير علم كالسّائر على غير طريق، فلا يزيده بعده عن الطّريق إلاّ بعدا من حاجته، و العامل بالعلم كالسّائر على الطّريق الواضح، فلينظر ناظر أ سائر هو أم راجع، و اعلم أنّ لكلّ ظاهر باطنا على مثاله، فما طاب ظاهره طاب باطنه، و ما خبث ظاهره خبث باطنه، و قد قال الرّسول الصّادق صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ وَ يُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَ يُحِبُّ الْعَمَلَ وَ يُبْغِضُ بَدَنَهُ» و اعلم أنّ كلّ

عمل نبات، و كلّ نبات لا غنى به عن الماء، و المياه مختلفة، فما طاب سقيه طاب غرسه، و حلت ثمرته، و ما خبث سقيه خبث غرسه، و أمرّت ثمرته.

اللغة

(الناظر) من المقلّة السّواد الأصغر الذى فيه انسان العين و (الغور) بالفتح قعر كلّ شيء و المنخفض من الأرض و (النّجد) المرتفع منها و الجمع نجود مثل فلس و فلوس و (رعت) الماشية رعيا إذا سرحت بنفسها و رعيتها و أرعاها يستعمل لازما و متعدّيا فانا راع، و فى القاموس الرّاعى كلّ من ولى أمر قوم و الجمع رعاة و رعاء بالكسر و رعيان و القوم رعية و (ارز) من باب علم و ضرب انقبض و انجمع و (الشّعار) بالكسر ما ولى الجسد من الثياب و (الرّائد) المرسل فى طلب الماء و الكلاء و (ليحضر عقله) مضارع حضر من باب نصر أو أحضر من باب الأفعال

الاعراب

داع مرفوع تقديرا خبر ناظر و قال الشّارح المعتزليّ: إنّه مبتداء محذوف الخبر تقديره فى الوجود داع دعا، قوله: و اعلم أنّ كلّ عمل نبات هكذا فى بعض النسخ فيكون كلّ اسم إنّ و نبات خبرها و فى بعضها أنّ لكلّ عمل نباتا فيكون نباتا اسما لها

المعنى

اشارة

اعلم أنّه لمّا كان من دأب الرّحمة الرحمانية أن يصدر عنه أقسام الموجودات على أكمل ما يتصوّر فى حقّها، و أن يعطى لكلّ نوع بعد إعطاء الوجود ما يحفظ به كماله الأوّل و يستدعى كماله الثّانى كما قال تعالى «هو الّذى أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى» أشار إلى أنّه أعطى أصل وجوده، ثمّ أفاد له ما يتهيّأ و يهتدى به إلى فضيلة زايدة من القوى و الآلات، لا جرم كان كلّ نوع من أنواع المكونات

اعطى له من خزائن رحمة اللّه ما يستعدّ به للوصول إلى ما هو خير له و سعادة بالنسبة إليه و يحترز عمّا هو شرّ له و شقاوة، و لا شكّ أنّ الانسان أشرف هذه الأنواع فاعطاء ما يستطيع به لطلب ما هو الخير و السّعادة له أولى و أوجب، لكن لمّا كان كماله الخاصّ به أمرا متميّزا عن كمالات ساير الأنواع الحيوانيّة من جلب مأكول أو مشروب أو منكوح و نحوها من كمالات البهايم، فليس خيره و سعادته ممّا يوجد فى هذا العالم، بل كماله و خيره فى العلم و التّجرد عن الدّنيا و ما فيها و التّقرّب إليه تعالى و ملكوته الأعلى فيجب فى العناية الرّبانيّة أن يعطيه ما يهتدى به إلى سبيل سعادته و طريق نجاته، و يتجنّب عن طريق شقاوته و شقائه بأن يعرف أوّلا و لو بوجه من الوجوه ما الاله و ما الملكوت و ما الآخرة و ما الاولى، و ما السعادة و الشقاء، ثمّ إن كان ممّن لا يهتدى إلى ذلک إلاّ بواسطة معلّم من خارج من نبىّ أو امام أو كتاب وجب عليه تعالى أن يعرّفه ذلک و وجب عليه أن يتعلّم منه و يطيع له و يقبل منه روى يزيد بن معاوية عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: ليس للّه على خلقه أن يعرفوا و للخلق على اللّه أن يعرّفهم، و للّه على الخلق إذا عرفهم أن يقبلوا إذا عرفت ذلک فأقول: إنّ الانسان قد أعطاه اللّه سبحانه بمقتضا عنايته العقل يهتدى به إلى مصالحه و مفاسده، و جعل عقول بعض أفراد هذا النوع كاملة فاضلة غير محتاجة فى كسب كمالاتها إلى الغير و هى عقول الأنبياء و الرّسل و الأئمّة عليهم السّلام، و جعل عقول غيرهم ناقصة، فهؤلاء لا يكمل معرفتهم إلاّ بمعلّم خارجى، لعدم استقلال عقلهم بمعرفة كثير من المصالح و المفاسد و المنافع و المضارّ، و ذلک المعلّم هو النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و الامام.

و إلى هذا المعنى أشار أبو عبد اللّه عليه السّلام فى رواية الكافى حيث قال: أبى اللّه أن يجرى الأشياء إلاّ بأسباب، فجعل لكلّ شىء سببا و لكلّ سبب شرحا، و جعل لكلّ شرح علما، و جعل لكلّ علم بابا ناطقا عرفه من عرفه و جهله من جهله ذاک رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و نحن.

ص:231

فظهر لک بتلک المقدّمة معنى قوله عليه السّلام (و ناظر قلب اللّبيب به يبصر أمده و يعرف غوره و نجده داع دعا و راع رعا) أى عين بصيرة العاقل التى بها يبصر غايته التى يتوجه إليها أى معاده و بها يعرف ما انخفض و انحطّ من حالاته الموجبة لشقاوته المتردّية له إلى دركات الجحيم، و ما ارتفع و استعلى من خصاله الموجبة لسعادته الموصلة له إلى نضرة النعيم هى أى هذه العين داع دعا و راع رعا،أراد بالدّاعى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لدعائه إلى طرف الحقّ قال اللّه تعالى:

«يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً وَ داعِياً إِلَى اللّهِ بِإِذْنِهِ ».

و أراد بالرّاعى نفسه عليه السّلام لأنّه ولىّ الخلق و القائم بأمرهم كالرّاعى الذى يرعى غنمه و يحفظها و يربّيها، و قد مرّ تشبيه الامام بالرّاعى و الرعيّة بالغنم و تشبيه من لم يعرف امامه بغنم ضلّت عن راعيها فى الحديث الّذى رويناه من الكافى فى التّذنيب الثالث من تذنيبات شرح الفصل الرّابع من فصول الخطبة الأولى و ورد فى وصف الأئمة عليهم السّلام فى الزّيارة الجامعة: و استرعاكم أمر خلقه، قال شارح الزّيارة، يعنى به: أنّه تعالى استرعاهم أمر خلقه جعلهم قائمين برعاية الخلق فيما يتعلّق بأمر الوجود الكونى و شرعه، و فيما يتعلّق بأمر الكون الشّرعى و وجوده، و فيما يتعلّق بامر الغيب و الشّهادة، و فيما يتعلّق بأمر الدّنيا و الآخرة، و فيما يتعلّق بامر الجنّة و النّار، طلب تعالى منهم عليهم السّلام رعاية جميع خلقه فى هذه الامور الخمسة فهم عليهم السّلام المربّون لرعيّتهم الرّاعون الّذين استرعاهم اللّه أمر غنمه فان شاءوا فانّما شاء، هذا.

و انّما جعل الدّاعى و الرّاعى ناظر القلب اللّبيب لأنّ النّاظر من الانسان هو آلة الابصار، و بها يدرک الأشياء على ما هى عليها، و يفرّق بين الألوان و الأضواء و الأشكال و المقادير و نحوها، و بناظره القلبى أى عين بصيرته يفرّق بين الحقّ و الباطل، و الصّلاح و الفساد، فاستعار لفظه للرّسول و الامام عليهما السّلام إذ بهما يحصل له المعرفة

ص:232

بالمبدإ و المعاد، و بدلالتهما و إرشادهما يكمل له الحكمة النّظرية و العملية، فالنبىّ و الامام عقل من خارج كما أنّ العقل رسول من باطن و إليه يشير قول موسى بن جعفر عليه السّلام لهشام بن الحكم فى الحديث الطويل المروىّ فى الكافى: يا هشام إنّ للّه على النّاس حجّتين حجّة ظاهرة و حجّة باطنة فأمّا الظّاهرة فالرّسل و الأنبياء و الأئمة عليهم السّلام، و أمّا الباطنة فالعقل إلى أن قال:

يا هشام نصب الحقّ لطاعة اللّه و لا نجاة إلاّ بالطاعة، و الطاعة بالعلم، و العلم بالتّعلّم و التّعلّم بالعقل يعتقل و لا علم إلاّ من عالم ربّانى و معرفة العلم بالعقل و انّما خصّ عليه السّلام ناظر قلب اللّبيب بالبيان لأنّ الجاهل بمعزل عن الالتفات غافل عمّا له و عليه كما قال عليه السّلام فى رواية الكافى عن علىّ بن محمّد عن سهل بن زياد عن النوفلىّ عن السّكونى عن جعفر عن أبيه عليهما السّلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السّلام إنّ قلوب الجهّال تستفزّها الأطماع و ترتهنها المنى، و تستعلقها الخدائع يعنى يستخفّها الأطماع لأنّهم كثيرا ما ينزعجون من مكانهم بطمع فاسد لا- أصل له و لا طائل تحته، و أنّها مقيّدة مرتهنة بالأمانى و الآمال الكاذبة، و هم ينخدعون سريعا فيستسخر قلوبهم خدايع الخادعين، و يستعبدها مكر الماكرين، و لهذا يعدهم الشّيطان و يمنّيهم بالأمانى الباطلة، و يغرّهم و يستفزّهم و يستعبدهم بالخدايع و ما يعدهم الشّيطان إلاّ غرورا قال تعالى:

«أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها ».

قال أبو جعفر عليه السّلام فى هذه الآية: ميّت لا يعرف شيئا و نورا يمشى به فى النّاس اماما يأتمّ به كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها، قال: الذى لا يعرف الامام، هذا و لمّا كان همّة العاقل مصروفة لتحصيل كمالاته و الترقى من حدّ النّقص و الوبال إلى ذروة الفضل و الكمال، و من هبوط الجهل و الدّنائة إلى شرف العزّ و السّعادة، و كان ذلک الاستكمال و التّرقّى موقوفا على طاعة الرّسول و الإمام عليهما السّلام

ص:233

حسبما عرفت أمر بطاعتهما بقوله (فاستجيبوا للدّاعى و اتّبعوا الرّاعى) لأنّهما قوّاد النّاس و هداتهم إلى المحجّة البيضاء و الصّراط المستقيم، و بالاستجابة و المتابعة لهما ينال حسن العاقبة و سعادة الخاتمة، و لذلك قرن اللّه طاعتهما بطاعته فقال:

«أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ».

و قوله عليه السّلام(قد خاضوا بحار الفتن)قال الشارح البحرانى: يحتمل أن يكون التفاتا إلى قوم معهودين للسّامعين كمعاوية و أصحاب الجمل و الخوارج، و يحتمل أن يكون منقطعا عمّا قبله متّصلا بكلام لم يحكه الرّضى (ره) و إليه ذهب الشّارح المعتزلىّ، و قال: هذا كلام متّصل بكلام لم يحكه الرّضى، و هو ذكر قوم من أهل الضّلال قد كان أخذ فى ذمّهم و نعا عليهم عيوبهم أقول: و الأظهر عندى أنّه متّصل بالكلام السّابق، و وجه نظمه أنّه لمّا أمر بوجوب متابعته و فرض طاعته و طاعة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التفت إلى حكاية حال المخالفين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المغيّرين لوصيّته، و الغاصبين لخلافته من الخلفاء الثلاث و متابعتهم، و كيف كان فتشبيه الفتن بالبحار لاهلاكها و استيصالها فمن دخل فيها يغرق كما يغرق البحر الخائض فيه، و ذكر الخوض ترشيح للتّشبيه.

(و أخذوا بالبدع دون السّنن) يعنى أنّهم عدلوا عن سنّة سيّد المرسلين، و تركوا منهج الشّرع المبين، و أبدعوا فى الدّين، و أخذوا بالرّأى و المقائيس عن هوى الأنفس، فلم يزالوا دهرهم فى الالتباس و الارتماس فى بحر الظلمات و الانغماس فى مهوى الشّهوات، و ذلك كلّه لاعراضهم عن أئمّة الحقّ و أولياء الصّدق.

قال يونس بن عبد الرّحمن: قلت: لأبى الحسن الأوّل عليه السّلام بما أوحّد اللّه عزّ و جلّ؟ قال: لا تكوننّ مبتدعا، من نظر برأيه هلک، و من ترک أهل بيت نبيّه ضلّ، و من ترک كتاب اللّه و قول نبيّه كفر قال الشّارح البحرانى: البدعة قد يراد بها ترک السنّة و قد يراد بها أمر

آخر یفعل مع ترک السنّة و هو أظهر فی العرف.

أقول: و البدعة ملازمة لترک السّنة کما یفصح عنه ما رواه فی الکافی عن علیّ بن إبراهیم عن محمّد بن عیسی بن عبید عن یونس عن حریز عن زرارة قال:

سألت أبا عبد اللّه علیه السّلام عن الحلال و الحرام فقال: حلال محمّد حلال أبدا إلی یوم القیامة و حرامه حرام أبدا إلی یوم القیامة لا یکون غیره و لا یجیء غیره.

و قال علیه السّلام قال علیّ علیه السّلام: ما أحد ابتدع بدعة إلاّ ترک بها سنّة.

وجه دلالته علی الملازمة أنّ حلاله و حرامه إذا کانا مستمرّین إلی یوم القیامة فمن أتی بشیء إمّا أن یکون حکمه ثابتا فی الکتاب و السنّة فلا یکون بدعة، و إلاّ ففیه ترکهما، و بعبارة اخری لو لم یکن مخالفا للسّنة لم یکن بدعة، و حیث کان مخالفا مناقضا لها یلزم من إتیانها ترک سنّة هی فی مقابلها البتة، و هو معنی قول أمیر المؤمنین علیه السّلام الذی استشهد به الامام علیه السّلام (و أرز المؤمنون) أی انقبضوا و سکتوا لشمول التّقیة و غلبة الباطل (و نطق الضّالّون المکذّبون) لاختفاء الحقّ و استیلاء أهل الضّلال.

ثمّ عاد علیه السّلام إلی ذکر مناقبه و مفاخره المقتضیة لوجوب طاعته حثّا للمخاطبین علی الرّجوع إلیه و تأکیدا للتّعریض و التقریع علی المنحرفین العادلین عنه إلی غیره و الغاصبین لحقّه فقال(نحن)أراد به نفسه و الطّیبین من أولاده(الشّعار و الأصحاب)أی شعار رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أصحابه، و استعار لفظ الشّعارلهم باعتبار ملازمتهم له علیه السّلام و مزید اختصاصهم به ملازمة الشّعار للجسد و اختصاصه به، و هم أیضا أدرکوا صحبته بالایمان و صدقوه فی جمیع ما جاء به بالاذعان و الایقان، و عرف المسند بلام التّعریف للعهد قصدا للحصر، یعنی أنّ الشّعار و الأصحاب المعهودین نحن لا غیرنا.

قال العلامة التفتازانی: إذا کان للشّیء صفتان من صفات التعریف عرف السّامع اتّصافه باحداهما دون الأخری حتّی یجوز أن تکونا وصفین لشیئین متعدّدین فی الخارج فأیّهما کان بحیث یعرف السامع اتّصاف الذّات به و هو کالطالب بحسب زعمک أن

يحكم عليه بالاخرى يجب أن تقدّم اللّفظ الدّالّ عليه و تجعله مبتداء، و أيّهما كان بحيث يجعل اتصاف الذّات به و هو كالطالب أن تحكم بثبوته للذات أو بنفيه عنها يجب أن تؤخّر اللّفظ الدّالّ عليه و تجعله خبرا، فاذا عرف السامع زيدا بعينه و اسمه و لا يعرف اتّصافه بأنه أخوه و أردت أن تعرفه ذلک قلت: زيد أخوک، و کذلک إذا عرف زيدا و علم أنّه کان من انسان انطلاق و لم يعرف اتّصاف زيد بأنه المنطلق المعهود و أردت أن تعرفه ذلک قلت: زيد المنطلق، و لا يصحّ المنطلق زيد، انتهى (و الخزنة و الأبواب)أى خزّان خزينة علم اللّه و علم رسوله و إنّما استعار لهم ذلک اللّفظ لأنّ الخازن إنّما يتولّى ما فى الخزانة و يحفظه و يتصرّف فيه و يصرفه فى مصارفه و هم عليهم السّلام کذلک لأنّهم حفّاظ علم اللّه تعالى، و المتصرّفين فيه و الباذلين له لمن يشاءون، و المانعين له عمّن يشاءون قال تعالى:

«هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِکْ بِغَيْرِ حِسابٍ ».

فانّ ظاهرها فى حقّ سليمان بن داود عليهما السّلام و باطنها فى أهل البيت عليهم السّلام حسبما عرفته فى شرح الكلام التّاسع و الخمسين.

و يدلّ على كونهم خزّان اللّه تعالى ما فى البحار من بصاير الدّرجات للصّفار بسنده عن سورة بن كليب قال: قال لى أبو جعفر عليه السّلام: و اللّه إنّا لخزّان اللّه فى سمائه و أرضه لا على ذهب و لا على فضّة إلاّ على علمه، قال العلاّمة المجلسىّ ره أى خزّان علم السّماء و الأرض.

أقول: و الأولى جعل ضمير علمه راجعا إلى اللّه كما يفصح عنه إضافة العلم إلى لفظ الجلالة فى الأخبار الآتية و ستعرف تحقيق ذلک.

و فيه منه عن أبى حمزة الثمالى عن أبى جعفر عليه السّلام قال سمعته يقول: و اللّه إنّا لخزّان اللّه فى سمائه و خزّانه فى أرضه، لسنا بخزّان على ذهب و لا على فضّة و إن منّا لحملة العرش إلى يوم القيامة.

و عن سدير عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: قلت له: جعلت فداک ما أنتم؟ قال:

نحن خزّان اللّه على علم اللّه نحن تراجمة وحى اللّه نحن الحجّة البالغة على ما دون السّماء و فوق الأرض.

و عن سدير عن أبى جعفر عليه السّلام قال: سمعته يقول: نحن خزّان اللّه فى الدّنيا و الآخرة و شيعتنا خزّاننا.

و عن عبد الرّحمن بن كثير قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السّلام يقول: نحن ولاة أمر اللّه و خزنة علم اللّه و عيبة وحى اللّه.

و عن حمران عن أبى جعفر عليه السّلام قال: انّ اللّه تبارك و تعالى أخذ الميثاق على اولى العزم أنّى ربّكم و محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رسولى و علىّ أمير المؤمنين و أوصياؤه من بعده ولاة أمرى و خزّان علمى، و أنّ المهدىّ انتصر به ادينى.

فظهر بهذه الرّوايات كونهم ولاة خزانة علمه تعالى، و يدلّ عليه أيضا ما عن احتجاج الطّبرسى عن أبى عبد اللّه عليه السّلام فى حديث طويل و فيه: قال لصاحبكم أمير المؤمنين:

«قُلْ كَفى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ » و قال اللّه عزّ و جلّ:

«وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلاّ فِى كِتابٍ مُبِينٍ ».

و علم هذا الكتاب عنده.

و بهذا المضمون أيضا أخبار اخر قدّمنا روايتها فى التّذييل الثالث من شرح الفصل السّابع عشر من الخطبة الاولى فليتذكّر.

قال بعض الأفاضل: و العلم الذى هم خزائنه هو علم الموجودات بالمعنى المتعارف و هو قوله تعالى:

«وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْ ءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِما شاءَ » يعنى أنّ ما لم يشأ من علمه أن يعلموه لا يحيطون به، و ليس المراد

بهـذا العلم الذى لا يحيطون بشـىء هو القديم الذى هو الذات ليكون المعنى و لا يحيطون بشـىء من ذاته إلاّ بما شاء أن يحيطوا به منها، و هـذا معنى باطـل، بـل المراد به أنّ العلم الحـادث الـذى هو غير الـذات منه ممكن مقـدّر غير مكوّن، و منه تكوين و منه مكوّن، فالممكن المقـدور غير المكوّن هو الممكنـات قبـل أن تكسـى حلّـة الوجود فى جميع مراتب الوجود، فهـذه لم تكن مشائـة إلاّ فى أماكنها، فهـذا لا يحيطون بشـىء منه إحاطـة وجود، و يحيطون به إحاطة إمكان إذ ذاك مشائة مشـية إمكان، و التكوين الممكن، و هذا يحيطون به لأنّه مشاء بنفسه و هم محالّ ذلک، و المكوّن قسـمان مكوّن مشروط، و مكوّن منجّز، و المكوّن المشروط يحيطون به لأنّه مشاء و لا يحيطون بالشّرط إلاّ بعد أن يكون مشاء، و المكوّن المنجّز يحيطون به، ثمّ ما كانوا يحيطون به قسـمان: قسم كان و هم يحيطون به أنّه كان و لا يحيطون به انه مسـتمرّ أو منقطع إلاّ إحاطة اخبار لا إحاطة عيان، و قسم لم يكن فهم يحيطون به إحاطة اخبار أيضا لا إحاطة عيان، فظهر لمن نظر و أبصـر من هذا التّفصيل أنّهم عليهم السّلام لا يحيطون بشىء من علمه الذى هو غير ذاته إلاّ بما شاء أن يحيطوا به، و الّذى شاء أن يحيطوا به هو ما سمعته فى هذا التفصيل، هذا تمام الكلام فى كونهم عليهم السّلام خزّان اللّه.

و أمّا كونهم الأبواب فالمراد به أنّهم عليهم السّـلام أبواب الايمان و المعرفة باللّه، و أبواب علم اللّه و علم رسوله صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما ورد فى الأخبار المسـتفيضة العاميّة و الخاصـيّة بل لا يبعد تواترها أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: أنا مدينة العلم و علىّ بابها فمن أراد المدينـة فليأت الباب و قال أيضا: أنا مدينة الحكمة و فى بعضـها: دار الحكمة و علىّ بابها فمن أراد الحكمة فليأتها من بابها و إلى هـذا أشار عليه السّـلام بقوله:(و لا تؤتى البيوت إلاّ من أبوابها فمن أتاها من غير بابها سـمّى سارقا)و هو كناية عن أنّ من أخذ العلم من غير أهله و أراد المعرفة عن غير الجهة التى امر بالتوجّه إليها فهو منتحل له كالسّارق الذى يتسوّر البيوت من غير أبوابها و يأخذ ما فيها غصـبا و عدوانا قال تعالى:

«لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَ لٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقىٰ وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها ».

روی فی البحار من الاحتجاج للطبرسی عن الأصبغ بن نباته قال: کنت جالسا عند أمیر المؤمنین علیه السّلام فجائه ابن الکوا فقال: یا أمیر المؤمنین قول اللّه عزّ و جلّ «لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ » الآیة فقال علیه السّلام: نحن البیوت الّتی أمر اللّه أن یؤتی أبوابها، نحن باب اللّه و بیوته التی یؤتی منها، فمن تابعنا و أقرّ بولایتنا فقد أتی البیوت من أبوابها، و من خالفنا و فضّل علینا غیرنا فقد أتی البیوت من ظهورها «إلی أن قال» إنّ اللّه عزّ و جلّ لو شاء عرّف النّاس نفسه حتّی یعرفوه و یأتوه من بابه، و لکن جعلنا أبوابه و صراطه و سبیله و بابه الـذی یؤتی منه، قال: فمن عدل عن ولایتنا و فضّل علینا غیرنا فانّهم عن الصّراط لناکبون، و قد تقدّمت هذه الرّوایة فی شرح الفصل الرّابع من الخطبة الاولی من الصّافی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام مثله.

(منها) ما هو أیضا فی فضایل أهل البیت علیهم السّلام و هو قوله علیه السّلام (فیهم کرایم القرآن) یحتمل أن یکون المراد بالکرایم الآیات الکریمة قال:

«وَ «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ».

أی حسن مرضیّ فی جنسه، و قیل: کثیر النّفع لاشتماله علی اصول العلوم المهمّة فی المعاش و المعاد و الکریم صفة لکلّ ما یرضی و یحمد، و منه وجه کریم أی مرضیّ فی حسنه و بهائه، و کتاب کریم مرضیّ فی معانیه.

و أن یکون المراد بها الآیات الدّالة علی کرامتهم أی علی جمعهم لأنواع الشّرف و الفضایل، إذ الکریم هو الجامع لأنواع الخیر و الشّرف، و قد مضی بعض تلک الآیات فی شرح الفصل الثالث من الخطبة السّادسة و الثّمانین، و تقدّم کثیر منها فی تضاعیف الشّرح و تأتی أیضا انشاء اللّه فی مواضعها اللاّیقة، و فی بعض النّسخ: فیهم

كرايم الايمان، أى الخصال الكريمـة الّتى هى من لوازم الايمان و خواصّه (و هـم كنوز الرّحمن) لأنّ الكنز ما يدّخر فيه نفايس الأموال و هـم عليهم السّلام قـد أودع اللّه فيهم نفـايس جميع مـا فى الكون و خيـار الفضايل و الفواضل من العلم و الحلم و السّخاء و الجود و الكرم و الخلافة و الولاية و الشّجاعة و الفصاحة و العصمة و القدس و الطهارة إلى غير تلك ممّا لا يضبطها عدّ و لا يحيط بها حدّ.

«وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ».

(إن نطقوا صدقوا) لأنّهم أزمّة الحقّ و ألسنة الصّدق المستجاب بهم دعوة إبراهيم عليه السّلام فى قوله:

«وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ».

و المفروض متابعتهم بقوله:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصّادِقِينَ ».

على ما قدّمنا فى شرح الفصل الثالث من الخطبة السّادسة و الثّمانين.

(و إن سـكتوا لـم يسـبقوا) لأنّ سـكوتهم إنّما هو بمقتضـى المصـلحة و اقتضاء الحكمة لا عن عىّ و عجز حتّى يسـبقهم الغير و يتكلّم و لا يتمكّنوا و يتمكّن بل يعلمون ما كان و ما هو كائن و يتكوّن و لذلک شاع المثل السائر: قضيّة و ليس لها أبو الحسن ثمّ إنّه عليه السّلام لمّا نبّه على جملـة من منـاقبهم البـاهرة و مفاخرهـم الزاهرة عقّب ذلک بالمثل المشـهور و فرّعه على ما سـبق فقال (فليصـدق رائـد أهله) يعنى أنّ المرسل من الحىّ لطلب الماء و الكلاير تادلهم المرعى ينبغى له أن يصدق أهله و لا يكذب لمن أرسـله و يبشّر له بها، و أراد بذلک أنّ من يحضر الأئمة عليهم السّلام من النّاس طلبا لاخبارهم و اقتباس أنوارهم و أخذ معالم الدّين عنهم فليصدق من يكل

إليه أمره انّنا أهل الحقّ و ينابيع العلم و الحكمة و الأدلاّء (و ليحضر عقله) لاستماع كلامنا حتّى يعرف صحّة ما ادّعينا قال تعالى:

«فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ».

روى فى الكافى عن علىّ بن إبراهيم عن محمّد بن عيسى عن يونس بن عبد الرحمن قال: حدّثنا حماد عن عبد الأعلى قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن قول العامة أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: من مات و ليس له إمام مات ميتة جاهليّة، فقال عليه السّلام: الحق و اللّه، قلت: فان إماما هلك و رجل بخراسان لا يعلم من وصيّه لم يسعه ذلك، قال عليه السّلام:

لا يسعه انّ الامام إذا هلك وقعت حجّة وصيّة على من هو معه فى البلد و حقّ النّفر على من ليس بحضرته إذا بلغهم إنّ اللّه عزّ و جلّ يقول «فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » قلت:

فنفر قوم فهلك بعضهم قبل أن يصل فيعلم قال: إنّ اللّه عزّ و جلّ يقول:

«وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ ».

قلت: فبلغ البلد بعضهم فوجدك مغلقا عليك بابك و مرخى عليك سترك لا تدعوهم إلى نفسك و لا يكون من يدلّهم عليك فبما يعرفون ذلك؟ قال: بكتاب اللّه المنزل، قلت: فيقول اللّه عزّ و جلّ كيف؟ قال: أراك قد تكلّمت فى هذا قبل اليوم، قلت:

أجل، قال عليه السّلام: فذكّر ما أنزل اللّه فى علىّ عليه السّلام و ما قال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى حسن و حسين عليهما السّلام و ما خصّ اللّه به عليا عليه السّلام و ما قال فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من وصيّته إليه و نصبه إيّاه و ما يصيبهم و إقرار الحسن و الحسين بذلك و وصيّته إلى الحسن و تسليم الحسين له يقول اللّه:

«اَلنَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللّهِ ».

قلت: فان النّاس تكلّموا فى أبى جعفر عليه السّلام و يقولون كيف تخطّت من ولد أبيه من له مثل قرابته و من هو أسنّ منه و قصرت عمّن هو أصغر منه؟ فقال عليه السّلام: يعرف صاحب هذا الأمر بثلاث خصال لا تكون فى غيره: هو أولى النّاس بالذى قبله، و هو وصيّه، و عنده سلاح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وصيّته و ذلك عندى لا انازع فيه، قلت: إنّ ذلك مستور مخافة السّلطان؟ قال: لا يكون فى ستر إلاّ و له حجّة ظاهرة إنّ أبى استودعنى ما هناك فلما حضرته الوفاة قال: ادع لى شهودا فدعوت أربعة من قريش فيهم نافع مولى عبد اللّه بن عمر قال: اكتب: هذا ما أوصى به يعقوب بنيه «يا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » و أوصى محمّد بن علىّ إلى جعفر بن محمّد و أمره أن يكفنّه فى برده الّذى كان يصلّى فيه الجمع، و أن يعمّمه بعمامته، و أن يربع قبره و يرفعه أربع أصابع ثمّ يخلى عنه، فقال عليه السّلام اطووه ثمّ قال للشّهود: انصرفوا رحمكم اللّه، فقلت بعد ما انصرفوا ما كان فى هذا يا ابه أن تشهد عليه؟ فقال عليه السّلام: إنّى كرهت أن تغلب و أن يقال إنّه لم يوص فأردت أن تكون لک حجّة فهو الذى إذا قدم الرّجل البلد قال إلى من وصىّ فلان، قيل: فلان، قلت: فان كان أشرک فى الوصيّة قال: تسألونه فانّه سيبيّن لكم.

و قد رويت هذه الرّواية لاشتماله على فوايد عظيمة جمّة، و ايضاحه كيفية تكليف من ينفر لطلب الامام و وظيفة الامام و ما يعرف به المحقّ من المبطل، و أنّ اللاّزم على النافرين إنذار قومهم بعد تفقّههم فى الدّين و معرفتهم بالامام بالبيّنات التى هى من دلالات الامامة، فعلم بذلک أنّ النّافر لطلب الامام بمنزلة الرّائد السّابق ذكره فى كلام أمير المؤمنين عليه السّلام فافهم ذلک و تبصّر

ص:242

ثمّ أمر عليه السّلام الرّائد أمر إرشاد فقال (و ليكن من أبناء الآخرة) و رغبته اليها (فانّه منها قدم و إليها ينقلب) لأنّ الانسان مبدؤه الحضرة الالهيّة و هو سبحانه المبدأ و إليه المنتهى و هو غاية مراد المريدين و منتهى سير السائرين.

ثمّ أشار عليه السّلام إلى فضيلة العلم فقال عليه السّلام (فالناظر بالقلب العامل بالبصر) أى ينبغى لصاحب العقل البصير فى عمله أن (يكون مبتدأ عمله أن يعلم أعمله عليه أم له) أى يعرف قبل أن يعمل أنّ عمله نافع له مقرّب إلى الحضرة الرّبوبية أم مضرّ مبعّد له (فان كان له مضى فيه) و أتى به (و إن كان عليه وقف عنه) و تركه و إنما كان اللاّزم على العاقل تحصيل العلم قبل العمل (فانّ العامل بغير علم كالسائر على غير طريق فلا يزيده بعده عن الطريق إلاّ بعدا من حاجته) إذ كان بعده عن مطلوبه بقدر بعده عن طريق ذلك المطلوب.

قال طلحة بن زيد: سمعت أبا عبد اللّه عليه السّلام يقول: العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلاّ بعدا، رواه فى الكافى.

و فيه عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر ممّا يصلح.

(و) هذا بخلاف العامل العالم فانّ (العامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح) فلا يزيده سرعة سيره إلاّ نجاحا بحاجته (فلينظر ناظر) أى النّاظر بالقلب المسبوق ذكره (أسائر هو أم راجع) أقول: و ما ذكرناه فى شرح هذه الفقرات أعنى قوله:فالنّاظر بالقلبإلى قوله:أم راجع،إنّما هو مفاد ظاهر كلامه عليه السّلام، و الأشبه عندى أن تكون تلويحا و إشارة إلى وجوب اتباع الأئمّة و الايتمام بهم، فانّه لمّا ذكر أوصاف الأئمة و نعوتهم الكماليّة، عقّب ذلک بما يلزم على الرائد الطّالب للامام، ثمّ فرّع عليه قوله:فالنّاظر بالقلبآه يعنى أنّ صاحب العقل و البصيرة لا بدّ له قبل أن يشرع فى عمل أن يعلم أنّ عمله له أم عليه، و العلم موقوف على التّعلّم من الامام العالم و الاقتباس من نوره و الاهتداء به، إذ المتلقّى من غيره:

«كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ».

و يؤمی إلی ما ذکرناه تمثیل العامل العالم بالسّائر علی الطریق و تمثیل الجاهل بالسایر علی غیر طریق قال تعالی:

«قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي ».

قال زید بن علیّ: قال النّبیّ صلّی اللّه علیه و آله فی هذه الآیة: أنا و من اتّبعنی من أهل بیتی لا یزال الرّجل بعد الرجل یدعو إلی ما أدعوا الیه، و قال تعالی أیضا:

«أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ».

قال البیضاوی و معنی مکبّا أنّه یعثر کلّ ساعة و یخرّ علی وجهه لوعورة طریقه و اختلاف أجزائه، و لذلک قابله بقوله: أمّن یمشی سویّا قائما سالما من العثار، علی صراط مستقیم مستوی الأجزاء و الجهة، و المراد تمثیل المشرک و الموحّد بالسالکین و الدئیین بالمسلکین، و قیل: المراد بالمکبّ الأعمی فانّه یعتسف فیکبّ و بالسویّ البصیر، انتهی و أما تأویله فالمراد بالمکبّ أعداء آل محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و بمن یمشی سویّا أولیاؤهم علیهم السّلام کما ورد فی تفسیر أهل البیت ثمّ قال علیه السّلام (و اعلم أنّ لکلّ ظاهر باطنا علی مثاله، فما طاب ظاهره طاب باطنه، و ما خبث ظاهره خبث باطنه) المراد بهما إمّا کلّ ما یصدق علیه أنّه ظاهر و باطن فیشمل الأفعال الظاهرة و الأقوال الصّادرة عن الانسان خیرا أو شرّا و الملکات و الأخلاق النّفسانیّة الباطنیّة له حسنة أو قبیحة فالجود و الکرم و الانعام و الاحسان و نحوها ممّا هو حسن ظاهرا کاشف عن حسن الباطن أعنی ملکة السّخاء و الجود، و القبض و الامساک و المنع و نحوها ممّا هو قبیح ظاهرا دالّ علی قبح الباطن و خبثه أعنی ملکة البخل و هکذا، و کذلک فی الأقوال ما هو الطیّب ظاهرا کاشف عن طیب الباطن و ما هو الخبیث کاشف عن خبث الباطن

قال علیه السّلام فی الخطبة الشقشقیّة فی وصف حال الثانی: فصیّرها فی حوزة خشناء یغلظ کلمها و یخشن مسّها، و قال تعالی:

«مَثَلُ کَلِمَةٍ طَیِّبَةٍ «کَشَجَرَةٍ طَیِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِی السَّماءِ » ... «وَ مَثَلُ کَلِمَةٍ خَبِیثَةٍ کَشَجَرَةٍ خَبِیثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ » و یشمل أیضا لمثل حسن الصّورة الموافق لحسن الباطن أعنی اعتدال المزاج، و قبحها الموافق لقبح الباطن أعنی عدم اعتداله أو الأعمّ من الاعتدال و عدم الاعتدال.

و یشهد بذلک ما رواه فی البحار من الأمالی عن أنس بن مالک قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: علیکم بالوجوه الملاح و الحدق السّود فانّ اللّه یستحیی أن یعذّب الوجه الملیح بالنّار و فیه من ثواب الأعمال عن موسی بن إبراهیم عن أبی الحسن الأوّل علیه السّلام قال: سمعته یقول: ما حسّن اللّه خلق عبد و لا خلقه إلاّ استحیی أن یطعم لحمه یوم القیامة النّار و فیه من العیون عن الرّضا عن آبائه علیهم السّلام عن أمیر المؤمنین علیه السّلام قال:

لا تجد فی أربعین أصلع رجل سوء و لا تجد فی أربعین کوسجا رجلا صالحا و أصلع سوء أحبّ إلیّ من کوسج صالح و من ذلک ما روی أنّ أبا محمّد الحسن بن علیّ علیهما السّلام دخل یوما علی معاویة فسأله علیه السّلام تعنّتا و قال: قال اللّه تعالی:

«وَ لا رَطْبٍ وَ لا یابِسٍ إِلاّ فِی کِتابٍ مُبِینٍ ».

فأین ذکر لحیتک و لحیتی من الکتاب؟ و کان أبو محمّد وفر المحاسن(1) و معاویة بخلافه فقرأ علیه السّلام:

1- (1) أی کثّ اللحیة، منه

«وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِی خَبُثَ لا یَخْرُجُ إِلاّ نَکِداً ».

و نحوه ما عن المناقب قال عمرو بن العاص للحسین علیه السّلام: ما بال لحاکم أوفر من لحانا؟ فقرأ علیه السّلام هذه الآیة و من هذا الباب کلّ ما فی الکتاب العزیز من التّعبیر عن الأئمة علیهم السّلام بأعزّ الأسماء و أحسن الأفعال و أفضل الخصال و التّعبیر عن أعدائهم بأخبثها و أخسّها و أنزلها.

و یدلّ علیه ما فی الصّافی من الکافی عن الصّادق علیه السّلام فی تفسیر قوله تعالی:

«إِنَّما حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ ».

قال علیه السّلام: إنّ القرآن له ظهر و بطن فجمیع ما حرّم اللّه فی القرآن هو الظاهر و الباطن من ذلک أئمّة الجور، و جمیع ما أحلّ اللّه فی الکتاب هو الظاهر و الباطن من ذلک أئمة الحقّ.

و فی البحار من البصایر بسنده عن الهیثم التمیمی قال: قال أبو عبد اللّه علیه السّلام:

یا هیثم إنّ قوما آمنوا بالظاهر و کفروا بالباطن فلم ینفعهم شیء، و جاء قوم من بعدهم فآمنوا بالباطن و کفروا بالظاهر فلم ینفعهم ذلک شیئا، و لا ایمان بظاهر إلاّ بباطن و لا بباطن إلاّ بظاهر.

و من کنز جامع الفواید قال: روی الشّیخ أبو جعفر الطوسی باسناده إلی الفضل ابن شاذان عن داود بن کثیر قال: قلت لأبی عبد اللّه علیه السّلام: أنتم الصّلاة فی کتاب اللّه عزّ و جلّ و أنتم الزّکاة و أنتم الحجّ، فقال: یا داود نحن الصّلاة فی کتاب اللّه عزّ و جلّ، و نحن الزّکاة، و نحن الصّیام، و نحن الحجّ، و نحن الشّهر الحرام، و نحن البلد الحرام، و نحن کعبة اللّه، و نحن قبلة اللّه، و نحن وجه اللّه قال اللّه تعالی:

«فَأَیْنَما تُوَلُّوا » - وجوهکم - «فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ ».

و نحن الآيات و نحن البيّنات، و عدوّنا فى كتاب اللّه عزّ و جلّ الفحشاء و المنكر و البغى و الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام و الأصنام و الأوثان و الجبت و الطّاغوت و الميتة و الدّم و لحم الخنزير، يا داود إنّ اللّه خلقنا فأكرم خلقنا، و فضّلنا و جعلنا امنائه و حفظته و خزّانه على ما فى السّماوات و ما فى الأرض، و جعل لنا أندادا أضدادا و أعداء فسمّانا فى كتابه و كنّى عن أسمائنا بأحسن الأسماء و أحبّها إليه، و سمّى أضدادنا و أعدائنا فى كتابه و كنّى عن أسمائهم، و ضرب لهم الأمثال فى كتابه فى أبغض الأسماء إليه و إلى عباده المتّقين هذا كلّه مبنيّ على أن يراد بالظّاهر و الباطن المعنى الأعمّ، و يجوز أن يراد بهما الخصوص أعنى العلم المأخوذ من معدنه، فيكون قوله، فما طاب ظاهره طاب باطنه إشارة إلى العلوم الحقّة المتلقّاة من الأئمة عليهم السّلام الخارجة من مهبط الوحى و معدن الرّسالة، و قوله: و ما خبث ظاهره خبث باطنه، إشارة إلى العلوم الباطلة المأخوذة من أهل الضّلال عن طريق الرأى و القياس و الاستحسانات العقليّة الفاسدة، و الوجه الأوّل أعنى إرادة العموم هو الأوفق بنفس الأمر، و الوجه الثّانى أنسب بالنّسبة إلى ما حقّقناه سابقا، فانّه عليه السّلام حسبما ذكرنا لمّا أشار إلى أنّ السّالك لا بدّ أن يكون سلوكه على علم و بصيرة حتّى لا يكون كالسّائر على غير الطّريق أردفه بهذه الجملة تنبيها على أنّ كلّ علم ليس ممّا ينتفع به فى مقام السّلوك بل خصوص العلم الموصل إلى الحقّ المتلقّى من أهل الحقّ أعنى أئمّة الدّين و هو الطيّب ظاهرا و باطنا، و امّا غيره أعنى العلم المأخوذ من أهل الضّلال فهو جهل فى صورة العلم لا يوجب إلاّ بعدا من الحقّ خبيث ظاهره و باطنه و قد يفسّر به قوله تعالى:

«وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ».

قال القمّى: إنّه مثل للأئمّة يخرج علمهم باذن ربّهم و لأعدائهم لا يخرج علمهم إلاّ كدرا فاسدا.

(و قد قال الرّسول الصّادق صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّ اللّه يحبّ العبد و يبغض عمله و يحبّ العمل و يبغض بدنه) يعنى أنّ اللّه يحبّ العبد المؤمن بما فيه من وصف الايمان لكنّه يبغض عمله لكونه سيّئة و حراما، و يبغض الكافر بما له من الكفر لكنّه يحبّ عمله لكونه حسنا و صالحا، و هذا لا غبار عليه و إنّما الاشكال فى ارتباط هذا الكلام لسابقه و فى استشهاد الامام عليه السّلام به مع أنّه لا مناسبة بينهما ظاهرا، و ليس للاستشهاد به وجه ظاهر، بل منافاته لما مرّ أظهر من المناسبة كما هو غير خفىّ إذ لازم محبّة اللّه للعبد كون العبد طيّبا، و لازم بغضه لعمله كون العمل خبيثا فلم يكن الظّاهر موافقا للباطن، فينا فى قوله عليه السّلام:

فما خبث ظاهره خبث باطنه، و كذلك مقتضى بغض اللّه سبحانه لبدن الكافر كونه خبيثا، و حبّه لعمله كون عمله طيّبا ففيه أيضا مخالفة الظّاهر للباطن، فينا فى قوله: فما طاب ظاهره طاب باطنه و الذى سنح لى فى وجه الارتباط و حلّ الاشكال بعد التّروى و صرف الهمّة إلى حلّه أيّاما و الاستمداد من جدّى أمير المؤمنين عليه و آله سلام اللّه ربّ العالمين هو أنّه لمّا ذكر أنّ ما هو طيّب الظّاهر طيّب الباطن و ما هو خبيث الظّاهر خبيث الباطن، عقّبه بهذا الحديث النّبوى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تنبيها و ايقاظا للسّامعين بأنّ العبد قد يكون نفسه محبوبا و عمله مبغوضا، و قد يكون بالعكس كما أفصح عنه الرّسول الصّادق المصدّق فاللاّزم له إذا كان محبوب الذّات للّه سبحانه و مبغوض العمل أن يجدّ فى تحبيب عمله إليه تعالى حتّى يوافق نفسه عمله فى المحبوبيّة، و إذا كان محبوب العمل و مبغوض البدن أى الذّات أن يجدّ فى تحبيب ذاته إليه كى يوافق عمله نفسه و الغرض بذلك الحثّ على تطبيق الظّاهر للباطن فى الأوّل و تطبيق الباطن للظّاهر فى الثّانى فى المحبوبيّة حتى يكونا طيّبين، و يفاز إلى النّعيم الدّائم و الفوز الأبد، و لا يعكس حتّى يكونا خبيثين مبغوضين له تعالى فيقع فى العذاب الأليم و الخزى العظيم، و قد زلّت فى هذا المقام أقدام الشّراح و المحشّين،

و كلّت فيه أفهامهم طوينا عن ذكر كلامهم، من أراد الاطلاع فليراجع الشّروح، و اللّه وليّ التّوفيق ثمّ حثّ على تزكية الأعمال و تصفيتها بمثل ضربه بقوله(و اعلم أنّ كلّ عمل نبات)و فى بعض النّسخ أنّ لكلّ عمل نباتا، قال الشّارح البحرانى: استعار لفظ النّبات لزيادة الأعمال و نموّها و رشّح الاستعارة بذكر الماء آه، و على ما روينا فهو من التّشبيه البليغ أعنى التّشبيه المحذوف الأداة أى كلّ عمل بمنزلة نبات، و وجه الشّبه أنّ النّباتات كما أنّها مختلفة من حيث طيبها و نضارتها و خضرتها و حسنها و ثبات أصلها فى الأرض و رسوخ عروقها و ارتفاع فروعها و حلاوة ثمراتها و من حيث كونها على خلاف ذلك، فكذلك الأعمال و إلى ذلك أشار بقوله (و كلّ نبات لا غنى به عن الماء) و هو مادّة حياته كما قال سبحانه:

«وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ ءٍ حَيٍّ » و قال «وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً ».

و كذلك كلّ عمل لا غنى به عن النيّة و عن توجّه القلب اليه و هو مادّة حصوله (و المياه مختلفة) هذا عذب فرات سائغ شرابه و هذا ملح اجاج، و النيّات أيضا مختلفة بعضها صادرة عن وجه الخلوص و التقرّب إلى الحضرة الرّبوبيّة، و بعضها عن وجه الشّرك و الرّياء و السّمعة (فما طاب سقيه) أى نصيبه من الماء لكونه عذبا صافيا (طاب غرسه) و ثبت أصله و ارتقع فرعه و كان له خضرة و نضرة (و حلت ثمرته) و كذلك العمل الصّادر عن وجه الخلوص و التقرّب إلى الحقّ يعلو و يزكو و يثمر ثمرات طيبة و هى ثمرات الجنان اكلها دائم و ظلّها قال تعالى:

«فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ».

(و ما خبث سقيه) لكون مائه ملحا اجاجا أو كدرا فاسدا (خبث غرسه) لا يكون له رونق و بهاء و لا لأصله ثبات و لفرعه ارتفاع (و أمرّت ثمرته) و هكذا العمل المشوب بالشّرک و الرّيا يثمر ثمرات خبيثة أعنى ثمرات الجحيم و هى الضّريع و الزّقوم قال تعالى:

«طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ».

و أقول: قد وقع مثل هذا التّشبيه الواقع فى كلام أمير المؤمنين أعنى تشبيه العمل بالنّبات فى كلام اللّه ربّ العالمين قال سبحانه فى سورة إبراهيم:

«أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَ يَضْرِبُ اللّهُ الْأَمْثالَ لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ ».

قال فى مجمع البيان «ألم تر» أى ألم تعلم يا محمّد «كيف ضرب اللّه مثلا» أى بين اللّه شبها ثمّ فسّر ذلک المثل فقال «كلمة طيّبة» و هى كلمة التّوحيد شهادة أن لا إله إلاّ اللّه عن ابن عباس، و قيل هى كلّ كلام أمر اللّه به من الطاعات عن أبى على قال: و إنّما سمّاها طيّبة لأنّها زاكية نامية لصاحبها بالخيرات و البركات «كشجرة طيبة أصلها ثابت و فرعها فى السّماء» أى شجرة زاكية نامية راسخة اصولها فى الأرض عالية أغصانها و ثمارها فى السّماء و أراد به المبالغة فى الرّفعة و الأصل سافل و الفرع عال إلاّ أنّه يتوصّل من الأصل إلى الفرع «تؤتى اكلها» أى تخرج هذه الشّجرة ما يؤكل منها «كلّ حين» أى كلّ غدوة و عشيّة «باذن ربّها» و قيل:

إنّه سبحانه شبّه الايمان بالنّخلة لثبات الايمان فى قلب المؤمن كثبات النخلة

فى منبتها، و شبّه ارتفاع عمله إلى السّماء بارتفاع فروع النّخلة، و شبّه ما يكسبه المؤمن من بركة الايمان و ثوابه فى كلّ وقت و حين بما ينال من ثمرة النخلة فى أوقات السّنة كلها من الرّطب و التمر «و يضرب اللّه الأمثال للنّاس لعلّهم يتذكّرون» أى لكى يتدبّروا فيعرفوا الغرض بالمثل «و مثل كلمة خبيثة» و هى كلمة الكفر و الشّرك، عن ابن عبّاس و غيره، و قيل: هو كلّ كلام فى معصية اللّه عن أبى علىّ «كشجرة خبيثة» غير زاكية و هى شجرة الحنظل عن ابن عبّاس و أنس و مجاهد «اجتثّت من فوق الأرض» أى اقتطعت و استوصلت و اقتلعت جثّته من الأرض «ما لها من قرار» أى ما لتلك الشّجرة من ثبات فانّ الرّيح تنسفها و تذهب بها، فكما أنّ هذه الشّجرة لا ثبات لها و لا بقاء و لا ينتفع بها أحد، فكذلك الكلمة الخبيثة لا ينتفع بها صاحبها و لا يثبت له منها نفع و لا ثواب.

تبصرة

قال الشّارح المعتزلى عند شرح قوله عليه السّلام من هذه الخطبة: نحن الشّعار و الأصحاب و الخزنة و الأبواب:

و اعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام لو فخر بنفسه و بالغ فى تعديد مناقبه و فضايله بفصاحته التى أتاه اللّه إيّاها و اختصّه بها و ساعده على ذلك فصحاء العرب كافّة لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الصّادق صلوات اللّه عليه و آله فى أمره، و لست أعنى بذلك أخبار العامّة الشّايعة التّى يحتجّ بها الاماميّة على إمامته، كخبر الغدير، و المنزلة، و قصّة برائة، و خبر المناجاة، و قصّة خيبر، و خبر الدار بمكّة فى ابتداء الدّعوة و نحو ذلك، بل الأخبار الخاصّة الّتى رواها فيه أئمّة الحديث الّتى لم يحصل أقلّ القليل منها لغيره، و أنا أذكر من ذلك شيئا يسيرا ممّا رواه علماء الحديث الذين لا يتّهمون فيه و جلّهم قائلون بتفضيل غيره عليه، فروايتهم فضائله توجب سكون النّفس ما لا يوجبه رواية غيرهم ثمّ أورد أربعة و عشرين حديثا نبويّا فى فضائله، و الحديث الرّابع و العشرون

قوله: لمّا نزل إذا جاء نصر اللّه و الفتح بعد انصرافه من غزاة حنين جعل يكثر سبحان اللّه استغفر اللّه ثمّ قال: يا علىّ إنّه قد جاء ما وعدت به جاء الفتح و دخل النّاس فى دين اللّه أفواجا و ليس أحد أحقّ منک بمقامى لقدمک فى الاسلام و قربک منّى و صهرک و عندک سيدة نساء العالمين، و قبل ذلک ما كان من بلاء أبى طالب عندى حين نزل القرآن فأنا حريص أن اراعى ذلک لولده، رواه أبو إسحاق الثّعلبىّ فى تفسير القرآن.

ثمّ قال الشّارح: و اعلم أنّا إنّما ذكرنا ههنا هذه الأخبار لأنّ كثيرا من المنحرفين عنه عليه السّلام إذا مرّوا على كلامه فى نهج البلاغة و غيره المتضمّن للتّحدّث بنعمة اللّه عليه من اختصاص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تميزه إيّاه عن غيره ينسبونه فيه إلى التّيه و الزّهو و الفخر، و لقد سبقهم بذلک قوم من الصّحابة قيل لعمر ولّ عليّا أمر الجيش و الحرب فقال: هو أتيه من ذلک، و قال زيد بن ثابت: ما رأينا أزهى من علىّ و اسامة فاردنا ايراد هذه الأخبار أن تنبّه على عظيم منزلته عليه السّلام عند الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و أنّ من قيل فى حقّه ما قيل لو رقى إلى السّماء و عرج فى الهواء و فخر على الملائكة و الأنبياء تعظما و تبجحا لم يكن ملوما بل كان بذلک جديرا فكيف و هو عليه السّلام لم يسلک قطّ مسلک التعظّم و التكبّر فى شىء من أقواله و لا من أفعاله، و كان ألطف البشر خلقا، و أكرمهم طبعا، و أشدّهم تواضعا، و أكثرهم احتمالا، و أحسنهم بشرا، و أطلقهم وجها حتّى نسبه من نسبه إلى الدّعابة و المزاح و هما خلقان يتنافيان التكبّر و الاستطالة، و إنما كان يذكر احيانا ما يذكره نفثة مصدور و شكوى مكروب و تنفّس مهموم و لا يقصد به إذا ذكره إلاّ شكر النعمة و تنبيه الغافل على ما خصّه اللّه به من الفضيلة، فانّ ذلک من باب الأمر بالمعروف و الحضّ على اعتقاد الحقّ و الصواب فى أمره و النهى عن المنكر الذى هو تقديم غيره عليه فى الفضل، فقد نهى اللّه سبحانه عن ذلک فقال: أ فمن يهدى إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لا يهدّى إلاّ أن يهدى فما لكم كيف تحكمون، انتهى أقول: و لقد أجاد الشارح فيما أفاد و لا يخفى ما فى كلامه من وجوه التعريض

إلى عمر من حيث نسبته أمير المؤمنين عليه السّلام تارة إلى التيه و التكبّر، و اخرى إلى المزاح و الدّعابة، و قد نبّه الشّارح على أنّ هذه النّسبة افتراء منه عليه عليه السّلام لأنّ التكبّر و الدّعابة على طرفى الافراط و التفريط و هما مع تضادّهما و عدم امكان اجتماعهما فى محلّ واحد لا يجوز أن يوصف الامام عليه السّلام الّذى هو على حدّ الاعتدال فى الأوصاف و الأخلاق بشىء منهما فضلا عن كليهما، و قد مرّ فساد نسبة الدّعابة إليه فى شرح الكلام الثالث و الثّمانين بما لا مزيد عليه.

ثمّ العجب من الشّارح أنّه مع نقله هذه الرّوايات كيف ضلّ عن الهدى و أعمى عن الحقّ و أنكر وجود النّص على خلافة أمير المؤمنين عليه السّلام مع ظهور دلالتها على خلافته لو لم تكن نصا فيها لا سيّما الرّواية الأخيرة أعنى الحديث الرّابع و العشرين.

و أعجب من ذلک أنّه قد صرّح هنا بأنّ تقديم غيره عليه عليه السّلام من المنكر، و أنّ غرض أمير المؤمنين عليه السّلام من تعديد مناقبه و فضايله كان النّهى عن ذلک المنكر و ردع النّاس عن الاعتقاد الباطل إلى الحقّ و الصّواب و هو مناف لمذهبه الّذى اختاره وفاقا لأصحابه المعتزلة من أنّ تقديم غيره عليه إنّما هو من فعل اللّه سبحانه و تعالى عمّا يقول الجاهلون الضّالّون علوّا كبيرا كما هو صريح كلامه فى خطبة الشّرح حيث قال هناک: و قدّم المفضول على الأفضل لمصلحة اقتضاها التّكليف، و إذا كان تقديم غيره عليه منكرا و قبيحا كيف نسبه إلى اللّه تعالى هنالک، و قد أجرى اللّه الحقّ على لسانه هنا حتّى صرّح بنفسه على فساد مذهبه، و اللّه الهادى إلى سواء السّبيل

الترجمة

از جمله خطب شريفۀ آن بزرگوار و وصىّ محمّد مختار است در موعظه و نصيحت و ذكر فضايل أهل بيت عصمت و طهارت مى فرمايد:

آلت نظر عاقل كه بوساطت آن مى بيند غايت خود را و مى شناسد پستى و بلندى خود را دعوت كننده ايست كه دعوت نمود و رعايت كننده ايست كه رعايت فرمود،

و مراد از دعوت کننده حضرت خاتم رسالت و از رعایت کننده جناب شاه ولایت علیهما السّلام است، پس استجابت نمائید دعوت کننده را، و متابعت کنید رعایت نماینده را، پس بتحقیق که غوطه ور شدند مخالفان آن داعی و راعی در دریای فتنها، و أخذ نمودند بدعتها نه سنّتها را، و منقبض شدند مؤمنان، و ناطق شدند گمراهان و تکذیب کنندگان.

ما أهل بیت لباس مخصوص پیغمبر خدائیم و أصحاب پسندیدهٔ حضرت مصطفی و خزینه داران علم ربّ العزّة و درهای مدینه علم و حکمت، و داخل نمی توان شد بخانها مگر از درهای آنها، پس هر که بیاید بخانها از غیر درهای آن نامیده شود دزد و سارق.

بعض دیگر از این خطبه باز در فضایل آل رسول علیه و علیهم السّلام است می فرماید در حق ایشانست آیات کریمهٔ قرآن، و ایشانست خزینهای رحمان، اگر گویا بشوند راست می گویند، و اگر ساکت شوند کسی نمی تواند سبقت نماید بر ایشان، پس باید راست بگوید طالب آب و گیاه بأهل خود، و باید که حاضر سازد عقل خود را، و باید که بشود از ابنای آخرت، پس بدرستی که او از آخرت که عالم لاهوتست آمده بسوی عالم ناسوت، و بسوی آخرت برگشت او خواهد شد.

پس کسی که نظر کند بقلب خود و عمل کننده باشد به بصیرت خود میباشد ابتداء عمل او این که بداند آیا عمل او ضرر دارد بر او یا منفعت دارد مر او را، پس اگر نافع باشد او را اقدام می کند در او، و اگر مضر باشد خودداری می نماید از او پس بدرستی که عمل کننده بغیر علم مثل سیر کننده است بر غیر راه راست پس زیاده نمی کند دوری او از راه مگر دوری از مقصود او را، و عمل کننده بعلم مثل سیر کننده است بر راه روشن، پس باید که نظر کند نظر کننده آیا سیر کننده است او یا رجوع نماینده است و بدانکه بدرستی هر ظاهری را باطنی است بر طبق او پس آنچه که پاکیزه است ظاهر او پاکیزه است باطن او، و آنچه که خبیث است ظاهر او خبیث

است باطن او، و بتحقیق که فرموده است پیغمبر صادق القول صلّی اللّه علیه و آله این که بدرستی خدای تعالی دوست می دارد بنده را و دشمن می دارد عمل او را، و دوست می دارد عمل خوب را و دشمن می دارد بدن او را، و بدانکه بدرستی که هر عمل بمنزلهٔ گیاهیست، و هر گیاه استغنا نیست او را از آب، و آبها مختلفند پس آنچه که پاکیزه باشد سیرابی او پاکیزه شود کاشتن او و شیرین شود میوهٔ او، و آنچه که زشت باشد آب خوردن آن زشت باشد کاشتن آن و تلخ و بد مزه باشد میوهٔ آن.

و من خطبة له علیه السّلام یذکر فیها بدیع خلقة الخفاش و هی

اشارة

المأة و الرابع و الخمسون من المختار فی باب الخطب

الحمد للّه الّذی انحسرت الأوصاف عن کنه معرفته، و ردعت عظمته العقول فلم تجد مساغا إلی بلوغ غایة ملکوته، و هو اللّه الملک الحقّ المبین، و أحقّ و أبین ممّا تری العیون، لم تبلغه العقول بتحدید فیکون مشبّها، و لم تقع علیه الأوهام بتقدیر فیکون ممثّلا، خلق الخلق علی غیر تمثیل، و لا مشورة مشیر، و لا معونة معین، فتمّ خلقه بأمره، و أذعن لطاعته، فأجاب و لم یدافع، و انقاد و لم ینازع. و من لطایف صنعته و عجائب خلقته ما أرانا من غوامض الحکمة فی هذه الخفافیش الّتی یقبضها الضّیآء الباسط لکلّ شیء، و یبسطها الظّلام القابض لکلّ حیّ، و کیف عشیت أعینها عن أن تستمدّ

من الشّمس المضيئة نورا تهتدى به فى مذاهبها، و تتّصل بعلانية برهان الشّمس إلى معارفها، و ردعها بتلالؤ ضيائها عن المضىّ فى سبحات إشراقها، و أكنّها فى مكامنها عن الذّهاب فى بلج ايتلاقها، فهى مسدلة الجفون بالنّهار على حداقها، و جاعلة اللّيل سراجا تستدلّ به فى التماس أرزاقها، فلا يردّ أبصارها إسداف ظلمته، و لا تمتنع من المضىّ فيه لغسق دجنّته، فإذا ألقت الشّمس قناعها، و بدت أوضاح نهارها، و دخل من إشراق نورها على الضّباب فى وجارها، أطبقت الأجفان على مآقيها، و تبلّغت بما اكتسبته من المعاش فى ظلم لياليها، فسبحان من جعل اللّيل لها نهارا و معاشا، و النّهار سكنا و قرارا، و جعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطّيران كأنّها شظايا الآذان، غير ذوات ريش و لا قصب إلاّ أنّك ترى مواضع العروق بيّنة أعلاما، و لها جناحان لمّا يرّقا فينشقّا، و لم يغلظا فيثقلا، تطير و ولدها لاصق بها، لاجىء إليها، يقع إذا وقعت، و يرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتّى تشتدّ أركانه، و تحمله للنّهوض جناحه، و يعرف مذاهب عيشه، و مصالح نفسه، فسبحان البارى لكلّ شىء على غير مثال خلا من غيره.

اللغة

(الخفّاش) و زان رمّان طاير معروف جمعه خفافيش مأخوذ من الخفش و هو ضعف فى البصر خلقة أو لعلّة، و الرّجل أخفش و هو الذى يبصر باللّيل لا بالنّهار أو فى يوم غيم لا فى يوم صحو و (حسر) حسورا من باب قعد كلّ لطول مدى و نحوه، و حسرته أنا يتعدّى و لا يتعدّى و (ساغ) الشّراب سوغا سهل مدخله و المساغ المسلک و (الحدّ) المنع و الحاجز بين الشّيئين و نهاية الشّىء و طرفه، و فى عرف المنطقيين التّعريف بالذّاتى.

و (المشورة) مفعلة من أشار إليه بكذا أى أمره به، و فى بعض النسخ بضمّ الشّين بمعنى الشّورى و (المعونة) اسم من أعانه و عوّنه و (اللّطايف) جمع لطيفة و هى ما صغر و دقّ و (الغامض) خلاف الواضح و كلّ شىء خفى مأخذه و (العشا) بالفتح و القصر سوء البصر بالنّهار أو باللّيل و النّهار أو العمى و (الاتّصال) إلى الشىء الوصول إليه، و فى بعض النّسخ متّصل بدل تتّصل و (السّبحات) بضمّتين جمع سبحة و هى النّور و قيل: سبحات الوجه محاسنه لأنّک إذا رأيت الوجه الحسن قلت: سبحان اللّه.

و (البلج) مصدر بلج كتعب تعبا أى ظهر و وضح، و صبح أبلج بيّن البلج أى مشرق و مضىء، و قيل: البلج جمع بلجة بالضمّ و هى أوّل ضوء الصّبح و (الايتلاق) اللّمعان يقال: ائتلق و تألّق إذا التمع و (سدل) الثّوب أسدل له أرخاه و أرسله و (الجفن) بالفتح غطاء العين من أعلاها و أسفلها، و الجمع جفان و جفون و أجفن و (الحدقة) محرّكة سواد العين و يجمع على حداق كما فى بعض النّسخ و على أحداق كما فى البعض الآخر و (أسدف) اللّيل اسدافا أى أظلمت، و فى بعض النسخ أسداف بفتح الهمزة جمع سدف كأسباب و سبب و هو الظّلمة و (الدّجنة) بضمّ الدّال و تشديد النّون و الدّجن و زان عتلّ الظّلمة و (الضّباب) بالكسر جمع الضبّ الدّابّة المعروفة و (و جارها) بالكسر جحرها الّذى تأوى إليه.

ص:257

و (ماقيها) بفتح الميم و سكون الهمزة و كسر القاف و سكون الياء كما فى أكثر النّسخ لغة فى المؤق بضمّ الميم و سكون الهمزة أى طرف عينها ممّا يلى الأنف و هو مجرى الدّمع من العين و قيل: مؤخّرهما و عن الأزهرى أجمع أهل اللّغة على أنّ المؤق و الماق بالضمّ و الفتح طرف العين الّذى يلى الأنف، و أنّ الّذى يلى الصّدغ يقال له: اللّحاظ و الماقى لغة فيه، و قال ابن القطاع ما فى العين فعلى و قد غلط فيه جماعة من العلماء فقالوا: هو مفعل و ليس كذلك بل الياء فى آخره للالحاق، و قال الجوهرى و ليس هو مفعل لأنّ الميم أصليّة و إنّما زيدت فى آخره الياء للالحاق و لمّا كان فعلى بكسر اللام نادرا لا أخت لها الحق بمفعل، و لهذا جمع على ماقى على التّوهّم و فى بعض النّسخ ماقيها على صيغة الجمع.

و (المعاش) ما يعاش به و ما يعاش فيه و بمعنى العيش و هو الحياة، و فى بعض النّسخ ليلها بدل لياليها و (الشّظايا) جمع الشّظية و هى القطعة من الشىء و (الأعلام) جمع علم بالتحريک و هو طراز الثوب و رسم الشّىء.

الاعراب

أحقّ و أبين بالرّفع بدلان من الحقّ المبين أو عطفا بيان، و على الأوّل ففائدتهما التّقرير، و على الثّانى فالايضاح و قوله: و من لطايف صنعته تقديمه على المسند إليه أعنى قوله: ما أرانا، للتّشويق إلى ذكر المسند إليه و هو من فنون البلاغة كما فى قوله:

ثلاثة تشرق الدّنيا ببهجتها شمس الضّحى و أبو إسحاق و القمر

و تتّصل فى بعض النّسخ بالنصب عطفا على تستمدّ و فى بعضها بالرّفع عطفا على تهتدى، و فى بعضها و تصل بدله، و ردعها عطف على جملة أرانا، و من فى قوله من اشراق نورها زايدة فى الفاعل كما زيدت فى المفعول فى قوله: «ما جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ » و قوله: غير ذوات ريش، بالنّصب صفة لأجنحة، و قوله:

أعلاما بدل من بيّنة أو عطف بيان، و كلمة لها غير موجودة فى بعض النّسخ فيكون

قوله: جناحان، خبر مبتدأ محذوف أى جناحاه جناحان، و لمّا فى قوله: لمّا يرقا بمعنى لم الجازمة.

المعنى

اشارة

اعلم أنّ هذه الخطبة الشريفةيذكر فيها بديع خلقة الخفّاش،و الغرض منه التنبيه على عظمة قدرة خالقها، و على كمال صنعه سبحانه فى إبداعها، و الدّلالة على عظيم برهانه فى ملكه و ملكوته و لمّا كان الغرض ذلک افتتح عليه السّلام كلامه بالحمد و الثناء عليه تعالى بجملة من صفات الكمال و نعوت الجلال و الجمال بمقتضى براعة الاستهلال فقال:(الحمد للّه الذى انحسرت الأوصاف عن كنه معرفته)أى عجز الواصفون عن صفته و أعيت الألسن عن وصفه بحقيقته، لأنّ ذاته سبحانه بريئة عن أنحاء التركيب، منزّهة عن الأجزاء و النّهايات، فلا حدّ له و لا صورة تساويه، فلا يمكن للعقول الوصول إلى حقيقةمعرفته،و لا للألسن الحكاية و البيان عن هويّته،و قد مرّ تحقيق ذلک فى شرح الفصل الثّانى من الخطبة الاولى و غيره أيضا غير مرّة (و ردعت) أى منعت (عظمته العقول فلم تجد مساغا) و مسلكا (إلى بلوغ غاية ملكوته) أى منتهى عزّه و سلطانه (هو اللّه الملک الحقّ) الثّابت المتحقّق وجوده و إلهيّته أو الموجود حقيقة (المبين) أى الظّاهر البيّن وجوده بل هو أظهر وجودا من كلّ شىء فان خفى مع ظهوره فلشدّة ظهوره، و ظهوره سبب بطونه و نوره هو حجاب نوره إذ كلّ ذرّة من ذرّات مبدعاته و مكوّناته فلها عدّة ألسنة تشهد بوجوده، و بالحاجة إلى تدبيره و قدرته كما مرّ تفصيلا و تحقيقا فى شرح الخطبة التّاسعة و الأربعين.

(أحقّ و أبين) أى أثبت و أوضح (ممّا ترى العيون) لأنّ العلم بوجوده تعالى عقلىّ يقينىّ لا يتطرّق إليه ما يتطرّق إلى المحسوسات من الغلط و الاشتباه ألا ترى أنّ العين قد يرى الصّغير كبيرا كالعنبة فى الزّجاجة المملوّة ماء، و الكبير صغيرا كالبعيد، و السّاكن متحرّكا كحرف الشّط إذا رآه راكب السّفينة متصاعدا

ص:259

و المتحرّک ساکنا کالظلّ بخلاف المعقولات الصّرفة.

(لم تبلغه العقول بتحدید فیکون مشبّها) المراد بالتّحدید إمّا إثبات الحدّ و النّهایة، أو التّعریف بالذّاتی کما هو عرف المنطقیّین، و ظاهر أنّ اللّه سبحانه منزّه عن الحدود و النّهایات التّی هی من عوارض الأجسام و الجسمانیّات، مقدّس عن الأجزاء و التّرکب مطلقا من الذّاتیات أو العرضیّات، فذاته سبحانه لیس له حدّ و ترکیب حتّی یمکن للعقول البلوغ إلیه بتحدید کما لسایر الأجسام (و لم تقع علیه الأوهام بتقدیر فیکون ممثّلا) قال الشّارح البحرانی: إذ الوهم لا یدرک إلاّ المعانی الجزئیّة المتعلّقة بالمحسوسات. و لا بدّ له فی إدراک ذلک المدرک من بعث المتخیّلة علی تشبیهه بمثال من الصّور الجسمانیّة، فلو وقع علیه و هم لمثّله فی صورة حسیّة حتّی أنّ الوهم إنّما یدرک نفسه فی مثال من صورة و حجم و مقدر (خلق الخلق علی غیر تمثیل) الظّاهر أنّ المراد بالتمثیل ایجاد الخلق علی حذوما خلقه غیره، و لمّا لم یکن الباری سبحانه مسبوقا بغیره فلیس خلقه إلاّ علی وجه الابداع و الاختراع، أو أنّ المراد أنّه لم یجعل لخلقه مثالا قبل الایجاد کما یفعله البنّاء تصویرا لما یرید بنائه، و معلوم أنّ کیفیّة صنعه للعالم منزّهة عن هذا الوجه أیضا کما سبق فی شرح الفصل السّابع من الخطبة الاولی (و لا مشورة مشیر و لا معونة معین) لأنّ الحاجة إلی المشیر و المعین من صفات النّاقص المحتاج و هو سبحانه الغنیّ المطلق فی ذاته و أفعاله فلا یحتاج فی إیجاده إلی مشاورة و لا إعانة (فتمّ خلقه) أی بلغ کلّ مخلوق إلی مرتبة کماله و تمامه الّذی أراده اللّه سبحانه منه أو خرج جمیع ما أراده من العدم إلی الوجود (بأمره) أی بمجرّد أمره التکوینی و محض مشیّته التّامة النّافذة کما قال عزّ من قائل:

«إنّما أمره إذا أراد شیئا أن یقول له کن فیکون»(و أذعن) أی خضع و أقرّ و أسرع و انقاد کلّ (لطاعته فأجاب و لم یدافع، و انقاد و لم ینازع) و هاتان الجملتان مفسّرتان للاذعان، و المراد دخول الخلق تحت القدرة الالهیّة و عدم الاستطاعة

للامتناع كما قال سبحانه «ثمّ استوى إلى السّماء و هى دخان فقال لها و للأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين» و لمّا فرغ من التّحميد و التّمجيد شرع فى المقصود فقال عليه السّلام (و من لطايف صنعته و عجايب خلقته) أى من جملة صنايعه الّتى هى ألطف و أدقّ و أحقّ أن يتعجّب منها (ما أرانا من غوامض الحكمة فى هذه الخفافيش) حيث خالف بينها و بين جميع الحيوانات.

و أشار إلى جهة المخالفة بقوله(الّتى يقبضها الضّياء الباسط لكلّ شىء، و يبسطها الظّلام القابض لكلّ حىّ)لا يخفى ما فى هاتين القرينتين من بديع النظم و حسن التّطبيق، و التّقابل بين القبض و البسط فى القرينة الاولى و البسط و القبض فى الثانيّة ثمّ المقابلة بين مجموع القرينتين بالاعتبار الذى ذكرنا مضافا إلى تقابل الضياء للظّلام،ثمّ ردّ العجز إلى الصّدر، فقد تضمّن هذه الجملة على و جازتها وجوها من محاسن البديع مع عظم خطر معناها.

و الضمير فيقبضهاويبسطهاإمّا عايد إلى الخفافيش بتقدير مضاف، أو على سبيل الاستخدام، و المراد انقباض أعينها فى الضّوء، و ذلك لافراط التحلّل فى الرّوح النّورى لحرّ النّهار، ثمّ يستدرك ذلك برد اللّيل فيعود الابصار، و قيل: الأظهر إنّه ليس لمجرّد الحرّ و إلاّ لزم أن لا يعرضها الانقباض فى الشّتاء إلاّ إذا ظهرت الحرارة فى الهواء، و فى الصّيف أيضا فى أوائل النّهار، بل ذلك لضعف فى قوّتها الباصرة و نوع من التّضاد و التّنافر بينها و بين النّور كالعجز العارض لساير القوى المبصرة عن النظر إلى جرم الشّمس، و أمّا أنّ علة التنافر ما ذا ففيه خفاء و هو منشاء لتعجّب الّذى يشير إليه الكلام.

و إمّا عائد إليها نفسها فيكون المراد بانقباضها ما هو منشأ اختفائها نهارا و إن كان ذلك ناشيا من جهة الابصار.

(و كيف عشيت أعينها) أى عجزت و عميت (عن أن تستمدّ) و تستعين (من الشّمس المضيئة نورا تهتدى به فى مذاهبها) أى طرق معاشها و مسالكها فى سيرها و انتفاعها (و) عن أن (تتّصل بعلانية برهان الشّمس) أى دليلها الواضح

(إلى معارفهـا) يعنى مـا تعرفه من طرق انتفاعهـا و وجوه تصـرّفاتها (و ردعها) أى ردّها و منعها (بتلاءلؤ ضـيائها عن المضـىّ فى سـبحات إشراقها) أى جلاله و بهائه (و أكنّها) أى سترها و أخفاها (فى مكامنها) و محال خفائها عن الذّهاب (فى بلج ائتلاقها) و وضوح لمعانها.

(فهى مسدلة الجفون بالنّهار على حداقتها) لانقباضـها و تأثّر حاسّـتها، و قال البحرانى: لأنّ تحلّل الرّوح الحامل للقوّة الباصـرة سـبب للنّوم أيضا فيكون ذلک الاسدال ضـربا من النّوم(و جاعلة اللّيل سراجا تستدلّ به فى التماس أرزاقها)أى فى طلب الرّزق لها، و اسناد الجاعلة إليها من المجاز العقلىّ(فلا يردّ ابصارها إسـداف ظلمته)الاضافـة للمبالغـة و الضّـمير عايـد إلى اللّيل (و لا تمتنع من المضـىّ) و الذّهاب (فيه لغسق دجنّته) الاضافـة فيه أيضا للمبالغـة (فاذا ألقت الشّـمس قناعها)اسـتعارة بالكنايـة تشبيها للشّـمس بالمرأة ذات القناع، و اثبات القناع تخييل و ذكر الالقاء ترشـيح، و المراد طلوعالشّـمس و بروزها من حجاب الأرض و الآفاق (و بـدت أوضاح نهارها) أى ظهر بياضه (و دخل من إشـراق نورها على الضّـباب فى وجارها) و إنّما خصّـها بالذّكر إذ من عادتها الخروج من و جارها عند طلوع الشّمس لمواجهة النّور على عكس الخفافيش (أطبقت الأجفان) جواب إذا (على مآقيها و تبلّغت) أى اكتفت و قنعت (بما اكتسـبته من المعاش فى ظلم لياليها) فتعيش به و تقنع عليه (فسبحان من جعل اللّيل لها نهارا و معاشا) تعيش فيها (و النّهار سكنا و قرارا) لتسكن و تقرّ فيه ثمّ أشار عليه السّلام إلى جهة ثانيـة لاختلافها لساير الحيوانات بقوله(و جعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنّها شـظايا الآذان)لا يخفى ما فى هـذا التّشبيه من اللّطف و الغرابـة (غير ذوات ريش و لاـ قصب) كمـا لأجنحـة سـاير الطيّور (إلاّ أنّک ترى مواضع العروق بيّنـة أعلاما) أى واضـحة ظـاهرة مثـل طراز الثّوب (و لها جناحان لمّا يرقّا فينشـقّا و لـم يغلظا فيثقلا) يعنى أنّ جناحيه لم يجعلا دقيقين بالغين فى الرّقـة و لا غليظين بالغين فى الغلظ حذرا من الانشقاق

ص:262

و الثّقل المانع من الطيران.

ثمّ أشار عليه السّلام إلى جهة ثالثة للاختلاف بقوله:(تطير و ولدها لاصق بها لا جىء إليها) أى لائذ و معتصم بها (يقع إذا وقعت و يرتفع إذا ارتفعت لا يفارقها) فى حالتى الوقوع و الطيران (حتّى تشتدّ أركانه) و جوانبه الّتى يستند إليها و يقوم بها (و يحمله للنهوض جناحه) و يمكنه الطيران و التصرّف بنفسه (و يعرف مذاهب عيشه و مصالح نفسه)و لما افتتح كلامه بالتحميد ختمه بالتسبيح ليكمل حسن الافتتاح بحسن الاختتام و يتمّ براعة الفاتحة ببراعة الخاتمة فقال(فسبحان البارىء)الخالق (لكلّ شىء على غير مثال خلا)أى مضى و سبق(من غيره)يعنى أنه لم يخلق الأشياء على حدّ و خالق سبقه بل ابتدعها على وفق الحكمة و مقتضى المصلحة

ظريفة فى نوادر الخفاش

قال تعالى: «وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِى » قال فى التفسير: إنّه وضع من الطّين كهيئة الخفّاش و نفخ فيه فصار طائرا.

قال الشّارح فى الأحاديث العاميّة قيل للخفّاش: لما ذا الاجناح لک؟ قال:

لأنّى تصوير مخلوق، قيل: فلما ذا لا تخرج نهارا؟ قال: حياء من الطّيور، يعنون أنّ المسيح صوّره.

و فى البحار فى تفسير قوله: «أَنِّی أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ » قال: المشهور بين الخاصّة و العامّة من المفسّرين أنّ الطّير كان هو الخفّاش قال أبو اللّيث فى تفسيره: إنّ النّاس سألوا عيسى عليه السّلام على وجه التعنّت فقالوا له: اخلق لنا خفّاشا و اجعل فيه روحا إن كنت من الصادقين، فأخذ طينا و جعل خفاشا و نفخ فيه فاذا هو يطير بين السماء و الأرض، و كان تسوية الطين و النفخ من عيسى عليه السّلام، و الخلق من اللّه تعالى و يقال: إنّما طلبوا منه خلق خفّاش لأنّه

أعجب من ساير الخلق، و من عجائبه أنه دم و لحم، يطير بغير ريش، و يلد كما يلد الحيوان و لا يبيض كما يبيض ساير الطيور، و يكون له الضرع و يخرج اللّبن، و لا يبصر فى ضوء النهار و لا فى ظلمة اللّيل، و انما يرى فى ساعتين بعد غروب الشمس ساعة و بعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يسفر جدّا، و يضحک كما يضحک الانسان و تحيض كما تحيض المرأة، فلمّا رأوا ذلک منه ضحكوا و قالوا: هذا سحر مبين فذهبوا إلى جالينوس فأخبروه بذلک فقال: آمنوا به و قال الدّميرى فى حيوة الحيوان: و الحقّ أنه صنفان و قال قوم: الخفّاش الصغير، و الوطواط الكبير، و هو لا يبصر فى ضوء القمر و لا فى ضوء النهار، و لما كان لا يبصر نهارا التمس الوقت الذى لا يكون فيه ظلمة و لا ضوء و هو قريب غروب الشمس لأنّه وقت هيجان البعوض، فانّ البعوض، يخرج ذلک الوقت يطلب قوته و هو دماء الحيوان و الخفاش يطلب الطعام فيقع طالب رزق على طالب رزق، و الخفّاش ليس هو من الطير فى شىء لأنّه ذو اذنين و أسنان و خصيتين، و يحيض، و يطهر، و يضحک كما يضحک الانسان، و يبول كما تبول ذوات الأربع، و يرضع ولده و لا ريش له.

قال بعض المفسّرين: لمّا كان الخفّاش هو الذى خلقه عيسى بن مريم باذن اللّه كان مباينا لصنعه اللّه و لهذا جميع الطّير تقهره و تبغضه فما كان منها يأكل اللّحم أكله و ما لا ياكل اللّحم قتله، فلذلک لا يطير إلاّ ليلا.

و قيل: لم يخلق عيسى غيره، لأنّه أكمل الطّير خلقا و هو أبلغ فى القدرة، لأنّ له ثديا و أسنانا و اذنا و قيل: إنّما طلبوا الخفّاش لأنّه من أعجب الطير، إذ هو لحم و دم، يطير بغير ريش، و هو شديد الطيران، سريع التّقلّب، يقتات بالبعوض و الذّباب و بعض الفواكه، و هو مع ذلک موصوف بطول العمر فيقال: إنّه أطول عمرا من النّسر و من حمار الوحش، و تلد انثاه ما بين ثلاثة أفراخ و سبعة، و كثيرا ما يفسد و هو طاير فى الهواء، و ليس فى الحيوان ما يحمل ولده غيره و القرد و الانسان، و يحمله

تحت جناحه، و ربّما قبض علیه بفیه و هو من حنوه و اشفاقه علیه، و ربّما أرضعت الانثی ولدها و هی طائرة، و فی طبعه أنّه متی أصابه ورق الدّلب حذر و لم یطر، و یوصف بالحمق، و من ذلک أنّه إذا قیل له: اطرق کری، لصق بالأرض.

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن امام مبین و ولیّ مؤمنین است که ذکر می فرماید در آن عجیب خلقت شب پره را.

حمد و ستایش معبود بحقیّ را سزاست که عجز بهم رساند و صفها از کنه معرفت او، و منع نمود عظمت او عقلها را، پس نیافتند گذرگاهی بسوی رسیدن بنهایت پادشاهی او، و اوست معبود بحق پادشاه مطلق که محقّق است وجود او ظاهر است و آشکارا ثابت تر و آشکارتر است از آنچه که می بیند آن را چشمها نمی رسد بکنه ذات او عقلها تا باشد تشبیه کرده شده بمخلوقی از مخلوقات، و واقع نمی شود بر او وهمها باندازه و تقدیری تا باشد تمثیل کرده شده بغیر خود، خلق فرمود مخلوقات را بدون این که مثال آنها را از دیگری برداشته باشد و بدون مشورت مشیر و بی یاری معین، پس تمام شد مخلوق او بمجرّد أمر و إراده او، و گردن نهادند بطاعت او پس اجابت کردند، و مدافعه ننمودند و انقیاد کردند و منازعه ننمودند و از لطیفه های صنعت او و عجیبه های خلقت اوست آنچه نمود بما از پوشیدگی های حکمت خود در این شب پره ها که قبض میکند چشمهای آنها را روشنی که گسترانندۀ هر چیز است، و بسط می کند چشمان ایشان را تاریکی که فراگیرندۀ هر زنده است، و چگونه ضعیف شد چشمهای آنها از آنکه مدد خواهند از آفتاب روشن نوری را که هدایت بیابد بسبب آن نور در مواضع رفتار خود، و برسد بواسطۀ دلیل آشکار آفتاب بسوی راههای معرفت خود، و منع فرمود حق سبحانه و تعالی آن خفّاشها را بسبب درخشیدن روشنائی خورشید تابان از رفتن ایشان در رونق روشنی آن، و پنهان نمود آنها را در مکانهای مخفی آنها از راه

رفتن در درخشیدن آشکار آفتاب.

پس آن شب پره ها فرو گذاشته شده پلکهای چشمهای ایشان در روز بر حدقهای ایشان، و گرداننده اند شب را چراغ که راه می جویند بآن در طلب کردن روزیهای خود، پس باز نمی دارد دیدهای ایشان را تاریکی ظلمت شب، و باز نمی ایستند از گذشتن در شب بجهة تاریکی ظلمت آن، پس زمانی که انداخت آفتاب عالمتاب نقاب خود را، و ظاهر شد روشنائیهای روز آن و داخل شد تافتن نور آن بر سوسمارها در خانهای ایشان، برهم نهند خفّاشها پلکهای چشم خود را بر گوشهای چشم خود، و اکتفا می نمایند به آن چیزی که کسب کرده اند آن را از معاش در ظلمتهای شبهای خودشان.

پس پاکا پروردگاری که گردانیده است شب را از برای ایشان روز و سبب معاش، و روز را بجهة ایشان هنگام آسایش و قرارگاه، و گردانیده است از برای ایشان بالها از گوشت آنها که عروج می کنند بآن بالها در وقت حاجت بپریدن گویا که آن بالها پارچه های گوشهای مردمانست، نه صاحب پرند و نه عروق لیکن تو می بینی جایهای رگهای ایشان را ظاهر و نمایان و خط خط، و مر ایشان راست دو بال که آن قدر رقیق و لطیف نیستند تا شکافته شود، و آن قدر غلیظ و کثیف نیستند تا سنگین باشد، طیران می کنند در حالتی که بچهٔ ایشان چسبنده است بایشان پناه آورنده است بسوی ایشان، می افتد آن وقتی که مادرشان می افتد، و بلند می شود زمانی که مادرشان بلند میباشد، جدا نمی شود بچه ها از آنها تا آنکه اعضای آنها محکم شود، و تا آنکه بردارد آنها را بجهت برخواستن بال آنها، و تا بشناسند راههای معاش و زندگانی خود را.

پس منزّه است پروردگار آفرینندهٔ هر چیز بدون نمونه که گذشته باشد صدور آن از غیر او، از جهة این که اوست مخترع أشیا که ایجاد آن بر سبیل ابداعست و اختراع.

ص:266

و من كلام له عليه السّلام خاطب به أهل البصرة على

اشارة

جهة اقتصاص الملاحم و هو المأة و الخامس

و الخمسون من المختار فى باب الخطب

و شرحها فى فصلين:

الفصل الأول منه

اشارة

فمن استطاع عند ذلک أن يعتقل نفسه على اللّه فليفعل، فإن أطعتمونى فإنّى حاملكم إنشاء اللّه على سبيل الجنّة و إن كان ذا مشقّة شديدة، و مذاقة مريرة، و أمّا فلانة فأدركها رأى النّساء و ضغن غلا فى صدرها كمرجل القين، و لو دعيت لتنال من غيرى ما أتت إلىّ لم تفعل و لها بعد حرمتها الاولى و الحساب على اللّه.

اللغة

(المرجل) وزان منبر القدر و (القين) الحدّاد.

الاعراب

على فى قوله: على اللّه، فى الموضعين للاستعلاء المجازى و جملة لم تفعل جواب لو، و الباقى واضح.

ص:267

المعنى

اشارة

قال الشّارح البحرانى «قدّه» إنّ قوله عليه السّلام (فمن استطاع عند ذلک) يقتضى أنّه سبق منه عليه السّلام قبل هذا الفصل ذكر فتن و حروب يقع بين المسلمين وجب على من أدركها (أن يعتقل نفسه على اللّه) أى يحبسها على طاعته من دون أن يخالطها و يدخل فيها (فليفعل) لوجوب طاعته سبحانه عقلا و نقلا (فان أطعتمونى فانّى حاملكم انشاء اللّه على سبيل الجنّة) و سبيلها هو الدّين القويم و الصراط المستقيم و إنّما شرط عليه السّلام حملهم عليها باطاعته إذ لا رأى لمن لا يطاع (و إن كان) هذه السّبيل و سلوكها (ذا مشقّة شديدة و مذاقة مريرة) لظهور أنّ النّفوس مايلة إلى اللّهو و الباطل، و المواظبة على الطّاعات و الوقوف عند المحرّمات أمر شاقّ شديد المشقّة مرّ المذاق بعيد عن المساغ البتّة.

(و أمّا فلانة) كنّى بها عن عايشة و لعلّه من السيّد «ره» تقيّة كما كنّى فى الخطبة الشّقشقيّة عن أبى بكر بفلان (فأدركها رأى النّساء) أى ضعف الرّأى فانّ رأيهنّ إلى الأفن و عزمهنّ إلى الوهن، و قد تقدّم ما ما يدلّ على نقصان حظوظهنّ و عقولهنّ و ميراثهنّ و ساير خصالهنّ المذمومة فى الكلام التّاسع و السّبعين و شرحه (و ضغن) أى حقد (غلا فى صدرها كمرجل القين) أى كغليان قدر الحدّاد، و هو من تشبيه المعقول بالمحسوس، و وجه الشّبه الشّدة و الدّوامو أسباب ضغنها كثيرة ستطّلع عليها بعيد ذلک.

(و لو دعيت لتنال غيرى ما أتت إلىّ لم تفعل) قال الشّارح المعتزلىّ: يقول لو أنّ عمر ولىّ الخلافة بعد قتل عثمان على الوجه الّذى قتل عليه و الوجه الّذى أنا ولّيت الخلافة عليه و نسب عمر إلى أنّه كان يؤثر قتله أو يحرض عليه، و دعيت إلى أن تخرج عليه فى عصابة من المسلمين إلى بعض بلاد الاسلام تثير فتنة و تنقض البيعة لم تفعل، و هذا حقّ لأنّها لم تكن تجد على عمر ما تجده على علىّ عليه السّلام و لا الحال الحال، انتهى.

و محصّله أنّه عليه السّلام أراد بقوله من غيرى عمر قال العلاّمة المجلسىّ:

ص:268

و الأظهر الأعمّ، أى لو كان عمر أو أحد من أضرابه ولىّ الخلافة بعد قتل عثمان و دعيت إلى أن تخرج إليه لم تفعل (و لها بعد حرمتها الأولى) أى كونها من امّهات المؤمنين(و الحساب على اللّه)هذا من باب الاحتراس الّذى تقدّم فى ديباجة الشّرح أنّه من جملة المحسّنات البديعيّة، فانّه عليه السّلام لما أثبت لها حرمتها الاولى عقّبه بذلک لئلا يتوهّم منه أنّها محترمة فى الدّنيا و العقبى، و نبّه به على أنّ حرمتها ملحوظة فى الدّنيا فقط لرعاية احترام الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمّا فى الأخرى فجزاء ضغنها و خروجها عن طاعة الامام المفترض الطّاعة و إثارتها الفتنة المؤدّية إلى إراقة دماء المسلمين على اللّه سبحانه إذ من يعمل مثقال ذرّة خيرا يره و من يعمل مثقال ذرّة شرا يره و قد قال تعالى:«يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِکَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً »

تذييل فى ذكر عايشه و ذكر أسباب ضغنها

أورد الشّارح المعتزلى فى شرح هذا الكلام له عليه السّلام فصلا طويلا كم فيه من التّصريح و التعريض و التلويح إلى مثالب عايشة و مطاعنها و إن لم يرفع الشّارح يده مع ذلک كلّه عن ذيل الاعتساف و التّعصّب أحببت ايراد ذلک الكلام على طوله لأنّه من لسان أبنائها أحلى و نعقّبه إنشاء اللّه بما عندنا من القول الفصل الّذى ليس هو بالهزل، و من الحقّ الذى هو أحقّ أن يتّبع، فأقول:

قال الشارح: كانت عايشة فقيهة راوية للشّعر ذات حظّ من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كانت لها عليه جرأة و إدلال لم يزل ينمى و يستسرى حتّى كان منها فى أمره فى قصّة مارية ما كانت من الحديث الذّى أسرّه إلى الزّوجة الأخرى و أدّى إلى تظاهرهما عليه و أنزل فيهما قرآن يتلى فى المحاريب يتضمّن وعيدا غليظا عقيب تصريح بوقوع الذّنب و صغو القلب و أعقبتها تلک الجرأة و ذلک الانبساط أن حدث منها فى أيّام الخلافة العلويّة ما حدث، و لقد عفى اللّه تعالى عنها و هى من أهل الجنّة عندنا بسابق الوعد و ما صحّ من أمر التّوبة إلى أن قال:

فأمّا قوله عليه السّلام: أدركها رأى النّساء، أى ضعف آرائهنّ و قد جاء فى الخبر لا يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة، و جاء أنّهنّ قليلات عقل و دين، أو قال ضعيفات و لذلك جعل شهادة المرأتين بشهادة الرّجل الواحد، و المرأة فى أصل الخلقة سريعة الانخداع سريعة الغضب سيّئة الظنّ فاسدة التّدبير، و الشجاعة فيهنّ مفقودة أو قليلة و كذلك السّخاء.

قال الشّارح: و أمّا الضغن فاعلم أنّ هذا الكلام يحتاج إلى شرح، و قد كنت قرأته على الشّيخ أبى يعقوب يوسف بن إسماعيل اللّمعانى (ره) أيّام اشتغالى عليه بعلم الكلام، و سألته عمّا عنده فأجابنى بجواب طويل أنا أذكر محصوله بعضه بلفظه و بعضه بلفظى فقد شذّ عنّى الآن لفظه كلّه بعينه قال: أوّل بداء الضغن كان بينها و بين فاطمة عليها السلام، و ذلک لأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله تزوّجها عقيب موت خديجة فأقامها مقامها، و فاطمة عليها السّلام هى ابنة خديجة، و من المعلوم أنّ ابنة الرّجل إذا ماتت أمّها و تزوّج أبوها أخرى كان بين الابنة و بين المرأة كدروشنان، و هذا لا بدّ منه لأنّ الزّوجة تنفس عليها ميل الأب، و البنت تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة كالضّرة لامّها، بل هى ضرّة على الحقيقة و إن كانت الامّ ميتة و لأنا لو قدّرنا الامّ حيّة لكانت العداوة مضطرمة متسعّرة فاذا كانت قد ماتت ورثتها بنتها تلک العداوة.

ثمّ اتّفق أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مال إليها و أحبّها فازداد ما عند فاطمة بحسب زيادة ميله، و أكرم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاطمة إكراما عظيما أكثر ممّا كان النّاس يظنّونه و أكثر من إكرام الرّجال لبناتهم حتّى خرج بها عن حدّ حبّ الآباء للأولاد فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بمحضر الخاصّ و العامّ مرارا لا مرّة واحدة، و فى مقامات مختلفة لا فى مقام واحد: إنّها سيّدة نساء العالمين، و إنّها عديلة مريم بنت عمران، و إنّها إذا مرّت فى الموقف نادى مناد من جهة العرش يا أهل الموقف غضّوا أبصاركم لتعبر فاطمة بنت محمّد صلّى اللّه عليه و آله، و هذا من الأحاديث الصحيحة و ليس من الأخبار المستضعفة و أنّ انكاحه عليا إيّاها ما كان إلاّ بعد أن أنكحه اللّه إيّاها فى السّماء بشهادة الملائكة

ص:270

و كم قال لا مرّة: يؤذينى ما يؤذيها و يغضبنى ما يغضبها، و إنها بضعة يريبنى ما رابها.

فكان هـذا و أمثاله يوجب زيادة الضـغن عنـد الزّوجـة حسب زيادة هـذا التعظيم و التبجيل، و النفوس البشـريّة تغيظ على ما هو دون هـذا فكيف هذا؟! ثمّ حصل عند بعلها عليهما السّلام ما هو حاصل عندها أعنى عليّا عليه السّلام، فانّ النساء كثيرا ما يحصلن الأحقاد فى قلوب الرّجال لا سـيّما و هنّ محدّثات اللّيل كما قيل فى المثل، و كانت تكثر الشكوى من عايشة و يغشيها نساء المدينة و جيران بيتها فينقلن إليها كلمات عن عايشـة ثمّ يـذهبن إلى بيت عايشة فينقلن إليها كلمات عن فاطمة، و كما كانت فاطمة تشـكو إلى بعلها كانت عايشة تشـكو إلى أبيها لعلمها أنّ بعلها لا يشكيها على ابنته فحصل فى نفس أبى بكر من ذلک أثر ما.

ثمّ تزايد تقريظ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعلىّ و تقريبه و اختصاصه، فأحدث ذلک حسدا له و غيظة فى نفس أبى بكر عنه و هو أبوها و فى نفس طلحـة و هو ابن عمّها و هى تجلس إليهما و تسـمع كلامهما و هما يجلسان إليها و يحادثانها فأعدى إليها منهما كما أعدى إليهما منها.

قـال: و لست ابرّىء عليّا من مثل ذلک، فانه كان ينفس على أبى بكر سـكون النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إليه و ثنائه عليه، و يحبّ أن ينفرد هو بهذه المزايا و الخصائص دونه و دون الناس أجمعين، و من انحرف عن إنسان انحرف عن أهله و أولاده فتأكّدت البغضة بين هذين الفريقين.

ثمّ كان من أمر القذف ما كان و لـم يكن علىّ عليه السّـلام من القاذفين و لكنه كان من المشيرين على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بطلاقهـا تنزيّها لعرضه عن أقوال الشـناة و المنافقين قال له لما اسـتشاره: إن هى إلاّ شـسع نعلک و قال له: سل الخادم و خوّفها و إن أقامت على الجحود فاضـربها و بلغ عايشة هذا الكلام كلّه و سـمعت أضـعافه ممّا جرت عادة الناس أن يتداولوه فى مثل هذه الواقعة، و نقل النساء إليها كلاما كثيرا عن علىّ و فاطمة فاشتدّت

و غلظت و طوى كلّ من الفريقين قلبه على الشنآن لصاحبه ثمّ كان بينها و بين علىّ عليه السّلام فى حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أحوال و أقوال كلّها تقتضى تهيّج ما فى النفوس، نحو قولها له و قد استدناه رسول اللّه فجاء حتّى قعد بينه و بينها و هما متلاصقان: أما وجدت مقعدا لكذا - لا تكنى عنه - إلاّ فخذى، و نحو ما روى أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سايره يوما و أطال مناجاته فجاءت و هى سايرة خلفهما حتّى دخلت بينهما و قالت: فيم أنتما فقد أطلتما، فيقال: إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم غضب ذلک اليوم و ما روى فى حديث الجفنة من الثريد التى أمرت الخادم فوقفت لها فاكفأتها و نحوها ممّا يكون بين الأهل و بين المرأة و أحماتها.

ثمّ اتّفق أنّ فاطمة ولدت أولادا كثيرا بنين و بنات و لم تلد هى ولدا، و أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يقيم بنى فاطمة مقام بنيه و يسمّى الواحد منهما و يقول: دعوا لى ابنى، و لا تزرموا على ابنى، و ما فعل ابنى، فما ظنّک بالزّوجة إذا حرمت الولد من البعل ثمّ رأت البعل يتبنّى بنى ابنته من غيرها و يحنو عليهم حنو الولد المشفق هل تكون محبّة لأولئک البنين و لامّهم و لأبيهم أم مبغضة؟! و هل تودّ دوام ذلک و استمراره أم زواله و انقضائه؟! ثمّ اتّفق أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سدّ باب أبيها إلى المسجد و فتح باب صهره ثمّ بعث أباها ببراءة إلى مكّة ثمّ عزله عنها بصهره، فقدح ذلک أيضا فى نفسها.

و ولد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إبراهيم من مارية فأظهر علىّ عليه السّلام بذلک سرورا كثيرا و كان يتعصّب لمارية و يقوم بأمرها عند رسول اللّه ميلا على غيرها، و جرت لمارية نكبة مناسبة لنكبة عايشة فبرّءها علىّ عليه السّلام منه و كشف بطلانها و كشفه اللّه تعالى على يده و كان ذلک كشفا محسّا بالبصر لا يتهيّأ للمنافقين أن يقولوا فيه ما قالوا فى القرآن المنزل ببراءة عايشة، و كلّ ذلک مما كان يوعر صدر عايشة عليه و يؤكّد ما فى نفسها منه.

ص:272

ثمّ مات إبراهيم فأبطنت شماتة و إن أظهرت كآبة، و وجم عليّ عليه السّلام من ذلك و كذلك فاطمة و كانا يؤثران و يريدان أن تتميّز مارية عليها بالولد فلم يقدّر لهما و لا لمارية ذلك.

و بقيت الأمور على ما هى عليه و فى النّفوس ما فيها، حتّى مرض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المرض الّذى توفّى فيه، فكانت فاطمة و عليّ يريدان أن يمرّضاه فى بيتهما و كذلك كانت أزواجه فمال إلى بيت عايشة بمقتضى المحبّة القلبيّة الّتى كانت لها دون نسائه، و كره أن يزاحم فاطمة و بعلها فى بيتهما فلا يكون عنده من الانبساط بوجودهما ما يكون إذا خلا بنفسه فى بيت من يميل إليه بطبعه و علم أنّ المريض يحتاج إلى فضل مداراة و نوم و يقظة و انكشاف و خروج حدث فكانت نفسه إلى بيته أسكن منها إلى بيت صهره و بنته فانّه إذا تصوّر حيائهما منه استحيى هو أيضا منهما و كلّ أحد يحبّ أن يخلو بنفسه و يحتشم الصّهر و البنت و لم يكن له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى غيرها من الزّوجات مثل ذلك الميل اليها فتمرّض فى بيتها فغبطت على ذلك، و لم يمرض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منذ قدم المدينة مثل ذلك المرض و إنّما كان مرضه الشقيقة يوما أو بعض يوم ثمّ تبرء فتطاول هذا المرض.

و كان عليّ عليه السّلام لا يشكّ أنّ الأمر له و أنّه لا ينازعه فيه أحد من النّاس و لهذا قال له عمّه و قد مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: امدد يدك أبايعك، فيقول النّاس عمّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بايع ابن عمّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلا يختلف عليك اثنان، قال: يا عمّ و هل يطمع فيها طامع غيرى؟ قال: ستعلم، قال: فانّى لا أحبّ هذا الأمر من وراء رتاج و أحبّ أن اصهر «اصحر» به فسكت عنه.

فلما ثقل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مرضه أنفذ جيش اسامة و جعل فيه أبا بكر و غيره من أعلام المهاجرين و الأنصار، فكان عليّ عليه السّلام حينئذ بوصوله إلى الأمر إن حدث برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أوثق، و تغلب على ظنّه أنّ المدينة لو مات صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لخلت من منازع ينازعه الأمر بالكليّة، فيأخذه صفوا عفوا، و يتمّ له البيعة فلا يتهيّأ فسخها لو رام ضدّ منازعة عليها.

فكان من عود أبى بكر من جيش اسامة بارسالها إليه و إعلامه بأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يموت ما كان، و من حديث الصّلاة ما عرفت، فنسب علىّ عليه السّلام عايشة إلى أنّها أمرت بلالا مولى أبيها أن يأمره فليصلّ بالنّاس، لأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما روى قال:

ليصلّ بهم أحدهم و لم يعيّن و كانت صلاة الصّبح.

فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو فى آخر رمق يتهادى بين علىّ عليه السّلام و الفضل ابن العبّاس حتّى قام فى المحراب كما ورد فى الخبر، ثمّ دخل فمات ارتفاع الضّحى فجعل يوم صلاته حجّة فى صرف الأمر إليه، و قال: أيّكم أطيب نفسا أن يتقدّم قدمين قدّمهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الصّلاة و لم يحملوا خروج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى الصلاة لصرفه عنها بل لمحافظته على الصّلاة مهما أمكن.

فبويع على هذه النّكتة الّتى اتّهمها علىّ عليه السّلام أنّها ابتدأت منها و كان علىّ عليه السّلام يذكر هذا لأصحابه فى خلواته كثيرا و يقول: إنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يقل إنّكنّ لصويحبات يوسف إلاّ إنكارا لهذه الحال و غضبا منها لأنّها و حفصة تبادرتا إلى تعيين أبويهما و أنّه استدركها بخروجه و صرفه عن المحراب فلم يجد ذلك و لا أثر مع قوّة الدّاعى الّذى يدعو الى أبى بكر و يمهد له قاعدة الأمر و تقرّر حاله فى نفوس النّاس و من اتّبعه على ذلك من أعيان المهاجرين و الأنصار و لما ساعد على ذلك من الحظ الفلكى الأمر السّمائى الّذى جمع عليه القلوب و الأهواء فكانت هذه الحال عند علىّ عليه السّلام أعظم من كلّ عظيم و هى الطّامة الكبرى و المصيبة العظمى و لم ينسبها إلاّ إلى عايشة وحدها، و لا علّق الأمر الواقع إلاّ بها، فدعا عليها فى خلواته و بين خواصّه و تظلّم إلى اللّه منها، و جرى له فى تخلّفه عن البيعة ما هو مشهور حتّى بايع.

و كان تبلغه و فاطمة عنها كلّ ما يكرهانه منذ مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى أن توفّيت فاطمة عليها السلام و هما صابران على مضض و رمض، و استظهرت بولاية أبيها و استطالت و عظم شأنها و انخذل علىّ عليه السّلام و فاطمة و قهرا، و أخذت فدك و خرجت فاطمة تجادل فى ذلك مرارا فلم تظفر بشىء.

و فى كلّ ذلک تبلّغها النّساء الداخلات و الخارجات عن عايشة كلّ كلام يسوؤها و يبلغن عايشة عنها و عن بعلها مثل ذلک، إلاّ أنّه شتّان ما بين الحالين و بعد ما بين الفريقين، هذه غالبة و هذه مغلوبة، هذه آمرة و هذه مأمورة و ظهر التّشفى و الشّماتة و لا شىء أعظم مرارة و مشقّة من شماتة العدوّ.

قال الشارح: فقلت له: أ فتقول أنت إنّ عايشة عيّنت أباها للصّلاة و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يعيّنه؟ فقال: أما أنا فلا أقول ذلک، و لكن عليّا عليه السّلام كان يقوله، و تكليفى غير تكليفه كان حاضرا و لم أكن حاضرا، فأنا محجوج بالأخبار الّتى اتّصلت بى و هى تتضمّن تعيين النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأبى بكر فى الصلاة و هو محجوج بما كان قد علمه أو يغلب على ظنّه من الحال الّتى كان حضرها.

قال: ثمّ ماتت فاطمة عليها السلام فجاء نساء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كلّهنّ إلى بنى هاشم فى العزاء إلاّ عايشة، فانها لم تأت أظهرت مرضا، و نقل إلى علىّ عليه السّلام عنها كلام يدلّ على السرور.

ثمّ بايع علىّ عليه السّلام أباها فسّرت بذلک و أظهرت من الاستبشار بتمام البيعة و استقرار الخلافة و بطلان منازعة الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثروا.

و استمرّت الامور على هذه مدّة خلافة أبيها و خلافة عمر و عثمان، و القلوب تغلى و الأحقاد تذيب الحجارة، و كلّما طال الزّمان على علىّ عليه السّلام تضاعفت همومه و غمومه، و باح بما فى نفسه إلى أن قتل عثمان و قد كانت عايشة أشدّ الناس عليه تأليبا و تحريضا، فقالت: أبعده اللّه لما سمعت قتله و أمّلت أن يكون الخلافة فى طلحة فيعود الأمر تيميّة كما كانت أوّلا، فعدل الناس عنه إلى علىّ بن أبى طالب عليه السّلام، فلما سمعت ذلک صرخت وا عثماناه قتل عثمان مظلوما و ثارما فى الأنفس حتى تولد من ذلک يوم الجمل و ما بعده.

قال الشّارح: هذه خلاصة كلام الشيخ أبى يعقوب و لم يكن يتشيّع، و كان شديدا فى الاعتزال إلاّ أنّه كان فى التفضيل بغداديّا.

ثم قال الشارح فى شرح قوله عليه السّلام و الحساب على اللّه:

ص:275

فان قلت: هذا الكلام يدلّ على توقّفه فى أمرها و أنتم تقولون إنّها من أهل الجنّة فكيف تجمعون بين مذاهبكم و هذا الكلام؟ قلت: يجوز أن يكون عليه السّلام قال هذا الكلام قبل أن يتواتر الخبر عنده بتوبتها فانّ أصحابنا يقولون: إنّها تابت بعد قتل أمير المؤمنين عليه السّلام و ندمت و قالت: لوددت أنّ لى من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عشرة بنين كلّهم ماتوا و لم يكن يوم الجمل، و أنّها كانت بعد قتله تثنى عليه و تنشر مناقبه.

مع أنّهم رووا أيضا أنّها عقيب الجمل كانت تبكى حتّى تبلّ خمارها، و أنّها استغفرت اللّه و ندمت و لكن لم تبلغ أمير المؤمنين عليه السّلام حديث توبتها عقيب الجمل بلاغا يقطع العذر و يثبت الحجّة و الّذى شاع عنها من أمر النّدم و التّوبة شياعا مستفيضا إنّما كان بعد قتله عليه السّلام إلى أن ماتت و هى على ذلک، و التّائب مغفور له و يجب قبول التوبة عندنا فى العدل و قد أكّد وقوع التّوبة منها ما روى فى الأخبار المشهورة أنّها زوجة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآخرة كما كانت زوجته فى الدّنيا، و مثل هذا الخبر إذا شاع أوجب علينا أن نتكلّف إثبات توبتها لو لم ينقل فكيف و النّقل لها يكاد أن يبلغ حدّ التّواتر، انتهى كلام الشّارح المعتزلى.

و ينبغى لنا أن نعقبه بما عندنا فى هذا المقام فأقول و باللّه التكلان:

اماما اشار اليه الشّارح من أنّه كان من عايشة فى أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى قصّة مارية ما كان من الحديث الّذى أسرّه إلى الزوجة الاخرى و أدّى إلى تظاهرهما عليه و أنزل فيهما قرآن يتلى فى المحاريب آه فشرحه ما ذكره المفسّرون من العامّة و الخاصّة فى تفسير قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللّهُ لَکَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِکَ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » قال فى الكشّاف: روى أنّه عليه الصّلاة و السّلام خلا بمارية فى يوم عايشة و علمت بذلک حفصة فقال لها: اكتمى علىّ و قد حرمت مارية على نفسى و ابشرک أنّ أبا بكر و عمر يملكان بعدى أمر امّتى فأخبرت به و كانتا متصادقتين، و فى التّفسير الكبير فى تفسير قوله تعالى: «وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ »

«فَلَمّـ ا نَبَّأَهـا بِهِ قـالَتْ مَنْ أَنْبَأَکَ هـذا قالَ نَبَّأَنِیَ الْعَلِیمُ الْخَبِیرُ » قال الفخر الرّازی یعنی ما أسـرّ إلی حفصـة من تحریم الجاریـة علی نفسه و استکتمها ذلـک، و قیـل: لمّـ ا رأی النّبی الغیرة فی وجه حفصـة أراد أن یرضاها فأسـرّ إلیها بشـیئین: تحریم الأمـة علی نفسه، و البشارة بأنّ الخلافـة بعـده فی أبی بکر و أبیها عمر، قاله ابن عباس و قوله: فلمّا نبأت به أی أخبرت به عایشـة و أظهره اللّه علیه اطلع نبیّه علی قول حفصـة لعایشة فأخبر النّبیّ حفصة عند ذلک ببعض ما قالت و هو قوله تعالی: عرّف بعضه حفصة و أعرض عن بعض لـم یخبرها انّک أخبرت عایشـة علی وجه التّکریم و الإغضاء، و الذی أعرض عنه ذکر خلافة أبی بکر و عمر و قال القمّی: سـبب نزولها أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان فی بعض بیوت نسائه، و کانت ماریـة القبطیّـة تکون معه تخـدمه، و کان ذات یوم فی بیت حفصـة، فـذهبت حفصة فی حاجة لها فتناول رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم ماریـة فعلمت حفصة بذلک فغضـبت و أقبلت علی رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فقالت: یا رسول اللّه فی یومی و فی داری و علی فراشـی، فاسـتحی رسول اللّه منها فقال: کفی فقد حرّمت ماریة علی نفسـی و لا أطاها بعد هذا أبدا، و أنا أفضی الیک سرّا إن أنت أخبرت به فعلیک لعنة اللّه و الملائکة و النّاس أجمعین فقالت: نعم ما هو؟ فقال صلّی اللّه علیه و آله و سـلّم إنّ أبا بکر یلی الخلافـة بعدی، ثمّ بعده أبوک فقالت من أنباک؟ فقال نبّأنی العلیم الخبیر، فأخبرت حفصة به عایشة من یومها ذلک و أخبرت عایشـة أبا بکر فجاء أبو بکر إلی عمر فقال له: إنّ عایشة أخبرتنی عن حفصة بشـیء و لا أثق بقولها، فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلی حفصة فقال لها: ما هذا الّذی أخبرت عنک عایشة؟ فأنکرت ذلک و قالت: ما قلت لها من ذلک شـیئا، فقال عمر: إنّ هذا حقّ فأخبرینا حتّی نتقدّم فیه، فقالت: نعم قد قال رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فاجتمعوا أربعة علی أن یسـمّوا رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم فنزل جبرئیل علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذه السّورة قال: و أظهره اللّه علیه یعنی و أظهره اللّه علی ما أخبرت به و ما همّوا به من قتله عرف بعضه أی خبرهـا و قـال: لـم أخبرت بمـا خبرتـک به و أعرض عن بعض قـال: لـم یخبرهـم بما یعلم بما همّوا به من قتله، و قال تعالی فی هذه السّورة:

«ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلاَ النّارَ مَعَ الدّاخِلِينَ » قال فى تفسير الصّافى: مثل اللّه حال الكفّار و المنافقين فى أنّهم يعاقبون بكفرهم و نفاقهم و لا يحابون بما بينهم و بين النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين من النّسبة و الوصلة بحال امرأة نوح و امرأة لوط، و فيه تعريض بعايشة و حفصة فى خيانتهما رسول اللّه بافشاء سرّه و نفاقهما إيّاه و تظاهرهما عليه كما فعلت امرئتا الرّسولين فلم يغن الرّسولان عنهما بحقّ الزّواج إغناء ما و قيل لهما بعد موتهما أو يوم القيامة: ادخلا النّار مع الدّاخلين الّذين لا وصلة بينهم و بين الأنبياء.

و اما اسباب الضّغن التى بين عايشة و فاطمة عليها السّلام على ما فصّلها و حكاها عن الشّيخ أبى يعقوب اللّمعانى فهى كما ذكره إلاّ أنّ اللاّئمة فيها كلّها راجعة إلى عايشة و أبيها، و تشريكه بينهما و بين فاطمة و بعلها سلام اللّه عليهما فى ذلك أى فى الاتّصاف بالضغن و الحقد و الحسد غلط فاحش بعد شهادة آية التطهير و غيرها بعصمتهما و برائة ساحتهما عن دنس المعاصى و الذّنوب و طهارة ذيلهما عن وسخ الآثام و العيوب.

و من ذلک يعلم ما فى قوله: و لست أبرّء عليّا من مثل ذلک فانّه كان ينفس على أبى بكر سكون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إليه و ثنائه عليه و يحبّ أن ينفرد هو بهذه المزايا و الخصائص دونه و دون النّاس أجمعين مضافا إلى ما فيه من أنّا لم نسمع إلى الآن لأبى بكر مزيّة و خاصّة و مكرمة اختصّ بها، و لم نظفر بأنّ النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوما أثنا عليه و سكن اليه، و الأخبار المفصحة عن شقاقه و نفاقه و إزراء الرّسول عليه فى غير موطن فوق حدّ الاحصاء، و لو لم يكن شاهد على عدم سكونه إليه غير بعثه بسورة برائة إلى مكّة ثمّ عزله عنها لكفى.

و أمّا الحديث الذى رواه عن النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أعنى قوله: و كم قال لا مرّة يؤذينى ما يؤذيها و يغضبنى ما يغضبها، فهو حديث صحيح رواه العامّة و الخاصّة، و ما أدرى ما يجيب متعصّبى أبى بكر و عمر عن ذلک، فانّ غصبهما فدک منها و أمرهما

باحراق باب بيتها و إخراج بعلها ملبّبا إلى المسجد للبيعة كان بالضّرورة موجبا لغضبها و اذيها، فاذا انضمّ إلى ذلك الحديث الّذى رووه و أضيف إليهما قوله سبحانه «وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ » ينتج أنّهما فى العذاب الأليم و السّخط العظيم كما مرّ تفصيله فى التّنبيه الثّانى فى شرح الكلام السّادس و السّتين، و قد تقدّم هناك قول الشّارح أنّ الصحيح عندى أنها ماتت و هى واجدة على أبى بكر و عمر، و أنها أوصت أن لا يصلّيا عليها، فانظر ما ذا ترى.

و أما ما تكلّفه الشارح فى آخر كلامه فى اثبات توبة الخاطئة فدعوى لا تفى باثباتها بيّنة و هو يريد اصلاح أمرها - و لن يصلح العطّار ما أفسد الدّهر - و كيف تتوب عن خطائها و تندم على تفريطها بعد رسوخ الضغن فى هذه السنين المتطاولة فى قلبها و تزايد أسباب الحقد و الحسد و تراكمها يوما فيوما على ما فصّلها الشارح عن اللّمعانى، و قد تقدّم ما يرشدك إلى بطلان هذه الدعوى فى شرح الكلام التاسع و السبعين و اورد هنا مضافا إلى ما سبق ما حققه شيخ الطايفة قدّس اللّه روحه فى تلخيص الشافى فى إبطال تلك الدّعوى.

قال فى محكيّ كلامه فى البحار: و أمّا الكلام فى توبة عايشة فما بيناه من الطرق الثلاث فى توبة طلحة و الزّبير هى معتمدة فيما يدّعونه من توبة عايشة.

أوّلها أنّ جميع ما يروونه من الأخبار لا يمكن ادّعاء العلم فيها و لا القطع على صحّتها، و أحسن الأحوال فيها أن يوجب الظنّ و قد بيّنا أنّ المعلوم لا يرجع عنه بالمظنون.

و الثانى أنها معارضة بأخبار تزيد ما رووه فى القوّة أو تساويه، فمن ذلك ما رواه الواقدى باسناده عن مسعبة عن ابن عباس قال: أرسلنى علىّ إلى عايشة بعد الهزيمة و هى فى دار الخزاعييّن يأمرها أن ترجع إلى بلادها و ساق الحديث إلى قوله فبكت مرّة أخرى أشدّ من بكائها الأوّل ثمّ قالت: و اللّه لئن لم يغفر اللّه لنا لنهلكنّ ثمّ ساق الحديث إلى آخره ثمّ قال:

فان قيل: ففى هذا الخبر دليل على التوبة و هى قولها عقيب بكائها لئن لم يغفر

اللّه لنا لنهلكنّ.

قلنا: قد كشف الأمر ما عقبت هذا الكلام به من اعترافها ببغض أمير المؤمنين و بغض أصحابه المؤمنين، و قد أوجب اللّه عليها محبّتهم و تعظيمهم، و هذا دليل على الاصرار و أنّ بكائها إنّما كان للخيبة لا للتّوبة، و ما كان فى قولها لئن لم يغفر اللّه لنا لنهلكنّ من دليل على التّوبة و قد يقول المصرّ مثل ذلک إذا كان عارفا بخطائه فيما ارتكبه، و ليس كلّ من ارتكب ذنبا يعتقد أنّه حسن حتّى لا يكون خائفا من العقاب عليه، و أكثر مرتكبى الذّنوب يخافون العقاب مع الاصرار، و يظهر منهم مثل ما حكى من عايشة و لا يكون توبة و روى الواقدى باسناده أنّ عمّارا رحمة اللّه عليه استأذن على عايشة بالبصرة بعد الفتح فأذنت له فدخل فقال: يا امه كيف رأيت اللّه صنع حين جمع بين الحقّ و الباطل ألم يظهر اللّه الحقّ على الباطل و يزهق الباطل؟ فقالت: إنّ الحرب دول و سجال و قد اديل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكن انظر يا عمّار كيف تكون فى عاقبة أمرک.

و روى الطبرىّ فى تاريخه أنّه لمّا انتهى إلى عايشة قتل أمير المؤمنين قالت:

فألقت عصاها و استقرّ بها النّوى كما قرّ عينا بالأياب المسافر

من قتله؟ فقيل: رجل من مراد، فقالت:

فان يک تائبا فلقد نعاه بنعى ليس فى فيه التراب

فقالت زينب بنت سلمة بن أبى سلمة: أ لعلىّ تقولين هذا؟ فقالت: إنّى أنسى فاذا نسيت فذكّرونى، و هذه سخريّة منها بزينب و تمويه خوفا من شناعتها، و معلوم أنّ النّاسى و السّاهى لا يتمثّل بالشّعر فى الأغراض المطابقة، و لم يكن ذلک منها إلاّ عن قصد و معرفة.

و روى عن ابن عبّاس أنّه قال لأمير المؤمنين لمّا أبت عايشة الرّجوع إلى المدينة: أرى أن تدعها يا أمير المؤمنين بالبصرة و لا ترحلها، فقال له أمير المؤمنين عليه السّلام: إنّها لا تالو شرّا و لكنّى أردّها إلى بيتها الّذى تركها فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

فانّ اللّه بالغ أمره.

و روى محمّد بن إسحاق عن جنادة أنّ عايشة لمّا وصلت إلى المدينة راجعة من البصرة لم تزل تحرّض النّاس على أمير المؤمنين، و كتبت إلى معاوية و إلى أهل الشّام مع الأسود بن أبى البخترى تحرّضهم عليه صلوات اللّه عليه.

و روى عن مسروق أنّه قال: دخلت على عايشة فجلست إليها فحدّثتنى و استدعت غلاما أسود يقال له: عبد الرّحمن، فجاء حتّى وقف فقالت: يا مسروق أ تدرى لم سمّيته عبد الرّحمن؟ فقلت: لا، فقالت: حبّا منّى لعبد الرّحمن بن ملجم فأمّا قصّتها فى دفن الحسن فمشهورة حتّى قال لها عبد اللّه بن عباس: يوما على بغل و يوما على جمل، فقالت: أو ما نسيتم يوم الجمل يا ابن عبّاس إنّكم لذوو أحقاد.

و لو ذهبنا إلى تقصّى ما روى عنها من الكلام الغليظ الشّديد الدّالّ على بقاء العداوة و استمرار الحقد و الضغينة لأطلنا و أكثرنا، و ما روى عنها من التّلهف و التّحسّر على ما صدر عنها فلا يدلّ على التّوبة إذ يجوز أن يكون ذلك من حيث خابت عن طلبتها و لم تظفر ببغيتها مع الذّلّ الّذى لحقها و ألحقها العار فى الدّنيا و الاثم فى الآخرة، انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: و يدلّ على استمرار حقدها و بقاء عداوتها أيضا ما فى الارشاد للمفيد (ره) قال: روى عكرمة عن عايشة فى حديثها له بمرض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وفاته فقالت فى جملة ذلك: فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم متوكّئا على رجلين أحدهما الفضل بن العبّاس، فلما حكى عنها ذلك لعبد اللّه بن العبّاس قال له: أ تعرف الرّجل الآخر؟ قال: لا لم تسمّه لى، قال: ذاك علىّ بن أبى طالب و ما كانت امّنا تذكره بخير و هى تستطيع.

الترجمة

از جمله كلام آن بزرگوار است كه خطاب فرمود با آن اهل بصره را بر سبيل قصّه گوئى از واقعهاى عظيمه مى فرمايد:

پس کسـی که اسـتطاعت داشـته باشـد نزد آن حادثها این که حبس نمایـد نفس خود را بر طاعت خدا پس باید که بکند آنرا پس اگر اطاعت نمائید مرا پس بدرستی که من حمل کننده شـما هستم إنشاء اللّه بر راه بهشت و اگر چه می باشد آن راه صاحب مشقّت سخت و چشیدنی تلخ، و أمّا فلانة یعنی عایشهٔ خاطئه پس دریافت او را رأی سـست زنان و کینهٔ دیرینه که جوش زد در سـینهٔ او مثل دیک جوشندهٔ آهنگران، و اگر خوانـده شـدی که فرا گیرد از غیر من آنچه که آورد بسوی من نمی کرد، یعنی اگر دعوت می نمودنـد او را که اقدام نماید در حق غیر من بمثل آنچه اقـدام کرد در حقّ من از مخالفت و عداوت و خصومت البته اقدام نمی نمود، و با همهٔ این مر او راست بعد از این همهٔ قبایح که از او صادر شد حرمت قدیمه او که در زمان حضرت رسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم داشت و حساب بر پروردگار است.

ما کارهای او بخداوند کار ساز بگذاشتیم تا غضب او چه می کند

الفصل الثانی

اشارة

منه

– سبیل أبلج المنهاج، أنور السّراج، فبالإیمان یستدلّ علی الصّالحات، و بالصّالحات یستدلّ علی الإیمان، و بالإیمان یعمر العلم، و بالعلم یرهب الموت، و بالموت تختم الدّنیا، و بالدّنیا تحرز الآخرة، و بالقیامة تزلف الجنّة للمتّقین، و تبرز الجحیم للغاوین، و إنّ الخلق لا مقصـر لهم عن القیامة، مرقلین فی مضمارها إلی الغایة القصوی. منه – قد شخصوا من مستقرّ الأجداث، و صاروا إلی مصائر

ص:282

الغايات، لكلّ دار أهلها، لا يستبدلون بها، و لا ينقلون عنها، و إنّ الأمر بالمعروف و النّهى عن المنكر لخلقان من خلق اللّه سبحانه، و إنّهما لا يقرّبان من أجل، و لا ينقصان من رزق، و عليكم بكتاب اللّه فإنّه الحبل المتين، و النّور المبين، و الشّفآء النّافع، و الرّىّ النّاقع، و العصمة للمتمسّک، و النّجاة للمتعلّق، لا يعوج فيقام، و لا يزيغ فيستعتب، و لا تخلقه كثرة الرّدّ، و ولوج السّمع، من قال به صدق، و من عمل به سبق. و قام إليه رجل فقال أخبرنا عن الفتنة و هل سألت عنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال عليه السّلام:

لمّا أنزل اللّه سبحانه قوله: - الم أ حسب النّاس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا و هم لا يفتنون - علمت أنّ الفتنة لا تنزل بنا و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بين أظهرنا، فقلت: يا رسول اللّه ما هذه الفتنة الّتى أخبرک اللّه بها؟ فقال: يا علىّ إنّ أمّتى سيفتنون من بعدى، فقلت: يا رسول اللّه أ و ليس قد قلت لى يوم أحد حيث استشهد من المسلمين و حيزت عنّى الشّهادة فشقّ ذلک علىّ فقلت لى: أبشر فإنّ الشّهادة من ورائک، فقال لى: إنّ ذلک لكذلک فكيف صبرک إذا؟ فقلت:

يـا رسول اللّه ليس هـذا من مواطن الصّبر و لكن من مواطن البشـرى و الشـكر، و قال يا علىّ: إنّ الأمّـة سـيفتنون بعـدى بأموالهـم، و يمنّون بدينهم على ربّهم، و يتمنّون رحمته، و يأمنون سـطوته، و يستحلوّن حرامه بالشّبهات الكاذبة، و الأهواء السّاهية، فيستحلوّن الخمر بالنّبيذ، و السّحت بالهديّة، و الرّبا بالبيع، فقلت: يا رسول اللّه فبأىّ المنازل أنزلهم عند ذلک؟ أ بمنزلة ردّة أم بمنزلة فتنة؟ فقال:

بمنزلة فتنة.

اللغة

(بلـج) الصّـبح بلوجا من باب قعد أسـفر و أنار و (أرقل) أسـرع و (شـخص) من بلد كذا رحل و خرج منه و (الأجداث) القبور جمع جدث بالتّحريک كأسباب و سبب و (الشّفاء النّافع) بالفاء و (الرّى النّاقع) بالقاف يقال: ماء ناقع أى ينقع الغلة أى يقطعها و يروى منها.

الاعراب

قـال فى الكشّاف: الحسـبان لا يصـحّ تعلّقه بمعانى المفرد و لكن بمضامين الجمل، ألا ترى أنّک لو قلت حسـبت زيـدا و ظننت الفرس لم يكن شـيئا حتّى تقول حسبت زيدا عالما و ظننت الفرس جوادا، لأنّ قولک زيد عالم أو الفرس جواد كلام دالّ على مضمون فأردت الأخبار عن ذلک المضـمون ثابتا عندک على وجه الظنّ لا اليقين، فلم تجد بدّا فى العبارة عن ثباته عندک على ذلک الوجه من ذكر شـطرى الجملة مدخلا عليهما فعل الحسبان حتّى يتمّ لک غرضک.

ص:284

فان قلت: فأين الكلام الدّالّ على المضمون الذى يقتضيه الحسبان فى الآية؟ قلت: هو قوله: أن يتركوا أن يقولوا آمنّا و هم لا يفتنون، و ذلك لأنّ تقديره أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنّا فالترّك أوّل مفعولى حسب، و لقولهم آمنّا هو الخبر، و انا غير مفتونين فتتمّة التّرك لأنّه من التّرك الّذى هو بمعنى التّصيير كقوله: فتركته جزر السّباع ينشنه، ألا ترى أنّك قبل المجىء بالحسبان تقدر أن تقول تركهم غير مفتونين لقولهم آمنّا على تقدير حاصل و مستقرّ قبل اللاّم فان قلت: أن يقولوا هو علّة قولهم غير مفتونين فكيف يصحّ أن يكون خبر مبتدأ؟ قلت كما تقول: خروجه لمخافة الشرّ و ضربه للتّأديب، و قد كان التأديب و المخافة فى قولك خرجت مخافة الشّر و ضربته تأديبا تعليلين و تقول أيضا: حسبت خروجه لمخافة الشرّ و ظننت ضربه للتأديب، فتجعلهما مفعولين كما جعلتهما مبتدأ و خبرا.

و الهمزة فى قوله عليه السّلام: أو ليس قد قلت، للاستفهام التّقريرى كما فى قوله تعالى: «أَلَيْسَ اللّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ » و المقصود به حمل المخاطب على الاقرار بما دخله النّفى

المعنى

اشارة

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه مشتمل على فصلين:

الفصل الاول (منه)

فى وصف الدّين و الايمان و هو قوله(سبيل أبلج المنهاج)استعارة مرشّحة فانّ الايمان لمّا كان موصلا لصاحبه الى الجنّة و إلى حظاير القدس صحّ استعارة لفظ السّبيل له كما صحّ التعبير عنه بلفظ الصراط بذلك الاعتبار أيضا فى قوله تعالى «اِهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ».

فهو طريق أوضح المسلک إلی الجنّة (و أنور السّراج) لا يضلّ سالکها البتّة لوضوحها و إضاءتها (فبالايمان يستدلّ علی الصّالحات و بالصّالحات يستدلّ علی الايمان) قال الشارح البحرانی: و الصّالحات هی الأعمال الصّالحات من ساير العبادات و مکارم الأخلاق الّتی وردت بها الشريعة و ظاهر کونها معلولات للايمان و ثمرات له يستدلّ بوجوده فی قلب العبد علی ملازمته لها استدلالا بالعلّة علی المعلول، و يستدلّ بصدورها من العبد علی وجود الايمان فی قلبه استدلالا بالمعلول علی العلّة (و بالايمان يعمر العلم) إذ من المعلوم أنّ فضل العلم و کماله إنّما هو العمل بالأرکان و العمل بالأرکان إمّا شرط للايمان أو شطر منه حسبما عرفته فی شرح الخطبة المأة و التاسعة فيکون فضله و کماله بالايمان، و هو معنی کونه معمورا به.

و يؤمی إليه قول الصّادق عليه السّلام: لا يقبل اللّه عملا إلاّ بمعرفة و لا معرفة إلاّ بعمل فمن عرف دلّته المعرفة علی العمل و من لم يعمل فلا معرفة له الا أنّ الايمان بعضه من بعض.

و قال علیّ بن الحسين عليهما السّلام: مکتوب فی الانجيل: لا تطلبوا علم ما لا تعلمون و لمّا تعملوا بما علمتم، فانّ العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلاّ کفرا و لم يزدد من اللّه إلاّ بعدا.

(و بالعلم يرهب الموت) لأنّ العلم بالمبدإ و المعاد مستلزم لذکر الموت و التّوجه اليه و إلی ما يتلوه من الشدائد و الأهوال، و ذلک موجب للرّهبة منه لا محالة و أمّا الجاهل فهو غافل عن ذلک لکون همّته مقصورة علی الدنيا مصروفة اليها (و بالموت تختم الدّنيا) و هو ظاهر إذ الموت آخر منازل الدّنيا کما هو أوّل منازل الآخرة (و بالدّنيا تحرز الآخرة) لأنّها دار التکليف و فيها يقام العبادات و يقتنی الحسنات فيفاز بالجنّات و ينال السّعادات فهی محلّ الاستعداد لتحصيل الزاد ليوم المعاد (و بالقيامة تزلف الجنّة للمتّقين و تبرز الجحيم للغاوين) اقتباس من الآية الشّريفة فی سورة الشّعرا قال سبحانه:

«يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلاّ مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَ أُزْلِفَتِ »

«اَلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ ».

أی قربت الجنّة و قدّمت للسّعداء بحيث يرونها من الموقف فيبجحون بأنّهم المحشورون إليها، و تظهر الجحيم للأشقياء فيرونها مكشوفة بارزة فيتحسّرون على أنهم المسوقون اليها (و أنّ الخلق لا مقصر لهم عن القيامة) أی لا محبس و لا غاية لهم دونها و لا مانع من ورودهم عليها (مرقلين) أی مسرعين (فی مضمارها) و هو مدّة الحياة الدّنيا (إلى الغاية القصوى)قال الشّارح البحرانی قوله:و إنّ الخلق لا مقصر لهمالی آخره كلام فی غاية الحسن مع غزارة الفايدة، و هو إشارة إلى أنّه لا بدّ لهم من ورود القيامة و مضمارها مدّة الحياة الدّنيا، و هو لفظ مستعار، و وجه المشابهة كون تلك المدّة محلّ استعداد النّفوس للسباق إلى حضرة اللّه كما أنّ المضمار محلّ استعداد الخيل للسباق، و ارقالهم كناية عن سيرهم المتوهّم فی مدّة أعمارهم إلى الآخرة، و سرعة حثيث الزّمان بهم فی اعداد أبدانهم للخراب و الغاية القصوى هی السّعادة و الشّقاوة الاخروية

الفصل الثانی (منه)

فی وصف حال أهل القبور و الحثّ على الأمر بالمعروف و النّهی عن المنكر و على لزوم كتاب اللّه و بيان معنى الفتنة و هو قوله عليه السّلام (قد شخصوا من مستقرّ الأجداث) أی ارتحل الموتى من محلّ استقرارهم و هی القبور (و صاروا إلى مصائر الغايات) أی انتقلوا إلى محال هی غاية منازل السّالكين و منتهى سير السّائرين، يعنی درجات و دركات الجحيم (و لكلّ دار) من هاتين الدّارين (أهل) من السّعداء و الأشقياء (لا يستبدلون بها) غيرها (و لا ينقلون عنها) إلى غيرها يعنی أنّ أهل الجنّة لا يطلبون إبدالها لما هم عليه من عظيم النّعماء و ألذّ الآلاء، و أهل النّار لا ينقلون عنها و لو طلبوا النّقل و الأبدال لكونهم مخلّدين فيها، و هذه قرينة على أن يكون

مراده علیه السّلام بأهل النّار الکفار و المنافقین، إذ غیرهم من أصحاب الجرائر من المسلمین المذعنین بالولایة لا یخلّدون فی النّار لو دخلوها، بل یخرجون بعد تمحیص الذّنوب إمّا بفضل من اللّه سبحانه، أو بشفاعة أولیاء اللّه تعالی کما دلّت علیه الاصول المحکمة.

ثمّ حثّ علی الأمر بالمعروف و النّهی عن المنکر بالتنبیه علی فضلهما بقوله (و إنّ الأمر بالمعروف و النّهی عن المنکر لخلقان من خلق اللّه)قال الشّارح البحرانی «ره» إطلاق لفظ الخلق علی اللّه استعارة، لأنّ حقیقة الخلق ملکة نفسانیة تصدر عن الانسان بها أفعال خیریّة أو شریّة، و إذ قد تنزّه قدسه تعالی عن الکیفیّات و الهیئات لم یصدق هذا اللّفظ علیه حقیقة، لکن لمّا کانالأمر بالمعروف و النّهی عن المنکرو الأفعال الخیریّة الّتی بها نظام العالم و بقاؤه کحکمته و قدرته وجوده و عنایته و عدم حاجته بما یتعارف من الأخلاق الفاضلة الّتی تصدر عنها الأفعال الخیریّة البشریّة، فاستعیر بها لفظ الاخلاق و اطلق علیه، انتهی.

أقول: هذا کلّه مبنیّ علی التجوّز فی لفظ الخلق حسبما صرّح به، و یجوز ابقائه علی حقیقته و البناء علی التجوّز فی الاضافة، یعنی أنّهما خلقان نسبتهما إلیه سبحانه باعتبار کونهما مرضیّین عند اللّه و محبوبین له تعالی، فصحّ بذلک الاعتبار کونهما من خلقه تعالی أی من خلق هو محبوبه و مطلوبه کما نقول: بیت اللّه تشریفا، و روح اللّه تعظیما و تکریما و نحو ذلک، هذا.

و لمّا کان أکثر النّاس یکفون عن الأمر بالمعروف و النّهی عن المنکر، و یمسکون عن ردع الظلمة بتوهّم أن یبطش به فیقتل أو یقطع رزقه و یحرم فأشار علیه السّلام إلی دفع هذا التّوهم بقوله (و انّهما لا یقربان من أجل و لا ینقصان من رزق) و قد روی هذا المعنی عنه علیه السّلام فی حدیث آخر.

و هو ما رواه فی الوسایل من الکافی عن یحیی بن عقیل عن حسن علیه السّلام قال خطب أمیر المؤمنین علیه السّلام فحمد اللّه و أثنی علیه ثمّ قال: أمّا بعد فانّه إنّما هلک من

کـان قبلکم حیثمـا عملوا من المعاصـی و لـم ینههم الرّبـانیون و الأحبار عن ذلک، و إنّهـم لمّا تمادوا فی المعاصـی و لـم ینههم الرّبانیّون و الأحبـار عن ذلک نزلت بهم العقوبات فأمروا بالمعروف و انهوا عن المنکر و اعلموا أنّ الأمر بالمعروف و النّهی عن المنکر لن یقربا أجلا و لن یقطعا رزقا.

و فیه عن الحسن بن علیّ بن شعبة فی تحف العقول عن الحسین علیه السّلام قال:

و یروی عن علیّ علیه السّلام اعتبروا أیها الناس بما وعظ اللّه به أولیائه من سوء ثنائه عن الأحبار إذ یقول: «لَوْ لا یَنْهاهُمُ الرَّبّانِیُّونَ وَ الْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ » و قال:

«لُعِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ بَنِی إِسْرائِیلَ » إلی قوله «لَبِئْسَ مـا کانُوا یَفْعَلُونَ » و إنّما عاب اللّه ذلک علیهم لأنهم کانوا یرون من الظلمـة المنکر و الفساد فلا ینهونهم عن ذلک رغبة فیما کانوا ینالون منهم و رهبة ممّا یحذرون و اللّه یقول: «فَلا تَخْشَوُا النّاسَ وَ اخْشَوْنِ » و قال «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْکَرِ » فبدء اللّه بالأمر بالمعروف و النّهی عن المنکر فریضة منه لعلمه بأنّها إذا ادّیت و اقیمت استقامت الفرائض کلّها هیّنها و صعبها، و ذلک إنّ الأمر بالمعروف و النّهی عن المنکر دعاء إلی الاسلام مع ردّ المظالم و مخالفة الظّالم و قسـمة الفیء و الغنایم و أخذ الصدّقات من مواضـعها و وضعها فی حقّها، هذا و ینبغی القیام بوظایف الأمر بالمعروف و النّهی عن المنکر بالشـروط المقرّرة فی الکتب الفقهیّة، و من جملتها الأمن من الضّـرر علی المباشر أو علی بعض المؤمنین نفسا أو مالا أو عرضا، فلو غلب علی ظنّه أو قطع بأن یصـیبه أو یصـیبهم ضـرر بهما سـقط وجوبهما، بل یحرمان کما صرّح به علماؤنا الأخیار و دلّت علیه أخبار أئمّتنا الأطهار.

روی فی الوسایـل عن الکلینی عن علیّ بن إبراهیم عن أبیه عن ابن أبی عمیر عن یحیی الطّویـل صـاحب المقری قـال قـال أبو عبـد اللّه علیه السّلام: إنّما یؤمر بالمعروف و ینهی عن المنکر مؤمن فیتّعظ أو جاهل فیتعلّم فأمّا صاحب سوط أو سیف فلا.

و عنه عن أبیه عن ابن أبی عمیر عن مفضّل بن یزید عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال:

قال لى: يا مفضّل من تعرّض لسلطان جائر فأصابته بليّه لم يوجر عليها و لم يرزق الصّبر عليها.

فظهر لک بما ذكرنا أنّ قوله عليه السّلام فى المتن: و إنّهما لا يقربان من أجل و لا ينقصان من رزق، لا بدّ أن يحمل على صورة عدم الظنّ بالضّرر فضلا عن القطع به ثمّ أمر بلزوم اتّباع الكتاب المجيد معلّلا وجوب متابعته بأوصاف كمال نبّه عليها فقال(و عليكم بكتاب اللّه فانّه الحبل المتين)استعارة لفظ الحبلله باعتبار حصول النّجاة للمتمسّک به كما يحمل النّجاة للمتمسّک بالحبل و ذكر المتانة ترشيح.

و قد وقع نظير تلک الاستعارة فى النّبوى المعروف المروىّ بطرق عديدة منها ما رواه أبو سعيد الخدرى قال: قال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّى تارک فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب اللّه حبل ممدود من السّماء إلى الأرض و عترتى أهل بيتى لن يفترقا حتّى يردا علىّ الحوض.

(و النّور المبين) و هو أيضا استعارة لأنّه نور عقلىّ ينكشف به أحوال المبدأ و المعاد و يهتدى به فى ظلمات برّ الأجسام و بحر النّفوس كما يهتدى بالنّور المحسوس فى الغياهب و الظّلمات و نظير هذه الاستعارة قوله سبحانه:«قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ » (و الشّفاء النّافع) إذ به يحصل البرء من الأسقام الباطنيّة و الأمراض النّفسانيّة كما قال تعالى: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ » و قال فى موضع آخر: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إِلاّ خَساراً »(و الرّى النّاقع) أى القاطع لغليل العطشان بماء الحياة الأبديّة أعنى ما تضمّنه من المعارف الحقّة و العلوم الالهيّة (و عصمة للمتمسّک و نجاة للمتعلّق) يعنى من تمسّک و تعلّق به و أخذ بأحكامه و عمل بها فهو يعصمه من غضب الجبّار و ينجيه من دخول النّار (لا يعوجّ فيقام) لأنه كلام الحقّ يصدّق بعضه بعضا «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً » و احتاج إلى إصلاح اختلافه و إقامة اعوجاجه و خلله

(و لا يزيغ فيستعتب) أى لا يميل و لا يعدل عن الحقّ حتّى يطلب عتباه و رجوعه إليه (و لا يخلقه كثرة الرّد و ولوج السّمع) يعنى أنّ كلّ كلام نثرا كان أو نظما لو تكرّر تردّده على الألسنة و ولوجه فى الأسماع مجّه الأسماع و ملّ عنه الطّباع و اشمأزّ منه القلوب و يكون خلقا مبتذلا مرذولا، و أمّا القرآن الكريم فلا يزال غضّا طريّا يزداد على كثرة التّكرار و طول التّلاوة فى كرور الأعصار و مرور الدّهور حسنا و بهاء و رونقا و ضياء هو المسک ما كرّرته يتضوّع و ذلک من جملة خصائصها الّتى امتاز بها عن كلام المخلوق.

(من قال به صدق) لأنّه كلام مطابق للواقع فالقول بما أفاده البتّة يكون صدقا و القائل به صادقا (و من عمل به سبق) إلى درجات الجنان و فاز أعظم الرّضوان قال السّيّد (ره)(و قام إليه رجل فقال أخبرنا عن الفتنة) الظّاهر أنّ الّلام فيها للعهد و تكون الاشارة بها إلى فتنة معهودة سبق ذكرها فى كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فى الكتاب العزيز فى الآية الآتية «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» و غيرهما، و الفتنة تكون لمعان شتّى من الابتلاء و الامتحان و الاضلال و العذاب و الفضيحة و الكفر و الاثم و اختلاف النّاس فى الآراء و نحوها.

و لمّا كان خطابه عليه السّلام بذلک الكلام لأهل البصرة حسبما نبّه السّيّد فى عنوانه فبقرينة مساق الكلام يحتمل أن يكون استخبار السّائل عن موضوع الفتنة ليفهم أنّ فتنة أهل البصرة هل هى داخلة فى الفتنة الّتى أخبر اللّه بها و رسوله، و أن يكون عن حكمها.

و يشعر بالأوّل جوابه للسّائل بما ينقله عن رسول اللّه من قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا علىّ إنّ امّتى صيفتتنون من بعدى، و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا: يا علىّ إنّ القوم سيفتنون بعدى.

و يشعر بالثّانى آخر كلامه عليه السّلام أعنى قوله: فقلت يا رسول اللّه فبأىّ المنازل انزلهم عند ذلک أ بمنزلة ردّة أم بمنزلة فتنة فقال: بمنزلة فتنة.

فعلى الاحتمال الأوّل يكون معنى قوله (و هل سألت عنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)

هل سألت عن معنيها ليتبيّن المراد بها.

و على الاحتمال الثّانى فالمعنى هل سألت عن حكمها عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليعلم أنّ المفتونين مرتدّون أم لا (فقال عليه السّلام) فى جواب المستخبر.

(لمّا أنزل اللّه سبحانه قوله «الم أَ حَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ » قال فى الكشّاف فى تفسير الآية: الفتنة الامتحان بشدايد التّكاليف من مفارقة الأوطان و مجاهدة الأعداء و ساير الطّاعات الشّاقّة و هجر الشّهوات و الملاذّ، و بالفقر و القحط و أنواع المصائب فى الأنفس و الأموال، و بمصابرة الكفار على اذاهم و كيدهم و ضرارهم، و المعنى أحسب الّذين أجروا كلمة الشّهادة على ألسنتهم و أظهروا القول بالايمان أنّهم يتركون لذلك غير ممتحنين، بل يمتحنهم اللّه بأنواع المحن و ضروب البلا حتّى يبلو صبرهم و ثبات أقدامهم و صحّة عقايدهم و خلوص نيّاتهم ليتميّز المخلص من غير المخلص و الرّاسخ فى الدّين من المضطرب و المتمكّن من العابد على حرف، انتهى.

أقول: و بنحو ذلك فسّره غير واحد من علماء التّفسير، و محصّله أنّ المراد بالفتنة الامتحان و الابتلاء فى النّفس و المال.

و رواه الطبرسى فى مجمع البيان عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: معنى يفتنون يبتلون فى أنفسهم و أموالهم، و المستفاد من غير واحد من الأخبار الآتية أنّ المراد بها خصوص الامتحان بالولاية، و اليه يرجع ما أجاب به أمير المؤمنين عليه السّلام هنا للسائل المستخبر، و لا تنافى بين المعنيين إذ الأوّل تنزيله و الثانى تأويله و لا غبار عليه و إنّما الاشكال فى قوله (علمت أنّ الفتنة لا تنزل بنا و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بين أظهرنا) لظهور أنّ الآية لا دلالة فيها على عدم نزول الفتنة بهم مع كون الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بينهم فمن أين علم أمير المؤمنين عليه السّلام ذلك، و قد تنبّه لذلك الشّارح المعتزلى و أجاب عنه بما لا يعبأ به حيث قال:

فان قلت: فلم قال عليه السّلام علمت أنّ الفتنة لا تنزل بنا و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بين أظهرنا؟.

قلت: لقوله تعالى: «وَ ما كانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ » آه و أنت خبير بما فيه.

أمّا أوّلا فلأنّ هـذا الجواب كما ترى مبنىّ على جعل الفتنة فى الآية بمعنى العذاب، و قد علمت أنّ كلام أمير المؤمنين فى هذا المقام ناظر إلى كونها بمعنى الامتحان بالولاية و التنافى بين المعنيين ظاهر.

و أمّا ثانيا فلأنّا بعد الغضّ عمّا ذكرنا نقول إنّ قوله: علمت، جواب لما و هو يفيد أنّ منشأ علمه بعدم نزول الفتنة هو قوله:«الم أَ حَسِبَ النّاسُ » الآيـة، لا قوله: «وَ ما كانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ »، و العلم بعـدم نزول العـذاب من الآية الثّانية لا يلازم حصول العلم من الآية الأولى على ما هو مقتضى ظاهر كلامه عليه السّلام.

و الّذى عنـدى فى رفع ذلك الاشـكال أنّه عليه السّـلام علم ذلك حين نزول الآية باعلام النّبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، فقد روى فى الصّافى عنه عليه السّـلام أنّه لما نزلت هـذه الآية قال صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: لا بدّ من فتنة تبتلى به الأمّة بعد نبيّها ليتعيّن الصّادق من الكاذب، لأنّ الوحى قد انقطع و بقى السّيف و افتراق الكلمة إلى يوم القيامة.

فانّ هذه الرّواية ككثير من الرّوايات الآتية صريحة فى أنّ نزول الفتنة إنّما يكون بعد النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فحصل بذلك العلم له عليه السّلام بأنّها لا تنزل مع كونه بين أظهرهم.

و لمّا كان ذلك الاخبار من النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين نزول الآية صحّ بذلك الاعتبار قوله عليه السّلام: لمّا أنزل اللّه قوله «الم » آه علمت إلى قوله (فقلت يا رسول اللّه ما هـذه الفتنة التىّ أخبرك اللّه بها فقال يا علىّ انّ امّتى سـيفتنون من بعدى) و هذا الجواب من النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم له عليه السّلام و إن كان مجملا لم يصرّح فيه بانّ افتتان الامّة بعده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما ذا إلاّ أنّه عليه السّلام قد فهم منه أنّ مراده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منه الافتتان به عليه السّلام و امتحانهم بولايته.

و فهمه عليه السّـلام ذلك منه إمّا من باب سـرّ الحبيب مع الحبيب أو بقرينة تصـريحه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم به فى غيره، فقد روى فى غاية المرام عن ابن شهر اشوب عن أبى طالب الهروى

باسناده عن علقمة و أبى أيّوب أنّه لمّا نزل ألم أحسب النّاس الآيات، قال النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعمّار: إنّه سيكون من بعدى هناة حتّى يختلف السّيف فيما بينهم و حتّى يقتل بعضهم بعضا و حتّى يتبرّء بعضهم من بعض، فاذا رأيت ذلک فعليک بهذا الأصلع عن يمينى علىّ بن أبى طالب، فان سلک النّاس کلّهم واديا فاسلک وادى علىّ و خلّ عن النّاس، يا عمّار إنّ عليّا لا يردّک عن هدى و لا يردّک إلى ردى، يا عمّار طاعة علىّ طاعتى و طاعتى طاعة اللّه.

و فيه عنه من طريق العامّة أيضا فى قوله «الم أَ حَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ » قال علىّ عليه السّلام يا رسول اللّه ما هذه الفتنة؟ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

يا علىّ بک و أنک المخاصم فأعدّ للخصومة.

و فيه عن محمّد بن العباس مسندا عن الحسين بن علىّ عن أبيه صلوات اللّه عليهم أجمعين قال: لما نزلت: «الم أَ حَسِبَ النّاسُ » الآية قال: قلت يا رسول اللّه ما هذه؟ قال: يا على إنک مبتلى بک و أنت مخاصم فأعدّ للخصومة.

و عن محمّد بن العباس قال: حدّثنا أحمد بن هودة عن إبراهيم بن إسحاق عن عبد اللّه بن حماد عن سماعة بن مهران قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذات ليلة فى المسجد، فلمّا كان قرب الصّبح دخل أمير المؤمنين عليه السّلام فناداه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال يا علىّ، فقال: لبيّک قال: هلمّ إلىّ، فلمّا دنى منه قال: يا علىّ بت اللّيلة حيث ترانى و قد سألت ربّى ألف حاجة فقضيها لى و سألت لک ربّى أن يجمع لک امّتى من بعدى فأبى علىّ ربّى فقال: «الم أَ حَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ » و هذه الرّوايات و ما بمعناها(1) ممّا لم نوردها خوف الاطالة كما ترى

ص:294

1- (1) مثل ما رواه فى غاية المرام من تفسير العياشى باسناده عن عبد الرحمن بن سالم عن الصادق (عليه السلام) فى قوله تعالى «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» قال (عليه السلام) أصاب الناس فتنة بعد ما قبض اللّه نبيّه (صلّى اللّه عليه و آله) حتّى تركوا عليّا و بايعوا غيره، و هى الفتنة الّتى فتنوا بها، و قد أمرهم رسول اللّه باتباع علىّ و الأوصياء من آل محمّد (صلوات اللّه عليهم).و فيه عن العياشى باسناده عن اسماعيل السرى عنه (عليه السلام) فى هذه الآية قال: أخبر أنهم أصحاب الجمل.و فيه عن تفسير علىّ بن ابراهيم فى هذه الآية قال: نزلت فى طلحة و الزبير لما حاربوا أمير المؤمنين و ظلموه، منه.

صريحة فى الدلالة على أنّ الافتتان بعده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّما هو بولاية أمير المؤمنين عليه السّلام فهى رافعة للاجمال فى الجواب المروىّ فى المتن مبنيّة لكون مراد النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقوله: إنّ امّتى سيفتنون من بعدى افتتانهم بها و امتحانهم به عليه السّلام.

و لمّا كان ذلک مبعدا لما كان ينتظره عليه السّلام و يرجوه من شهادته الّتى بشرّ بها النبىّ و موهما لعدم تنجّز ما بشّر به و مفيدا لعدم حصوله فى زمان النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و حال حياته و كان فيه خوف فوت المطلوب لا جرم أعاد عليه السّلام السّؤال تحصيلا لاطمينان القلب كما سأل إبراهيم ربّه بقوله: كيف تحيى الموتى فقال عليه السّلام (فقلت أ و ليس قد قلت لى يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين و حيزت) أى منعت (عنّى الشهادة فشقّ ذلک علىّ فقلت لى: ابشر فانّ الشّهادة من ورائک؟ فقال لى: إنّ ذلک كذلک) يعنى أنّ الشهادة واقعة لا محالة و إن لم تكن فى زمانى و فى مجاهداتک الّتى بين يدىّ، هذا.

و يجوز أن تكون الهمزة فى قوله: أ و ليس قد قلت، لم يرد بها الاستفهام و التقرير، بل المراد بها الاستبطاء نظير ما قاله علماء البيان فى مثل: كم دعوتک من أنّ الغرض به ليس السؤال و الاستفهام، بل المراد الاستبطاء و هو الوصف بالبطوء أى عدّ المتكلم المخاطب بطيئا فى اجابة الدّعوة، و الغرض من الكلام الشّكاية عن بطوء الاجابة و الحثّ عليها.

و معنى الاستبطاء فيما نحن فيه وصف ما قاله النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما بشّر به من الشهادة بالبطوء و الشّكاية من تأخيره فانّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما أخبر بأنّ الامة سيفتنون بعده أحبّ عليه السّلام أن لا يبقى إلى زمان تلک الفتنة فقال ذلک الكلام استبطاء للشهادة فافهم جيدا.

ص:295

ثمّ أراد النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الابانة عن علوّ همّته عليه السّلام و الافصاح عن ثبات قدمه فى جنب اللّه فقال (فكيف صبرک إذا) يعنى إذا ظفرت بالشهادة (فقلت يا رسول اللّه ليس هذا من مواطن الصّبر و لكن من مواطن البشرى و الشّكر) يعنى أنّ الصبر عبارة عن تحمل المشاقّ و المكروه و هو إنّما يتصوّر فى حقّ المحجوبين عن اللّه المنهمكين فى لذّات الدّنيا و الغافلين عن لذّات الآخرة، فانهم يكرهون الموت و يفرّون منه و يحذرون من الشّهادة، و أمّا أولياء الدّين و أهل الحقّ و اليقين فغاية غرضهم الخروج من هذه القرية الظّالم أهلها و الفوز بلقاء الحقّ و النّيل إلى رضوانه فالموت لمّا كان وسيلة للوصول إليه فهو أحبّ إليهم من كلّ شىء، و لذلک كان عليه السّلام يقول غير مرّة: و اللّه لابن أبى طالب آنس بالموت من الطّفل بثدى امّه، و لمّا كان حصول الموت بالقتل و الشّهادة من أعظم القربات و أفضل الطّاعات كانوا مستبشرين به و شاكرين على وصول تلک النعمة العظيمة، و إليه ينظر قوله عليه السّلام فى الكلام المأة و الثّانية و العشرين، إنّ أكرم الموت القتل و الّذى نفس ابن أبى طالب بيده لألف ضربة بالسّيف أهون علىّ من ميتة على فراش.

ثمّ عاد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد الاشارة إجمالا إلى افتتان الامة من بعده إلى شرح حال المفتونين و بيان أوصافهم تفصيلا (و قال يا علىّ إنّ الامّة سيفتنون بعدى بأموالهم) أى بقلّتها و كثرتها و باكتسابها من حلال أو حرام و بصرفها فى مصارف الخير أو الشّر و باخراج الحقوق الواجبة منها و البخل بها و غير ذلک من طرق الامتحان (و يمنّون بدينهم على ربهم) كما منّ من قبلهم بذلک على ما حكى اللّه عنهم بقوله: «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ »(و يتمنّون رحمته و يأمنون سطوته) الأمن من سخط اللّه سبحانه كالإياس من رحمته من الكباير الموبقة، و أمّا تمنّى الرّحمة مع عدم المبالاة فى الدّين فهو من صفة الجاهلين و قد روى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: أحمق الحمقاء من اتبع نفسه هويها و تمنّى على اللّه.

(و يستحلّون حرامه بالشّبهات الكاذبة و الأهواء السّاهية) أى الغافلة و وصف

الأهواءبها للمبالغة كما فی قولهم: شعر شاعر، فانّ اتّباع الهوی لما کان موجبا للغفلة عن الحقّ صحّ اتّصافه به، و المراد أنّ استحلالهم للحرام بسبب متابعتهم لهوی أنفسهم الصّاد لهم عن الحقّ و الشّاغل بهم إلی الدّنیا.

روی أبو حمزة عن أبی جعفر قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: یقول اللّه عزّ و جلّ:

و عزّتی و جلالی و کبریائی و نوری و علوّی و ارتفاع مکانی لا یؤثر عبد هواه علی هوای إلاّ شتّت علیه أمره و لبّست علیه دنیاه و شغلت قلبه بها و لم اوته منها إلاّ ما قدرت له و عزّتی و جلالی و عظمتی و نوری و علوّی و ارتفاع مکانی لا یؤثر عبد هوای علی هواه إلاّ استحفظته ملائکتی، و کفّلت السّماوات و الأرضین رزقه و کنت له من وراء تجارة کلّ تاجر، و أتته الدّنیا و هی راغمة.

و أشار إلی تفصیل ما یستحلّونه من المحرّمات بقوله (فیستحلّون الخمر بالنّبیذ) الغالب فی الخمر إطلاقه علی الشّراب المتّخذ من العنب، و فی النّبیذ استعمله فی الشّراب المتّخذ من التّمر، و من ذلک نشأت شبهتهم حیث زعموا أنّ النّبیذ لیس بخمر فحکموا بحلّیته أی حلّیة النّبیذ بتوهّم اختصاص الحرمة بالخمر فأوجب ذلک استحلالهم للخمر من حیث لا یشعرون.

و قد ذمهم علیه السّلام علی ذلک تنبیها علی فساد ما زعموه و هو کذلک(1).

أما اولا فلمنع خروج النّبیذ من موضع الخمر، لأنّ الخمر عبارة عن کلّ ما یخمر العقل أی یستره و یغطّیه، فیشمل النّبیذ و غیره و إن کان استعماله فی العصیر العنبی اکثر.

و یدلّ علیه ما رواه فی الوسایل عن الکلینی بسنده عن عبد الرّحمن بن الحجّاج عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله الخمر من خمسة: العصیر من الکرم و النّقیع من الزّبیب و البتع من العسل، و المرز من الشّعیر، و النّبیذ من التّمر.

و عن الکلینی عن عامر بن السمط عن علیّ بن الحسین علیهما السّلام قال: الخمر من خمسة أشیاء: من التمر، و الزبیب، و الحنطة، و الشّعیر، و العسل.

1- (1) یعنی أن ما زعموه فاسد.

و فیه أیضا عن ابن الشّیخ فی أمالیه باسناده عن النّعمان بن بشیر قال: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: أیّها النّاس إنّ من العنب خمرا، و إنّ من الزبیب خمرا و إنّ من التّمر خمرا، و إنّ من الشّعیر خمرا، ألا أیّها النّاس أنهاکم عن کلّ مسکر.

و أما ثانیا فلمنع اختصاص حکم الحرمة بخصوص الخمر بعد تسلیم عدم شموله للنّبیذ حقیقة، و ذلک لتعلّق الحکم بکلّ مسکر کما مرّ فی الرّوایة آنفا.

و مثله ما رواه فی الوسایل عن الکلینیّ عن عطاء بن یسار عن أبی جعفر علیه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله: کلّ مسکر حرام و کلّ مسکر خمر.

و فیه عن علیّ بن إبراهیم القمّی فی تفسیره عن أبی الجارود عن أبی جعفر علیه السّلام فی قوله: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَیْسِرُ» الآیة، أمّا الخمر فکلّ مسکر من الشّراب إذا أخمر فهو خمر و ما أسکر کثیره فقلیله حرام و ذلک إنّ أبا بکر شرب قبل أن یحرم الخمر فسکر إلی أن قال فأنزل اللّه تحریمها بعد ذلک و إنّما کانت الخمر یوم حرمت بالمدینة فضیخ البسر و التّمر، فلمّا نزل تحریمها خرج رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقعد فی المسجد ثمّ دعا بآنیتهم الّتی کانوا ینبذون فیها فأکفاها کلّها، و قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: هذه کلّها خمر حرّمها اللّه فکان أکثر شیء أکفی فی ذلک الیوم الفضیخ و لم أعلم اکفی یومئذ من خمر العنب شیء إلاّ إناء واحد کان فیه زبیب و تمر جمیعا، فأمّا عصیر العنب فلم یکن منه یومئذ بالمدینة شیء، و حرّم اللّه الخمر قلیلها و کثیرها و بیعها و شرائها و الانتفاع بها، هذا.

و یدلّ علی حرمة النّبیذ بخصوصه ما رواه فی الوسایل عن الکلینیّ باسناده عن خضر الصّیرفی عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: من شرب النّبیذ علی أنّه حلال خلد فی النّار، و من شربه علی أنّه حرام عذّب فی النّار.

و عن علیّ بن إبراهیم عن أبیه عن الحسن بن علیّ عن أبیه عن أبی عبد اللّه علیه السّلام لو أنّ رجلا کحل عینیه بمیل من نبیذ کان حقّا علی اللّه عزّ و جلّ أن یکحله بمیل من نار.

و فيه عن الشّيخ باسناده عن عمّار قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن الرّجل يكون مسلما عارفا إلاّ أنّه يشرب العسكر هذا النّبيذ، فقال لى: يا عمّار إن مات فلا تصلّ عليه.

و الأخبار فى هذا المعنى كثيرة و فيما أوردناها كفاية.

(و)يستحلّون(السّحت بالهدية)السّحت الحرام و كلّ ما لا يحلّ كسبه، و فى مجمع البحرين عن علىّ عليه السّلام هو الرّشوة فى الحكم و مهر البغى و كسب الحجام و عسب الفحل و ثمن الكلب و ثمن الخمر و ثمن الميتة.

و الظّاهر أنّ المراد به هنا خصوص الرّشوة كما فسّره بها الصّادق عليه السّلام فيما رواه فى الوسايل عن الشّيخ باسناده عن أحمد بن محمّد عن محمّد بن سنان عن ابن مسكان عن يزيد بن فرقد قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن السّحت فقال: هو الرّشاء فى الحكم.

و المقصود أنّهم يأخذون الرّشوة إذا اهديت إليهم و يستحلّونها بزعم أنّها هديّة قال الفاضل النّراقى: الفرق بين الرّشوة و الهديّة أنّ الأولى هى المال المبذول للقاضى للتوسّل به إلى الحكم ابتداء أو إرشادا، و الثّانية هى العطيّة المطلقة أو لغرض آخر نحو التّودّد و التّقرّب إليه أو إلى اللّه، و الحاصل أنّ كلّ مال مبذول للشّخص للتّوسّل به إلى فعل صادر منه و لو مجرّد الكفّ عن شرّه لسانا أو يدا أو نحوهما فهو الرّشوة، و لا فرق فى الفعل الذى هو غاية البذل أن يكون فعلا حاضرا أو متوقّعا كان يبذل للقاضى لأجل أنّه لو حصل له خصم يحكم للباذل و ان لم يكن له بالفعل خصم حاضر و لا خصومة حاضرة، و كلّ مبذول لا لغرض يفعله المبذول له بل لمجرّد التقرّب أو التودّد إليه أو يصفة محمودة أو كمال فيه فهو هدية و إن كان الغرض من التودّد و التقرّب الاحتفاظ من شرّ شخص آخر أو التّوسل إلى فعل شخص آخر يوجبه التقرّب و التودّد إليه.

و قد يستعمل لفظ أحدهما فى معنى الآخر تجوّزافما كان من الأوّل فان كان الفعل المقصود الحكم فهو حرام مطلقا سواء كان الحكم لخصومة حاضرة أو فرضيّة، و لذا حكموا بحرمة الهديّة الغير المعهودة قبل القضاء، لأنه

قرينة على أنّ المقصود منه الحكم و لو فرضنا و هو كذلک لصدق اسم الرّشوة عرفا فيشمله إطلاقاتها و عليه يحمل إطلاق ما ورد من طريق العامّة و الخاصّة كما فی أمالی الشيخ أنّ هدايا العمّال كما فی بعضها أو هديّة الامراء كما فی بعض آخر غلول أو سحت و يدلّ عليه أيضا رواية أبی حميد الساعدی قال: استعمل النبیّ صلّی اللّه عليه و آله و سلّم رجلا يقال له اللّتة علی الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم و هذا اهدی لی، فقام النّبیّ صلّی اللّه عليه و آله و سلّم علی المنبر فقال: ما بال العامل نبعثه علی أعمالنا يقول: هذا لكم و هذا اهدی لی فهلاّ جلس فی قعب بيته أو فی بيت اللّه ينظر ليهدی أم لا، و الّذی نفسی بيده لا يأخذ أحد منها شيئا إلاّ جاء يوم القيامة يحمل علی رقبته، الحديث.

و إن كان غير الحكم فان كان أمرا محرّما فهو أيضا كرشوة الحكم محرّم لكونه إعانة علی الاثم و اتّباعا للهوی، و ان لم يكن محرّما فلا يحرم للأصل و اختصاص الأخبار المتقدّمة برشوة الحكم، و ما كان من الثانی لا يحرم.

(و) يستحلّون (الرّبا بالبيع) الرّبا لغة هو الزّيادة و شرعا هو الزّيادة علی رأس المال من أحد المتساويين جنسا ممّا يكال أو يوزن، و المراد أنهم يأخذون الزّيادة بواسطة البيع أی يجعلون المبايعة وسيلة إلی أخذ تلک الزيادة و يزعمون حليّتها لأجل أنّها معاملة بتراضی الطرفين أو أنهم يستحلّون الرّبا بقياسه علی البيع كما كان عليه بناء أهل الجاهليّة علی ما أخبر اللّه سبحانه عنهم بقوله: «ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَ أَحَلَّ اللّٰهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا ».

قال الشيخ الطبرسیّ أی ذلک العقاب لهم بسبب قولهم إنّما البيع الّذی لا ربا فيه مثل البيع الّذی فيه الرّبا.

قال ابن عباس: كان الرّجل منهم إذا حلّ دينه علی غريمه فطالبه به قال المطلوب منه له: زدنی فی الأجل و أزيدک فی المال، فيتراضيان عليه و يعملان به، فاذا قيل لهم هذا ربا قالوا: هما سواء، يعنون بذلک أنّ الزّيادة فی الثمن حال البيع و الزّيادة فيه بسبب الأجل عند حلّ الدّين سواء، فذمّهم اللّه به و الحق الوعيد بهم و خطاهم فی ذلک لقوله تعالی: «وَ أَحَلَّ اللّٰهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا »

و قال الفخر الرازى: اعلم أنّ الرّبا قسمان: ربا النسيئة و ربا الفضل أمّا ربا النّسيئة فهو الأمر الّذى كان متعارفا مشهورا فى الجاهليّة، و ذلك أنّهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كلّ شهر قدرا معيّنا و يكون رأس المال باقيا، ثمّ إذا حلّ الدّين طالبوا المديون برأس المال، فاذا تعذر عليه الأداء زادوا فى الحقّ و الأجل، فهذا هو الرّبا الّذى كانوا فى الجاهليّة يتعاملون به، و أمّا ربا النّقد فهو أن يباع منّ من الحنطة بمنوين منها و ما أشبه ذلك.

أما قوله تعالى «ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا » ففيه مسائل:

المسألة الاولى القوم كانوا فى تحليل الرّبا على هذه الشّبهة، و هى أنّ من اشترى ثوبا بعشرة ثمّ باعه بأحد عشر فهذا حلال فكذا إذا باع العشرة بأحد عشر يجب أن يكون حلالا، لأنّه لا فرق فى العقل بين الأمرين فهذا فى ربا النقد و أمّا فى ربا النّسيئة فكذلک أيضا لأنّه لو باع الثوب الّذى يساوى عشرة فى الحال بأحد عشر إلى شهر جاز، فكذا إذا أعطى العشرة بأحد عشر إلى شهر وجب أن يجوز، لأنّه لا فرق فى العقل بين الصّورتين، و ذلک لأنّه إنّما جاز هنا لأنّه حصل التّراضى فيه من الجانبين فكذا ههنا لمّا حصل التّراضى من الجانبين وجب أن يجوز أيضا، فالبياعات إنّما شرعت لدفع الحاجات و لعلّ الانسان أن يكون صفر اليد فى الحال شديد الحاجة و يكون له فى المستقبل من الزّمان أموال كثيرة فاذا لم يجز الرّبا لم يعطه ربّ المال شيئا فيبقى الانسان فى الشّدة و الحاجة أمّا بتقدير جواز الرّبا فيعطيه ربّ المال طمعا فى الزّيادة و المديون يردّه عند وجدان المال مع الزّيادة و إعطاء تلک الزيادة عند وجدان المال أسهل عليه من البقاء فى الحاجة قبل وجدان المال، فهذا يقتضى حلّ الرّبا كما حكمنا بحلّ ساير البياعات لأجل دفع الحاجة فهذا هو شبهة القوم و اللّه تعالى أجاب عنه بحرف واحد و هو قوله: «وَ أَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا ».

و وجه الجواب أنّ ما ذكرتم معارضة للنّص بالقياس و هو من عمل إبليس فانّه تعالى لمّا أمره بالسّجود لآدم عليه السّلام عارض النّص بالقياس فقال: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ »

«خَلَقْتَنِى مِنْ نـارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ »، و ذكر الفرق بين البـابين فقـال: من بـاع ثوبـا يساوى العشـرة بالعشـرين فقـد جعل ذات الثوب مقابلا بالعشـرين، فلمّا حصل التّراضى على هذا التّقابل صار كلّ واحد منهما مقابلا للآخر فى الماليّة عندهما فلم يكن أخذ من صاحبه شيئا بغير عوض، أمّا إذا باع العشرة بالعشرين فقد أخذ العشرة الزّايدة من غير عوض.

و لاـ يمكن أن يقال إنّ عوضه هو الامهال فى المـدّة، لأنّ الامهال ليس مالا أو شـيئا يشار إليه حتّى يجعله عوضا من العشـرة الزّايـدة، فظهر الفرق بين الصّورتين إلى أن قال:

المسألـة الثالثة فى الآية سؤال، و هو أنّه لم لم يقل إنّما الرّبا مثل البيع و ذلک لأنّ حلّ البيع متّفق عليه فهم أرادوا أن يقيسوا عليه الرّبا، و من حقّ القياس أن يشـبه محلّ الخلاف بمحلّ الوفاق، فكان نظم الآيـة أن يقال إنّما الرّبا مثل البيع فى الحكمـة فى قلب هذه القضـيّة فقال إنّما البيع مثـل الرّبـا و الجواب أنّه لـم يكن مقصود القوم أن يتمسّكوا بنظم القياس، بل كان غرضـهم أنّ الرّبا و البيع متماثلان من جميع الوجوه المطلوبة فكيف يجوز تخصيص أحد المثلين بالحلّ و الثّانى بالحرمة، و على هذا التّقدير فايّهما قدّم أو أخّر جاز، هذا.

و قال الرازى و ذكروا فى سبب تحريم الرّبا وجوها:

أحدها الرّبا يقتضـى أخذ مال الانسان من غير عوض لأنّ من يبيع الدّرهم بالدّرهمين نقدا أو نسـية فيحصل له زيادة درهم من غير عوض، و مال الانسان متعلّق حاجته و له حرمة عظيمة.

فان قيل: لم لا يجوز أن يكون إبقاء رأس المال فى يده مدّة مديدة عوضا عن الدّرهم الزّايد، و ذلک لأنّ رأس المال لو بقى فى يده هذه المدّة لكان يمكن المالک أن يتّجر فيه و يسـتفيد بسـبب تلک التّجارة ربحا، فلمّا تركه فى يد المديون و انتفع به المديون لم يبعد أن يدفع إلى ربّ المال ذلک الدّرهم الزّايد عوضا عن انتفاعه بماله.

قلنا: إنّ هـذا الانتفاع الّـذى ذكرتم أمر موهوم لا ينفکّ عن نوع ضـرر موهوم قـد يحصل و قـد لا يحصل، و اخـذ الدراهم الزائدة أمر متيقّن فتفويت المتيقّن لأجـل الأـمر الموهوم لا ينفکّ عن نوع ضـرر و ثانيها قال بعضـهم: اللّه تعالى إنّما حرّم الرّبا من حيث إنّه يمنع النّاس عن الاشـتغال بالمكاسب، و ذلک لأنّ صاحب الـدّرهم إذا تمكّن بواسـطة عقـد الرّبا من تحصـيل الـدّرهم الزائـد نقدا كان أو نسـية خفّ عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمّل مشـقّة الكسب و التّجارة و الصّناعات الشّاقة، و ذلک يفضى إلى انقطاع منافع الخلق و من المعلوم أنّ مصالح العالم لا تنتظم إلاّ بالتجارات و الحرف و الصّـ ناعات و العمارات و ثالثها قيل: السّبب فى تحريم عقد الرّبا إنّه يفضى إلى انقطاع المعروف بين النّـاس من القرض، لأـنّ الرّبـا إذا حرم طابت النّفوس بقرض الـدّرهم و استرجاع مثله، و لو حلّ الرّبا لكانت حاجـة المحتاج تحمله على أخذ الدّرهم بدرهمين، فيفضى ذلک إلى انقطاع المواساة و المعروف و الاحسان.

أقول: و هـذا الوجه الأخير هو المروىّ عن الصّادق عليه السّـ لام قال: إنّما شدّد اللّه فى تحريم الرّبا لئلاّ يمتنع النّاس من اصـطناع المعروف قرضا و رفدا.

قـال بعض العـارفين: آكـل الرّبـا أسوء حالا من جميع مرتكبى الكبائر، فانّ كل مكتسب له توكّل ما فى كسـبه قليلا كان أو كثيرا كالتّاجر و الزارع و المحترف لم يعينوا أرزاقهم بعقولهم و لم يتعيّن لهم قبل الاكتساب، فهم على غير معلوم فى الحقيقة كما قال رسول اللّه: أبى اللّه أن يرزق المؤمن إلاّ من حيث لا يعلم، و أمّا آكل الربا فقد عيّن مكسبه و رزقه و هو محجوب عن ربّه بنفسه و عن رزقه بتعيّنه لا توكل له أصلا، فوكّله اللّه إلى نفسه و عقله و أخرجه من حفظه و كلائته فاحتفظته الجنّ و خبلته فيقوم يوم القيامـة و لا رابطـة بينه و بين اللّه عزّ و جلّ كساير النّاس المرتبطين به بالتّوكل، فيكون كالمصروع الّذى مسّه الشّيطان فتخبّطه لا يهتدى إلى مقصد، هذا.

و الأخبار فى عقاب الرّبا كثيرة جدّا منها ما فى الصّافى عن الكافى عن الصّادق عليه السّلام درهم ربا أشدّ من سبعين

زنية كلّها بذات محرم، و زاد فى الفقيه و التّهذيب مثل خالة و عمّة، و زاد القمّى فى بيت اللّه الحرام، و قال: الرّبا سبعون جزء أيسره مثل أن ينكح الرّجل امّه فى بيت اللّه الحرام.

و عن الفقيه و التهذيب عن أمير المؤمنين عليه السّلام لعن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الرّبا و آكله و بايعه و مشتريه و كاتبه و شاهديه.

ثمّ إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما بيّن لأمير المؤمنين عليه السّلام أوصاف المفتونين فأعاد عليه السّلام السؤال و قال (فقلت يا رسول اللّه فبأىّ المنازل أنزلهم عند ذلك أ بمنزلة ردّة أم بمنزلة فتنة فقال بمنزلة فتنة) و ذلك لبقائهم على الاقرار بالشهادتين و ان ارتكبوا من المحارم ما ارتكبوا لشبه غطت على أعين أبصارهم، فلا يجرى عليهم فى الظاهر أحكام الكفر و إن كانوا باطنا من أخبث الكفار.

تنبيهات

: -

الاول

قال الشارحان المعتزلى و البحرانى: إنّ هذا الخبر الذى رواه أمير المؤمنين عليه السّلام عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد رواه كثير من المحدّثين عنه عليه السّلام عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّ اللّه قد كتب عليک جهاد المفتونين كما كتب علىّ جهاد المشركين قال عليه السّلام فقلت: يا رسول اللّه ما هذه الفتنة التى كتب علىّ فيها الجهاد؟ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتنة قوم يشهدون أن لا إله إلاّ اللّه، و أنّى رسول اللّه و هم مخالفون للسنّة، فقلت:

يا رسول اللّه فعلى م أقاتلهم و هم يشهدون كما أشهد؟ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: على الاحداث فى الدّين و مخالفة الأمر، فقلت: يا رسول اللّه إنّک كنت وعدتنى بالشهادة فاسأل اللّه أن يعجّلها لى بين يديک، قال: فمن يقاتل الناكثين و القاسطين و المارقين أما أنّى وعدتک بالشهادة و ستشهد تضرب على هذا فتخضب هذه فكيف صبرک إذا؟ فقلت يا رسول اللّه ليس ذا بموطن صبر هذا موطن شكر، قال: أجل أصبت فأعدّ للخصومة فانک مخاصم، فقلت: يا رسول اللّه لو بيّنت لى قليلا، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّ امّتى ستفتن

من بعـدى فتتأوّل القرآن، و تعمل بالرّأى، و تسـتحلّ الخمر بالنبيذ، و السـحت بالهديّة و الرّبا بالبيع، و تحرّف الكلم عن مواضـعه، و تغلب كلمة الضّلال فكن جليس بيتک حتّى تقلّدها، فاذا قلّدتها، جاشت عليک الصّدور، و قلبت لک الامور، فقاتل حينئذ على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، فليست حالهم الثّانيـة دون حالهم الاولى، فقلت: يا رسول اللّه فبأىّ المنازل انزل هؤلاء المفتونين؟ أ بمنزلة فتنة أم بمنزلة ردّة؟ فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: بمنزلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل، فقلت يا رسول اللّه أ يدركهم العدل منّا أم من غيرنا؟ قال صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: بل منّا، بنا فتح اللّه و بنا يختم، و بنا ألّف اللّه بين القلوب بعد الشّرک، فقلت: الحمد للّه على ما وهب لنا من فضله.

بيان

قوله صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: كن جليس بيتـک هكـذا فى نسـخة الشّارح المعتزلى فعيل بمعنى فاعل أى كن من يجالس بيتک، و فى نسـخة البحرانى حلس بيتک بالحاء المهملة وزان حبر قال فى مجمع البحرين: فى الخبر كونوا أحلاس بيوتكم، الحلس بالكسر كساء يوضع على ظهر البعير تحت البرذعـة، و هذا هو الأصل، و المعنى الزموا بيوتكم لزوم الاحلاس و لا تخرجوا منها فتقعوا فى الفتنة، و الضّمير فى تقلّدها و قلّدتها على البناء للمفعول فيهما راجع إلى الخلافة، و التّقليد مأخوذ من عقد القلادة على الاسـتعارة و تقليدهم اطاعتهم و ترک الفساد، و جاش القدر بالهمز و غيره غلا، و قلبت لک الامور أى دبّروا أنواع المكائد و الحيل.

الثانى

قال الشّارح المعتزلى: فى قوله عليه السّلام: بل بمنزلـة فتنـة، تصـديق لمـذهبنا فى أهل البغى و أنّهم لم يـدخلوا فى الكفر بالكلّية، بل هم فسّاق، و الفاسق عندنا فى منزلة بين المنزلتين خرج من الايمان و لم يدخل فى الكفر، انتهى.

اقول: قد علمت تحقيق الكلام فى حكم البغاة و الخوارج فى شرح الخطبة

الثّالثة و الثّلاثين و ظهر لک هناک أنّهم محکومون بکفرهم باطنا و إن یجری علیهم فی الظّاهر أحکام الاسلام، و لقد ظفرت حیثما بلغ بنا الشّرح إلی هذا المقام علی تحقیق أنیق للعلاّمة المجلسی قدّس سرّه العزیز فی هذا المرام، فأحببت أن أورده هنا لکونه معاضدا لما قدّمنا، فأقول:

قال قدّس اللّه روحه فی المجلّد الثّامن من البحار فی باب حکم من حارب أمیر المؤمنین علیه الصّلاة و السّلام:

تذییل فی أحکام البغاة

اعلم أنّه قد اختلف فی أحکام البغاة فی مقامین:

الاول فی کفرهم

، فذهب أصحابنا إلی کفرهم قال المحقّق الطّوسی رحمة اللّه علیه فی التجرید: محاربوا علیّ علیه السّلام کفرة، و مخالفوه فسقة.

أقول: و لعلّ مراده إنّ مخالفیه فی الحرب و الذین لم ینصروه فسقة کما یؤمی إلیه بعض کلماته فیما بعد.

و ذهب الشّافعی إلی أنّ الباغی لیس باسم ذمّ، بل هو اسم من اجتهد فأخطأ بمنزلة من خالف الفقهاء فی بعض المسائل.

و قال شارح المقاصد: و المخالفون لعلیّ علیه السّلام بغاة، لخروجهم علی امام الحقّ بشبهة من ترک القصاص من قتلة عثمان، و لقوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعمّار رضی اللّه عنه تقتلک الفئة الباغیة، و قد قتل یوم صفّین علی ید أهل الشّام، و لقول علیّ علیه الصّلاة و السّلام: إخواننا بغوا علینا و لیسوا کفّارا و لا فسقة و ظلمة، لمالهم من التأویل و إن کان باطلا، فغایة الأمر أنّهم أخطئوا فی الاجتهاد، و ذلک لا یوجب التّفسیق فضلا عن التّکفیر.

و ذهبت المعتزلة إلی أنّه اسم ذمّ و یسمّونهم فسّاقا.

و الدّلائل علی ما ذهب إلیه أصحابنا أکثر من أن تحصی، و قد مضت الأخبار الدّالة علیه و سیأتی فی أبواب حبّ أمیر المؤمنین و إمّام المتّقین علیّ بن أبی طالب

علیه صلوات اللّه الملک الغالب و بغضه علیه الصّلاة و السّلام و أبواب مناقبه و ایرادها هنا یوجب التّکرار، فبعضها صریح فی کفر مبغض أهل بیت العصمة و الطّهارة علیهم الصّلاة و السّلام، و لا ریب فی أنّ الباغی مبغض، و بعضها یدلّ علی کفر من أنکر إمامة أمیر المؤمنین علیّ بن أبی طالب علیه الصّلاة و السّلام، و بعضها علی أنّ الجاحد له من أهل النّار، و بعضها یدلّ علی کفر من لم یعرف امام زمانه، و ذلک ممّا اتّفقت علیه کلمة الفریقین، و البغی لا یجامع فی الغالب معرفة الامام، و لو فرض باغ علی الامام لأمر دنیویّ من غیر بغض و لا انکار لامامته فهو کافر أیضا، لعدم القائل بالفرق.

ثمّ إنّ الظّاهر(1) أنّ قوله تعالی:

«وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَی الْأُخْری فَقاتِلُوا الَّتِی تَبْغِی حَتّی تَفِیءَ إِلی أَمْرِ اللّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُما بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللّهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ ».

لا یتعلّق بقتال البغاة بالمعنی المعروف، لما عرفت من کفرهم، و إطلاق المؤمن علیهم باعتبار ما کانوا علیه بعید، و ظاهر الآیة التّالیة و هی قوله:

«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَیْنَ أَخَوَیْکُمْ وَ اتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ ».

بقاء المذکورین فی الآیة السّابقة علی الایمان، و لعلّه السّرّ فی خلوّ أکثر الأخبار عن الاحتجاج بهذه الآیة فی هذا المقام، فتکون الآیة مسوقة لبیان حکم طائفتین من المؤمنین تعدّت و بغت احداهما علی الاخری لأمر دنیویّ أو غیرها ممّا لا

1- (1) فیه تأمل یظهر وجهه مما نوردها من الاخبار فی تفسیر الآیة فی شرح الفصل الثامن من الخطبة القاصعة و هی المأة و الحادیة و التسعون من المختار فی باب الخطب، منه

يؤدّى إلى الكفر.

الثانى فيما اغتنمه المسلمون من أموال البغاة

فذهب بعض الأصحاب إلى أنّه لا يقسم أموالهم مطلقا، و ذهب بعضهم إلى قسمة ما حواه العسكر دون غيره من أموالهم و تمسّك الفريقان بسيرته عليه السّلام فى أهل البصرة.

قال الأوّلون: لو جاز الاغتنام لم يردّ عليه السّلام عليهم أموالهم و قد روى أنّه عليه السّلام نادى من وجد ماله فله أخذه فكان الرّجل منهم يمرّ بمسلم يطبخ فى قدر فيسأله أن يصبر حتّى ينضج فلا يصبر فيكفاها و يأخذها، و أنّه عليه السّلام كان يعطى من القوم من له بيّنه و من لم يكن له بيّنه فيحلفه و يعطيه.

و قال الآخرون لو لا جوازه لما قسم عليه السّلام أموالهم أوّلا بين المقاتلة و قد كان ردّها عليهم بعد ذلك على سبيل المنّ لا الاستحقاق كما منّ النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على كثير من المشركين، و قد رووا عنه عليه السّلام أنّه قال: مننت على أهل البصرة كما منّ النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أهل مكّة، و لذا ذهب بعض أصحابنا على جواز استرقاقهم كما جاز للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أهل مكّة، و المشهور عدمه.

و الّذى نفهم من الأخبار أنّهم واقعا فى حكم المشركين و غنايمهم و سبيهم فى حكم غنايم المشركين و سبيهم، و القائم عليه السّلام يجرى عليهم تلك الأحكام، و لمّا علم أمير المؤمنين عليه السّلام استيلاء المخالفين على شيعته لم يجر هذه الأحكام عليهم لئلاّ يجروها على شيعته، و كذا الحكم بطهارتهم و جواز مناكحتهم و حلّ ذبيحتهم لاضطرار معاشرة الشّيعة معهم فى دولة المخالفين.

و يدلّ عليه ما رواه الكلينىّ باسناده عن أبى بكر الحضرمى قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السّلام يقول: لسيرة علىّ يوم البصرة كانت خيرا للشّيعة ممّا طلعت عليه الشّمس لأنّه علم أنّ للقوم دولة فلو سباهم لسبيت شيعته، قلت فأخبرنى عن القائم أ يسير بسيرته عليه السّلام؟ قال: لا إنّ عليّا سار فيهم بالمنّ، للعلم من دولتهم، و إنّ القائم عليه السّلام يسير فيهم بخلاف تلك السّيرة، لأنّه لا دولة لهم.

و أمّا ما لم يحوها العسكر من أموالهم فنقلوا الاجماع على عدم جواز

تملّكها، و كذلك ما حواه العسكر إذا رجعوا إلى طاعة الامام عليه السّلام و إنّما الخلاف فيما حواه العسكر مع إصرارهم، و أمّا مدبرهم و جريحهم و أسيرهم فذو الفئة منهم يتبع و يجهز عليه و يقتل، بخلاف غيره، و قد مضت الأخبار فى ذلك و ستأتى فى باب سيرته عليه السّلام فى حروبه.

تكملة

قال الشّيخ قدّس اللّه روحه فى تلخيص الشّافى عندنا أنّ من حارب أمير المؤمنين و ضرب وجهه و وجه أصحابه بالسّيف كافر، و الدّليل المعتمد فى ذلك إجماع الفرقة المحقّة الاماميّة على ذلك، فانّهم لا يختلفون فى هذه المسألة على حال من الأحوال و تدلّلنا على أنّ إجماعهم حجّة فيما تقدّم، و أيضا فنحن نعلم أنّ من حاربه عليه السّلام كان منكرا لامامته و دافعا لها، و دفع الامامة كفر كما أنّ دفع النّبوّة كفر، لأنّ الجهل بهما على حدّ واحد.

و قد روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: من مات و هو لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة، و ميتة الجاهليّة لا تكون إلاّ على كفر.

و أيضا روى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: حربك يا علىّ حربى و سلمك يا علىّ سلمى، و معلوم أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّما أراد أحكام حربك تماثل أحكام حربى، و لم يرد أنّ إحدى الحربين هى الاخرى، لأنّ المعلوم ضرورة خلاف ذلك و ان كان حرب النّبى كفرا أوجب مثل ذلك فى حرب أمير المؤمنين عليه السّلام لأنّه جعله مثل حربه.

و يدلّ على ذلك أيضا قوله صلّى اللّه عليه و آله: اللّهمّ وال من والاه و عاد من عاداه، و نحن نعلم أنّه لا يجب عداوة أحد بالاطلاق إلاّ عداوة الكفّار.

و أيضا فنحن نعلم أنّ من كان يقاتله يستحلّ دمه و يتقرّب إلى اللّه بذلك، و استحلال دم مؤمن مسلم كفر بالاجماع، و هو أعظم من استحلال جرعة من الخمر الّذى هو كفر بالاتّفاق.

فان قيل: لو كانوا كفّارا لوجب أن يسير فيهم بسيرة الكفّار، فيتبع مولّيهم و يجهز على جريحهم، و يسبى ذراريهم، فلمّا لم يفعل ذلك دلّ على أنّهم لم

يكونوا كفّارا.

قلنا: لا يجب بالتّساوى فى الكفر التّساوى فى جميع أحكامه، لأنّ أحكام الكفر مختلفـة، فحكم الحربى خلاف حكم الـذّمى، و حكم أهل الكتاب خلاف حكم من لا كتاب له من عباد الأصنام، فانّ أهل الكتاب يؤخـذ منهم الجزيـة و يقرّون على أديانهم، و لا يفعل ذلک بعبّاد الأصـنام، و عنـد من خالفنا من الفقهاء يجوز التّزوّج بأهل الذّمـة و إن لـم يجز ذلک فى غيرهم، و حكم المرتدّ بخلاف حكم الجميع، و إذا كان أحكام الكفر مختلفة مع الاتّفاق فى كونه كفرا لا يمتنع أن يكون من حاربه كافرا و إن سار فيهم بخلاف أحكام الكفّار.

و أمّا المعتزلة و كثير من المنصـفين من غيرهم فيقولون بفسق من حاربه و نكث بيعته و مرق عن طاعته، و إنّما يدعون أنّهم تابوا بعد ذلک، و يرجعون فى اثبات توبتهم إلى امور غير مقطوع بها و لا معلومـة من أخبار الآحاد، و المعصـية معلومـة مقطوع عليها، و ليس يجوز الرّجوع عن المعلوم إلاّ بمعلوم مثله.

الترجمة

فصل ثانى از كلام آن امام انام است مى فرمايد:

راه ايمان راهى است روشن تر از همهٔ راهها، و نورانى تر از جميع چراغها، پس با ايمان اسـتدلال كرده مى شود بأعمال صالحه، و با أعمال صـالحه اسـتدلال كرده مى شود بايمـان، و با ايمان آباد شـده مى شود علم، و با علم ترس حاصل مى شود از مرگ و با مرگ ختم مى شود دنيـا، و با دنيا محكم مى شود كار آخرت، و با قيامت نزديک شـده مى شود بهشت عنبر سـرشت از براى متّقين، و اظهار مى شود دوزخ از براى معصيتكاران و بدرستى كه مخلوقان هيچ مكان نگاهدارنده نيست ايشان را از ورود قيامت در حالتى كه سرعت كننده اند در ميدان آن بسوى غايت نهايت كه عبارتست از سعادت و شقاوت.

بعض ديگر از اين كلام در بيان حال أهل قبور است مى فرمايد:

بتحقیق که کوچ کردنـد ایشان از قرارگاه قبرها، و منتقل شدنـد بمحل انتقال غایتها که عبارتست از بهشت و جهنّم، و از برای هر خانه از این دو خـانه اهلیست که طلب نمی کننـد عوض نمودن آن را بخانـهٔ دیگر، و نقل کرده نمی شونـد از آن خانه بسوی غیر آن، و بـدرستی که أمر بمعروف و نهی از منکر دو خلق پسـندیده هسـتند از اخلاق خدا، و بدرستی که این دو خلق نزدیک نمی گردانند از مرگ و کم نمی کنند از روزی، و لازم نمائیـد بخودتان عمل کردن کتاب خدا را، پس بدرستی که اوست ریسـمان محکم، و نور آشـکار و شـفا دهندهٔ با منفعت، و سیراب کننـدهٔ که رفع عطش می نماید، و نگاه دارندهٔ از برای کسـی که تمسّک بآن نماید، و نجاة دهندهٔ مر کسـی که تعلّق بآن داشـته باشد، کج نمی شود تا راست کرده شود، و عدول نمی کند از حق تا طلب کرده شود بازگشت آن بسوی حق، و کهنه نمی کند آن را کثرت ورد آن بزبانها و دخول آن بگوشها، هر کس قایل شد بآن کتاب صادق شد، و هر کس عمل نمود بآن سبقت کرد بدرجات جنان و روضهٔ رضوان.

و بر خواست بسوی آن حضـرت در أثنـای این کلاـم مردی، پس عرض نمود أی أمیر مؤمنان خبر ده ما را از فتنه و بلیّه و آیا پرسـیدی آنرا از حضرت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟ پس فرمود:

زمانی که نازل نمود حق سبحانه و تعالی آیهٔ «الم أَ حَسِبَ النّاسُ أَنْ یُتْرَکُوا أَنْ یَقُولُوا آمَنّا وَ هُمْ لا یُفْتَنُونَ ».

یعنی منم خدای لطیف مجید آیا گمان کردند مردمان که ایشان ترک کرده میشوند بحال خودشان بمحض این که می گویند ایمان آوردیم ما و حـال آنکه ایشـان امتحـان کرده نشونـد، آن حضـرت فرمود زمانی که نازل شـد این آیه دانسـتم من که فتنه نازل نمی شود بما و حال آنکه حضـرت رسالتمـآب صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم در میـان مـا است، پس گفتم یـا رسول اللّه چیست این فتنه و امتحـان که خبر داده تو را خداوند متعال بآن؟ پس فرمود آن حضرت که: أی علیّ بدرستی که امّت من زود باشد که بفتنه افتند بعد از من

پس گفتم أی رسول خدا آیا نبود که گفتی مرا در روز جنگ احد هنگامی که بدرجهٔ شهادت رسیدند کسانی که شهید شدند از مسلمانان و منع شد از من شهادت پس دشوار آمد این شهید نشدن بمن، پس فرمودی تو بمن که: شاد باش که شهادت از پس تو است، پس فرمود حضرت رسول بمن که: یا علیّ کار بهمین قرار است یعنی البتّه شهید خواهی شد پس چگونه است صبر تو آن هنگام؟ عرض کردم:

یا رسول اللّه نیست این مقام از مقامهای صبر و شکیبائی و لکن از مواضع بشارت و شکر است، پس فرمود آن حضرت: أی علیّ بدرستی این قوم زود باشد که مفتون باشند بعد از من بمالهای خودشان و منّت گذاری کنند بدین خود بپروردگار خودشان، و آرزو نمایند رحمت او را و ایمن شوند از سخط او، و حلال شمارند حرام او را با شبهه های دروغ و با خواهشات غفلت کننده، پس حلال شمارند شراب را به نبیذ، و رشوت را باسم هدیه، و ربا را بسبب مبایعه، پس گفتم: یا رسول اللّه بکدام منزلها نازل کنم ایشان را در آن حال آیا بمنزلهٔ فتنه یا بمنزلهٔ مرتد شدن؟ پس فرمود که بمنزله فتنه از جهت این که ظاهرا اقرار بشهادتین دارند اگر چه باطنا کافرند.

و من خطبة له علیه السّلام و هی المأة و السادسة

اشارة

و الخمسون من المختار فی باب الخطب

الحمد للّه الّذی جعل الحمد مفتاحا لذکره، و سببا للمزید من فضله، و دلیلا علی آلاءه و عظمته، عباد اللّه إنّ الدّهر یجری بالباقین کجریه بالماضین، لا یعود ما قد ولّی منه، و لا یبقی سرمدا ما فیه، آخر فعاله کأوّله، متشابهه أموره، متظاهرة أعلامه، فکأنّکم

بالسّاعة تحدوكم حدو الزّاجر بشوله، فمن شغل نفسه بغير نفسه تحيّر فى الظّلمات، و ارتبک فى الهلكات، و مدّت به شياطينه فى طغيانه، و زيّنت له سىّ ء أعماله، فالجنّة غاية السّابقين، و النّار غاية المفرطين، اعلموا عباد اللّه أنّ التّقوى دار حصن عزيز، و الفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله، و لا يحرز من لجأ إليه، ألا و بالتّقوى تقطع حمة الخطايا، و باليقين تدرک الغاية القصوى، عباد اللّه اللّه اللّه فى أعزّ الأنفس عليكم، و أحبّها إليكم، فإنّ اللّه قد أوضح لكم سبيل الحقّ، و أنار طرقه، فشقوة لازمة، أو سعادة دائمة، فتزوّدوا فى أيّام الفناء لأيّام البقاء، قد دللتم على الزّاد، و أمرتم بالظّعن، و حثثتم على المسير، فإنّما أنتم كركب وقوف لا تدرون متى تؤمرون بالسّير، ألا فما يصنع بالدّنيا من خلق للآخرة، و ما يصنع بالمال من عمّا قليل يسلبه، و يبقى عليه تبعته و حسابه، عباد اللّه إنّه ليس لما وعد اللّه من الخير مترک و لا فيما نهى عنه من الشّرّ مرغب، عباد اللّه احذروا يوما تفحص فيه الأعمال، و يكثر فيه الزّلزال، و تشيب فيه الأطفال، اعلموا عباد اللّه أنّ عليكم رصدا من أنفسكم، و عيونا من جوارحكم، و حفّاظ صدق يحفظون أعمالكم، و عدد أنفاسكم، لا

تستركم منهم ظلمة ليل داج، و لا يكنّكم منهم باب ذو رتاج، و إنّ غدا من اليوم قريب، يذهب اليوم بما فيه، و يجىء الغد لاحقا به، فكأنّ كلّ امرء منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدته، و مخطّ حفرته، فيا له من بيت وحدة، و منزل وحشة، و مفرد غربة، و كأنّ الصّيحة قد أتتكم، و السّاعة قد غشيتكم، و برزتم لفصل القضاء، قد زاحت عنكم الأباطيل، و اضمحلّت عنكم العلل، و استحقّت بكم الحقائق، و صدرت بكم الامور مصادرها، فاتّعظوا بالعبر، و اعتبروا بالغير، و انتفعوا بالنّذر.

اللغة

(زجر) البعير من باب نصر ساقه و (شول) جمع شائلة على غير قياس و هى من الابل ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجفّ لبنها و جمع الجمع أشوال، و أمّا الشّائل بغير هاء فهى النّاقة تشول و ترفع ذنبها للقاح و الجمع شوّل مثل راكع و ركّع و (الحمة) بضمّ الحاء و فتح الميم ابرة العقرب و هى محلّ سمّها، و ربّما يطلق على نفس السمّ، و يروى حمّة بالتّشديد من حمة الحرّ و هو معظمة و (رتج) الباب أغلقه كارتجه و (مخطّ حفرته) فى بعض النّسخ بالخاء المعجمة لأنّ القبر يخطّ أوّلا ثمّ يحفر، و فى بعضها بالحاء المهملة من حطّ القوم إذا نزلوا.

الاعراب

قوله: اللّه اللّه فى أعزّ الأنفس، منصوبان على التّحذير، و حذف العامل وجوبا اى احذروا اللّه أو اتّقوا اللّه قال نجم الأئمة: و حكمة اختصاص وجوب الحذف

بالمحذر منه المكرّر كون تكريره دالاّ على مقارنة المحذر منه للمحذر بحيث يضيق الوقت إلاّ عن ذكر المحذر منه على أبلغ ما يمكن، و ذلک بتكريره و لا يتّسع لذكر العامل مع هذا المكرّر، و إذا لم يكرّر الاسم جاز إظهار العامل اتّفاقا و قوله: فشقوة لازمة أو سعادة دائمة، مرفوعان على الخبريّة أى فعاقبتكم شقوة أو سعادة، أو مبتدءان محذوفا الخبر، و لا يضرّ نكارتهما لكونهما نكرة موصوفة و التّقدير فشقوة لازمة لمن نكب عنها أو سعادة دائمة لمن سلكها، أى سلک هذه الطرق، و يجوز أن يكونا فاعلين لفعل محذوف.

و قوله: فما يصنع، استفهام انكارى على سبيل التّقريع و التّوبيخ، و عن فى قوله. عمّا قليل، بمعنى بعد، و الضّمير فى قوله: انّه ليس آه للشّأن، و إضافة المخطّ إلى حفرته من باب الاضافة فى سعيد كرز إذ المراد بهما القبر، و قوله:

فيا له من بيت وحدة، النّداء للتّفخيم و التّهويل، و اللاّم للاستغاثة، و الضّمير فى له، راجع إلى مخطّ حفرته، و من بيت وحدة تميز.

قال الرّضىّ: و قد يكون الاسم فى نفسه تامّا لا لشىء آخر أعنى لا يجوز اضافته فينصب عنه التميز و ذلک فى شيئين: أحدهما الضّمير و هو الأكثر و ذلک فيما فيه معنى المبالغة و التّفخيم كمواضع التّعجب نحو يا له رجلا و يا لها قصّة و يا لک ليلا و يا لها خطّة «إلى أن قال» فان كان الضّمير فيها(1) لا يعرف المقصود منه فالتّميز عن المفرد كقول امرء القيس:

فيا لک من ليل كأنّ نجومه بكلّ مغار القتل شدّت بيذبل

و إن عرف المقصود من الضّمير برجوعه إلى سابق معيّن كقولک: جائنى زيد فيا له رجلا و ويله فارسا و يا ويحه رجلا و لقيت زيدا فللّه درّه رجلا، أو بالخطاب لشخص معيّن نحو قلت لزيد يا لک من شجاع و للّه درّک من رجل و نحو ذلک، فليس التميز عن المفرد، لأنّه لا إبهام إذا فى الضّمير بل عن النّسبة الحاصلة بالاضافة، كما يكون كذلک إذا كان المضاف إليه فيها ظاهرا، نحو يا لزيد رجلا

1- (1) اى فى تلک الأمثلة.

و للّه درّ زيد رجلا إلى آخر ما ذكره.

المعنى

اعلم أنّ هـذه الخطبة الشّريفة قد خطب بها للنّصح و الموعظة و تنبيه المخاطبين من نوم الغفلة و الجهالة، و افتتحها بما هو حقيق أن يفتتح به كلّ كلام ذى بال أعنى حمـد اللّه سبحانه و الثناء عليه تعالى بجملـة من نعوت كماله فقال (الحمد للّه الّذى جعل الحمد مفتاحا لذكره) قال الشّارح المعتزلى: لأنّ أوّل الكتاب العزيز الحمد للّه ربّ العالمين، و القرآن هو الذكر قال سبحانه:

«إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ ».

أقول: هـذا إنّما يتمّ لو كـان سورة الفاتحـة أوّل مـا نزل من القرآن أو يكون هـذا الجمع و الترتيب و وقوع الفاتحـة فى البـداء بجعل من اللّه سبحانه.

أمّا الثّانى فباطل قطعا إذ نظم السّور و تأليفها و ترتيبها على ما هى عليه الآن إنّما كان فى زمن عثمان و من فعله حسبما عرفته فى تـذييلات شرح الفصل السّابع عشر من الخطبة الاولى.

و أمّا الأوّل فهو أيضا غير معلوم بعـد، بل المشـهور بين المفسّرين أنّ أوّل سورة نزلت بمكّة هو سورة اقرء باسم ربک، و قد رواه فى مجمع البيان فى تفسـير سورة هل أتى عن ابن عباس و غيره، نعم قد روى هناک عن سـعيد بن المسـيّب عن علىّ عليه السّلام أنّ اوّل ما نزل بمكّة فاتحة الكتاب، ثمّ اقرء باسم ربّک.

فالأولى أن يقال إنّ المراد أنه سـبحانه جعل الحمد مفتاحا لذكره فى عدّة سور، و اطلاق الذكر على السورة لا غبار عليه كما أنّ القرآن يطلق على المجموع و على البعض من سورة و آية و نحوها (و سـببا للمزيد من فضـله) بمقتضـى وعده الصادق فى كتابه العزيز أعنى قوله: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ».

(و دليلا على آلائه و عظمته) أمّا كونه دليلا على آلائه فيحتمل معنيين.

أحدهما أنه دليل للحامد على آلائه سبحانه أى على الفوز بها إذ الحمد و الشّكر سببان للوصول إلى النّعم موجبان لزيادتها حسبما عرفت آنفا، و أنّها منه دون غيره، فمن حمد له تعالى فقد اهتدى بحمده إلى نيل نعمه.

و ثانيهما أنّ الحمد للّه تعالى دليل على أنّه صاحب الآلاء و النّعم إذ الحمد لا يليق إلاّ بولىّ النّعمة، و لعلّ الثانى أظهر.

و أمّا كونه دليلا على عظمته فلدلالته على عدم تناهى قدرته و عدم نفاد ملكه و خزائنه إذ كلّما ازداد الحمد ازدادت النّعمة لا يزيده كثرة العطاء إلاّ كرما وجودا فسبحان من لا تفنى خزائنه المسائل، و لا تبدل حكمته الوسائل.

و لمّا فرغ من حمد اللّه سبحانه شرع فى التّذكير و الموعظة فقال(عباد اللّه إنّ الدّهر يجرى بالباقين كجريه بالماضين)يعنى أنّ جريانه بالأخلاف كجريانه بالأسلاف قال الشّاعر:

فما الدّهر إلاّ كالزمان الّذى مضى و لا نحن إلاّ كالقرون الأوائل

و هو من تشبيه المعقول بالمعقول، إذ الجرى أمر عقلانى غير مدرک باحدى الحواس الخمس، و من باب التّشبيه المفصل للتّصريح بوجه الشّبه و كونه مذكورا فى الكلام و هو قوله(لا يعود ما قد ولّى منه و لا يبقى سرمدا ما فيه)يعنى أنّ ما ولّى منه و أدبر فقد فات و مضى لا عود له أبدا، و ما هو موجود فيه فهو فى معرض الزّوال و الفناء ليس له ثبات و لا بقاء، إذ وجود الزّمانى إنّما هو بوجود زمانه، فيكون منقضيا بانقضائه، و فى هذا المعنى قال الشّاعر:

ما أحسن الأيّام إلاّ أنّها يا صاحبىّ إذا مضت لم ترجع

(آخر فعاله كأوّله) و عن بعض النّسخ كأوّلها فالضّمير راجع إلى فعاله، و على ما فى المتن فالضّمير راجع إلى الدّهر فيحتاج إلى تقدير مضاف كأوّل فعاله، و المراد واحد و انّ هو أجزاء الزّمان أوّلا و آخرا سابقا و لا حقا على وتيرة واحدة و نسق واحد أى (متشابهة اموره) فانّه كما كان أوّلا يعدّ قوما للفقر و آخرين للغنى و طائفة للصحّة و اخرى للمرض، و فرقة للضّعة و اخرى للرّفعة، و جمعا للوجود

و آخر للعدم، و هكذا كذلک هو آخرا، و بالجملة فانّ حديثه يخبر عن قديمه، و جديده ينبىء عن عتيقه قال الشّارح المعتزلی: و روی متسابقة اموره، أی شیء منها قبل كلّ شیء كأنّها خيل تتسابق فی مضمار (متظاهرة أعلامه) أی دلالاته علی سجيّته و شيمته و أفعاله الّتی يعامل بها النّاس قديما و حديثا تظاهر بعضها بعضا و تعاضده هذا.

و نسبة هذه الأمور إلی الدّهر و إن كان الفاعل فی الحقيقة هو الرّب تعالی باعتبار كونه من الأسباب المعدّة لحصول ما يحصل فی عالم الكون و الفساد من الخير و الشّر و السّعة و الضّيق حسبما عرفت فی شرح الخطبة الثّانية و الثلاثين.

و قوله (فكأنّكم بالساعة تحدوكم حد و الزّاجر بشوله) قد مرّ تحقيق الكلام فی شرح نظير هذا الكلام له عليه السّلام فی شرح الخطبة الحادية و العشرين و استظهرنا هناک أنّ المراد بالسّاعة ساعات اللّيل و النّهار، لأنّها تسوق النّار إلی الدّار الآخرة و يسعی النّاس بها إليها، و يجوز أن يراد بها هنا القيامة و إن لم نجوّزه فيما تقدّم لاباء لفظة ورائكم هناک عنه، و لعلّ إرادة هذه هنا أظهر بملاحظة لفظة فكأنّكم فتأمّل.

و تسميتها بالسّاعة باعتبار أنّ النّاس يسعی إليها، فيكون المقصود به الاشارة إلی قرب القيامة و كونها حادية للمخاطبين باعتبار أنّها لا بدّ للنّاس من الحشر اليها و الاجتماع فيها للسّؤال و الجواب و الحساب و الكتاب و الثواب و العقاب لا مناص لهم عن وقوفها فكأنّها تسوقهم إليها ليجتمعوا فيها و ينظر إلی أعمالهم و إنّما شبّه حدوهمبحدو الزّاجر بشولهلأنّ سائق الشّول إنّما يسوقها بعنف و سرعة لخلوّها من الضّرع و اللّبن بخلاف سائق العشار فانّه يرفق بها و لا يزجرها كما هو ظاهر.

و لمّا نبّه علی قرب السّاعة و أنّها تحدو المخاطبين أردفه بالتّنبيه علی وجوب الاشتغال بالنّفس أی بصرف الهمّة إلی محاسبتها و إصلاحها و تزكيتها و ترغيبها إلی ما اريد منها (ف) انّ (من شغل نفسه بغير نفسه) لا يتحصّل له نور

يهتدى به فى ظلمات طريق الآخرة بل إنّما يحصل على أغطية من الهيئات البدنيّة و أغشية متحصّلة من الاشتغال بزخارف الدّنيا حاجبة له عن نور البصيرة فلأجل ذلك يكون قد (تحيّر فى الظّلمات) و تاه فيها (و ارتبك) أى اختلط (فى الهلكات) لا يكاد يتخلّص منها (و مدّت به شياطينه فى طغيانه و زينت له سىّ ء أعماله) كما قال عزّ من قائل:

«إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ».

يعنى أنّ الّذين اتّقوا اللّه باجتناب معاصيه إذا طاف عليهم الشّيطان بوساوسه تذكّروا ما عليهم من العقاب بذلك فيجتنبوه و يتركونه فاذاهم مبصرون للرّشد، و إخوان المشركين من شياطين الجنّ و الانس يمدّونهم فى الضّلال و المعاصى و يزيدونهم فيه و يزينون ما هم فيه ثمّ لا يقصرون لا يكفّون الشّياطين عن استغوائهم و لا يرحمونهم و قيل: معناه و إخوان الشّياطين من الكفّار يمدّهم الشّياطين فى الغىّ ثمّ لا يقصرون هؤلاء مع ذلك كما يقصر الّذين اتّقوا، هكذا فى مجمع البيان.

ثمّ ذكر غاية وجود الانسان و قال:(فالجنّة غاية السّابقين و النّار غاية المفرطين) و كفى بالجنّة نعمة لمن طلب، و كفى بالنّار نقمة لمن هرب، و تخصيص الجنّة بالسّابقين و النّار بالمفرطين تنبيها على فضيلة السّبق و رذيلة التّفريط بتقوى الباعث على طلب أشرف الغايتين و الهرب من أخسّهما.

و لمّا كان السّبق إلى الجنّة و النّجاة من النّار لا يحصل إلاّ بالتّقوى و بالكفّ عن الفجور أردفه بذكر ثمرات هذين الوصفين و شرح ما يترتّب عليهما من الفضايل و الرّذائل فقال:(اعلموا عباد اللّه أنّ التّقوى دار حصن عزيز و الفجور دار حصن ذليل) قال الشّارح المعتزلى: أى دار حصانة، فأقيم الاسم مقام المصدر هذا و نسبة العزّة و الذّلّة إلى الدّار من التّوسّع باعتبار عزّة من تحصّن بالأوّل و ذلّة من تحصّن بالآخر

أمّا الأوّل فلأنّ التقوى تحرز من اتّقى فى الـدّنيا من الرّذايل المنقصـة و القبايـح الموقعة له فى الهلكات و المخازى، و فى الآخرة من النار و غضب الجبّار كالحصن الحصين الذى يحرز متحصّنه من المضارّ و المكاره.

و أمـا الثـانى فلأنّ الفجور يوقع الفاجر فى الـدّنيا فى المعاطب و المهالک و لا ينجيه فى الآخرة من العـذاب الأليم و السـخط العظيم، فهو بمنزلة دار غير وثيق البنيان منهدم الحيطان و الجدران (لا يمنع أهله و لا يحرز من لجأ إليه) و من تحصّن بدار كذلک ليكوننّ ذليلا مهانا لا محالة.

(ألا و بالتّقوى تقطع حمة الخطايا) التشبيه المضـمر فى النفسللخطايابالعقارب أو بذوات السموم من الحيوان استعارة بالكناية و ذكر الحمة تخييل و القطع ترشيح و المراد أنّ بالتقوى يتدارک و ينجبر سريان سمّ الخطايا و الآثام فى النفوس الموجب لهلاكها الأبد كما يقطع سريان سموم العقارب و الأفاعى فى الأبدان بالباد زهر و الترياق و يمنع من نفوذها فى أعماق البدن بقطع العضو الملدوغ من موضع اللّدغ، و على رواية حمة بالتشديد فالمقصود أنّ بها تدفع شدّتها و ترفع.

و لمّا نبّه على كون التقوى حاسـمة لمادّة الخطايا، و كان بذلک إصـلاح القوّة العمليّة نبّه على ما به يحصل إصلاح القوّة النّظرية أعنى اليقين فقال:(و باليقين تـدرک الغايـة القصوى) و إدراكها به لأنّ الانسان إذا كملت قوّته النّظريّة باليقين و قوّته العمليّة بالتّقوى، بلغ الغاية القصوى من الكمال الانسانى البتّة.

ثمّ عاد عليه السّـلام إلى تحذير العباد تأكيدا للمراد فقال:(عباد اللّه اللّه) أى راقبوه سبحانه و اتّقوه تعالى (فى أعزّ الأنفس عليكم و أحبّها إليكم) الظّاهر أنّ المراد بأعزّ الأنفس عليهم نفسهم، إذ كلّ أحد يحبّ نفسه بالذّات و لغيره بالعرض و التّبع، و لذلک قال سبحانه:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النّاسُ »

ص:320

«وَ الْحِجارَةُ » قدّم الأمر بوقاية النّفس على الأهل لكونها أولى بها من الغير هذا.

و قال الشّارح البحرانى: و فى الكلام إشارة إلى أنّ للانسان نفوسا متعدّدة و هى باعتبار مطمئنة و أمّارة بالسّوء و لوّامة و باعتبار عاقلة و شهويّة و غضبيّة، و الاشارة إلى الثّلاث الأخيرة و أعزّها النّفس العاقلة إذ هى الباقية بعد الموت و عليها العقاب و فيها العصبيّة.

أقول: كون كلامه عليه السّلام إشارة إلى ما ذكره بعيد غايته (فانّ اللّه قد أوضح لكم سبيل الحقّ و أنار طرقه) و يروى فأبان طرقه، فالعطف للتّفسير يعنى أنّه سبحانه أتمّ الحجّة عليكم، و أزال العذر عنه بما بعثه من الأنبياء و الرّسل و أنزله من الزّبر و الكتب، و أبلج لكم نهج الحقّ على لسانهم (ف) لم يبق بعد ذلك إلاّ (شقوة لازمة) لمن نكب عنه (أو سعادة دائمة) لمن سلكه كما قال عزّ من قائل «إِنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمّا شاكِراً وَ إِمّا كَفُوراً ».

ثمّ عاد على الحثّ على أخذ الزّاد ليوم المعاد و قال:(فتزوّدوا فى أيّام الفناء لأيّام البقاء قد دللتم على الزّاد) أى دلّكم اللّه سبحانه عليه بقوله:

«وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوى ».

(و أمرتم بالظعن) و الرحيل(و حثثتم على المسير)يحتمل أن يكون الظّعن و المسير كنايتين عن ترك الدّنيا و الرّغبة فى الآخرة و السّير إليها بالقلوب و النّفوس، فيكون المراد بالأمر و الحثّ ما ورد فى الكتاب و السّنة من الآيات و الأخبار المنفّرة من الاولى و المرغبة فى الاخرى، و يجوز أن يراد بهما معناهما الحقيقى أعنى السّير و الرّحلة إلى الآخرة بالأبدان فيكون الأمر و الحثّ كناية عمّا أو جد اللّه من الأسباب المعدّة لفساد المزاج المقربة إلى الموت، و عن اللّيل و النّهار الحاديين

للانسان بتعاقبها إلى وطنه الأصلى على ما مرّ تحقيقا و تفصيلا فى شرح الخطبة الثّالثة و السّتين.

(فانّما أنتم كركب وقوف لا تدرون متى تؤمرون بالسّير) لمّا أمرهم بالتّزوّد فى الدّنيا علّله بذلک تنبيها على وجوب المبادرة إلى أخذ الزّاد لأنّ المسافر إذا كان زمام أمره بيد غيره و لا يعلم متى يسار به لزم عليه أن يبادر إلى زاده كيلا يفجاه السّفر و يسير بغير زاد فيعطب.

قال الشّارح البحرانى: قوله:فانّما أنتم كركب إلى آخره فوجه التّشبيه ظاهر، فالانسان هو النّفس، و المطايا هى الأبدان و القوى النّفسانيّة و الطريق هى العالم الحسىّ و العقلى، و السّير الّذى ذكر ما قبل الموت هو تصرّف النّفس فى العالمين لتحصيل الكمالات المعدّة و هى الزّاد لغاية السّعادة الباقية، و أمّا السّير الثّانى الّذى هم وقوف ينتظرون و لا يدرون متى يؤمرون به فهو الرّحيل إلى الآخرة من دار الدّنيا و طرح البدن و قطع عقبات الموت و القبر إذ الانسان لا يعرف وقت ذلک.

(ألا فما يصنع بالدّنيا من خلق للآخرة) الاستفهام فى معرض التّنفير عن الدّنيا و التّوبيخ لطالبيها إذ الانسان لمّا كان مخلوقا للآخرة فمقتضى العقل أن يصرف همّته إليها لا إلى الدّنيا الزّائلة عنه عن قليل (و ما يصنع بالمال عمّا قليل يسلبه) و هو فى معرض التّنفير عن المال بالتّنبيه على أنّه مسلوب عنه بعد زمان قليل فيزول سريعا لذّته (و يبقى عليه تبعته) أى اثمه (و حسابه) و ما كان هذا وصفه فحرىّ بأن يرفض و يترک لا أن يقتنى و يجمع.

ثمّ رغّب فى الخير بقوله (عباد اللّه أنّه ليس لما وعد اللّه من الخير مترک) أى ليس للخيرات و المثوبات الّتى وعدها اللّه سبحانه فى كتابه و على لسان نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم محلّ لأن تترک رغبة عنها إلى غيرها إذ كلّ خير دونها زهيد، و كلّ نفع عندها قليل كما قال عزّ من قائل:

«اَلْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّکَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلاً» و فى سورة آل عمران:

«زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِکَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أَ أُنَبِّئُکُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِکُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللّهِ وَ اللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ». هذا و مقصوده عليه السّلام بذلک الكلام التّرغيب فى الطّاعات المحصّلة للخيرات الاخرويّة و التّحضيض عليها و على القيام بوظائفها.

ثمّ نفرّ عن الشّر بقوله (و لا فيما نهى عنه من الشّر مرغب) أى ليس فى المحرّمات و المعاصى التّى نهى اللّه سبحانه عنها محلّ لأن يرغب فيها مع وجود نهيه و كونها مبغوضة عنده محصّلة للآثام و العقوبات الدّائمة (عباد اللّه احذروا يوما تفحص فيه الأعمال) أى تكشف و تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا و ما عملت من سوء تودّلو أنّ بينها و بينه أمدا بعيدا (و يكثر فيه الزّلزال) و نظير التّحذير عنه بكثرة الزّلزال التّحذير فى قوله تعالى:

«يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللّهِ شَدِيدٌ».

ص:323

قال فى مجمع البيان معناه يا أيّها العقلاء المكلّفون اتّقوا عـذاب ربّكم و اخشوا معصـية ربّكم إنّ زلزلة الأرض يوم القيامة أمر عظيم هايل لا يطاق، يوم ترون الزّلزلة أو السّاعة تشـغل كلّ مرضعة عن ولدها و تنساه، و تضع الحبالى ما فى بطونها و هو تهويل لأمر القيامة و تعظيم لما يكون فيه من الشّدايد أى لو كان ثمّ مرضـعة لذهلت أو حامل لوضـعت و إن لم يكن هناک حامل و لا مرضـعة، و ترى النّاس سـكارى من شـدّة الخوف و الفزع، و مـا هم بسـكارى من الشّـراب و قيـل: معناه كأنّهم سـكارى من ذهول عقولهم لشـدّة ما يمرّ بهم لأنّهم يضـطربون اضطراب السّكران هذا (و) لشدّة ذلک اليوم أيضا(يشيب فيه الأطفال)كما قال تعالى:

«يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً ».

قال الطّبرسىّ: و هذا وصف لذلک اليوم و شدّته كما يقال هذا أمر يشيب منه الوليد و تشيب منه النّواصى إذا كان عظيما شديدا.

و قال الشّارح المعتزلى: قوله عليه السّـلامو يشـيب فيه الأطفالكلام جار مجرى المثل و ليس ذلک على حقيقته لأنّ الامّـة مجتمعة على أنّ الأطفال لا يتغيّر حالهم فى الآخرة إلى الشّيب، و الأصل فى هذا أنّ الهموم و الأحزان إذا توالت على الانسان شاب سريعا قال أبو الطّبيب:

و الهمّ يخترم الجسيم مخافة و يشيب ناصية الصّبىّ و يهرم

ثمّ عقّب بالتّحذير من المعاصى بقوله (اعلموا عباد اللّه أنّ عليكم رصدا من أنفسكم) أى حرسا و حفظة ملازمين لكم غير منفكّين عنكم، و أراد به الجوارح و الأعضـاء، و لـذا فسّـره بقوله (و عيونـا من جوارحكم) مراقبين لكم شـهداء عليكم يوم القيامـة كمـا قـال تعـالى فى سورة السّجدة:

«وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللّهِ إِلَى النّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتّى إِذا ما جاؤُها »

«شَ هِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَىْ ءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ».

روى فى الصّافى عن القمّى نزلت فى قوم تعرض عليهم أعمالهم فينكرونها فيقولون ما عملنا شيئا منها، فيشهد عليهم الملائكة الّذين كتبوا عليهم أعمالهم قال الصّادق عليه السّلام فيقولون للّه: يا ربّ هولاء ملائكتک يشهدون لک، ثمّ يحلفون باللّه ما فعلوا من ذلک شيئا و هو قول اللّه عزّ و جلّ «يوم يبعثهم اللّه جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم» و هم الّذين غصبوا أمير المؤمنين عليه السّلام فعند ذلک يختم اللّه عزّ و جلّ على ألسنتهم و ينطق جوارحهم فيشهد السّمع بما سمع ممّا حرّم اللّه، و يشهد البصر بما نظر به إلى ما حرّم اللّه عزّ و جلّ، و يشهد اليدان بما أخذتا، و تشهد الرّجلان بما سعتا فيما حرّم اللّه، و يشهد الفرج بما ارتكب ممّا حرّم اللّه، ثمّ أنطق اللّه عزّ و جلّ ألسنتهم، فيقولون هم لجلودهم: لم شهدتم علينا الآية قال: و الجلود الفروج.

و فى الصّافى عن القمّى أيضا فى تفسير قوله تعالى فى سورة يس:

«اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ».

قال: إذا جمع اللّه عزّ و جلّ الخلق يوم القيامة دفع إلى كلّ إنسان كتابه فينظرون فيه فينكرون أنّهم عملوا من ذلک شيئا، فتشهد عليهم الملائكة، فيقولون، يا ربّ ملائكتک يشهدون لک، ثمّ يحلفون أنّهم لم يعملوا من ذلک شيئا و هو قول اللّه عزّ و جلّ: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ » فاذا فعلوا ذلک ختم اللّه على ألسنتهم و تنطق جوارحهم بما كانوا يكسبون، هذا

و بما ذكرنا ظهر لک ضعف ما ذكره الشّارح البحرانى بل فساده من أنّ شهادة الجلود و غيرها بلسان الحال و النّطق به، فانّ كلّ عضو لما كان مباشرا لفعل من الأفعال كان حضور ذلک العضو و ما صدر عنه فى علم اللّه تعالى بمنزلة الشّهادة القوليّة بين يديه، فانّ ذلک مخالف لظاهر الآية و نصّ الرّواية لدلالتهما على كون الشّهادة بلسان القال لا بلسان الحال كما زعمه الشّارح و توهّم.

و قوله (و حفّاظ صدق يحفظون أعمالكم و عدد أنفاسكم) أراد بهم الكرام الكاتبين قال تعالى:

«إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ».

قال فى مجمع البيان: ذكر سبحانه أنّه مع علمه به وكّل به ملكين يحفظان عليه عمله الزاما للحجّة، فقال: إذ يتلقّى المتلقّيان، و هما الملكان يأخذان منه عمله فيكتبانه كما يكتب المملى عليه، عن اليمين و عن الشّمال قعيد، المراد بالقعيد هو الملازم الّذى لا يبرح لا القاعد الّذى هو ضدّ القائم، و قيل: عن اليمين كاتب الحسنات و عن الشّمال كاتب السّيئات عن الحسن و مجاهد، و قيل: الحفظة أربعة: ملكان باللّيل، و ملكان بالنّهار عن الحسن، ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد أى ما يتكلّم بكلام فيلفظه أى يرميه من فيه إلاّ لديه حافظ حاضر معه يعنى الملک الموكّل به إمّا صاحب اليمين و إمّا صاحب الشّمال، يحفظ عمله لا يغيب عنه، و عن أبى أمامة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: إنّ صاحب الشّمال ليرفع القلم ستّ ساعات عن العبد المسلم المخطى أو المسىء، فان ندم و استغفر اللّه منها ألقاها و إلاّ كتب واحدة، و فى رواية اخرى قال: صاحب اليمين أمير على صاحب الشّمال، فاذا عمل حسنة كتبها له صاحب اليمين بعشر أمثالها و إذا عمل سيئة فأراد صاحب الشّمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين: امسک، فيمسک عنه سبع ساعات، فان استغفر اللّه منها لم يكتب عليه شىء، و إن لم يستغفر اللّه كتب له سيّئة واحدة، هذا

و قـد علم بـذلک أنّه سـبحانه مع علمه بحال العبد و کونه أقرب إلیه من حبل الورید وکّل علیه لحکمة اقتضـته من تشدید فی تثبط العبد من المعصیة و تأکید فی اعتبار الأعمال و ضبطها للجزاء و إلزام الحجّة یوم یقوم الأشهاد حفظة صدق یحفظون عمله و یضبطونه و هم ملازمون له غیر غائبین عنه أبدا.

کمـا أشار إلیه بقوله (لا تسترکم منهم ظلمـة لیل داج) أی شدیـدة الظلمـة (و لا یکنّکم) أی لا یسترکم (منهم باب ذور تاج) أی باب عظیم مغلق.

ثمّ حـذّر بقرب المـوت فقـال: (و انّ غـدا من الیوم قریب)کنّی بالغـد عن وقت الموت(یـذهب الیوم بمـا فیه)من الخیر و الشّـر و الطّاعـة و المعصـیة(و یجیء الغد لاحقا به)ثمّ حذّر ببلوغ القبر و کنّی عنه بقوله(فکان کلّ امرء منکم قد بلغ من الأرض منزل وحدته و مخطّ حفرته)و أشار إلی هول ذلک المنزل و وصـفه بالأوصاف الموحشة المنفّرة فقال (فیا له من بیت وحدة و منزل وحشة و مفرد غربة) ثمّ حذّر بالصّیحة و نفـخ الصّور و قیام السّاعة فقال:(و کان الصّـیحة قد أتتکم و السّاعة قد غشـیتکم) و الظّاهر أنّ المراد بالصّـیحة الصّـیحة و النّفخة الثانیة و قد اشیر الیهما أعنی الصّیحتین فی سورة یس قال تعالی:

«مـا یَنْظُرُونَ إِلاّ ـ صَـیْحَةً واحِـدَةً تَأْخُـذُهُمْ وَ هُمْ یَخِصِّمُونَ فَلاـ یَسْـتَطِیعُونَ تَوْصِـیَةً وَ لاـ إِلی أَهْلِهِمْ یَرْجِعُونَ وَ نُفِـخَ فِی الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْـداثِ إِلی رَبِّهِمْ یَنْسِـلُونَ قالُوا یا وَیْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَـدِنا هـذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَـلُونَ إِنْ کانَتْ إِلاّ صَـیْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِیعٌ لَدَیْنا مُحْضَرُونَ ».

قال فی مجمع البیان: أی ما ینتظرون إلاّ صـیحة واحدة یرید النّفخة الاولی عن ابن عبّاس، یعنی أنّ القیامة تأتیهم بغتة تأخذهم الصّـیحة «وَ هُمْ یَخِصِّمُونَ » أی

يختصـمون فى امورهم و يتبايعون فى الأسواق، ثمّ أخبر عن النفخة الثّانية و ما يلقونه فيها إذا بعثوا بعد الموت فقال: و نفخ فى الصّور فاذاهم من الأجداث، و هى القبور، إلى ربّهم أى إلى الموضع الّذى يحكم اللّه فيه لا حكم لغيره هناك، ينسلون، أى يخرجون سراعا ثمّ أخبر عن سرعة بعثهم فقال: إن كانت إلاّ صيحة واحدة، أى لم تكن المدّة إلاّ مدّة صيحة واحدة، فاذا هم جميع لدينا محضرون، أى فاذا الأوّلون و الآخرون مجموعون فى عرصات القيامة محضرون فى موقف الحساب و فى سورة الزّمر:

«وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاّ مَنْ شاءَ اللّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ ».

قال فى مجمع البيان: فصعق من فى السّموات آه أى يموت من شدّة تلك الصّيحة الّتى تخرج من الصّور جميع من فى السّماوات و الأرض، و قوله: ثمّ نفخ فيه أخرى، يعنى نفخة البعث و هى النّفخة الثّانية.

(و برزتم لفصل القضاء) أى لحكم العدل الفاصل بين الحقّ و الباطل ليتميّز المصيب من المخطى، و المسلم من الكافر، و المؤمن من المنافق ليجزى كلّ ما عمل كما قال عزّ من قائل:

«وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَ وُضِعَ الْكِتابُ وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ ».

(قد زاحت عنكم الأباطيل) أى بعدت و تنحت عنكم الهيآت الباطلة الممكنة الزّوال (و اضمحلّت عنكم العلل) أى ذهبت و انحلّت عنكم العلل و الأمراض النّفسانيّة (و استحقّت بكم الحقائق) قال الشّارح المعتزلى: أى حقّت و وقعت

فاستفعل بمعنى فعل (و صدرت بكم الأمور مصادرها) أراد به رجوع كلّ امرء إلى ثمرة ما قدّم، قاله البحرانى (فاتّعظوا بالعبر) أى بكلّ ما يفيد اعتبارا و تنبّها على أحوال الآخرة و بما فيه تذكرة للموت و ما بعده من الشّدايد و الأهوال، ألا ترى إلى الآباء و الاخوان و الأبناء و الولدان و الأقرباء و الجيران كيف طحنتهم المنون، و توالت عليهم السّنون، و فقدتهم العيون، اندرست عن وجه الأرض آثارهم و انقطعت عن الأفواه أخبارهم.

إذا كان هذا حال من كان قبلنا فانّا على آثارهم نتلاحق

(و اعتبروا بالغير) أى بتغيّرات الدّهر و انقلاباته على أهله، لا يدوم سروره، و لا تتمّ اموره، لا يقيم على حال، و لا يمتنع بوصال، و عوده كاذبة. و آماله خائبة.

تحدّثک الأطماع أنّک للبقاء خلقت و أنّ الدّهر خلّ موافق

كأنّک لم تبصر اناسا ترادفت عليهم بأسباب المنون اللّواحق

(و انتفعوا بالنّذر) أى بكلّ ما أفاد تخويفا بالآخرة و ما فيها من المفزعات و الدّواهى فيا من عدم رشده، و ضلّ قصده إنّ أوقاتک محدودة، و أنفاسک معدودة، و أفعالک مشهورة، و أنت مقيم على الاصرار، غافل عن يوم تشخص فيه الأبصار.

إذا نصب الميزان للفصل و القضا و ابلس محجاج و اخرس ناطق

و اجّجت النّيران و اشتدّ غيظها إذا فتحت أبوابها و المغالق

فانّک مأخوذ بما قد جنيته و إنّک مطلوب بما أنت سارق

فقارب و سدّد و اتّق اللّه وحده و لا تستقلّ الزّاد فالموت طارق

الترجمة

از جمله خطب بليغۀ آن امام مبين و ولىّ ربّ العالمين است در نصيحت و موعظه و تنفير از دنيا و ترغيب بعقبى مى فرمايد:

حمد و ثنا مر خداى راست كه گردانيد حمد را كليد از براى ذكر خود، و سبب زيادتى فضل و انعام خود، و دليل بر نعمتهاى خود و عظمت بى نهايت خود،

ای بنـدگان خدا بدرستی روزگار جاری می شود بباقی ماندگان مثل جاری شدن او بر گذشـتگان در حالتی که باز نمی گردد آنچه که پشـت گردانیـده از آن، و باقی نمی ماند همیشه آنچه که در او است، آخر کارهای او مثل أوّل کارهای اوست شبیه است بهمدیگر کارهای او، هم پشت یکدیگرند علامتهای او، پس گویا که شـما می بینید قیامت را میراند شما را بسوی خود مثل راندن کسی که بعنف و زجر شتر مادهٔ بی شیر و بچه خود را برانـد، پس کسـی که مشـغول نماید نفس خود را بغیر اصـلاح نفس خود متحیّر می ماند در ظلمتهای جهالت، و آمیخته شود در تباهی هلاکات، و بکشـند او را شـیطانها در طغیان او، و زینت می دهنـد از برای او عملهای بد او را پس بهشت پایان کار سـبقت کننـدگانست، و جهنم نهـایت کار تفریط نماینـدگان بدانیـد ای بنـدگان خـدا که تقوی حصن حصـینی است با عزّت، و فسق و فجور خانه حصـنی است با ذلّت که منع نمی کنـد أهل خود را از بلا و مکاره، و حفظ نمی کنـد کسـی را که پناه برد بسوی او، آگاه باشـید که با تقوی بریده می شود نیش پر زهر گناها، و با یقین درک می شود غایة قصوی.

ای بندگان بپرهیزید از خدا در عزیزترین نفسـها بر شـما و دوست ترین آنها بسوی شما، پس بدرستی که حق تعالی واضح گردانیده از برای شمـا راه حق را، و ظـاهر نموده راههای آن را، پس نهایت کار یا شـقاوتیست لازم، یا سـعادتیست دائم پس توشه برداریـد در روزهای فنا از برای روزهـای بقـا، پس بتحقیق که راه نموده شدیـد بر توشه آخرت و مامور شدیـد برحلت و حثّ و ترغیب شدیـد بسـیر کردن بسوی وطن اصلی، پس بدرستی که شما مانند سوارانید منتظر ایستاده که نمی دانید چه وقت مأمور خواهید شد بحرکت.

آگاه باشـید چه می کند دنیا را کسـی که خلق شده است از برای آخرت، و چه کار دارد با مال کسـی که بعد از زمان قلیل سلب می شود از آن و باقی می مانـد بر او و بال و حساب آن، ای بنـدگان خـدا بـدرستی که نیست مر چیزی را که وعـده فرموده است خـدا از نیکوئی جای ترکی، و نیست در آنچه نهی فرموده از آن از

بدی جای رغبتی، ای بندگان خدا حذر نمائید از روزی که جستجو می شود در آن عملها، و بسیار می شود در آن زلزله، و پیر می شوند در آن بچه گان.

بدانید ای بندگان خدا که بر شما است نگهبانان از نفسهای خودتان، و جاسوسان از أعضاء و جوارح شما، و نگهدارندگان راست و درست یعنی کرام الکاتبین که نگه می دارند عملهای شما را و شمارهٔ نفسهای شما را در حالتی که نمی پوشاند شما را از ایشان تاریکی شب تار، و پنهان نمی سازد شما را از آنها در محکم بسته شده، و بدرستی که فردا نزدیکست از امروز می رود امروز با آنچه که در اوست از خیر و شر، و می آید فردا در حالتی که لاحق است بآن.

پس گویا هر مردی از شما بتحقیق رسیده است از زمین بمنزل تنهائی خود، و بمحلّ خطّ گودال خود که عبارتست از قبر او، پس أی بسا تعجّب أ یقوم مرا بمنزل و مکان از خانه تنهائی و منزل بیمناک و محلّ تفرّد غریبی، و گویا صدای نفخه صور اسرافیل آمده است بشما، و قیامت احاطه نموده بر شما، و بیرون آمده اید از قبر بجهة حکم عدل پروردگار که تمیز دهنده است میان حق و باطل در حالتی که بعید شده است از شما باطلها، و زایل شده از شما علّتها، و مستحق شده است بشما حقیقتها و بازگشته بشما امورات بمواضع بازگشتن خودشان.

پس پند گیرید با عبرتها، و عبرت نمائید با تغیّرات روزگار، و منتفع باشید با چیزهائی که می ترساند شما را از عذاب نار، و از سخط خداوند قهار.

و من خطبة له علیه السّلام و هی المأة و السابعة

اشارة

و الخمسون من المختار فی باب الخطب

و الظاهر أنّها مع الخطبة الثّامنة و الثّمانین متّحدتان ملتقطتان من خطبة طویلة قدّمنا روایتها من الکافی فی شرح الخطبة التی أشرنا الیها

ص:331

أرسله على حين فترة من الرّسل، و طول هجعة من الامم، و انتقاض من المبرم، فجاءهم بتصديق الّذى بين يديه، و النّور المقتدى به، ذلك القرآن فاستنطقوه و لن ينطق، و لكن أخبركم عنه، ألا إنّ فيه علم ما يأتى و الحديث عن الماضى، و دواء دائكم، و نظم ما بينكم. منها – فعند ذلک لا يبقى بيت مدر و لا وبر إلاّ و أدخله الظّلمة ترحة، و أولجوا فيه نقمة، فيومئذ لا يبقى لهم فى السّماء عاذر، و لا فى الأرض ناصر، أصفيتم بالأمر غير أهله، و أوردتموه غير ورده، و سينتقم اللّه ممّن ظلم مأكلا بمأكل، و مشربا بمشرب، من مطاعم العلقم، و مشارب الصّبر و المقر، و لباس شعار الخوف، و دثار السّيف، و إنّما هم مطايا الخطيئات، و زوامل الآثام، فاقسم ثمّ أقسم لتنخمنّها أميّة من بعدى كما تلفظ النّخامة، ثمّ لا تذوقها و لا تتطعّم بطعمها أبدا ما كرّ الجديدان.

اللغة

(الفترة) بين الرّسل انقطاع الوحى و الرّسالة و (الهجعة) النّومة من اللّيل أو من أوّله و (أبرم) الحبل جعله طاقين ثمّ فتله و أبرم الأمر أحكمه و (الترحة) المرّة من التّرح بالتحريک الهمّ و الحزن و (أصفيت) فلانا بكذا خصّصته به و (المأكل) و (المشرب) مصدران بمعنى الأكل و الشّرب و يجوز هنا أن يجعلا بمعنى المفعول و (المقر) ككتف الصّبر أو شبيه به أو السمّ كالمقروزان

ص:332

فلس و (الشعار) ما يلى الجسد من الثّياب و (الدّثار) ما فوقه و (المطايا) جمع مطيّة و هى الدّابة تمطو أى تجدّ فى سيرها و (الزّوامل) جمع الزّاملة و هى الّتى يحمل عليها من الابل و غيرها و (تنخم) دفع بشىء من أنفه أو صدره و (النّخامة) بالضمّ النّخاعة.

الاعراب

على فى قوله عليه السّلام: على فترة بمعنى فى كما فى قوله تعالى:

«عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها » «عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ ».

و من فى قوله: من الرّسل نشوية و كذا فى قوله: من الامم و من المبرم، و الباء فى قوله فجاءهم بتصديق آه يحتمل المصاحبة و التّعدية.

قال الشّارح المعتزلى: مأكلا منصوب بفعل مقدّر أى يأكلون مأكلا، و الباء هنا للمجازاة الدّالّة على الصّلة كقوله تعالى:

«فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ » و قال سبحانه «قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ » و قال البحرانى: و مأكلا و مشربا منصوبان بفعل مضمر و التّقدير و يبدلهم مأكلا بمأكل.

أقول: الظّاهر أنّ الباء على ما قرّره الشّارح المعتزلى من الفعل سببيّة لا للمجازاة، و إن كان مراده بالمجازاة هى السّببيّة فلا مشاحة، و على تقرير البحرانى فهى للمقابلة، و على قول الأوّل فمن فى قوله: من مطاعم العلقم و مشارب الصبر، بيان لمأكلا و مشربا، و على قول الثّانى فهى بيان لقوله: بمأكل و مشرب فافهم جيّدا.

و الانصاف أنّه لا حاجة إلى تقدير الفعل، بل يجعل مأكلا و مشربا مفعولين لظلم بواسطة الحرف المقدّر، و يجعل قوله: بمأكل متعلّقا بينتقم، و على ذلك

فیکون من مطاعم بیانا لقوله: لمأکل کما قدّمناه فی قول البحرانی، و تقدیر الکلام و سینتقم اللّه ممن ظلم أحدا فی أکل أو شرب بأکل من مطاعم العلقم و بشرب من مشارب الصّبر، و علی ذلک فیستقیم الکلام علی أحسن نظام کما هو غیر خفیّ علی اولی الأفهام.

المعنی

اشارة

اعلم أنّ مدار هذه الخطبة علی فصلین:

الفصل الاول

فی الاشارة إلی بعثة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فضیلته علیه السّلام و فضیلة ما جاء به من کتاب اللّه سبحانه و هو قوله (أرسله علی حین فترة من الرّسل و طول هجعة من الامم) قد تقدّم شرح هاتین القرینتین فی شرح الخطبة الثّامنة و الثّمانین، فلیراجع ثمّة (و انتقاض من المبرم) أی انتقاض ما أبرمه الأنبیاء و الرّسل من أحکام الدّین و أحکموه من قوانین الشرع المبین (فجاءهم بتصدیق الّذی بین یدیه) أی جاءهم الرّسول مصاحبا بالتّصدیق أی مصدّقا لما قبله فیکون التّصدیق وصفا لنفس الرسول کما قال تعالی:

«وَ لَمّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِیقٌ ».

و علی کون الباء للتّعدیة فالمعنی أنّه أتاهم بکتاب فیه تصدیق الّذی بین یدیه، فیکون المصدّق هو الکتاب کما قال تعالی:

«نَزَّلَ عَلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ ».

قال فی مجمع البیان: أی لما قبله من کتاب و رسول عن مجاهد و قتادة و الرّبیع و جمیع المفسّرین و إنّما قیل لما بین یدیه لما قبله لأنّه ظاهر له کظهور الّذی بین یدیه.

ص:334

و قال الفخر الرّازى فى تفسير هذه الآية: الوصف الثّانى لهذا الكتاب قوله:

مصدّقا لما بين يديه، و المعنى أنّه مصدّق لكتب الأنبياء عليهم السّلام و لما أخبروا به عن اللّه عزّ و جلّ.

ثمّ فى الآية وجهان:

الأوّل أنّه تعالى دلّ بذلك على صحّة القرآن لأنّه لو كان من عند غير اللّه لم يكن موافقا لساير الكتب، لأنّه كان امّيا لم يختلط بأحد من العلما و لا تلمّذ لأحد و لا قرء على أحد شيئا، و المفترى إذا كان هكذا امتنع أن يسلم عن الكذب و التّحريف، فلمّا لم يكن كذلك ثبت أنّه عرف هذه القصص بوحى اللّه الثّانى قال أبو مسلم: المراد منه أنّه تعالى لم يبعث نبيّا قطّ إلاّ بالدّعاء إلى توحيده و الايمان به و تنزيهه عمّا لا يليق به، و الأمر بالعدل و الاحسان و الشّرايع الّتى هى صلاح كلّ زمان، فالقرآن مصدّق لتلك الكتب فى كلّ ذلك بقى فى الآية سؤالان:

الأوّل كيف سمّى ما مضى بأنّه بين يديه و الجواب أنّ تلك الأخبار لغاية ظهورها سماها بهذا الاسم.

الثانى كيف يكون مصدّقا لما تقدّمه من الكتب مع أنّ القرآن ناسخ لأكثر تلك الأحكام و الجواب إذا كانت الكتب مبشّرة بالقرآن و بالرّسول و دالّة على أنّ أحكامها تثبت إلى حين بعثته و أنّها تصير منسوخة عند نزول القرآن كانت موافقة للقرآن، فكان القرآن مصدّقا لها، و أمّا فيما عدا الأحكام فلا شبهة فى أنّ القرآن مصدّق لها، لأنّ دلائل المباحث الالهيّة لا تختلف فى ذلك، فهو مصدّق لها فى الأخبار الواردة فى التوراة و الانجيل، هذا.

و الأظهر كون التّصديق فى قوله عليه السّلام: وصفا للقرآن و الباء فيه للتّعدية بقرينة قوله (و النّور المقتدى به) فانّه وصف له أيضا و كونه نورا يهتدى به فى ظلمات الجهل، و يقتدى بأحكامه ظاهر، قال سبحانه:

«قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ ».

(ذلک) الموصوف بما تقدّم هو (القرآن) المنزل من عند اللّه إعجازا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (فاستنطقوه) يحتمل أن يكون المراد به الأمر باستفهام مضامينه و تفهم ما تضمّنته من الحقائق و الدقايق و الحلال و الحرام و الحدود و الأحكام.

و لمّا كان التّفهّم عنه بنفسه غير ممكن لاشتماله على المحكم و المتشابه و النّاسخ و المنسوخ و الظّاهر و الباطن و التنزيل و التأويل و غيرها عقّبه بقوله (و لن ينطق) أى لا يمكن تفهيمه بنفسه أبدا بل لا بدّ له من مترجم فأردفه بقوله (و لكن أخبركم عنه) تنبيها على أنّه عليه السّلام مترجمه و قيّمة و مفهم معانيه و ظواهره و بواطنه.

و يجوز أن يكون استفعل بمعنى أفعل فيكون المراد باستنطاقهم له إنطاقهم إياه و لمّا كان ذلک موهما لكونه ذا نطق بنفسه أتى بقوله:و لن ينطق،من باب الاحتراس الّذيعرفت فى ديباجة الشّرح من المحسنات البديعية ثمّ عقّبه بقوله: و لكن اخبركم عنه تنبيها على أنّه خطّ مسطور بين الدّفتين ليس له لسان بل لا بدّ له من ترجمان و هو عليه السّلام لسانه و ترجمانه و إلى ذلک يشير عليه السّلام فى الخطبة المأة و الثانية و الثّمانين بقوله:

فالقرآن آمر زاجر و صامت ناطق، أى صامت بنفسه و ناطق بترجمانه، و لعلّنا نذكر لهذا الكلام معنى آخر فى مقامه إنشاء اللّه حيثما بلغ الشّرح إليه هذا.

و قد تقدّم فى التّذييل الثّالث من تذييلات الفصل السّابع عشر من الخطبة الاولى الأدلّة العقليّة و النقليّة على أنّ دليل القرآن و قيّمه و ترجمانه و العالم بمعانيه و مبانيه و بأسراره و بواطنه و ظواهره هو أمير المؤمنين عليه السّلام و الطيّبون من أولاده سلام اللّه عليهم جميعا.

و قد علمت هناک أيضا أنّ القرآن مشتمل على علم ما كان و ما يكون و ما هو كائن و إليه أشار هنا بقوله (ألا إنّ فيه علم ما يأتى) أى أخبار اللاّحقين كليّاتها

و جزئياتها و أحوال الموت و البرزخ و البعث و النّشور و القيامة و الجنّة و النّار و درجات الجنان و دركات الجحيم و أحوال السّابقون إلى الاولى و السّائرون إلى الأخرى، و تفاوت مراتب المثابين و المعاقبين فى الثواب و العقاب شدّة و ضعفا و قلّة و كثرة و غير ذلک ممّا يحدث فى المستقبل.

(و الحديث عن الماضى) أى أخبار السّابقين و كيفيّة بدء الخلق من السّماء و الأرض و الشّجر و الحجر و النّبات و الانسان و الحيوان و قصص الأنبياء السّلف و اممهم و معاصريهم من ملوک الأرض و السّلاطين و غير ذلک ممّا مضى.

(و دواء دائكم) لاشتماله على الفضايل العلميّة و العمليّة بها يحصل اصلاح النّفوس و الشّفاء من الأمراض النّفسانيّة و البرء من داء الغفلة و الجهالة (و نظم ما بينكم) لتضمّنه القوانين الشّرعية و الحكمة السّياسيّة الّتى بها نظام العالم و استقامة الأمور.

الفصل الثانى (منها)

فى وصف حال بنى اميّة و الاخبار عن ملكهم و ظلمهم و زوال دولتهم بعد فسادهم فى الأرض و هو قوله (فعند ذلک لا يبقى بيت مدر و لا وبر) أى أهل الحضر و البدو (إلاّ و أدخله الظلمة) من بنى أميّة و من أعوانهم (ترحة) أى همّا و حزنا (و اولجوا) أى ادخلوا (فيه نقمة) و عقوبة (فيومئذ) يحيق بهم العذاب و (لا يبقى لهم فى السّماء عاذر) أى ناصر (و لا فى الأرض ناصر) فيزول دولتهم و يكسر صولتهم.

و أردف ذلک بتوبيخ المخاطبين الرّاضين بفعل الظّلمة و المتقاعدين عن ردعهم عن ظلمهم فقال (أصفيتم بالأمر) أى آثرتم بأمر الخلافة (غير أهله) الّذى هو حقّ له (و أوردتموه غير ورده) أى أنزلتموه عند من لا يستحقّه من الأوّل و الثانى و الثّالث و من يحذ و حذوهم من معاوية و ساير بنى اميّة، إذ الخطاب فى أصفيتم

و إن كان متوجّها إلى المخاطبين الحاضرين إلاّ أنّ المراد به العموم كساير الخطابات الشّفاهيّة.

(و سينتقم اللّه ممّن ظلم مأكلا بمأكل و مشربا بمشرب من مطاعم العلقم و مشارب الصّبر و المقر) أى يبدل نعمتهم بالنّقمة و مطاعمهم اللّذيذة الشّهية بالمريرة.

قال الشّارح البحرانى: و استعار لفظ العلقم و الصّبر و المقر لما يتجرّعونه من شدايد القتل و أحوال العدوّ و مرارات زوال الدّولة (و) ينتقم أيضا ب (لباس شعار الخوف و دثار السّيف) أى بالخوف اللاّزم لهم لزوم الشّعار و بالسّيف اللاّزم عليهم لزوم الدّثار، و تخصيص الشّعار بالخوف و الدّثار بالسيف لأنّ الخوف باطن فى القلوب و السّيف ظاهر فى البدن كما أنّ الشّعار ما كان يلى الجسد من الثّياب و الدّثار ما فوقه فناسب الأوّل بالأوّل و الثّانى بالثّانى (و انّما هم مطايا الخطيئات و زوامل الآثام) يعنى أنّهم حمّال المعاصى و السّيئات لكون حركاتهم و سكناتهم كلّها على خلاف القانون الشّرعى.

ثمّ أخبر عن زوال ملكهم و أتى بالقسم البارّ المؤكّد تنبيها على أنّ المخبر به واقع لا محالة فقال (فاقسم) باللّه العليم (ثمّ اقسم) به و إنّه لقسم لو تعلمون عظيم (لتنخمنّها اميّة) أى لتلفظنّ الخلافة بنو أميّة (من بعدى كما تلفظ النخامة) أى تدفع من الصدر و الأنف (ثمّ لا تذوق) لذّت (ها و لا تتطعم بطعمها أبدا ما كرّ الجديدان) أى اللّيل و النهار يعنى أنّهم لا يجدون حلاوتها و لا يستلذّون بها و لا ينالون إليها أبدا الدّهر، لأنه تعالى قد أخبر نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّ مدّة ملكهم ألف شهر بقوله:

«لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ».

و أخبره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمير المؤمنين عليه السّلام و أولاده الطاهرين.

روى فى الصافى عن علىّ بن إبراهيم القمّى (ره) قال: رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قرودا تصعد منبره فغمّه ذلک، فأنزل اللّه سورة القدر:

«إِنّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ وَ ما أَدْراکَ ما لَیْلَةُ الْقَدْرِ لَیْلَةُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ».

تملک بنو أمیّة لیس فیها لیلة القدر.

و فیه عن الکافی عن الصادق علیه السّلام أری رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی منامه أنّ بنی أمیّة یصعدون علی منبره من بعده و یضلّون الناس عن الصراط القهقری، فأصبح کئیبا حزینا قال علیه السّلام: فهبط علیه جبرئیل علیه السّلام فقال: یا رسول اللّه مالی أراک کئیبا حزینا قال: یا جبرئیل إنّی رأیت بنی أمیّة فی لیلتی هذه یصعدون منبری من بعدی یضلّون النّاس عن الصراط القهقری، فقال: و الذی بعثک بالحقّ نبیا إنّی ما اطّلعت علیه، فعرج إلی السماء فلم یلبث أن نزل علیه بآی من القرآن یونسه بها قال:

«أَ فَرَأَیْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِینَ ثُمَّ جاءَهُمْ ما کانُوا یُوعَدُونَ ما أَغْنی عَنْهُمْ ما کانُوا یُمَتَّعُونَ » و أنزل علیه «إِنّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ وَ ما أَدْراکَ ما لَیْلَةُ الْقَدْرِ لَیْلَةُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ».

جعل اللّه لیلة القدر لنبیّه خیرا من ألف شهر ملک بنی أمیّة، و فی معناه اخبار أخر هذا و قد تقدّم تفصیل زوال الدّولة الأمویّة و انقراضهم بید السّفاح فی شرح الخطبة المأة و الرّابعة، فلیراجع هناک.

الترجمة

از جمله خطب آن بزرگوار و ولیّ پروردگار است در بعثت پیغمبر آخر الزمان و فضیلت قرآن و وصف حال بنی امیّة و ظلم ایشان و زوال دولت آنها بعد از فساد و طغیان می فرماید:

فرستاد خدای تبارک و تعالی پیغمبر مختار را در زمان منقطع شدن وحی و خالی

بودن آن از پیغمبران، و بر درازی خواب غفلت از أمّتان، و هنگام شکسته شدن ریسمان پرتاب شریعت پیشینان، پس آورد بایشان تصدیق آن چیزی را که پیش از او بود از توراة و انجیل و زبور، و آورد نوری را که اقتدا و تبعیّت می شود بآن، آن نور عبارتست از قرآن پس طلب کنید نطق و گفتار او را و حال آنکه أبدا گویا نخواهد شد، و لکن من خبر دهم شما را به مضمون آن از جهة این که منم ترجمان قرآن آگاه باشید بدرستی در قرآن است علم آنچه که خواهد آمد و خبر از گذشته یعنی متضمّن علم أوّلین و آخرین است، و در اوست دواء درد شما و نظام ما بین شما.

از جملهٔ آن خطبه است می فرماید:

پس نزد دولت بنی أمیّه باقی نمی ماند هیچ خانهٔ که ساخته شده باشد از گل و خشت و نه خانهٔ که بنا شده باشد از پشم یعنی نمی ماند عمارتی در شهر و نه خرگاهی در بیابان مگر این که داخل می کنند ظلام در آن خانه همّ و حزن را، و در آورند در آن عقوبت و نقمت را، پس در آن روز باقی نماند از برای ظلام در آسمان عذر آورنده، و نه در زمین یاری کننده، اختیار کردید شما بأمر خلافت غیر أهل آن را، و وارد کردید أمر خلافت را در غیر محلّ او، و زود باشد که انتقام بکشد خداوند قهّار از کسی که ظلم کرده باشد کسی را در مأکول و مشروبی با مأکول و مشروبی که از مأکولات تلخ است و از مشروبات تلخ و بد مزه، و با لباس باطنی خوف و ترس و با لباس ظاهری شمشیر، و بدرستی که ایشان شتران بار کش گناهانند و شتران توشهٔ معاصی، پس قسم می خورم بخدا باز قسم می خورم البته می اندازد خلافت را بنی امیه بعد از من چنانچه انداخته شود آب دهن از دهن پس از آن نچشند هرگز چاشنی خلافت را، و نمی خورند طعام آن را هیچ مادامی که باز گردد شب و روز.

ص:340

و من خطبة له عليه السّلام و هى المأة و الثامنة

اشارة

و الخمسون من المختار فى باب الخطب

و لقد أحسـنت جواركم، و أحطت بجهدى من ورائكم، و أعتقتكم من ربق الذّلّ، و حلق الضّـيم، شكرا منّى للبرّ القليل، و إطراقا عمّا أدركه البصر، و شهده البدن من المنكر الكثير.

اللغة

(الجوار) بالضمّ و قد يكسر المجاورة و (الرّبق) بالكسر وزان حمل حبل فيه عدّة عرى يشدّ به البهم و كلّ عروة ربقة بالكسر و الفتح و يجمع على ربق كعنب و أرباق كأصحاب و رباق كجبال و (الحلق) بالتحريک جمع الحلقة بسكون اللاّم على غير القياس و ربّما يجمع على حلق بالسّكون كبدرة و بدر و على حلّق كقصعة و قصع، و حكى يونس عن أبى عمرو بن العلا أنّ الحلقة بالفتح، و على هذا فالجمع بحذف الهاء قياس كقصبة و قصب، قاله الفيومى فى مصباح اللّغة.

الاعراب

الواو فى قوله: و لقـد، للقسم و المقسم به محذوف لكونه معلوما، و شـكرا مفعول له للأفعال المتقدّمة على سبيل التنازع، و من فى قوله: من المنكر، بيان لما أدركه.

المعنى

الظّاهر أنّه خاطب به أهل الكوفة، و الغرض منه المنّ على المخاطبين

ص:341

و التّنبيه على حسن مداراته عليه السّلام معهم و صفحه عنهم و الغض عن خطيئاتهم على كثرتها كما قال(و لقد أحسنت جواركم)أى مجاورتكم أى كنت لكم جار حسن و قد وقع نظير التعبير بهذه اللّفظة فى كلامه عليه السّلام المأة و التّاسع و العشرين حيث قال هناك:و إنّما كنت جارا جاوركم بدنى أيّاما،و أراد بمجاورته لهم مطلق المصاحبة و المعاشرة على سبيل الكناية.

و يجوز أن يراد به معناه الحقيقى، لأنّه عليه السّلام ارتحل من المدينة إلى البصرة لجهاد النّاكثين، و احتاج إلى الاستنصار بأهل الكوفة إذ لم يكن جيش الحجاز وافيا بمقابلتهم، ثمّ اتّصلت تلك الفتنة بفتنة أهل الشّام فاضطرّ إلى المقام بينهم و صار جارا لهم كما تقدّم الاشارة إلى ذلك فى الكلام السّبعين و شرحه.

(و أحطت بجهدى من ورائكم) قيل: أراد بالاحاطة من الوراء دفع من يريدهم بشرّ لأنّ العدوّ غالبا يكون من وراء الهارب.

أقول: بل الظّاهر أنّه أراد أنّه كان به عليه السّلام قوّة ظهرهم و شدّ ازرهم (و أعتقتكم من ربق الذّل و حلق الضّيم) و الظلم أراد به أنّه دفع عنهم ذلّ الاسر و ظلم الأعداء، و المقصود حمايته عليه السّلام لهم و اعتزازهم به (شكرا منّى للبرّ القليل) أى ثناء منّى و محمدة لأفعالكم الحسنة على قلّتها (و إطراقا) أى سكوتا و غضّا (عمّا أدركه البصر و شهده البدن من المنكر الكثير) و إطراقه عنهم مع مشاهدتهم على المنكرات على كثرتها إمّا لعدم تمكّنه من الانكار و الرّدع بالعنف و القهر، أولا نجراره إلى ما هو أعظم فسادا و مفسدة ممّاهم عليه.

قال الشّارح البحرانى: و ظاهر أنّهم كانوا غير معصومين، و محال أن يستقيم دولة أو يتمّ ملك بدون الاحسان إلى المحسنين من الرّعيّة و التّجاوز عن بعض المسيئين.

الترجمة

از جمله خطب فصاحت نظام و بلاغت فرجام آن امام أنام است در اظهار حسن رفتار و كردار خود نسبت بأصحاب و أتباع مى فرمايد:

ص:342

قسم بخدا هر آینه بتحقیق نیکو کردم همسایگی شما را و حقّ جوار را خوب بجا آوردم، و احاطه نمودم بقدر طاقت خود از پس شما، و آزاد کردم شما را از ریسمانهای ذلّت و از حلقه های ظلم و ستم بجهت تشکّر از من مر نیکوئی اندک شما را که آن طاعت قلیل شما است نسبت بمن، و بجهة سکوت و چشم در پیش افکندن از آنچه که درک نمود آن را چشم من و مشاهده کرد آن را بدن من از منکرات و أعمال قبیحۀ کثیره، بجهت این که دفع آن مؤدّی بر فساد عظیم می شد.

و من خطبة له علیه السّلام و هی المأة و التاسعة

اشارة

و الخمسون من المختار فی باب الخطب

و شرحها فی فصلین:

الفصل الاول

اشارة

أمره قضاء و حکمة، و رضاه أمان و رحمة، یقضی بعلم، و یعفو بحلم، اللّهُمّ لک الحمد علی ما تأخذ و تعطی، و علی ما تعافی و تبتلی، حمدا یکون أرضی الحمد لک، و أحبّ الحمد إلیک، و أفضل الحمد عندک، حمدا یملاء ما خلقت، و یبلغ ما أردت، حمدا لا یحجب عنک، و لا یقصر دونک، حمدا لا ینقطع عدده، و لا یفنی مدده، فلسنا نعلم کنه عظمتک إلاّ أنّا نعلم أنّک حیّ قیّوم، لا تأخذک سنة و لا نوم، لم ینته إلیک نظر، و لم یدرکک بصر، أدرکت الأبصار، و أحصیت الأعمال، و أخذت بالنّواصی و الأقدام، و ما الّذی نری

من خلقک، و نعجب له من قدرتک، و نصـفه من عظيم سلطانک، و ما تغيّب عنّا منه، و قصرت أبصارنا عنه، و انتهت عقولنا دونه، و حالت سواتر الغيوب بيننـا و بينه أعظم، فمن فرغ قلبه، و أعمـل فكره، ليعلم كيف أقمت عرشـک، و کيف ذرأت خلقـک، و كيف علّقت فی الهواء سمواتک، و کيف مددت على مور الماء أرضک رجع طرفه حسيرا، و عقله مبهورا، و سمعه والها، و فكره حائرا.

اللغة

قال الفيومى (عافاه) اللّه محى عنه الأسقام و العافية اسم منه و هى مصدر جاءت على فاعلة، و مثله ناشئة اللّيل بمعنى نشوء اللّيل و الخاتمة بمعنى الختم، و العاقبة بمعنى العقب، و ليس لوقعتها كاذبة و (حسر) البصر حسورا من باب قعد كلّ لطول مدى و نحوه فهو حسير و (بهره) بهرا من باب نفع غلبه و منه قيل للقمر الباهر لظهوره على ساير الكواكب و (اله) تحيّر.

الاعراب

جملة لا تأخذه فی محلّ النّصب على الحال، و ما فی قوله عليه السّلام: و ما الّذی نرى للاستفهام على وجه الاستحقار، و الواو فی قوله عليه السّلام: و ما تغيّب، حاليّة و ما موصول اسميّ بمعنى الّذی مرفوع المحلّ على الابتداء و خبره أعظم.

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من الخطبة متضمّن لتعظيم اللّه سبحانه و تبجيله بجملة

ص:344

من نعوت كماله و أوصاف جماله قال عليه السّلام (أمره قضاء و حكمة) يجوز أن يراد بأمره الأمر التّكوينى أعنى الاختراع و الاحداث، فيكون القضاء بمعنى الانفاذ و الامضاء، و حمله عليه حينئذ من باب المبالغة أو المصدر بمعنى الفاعل أو المفعول، يعنى أنّ أمره سبحانه نافذ و ممضى لا رادّ له و لا دافع كما قال عزّ من قائل «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ».

اى إذ أراد أن يكوّنه فيكون.

قال الزّمخشرى: فان قلت: ما حقيقة قوله: أن يقول له كن فيكون؟ قلت: هو مجاز من الكلام و تمثيل لأنّه لا يمتنع عليه شىء من المكوّنات و أنّه بمنزلة من المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع، و المراد بالحكمة حينئذ العدل و النّظام الأكمل، فمحصّل المعنى أنّ أمره تعالى نافذ فى جميع الموجودات و المكوّنات، متضمّن للعدل، و مشتمل على النظام الأكمل.

و يجوز أن يراد به الأمر التّكليفى فيكون القضاء بمعنى الحتم و الالزام يعنى أنّ أمره سبحانه حتم و إلزام مشتمل على الحكمة و المصلحة فى المأمور به كما هو مذهب العدليّة من كون الأوامر و النّواهى تابعة للمصالح و المفاسد الكامنة الواقعيّة، و قد تكون المصلحة فى نفس الأمر دون المأمور به كما فى الأوامر الابتلائيّة.

و يجوز أن يكون المراد به الشّأن فيكون القضاء بمعنى الحكم، يعنى أنّ شأنه تعالى حكم و حكمة لأنّه القادر القاهر العالم العادل، فبمقتضى قدرته و سلطانه حاكم، و بمقتضى علمه و عدله حكيم.

و كون الأمر بمعنى الشّأن قد صرّح به غير واحد منهم الزّمخشرى فى تفسير الآية السّابقة قال: إنّما أمره إنّما شأنه إذا أراد شيئا إذا دعاه داعى حكمة إلى تكوينه و لا صارف أن يقول له كن أن يكوّنه من غير توقّف، فيكون فيحدث أى فهو كائن موجود لا محالة.

(و رضاه أمان و رحمة) أى أمان من النّار و رحمة للأبرار إذ رضوانه سبحانه مبدء كلّ منحة و نعمة، و منشاء كلّ لذّة و بهجة كما قال تعالى:

«وَ رِضْوانٌ مِنَ اللّهِ أَكْبَرُ ».

(يقضى بعلم) أى يحكم بما يحكم به لعلمه بحسن ذلك القضاء و اقتضاء الحكمة و العدل له و هو كالتفسير لقوله: أمره قضاء و حكمة، كما أنّ قوله (و يعفو بحلم) بمنزلة التّفسير لقوله: و رضاه أمان و رحمة، لأنّ العفو يعود إلى الرّضا بالطّاعة بعد تقدّم الذّنب، و إنّما يتحقّق العفو مع القدرة على العقاب إذ العجز عن الانتقام لا يسمّى عفوا فلذلک قال: يعفو بحلم، يعنى أنّ عفوه لكونه حليما لا يستنفره الغضب.

ثمّ أثنى عليه تعالى بالاعتراف بنعمه فقال (اللّهمّ لک الحمد على ما تأخذ و تعطى و على ما تعافى و تبتلى) أى على السّرّاء و الضّرّاء و الشّدة و الرّخاء، و قد تقدّم تحقيق معنى الأخذ و الاعطاء، و وجه استحقاق اللّه سبحانه للحمد بهذين الوصفين فى شرح الخطبة المأة و الثّانية و الثّلاثين، و وجه استحقاقه للحمد على البلاء و الابتلاء هناک أيضا مضافا إلى شرح الخطبة المأة و الثّالثة عشر.

و أقول هنا زيادة على ما تقدّم: إنّه قد ثبت فى علم الأصول أنّ اللّه عزّ و علا الغنىّ المطلق عمّا سواه و المتعالى عن الحاجة إلى ما عداه، بل غنى كلّ مخلوق بجوده، و قوام كلّ موجود بوجوده، فاذا جميع ما يصدر عنه سبحانه فى حقّ العباد من الأخذ و الاعطاء و المعافاة و الابتلاء و الافتقار و الاغناء ليس الغرض منها جلب منفعة لذاته أو دفع مضرّة عن نفسه، بل الغرض منها كلّها مصالح كامنة للمكلّفين و منافع عائدة إليهم يعلمها سبحانه و لا نعلمها إلاّ بعضا منها ممّا علّمنا اللّه سبحانه بالقوّة العاقلة أو بتعليم حججه، فكم من فقير لا يصلحه إلاّ الفقر و لو استغنى لطغى، و كم من غنىّ لا يصلحه إلاّ الغنى و لو افتقر لكفر، و ربّ مريض لو كان معتدل المزاج لا نهمک فى الشّهوات و اقتحم فى الهلكات، و كأيّن من صحيح البنية لو مرض

لم يصبر عليه و أحبّ المنيّة، و هكذا جميع ما يفعله سبحانه فى حقّ المكلّفين فهو فى الحقيقة نعمة منه تعالى عليهم ظاهرة أو باطنة كما قال عزّ من قائل «وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً » فاذا ثبت أنّ هذه كلّها إنعام منه سبحانه عليهم، و إحسان اليهم ظهر وجه استحقاقه للحمد و الثّناء عليها كلّها إذ الشّكر على النّعم فرض عقلا و نقلا هذا.

و يدلّ على ما ذكرنا من كون الابتلاء منه تعالى فى الحقيقة نعمة منه على العباد ما رواه فى الكافى عن سليمان بن خالد عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: إنّه ليكون للعبد منزلة عند اللّه فما ينالها إلاّ باحدى خصلتين: إمّا بذهاب فى ماله أو ببليّة فى جسده.

و فيه عن يونس بن رباط قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السّلام يقول: إنّ أهل الحقّ لم يزالوا منذ كانوا فى شدّة اما إنّ ذلك إلى مدّة قليلة و عافية طويلة.

و فيه عن عبيد بن زرارة قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السّلام يقول إنّ المؤمن من اللّه عزّ و جلّ لبأفضل مكان ثلاثا إنّه ليبتليه بالبلاء ثمّ ينزع نفسه عضوا عضوا و هو يحمد اللّه على ذلك.

ثمّ أخذ فى تفخيم شأن حمده عليه و تعظيمه باعتبار كيفيّته فقال (حمدا يكون أرضى الحمد لک) أى أكمل رضاء منك به من غيره (و أحبّ الحمد إليک و أفضل الحمد عندک) أى أشدّ محبّة منك إليه و أرفع منزلة عندک من ساير المحامد لاتّصافه بالفضل و الكمال و رجحانه على ما سواه.

ثمّ اتبعه بتفخيمه باعتبار كميّته فقال (حمدا يملاء ما خلقت) من السّماء و العرش و الأرض (و يبلغ ما أردت) من حيث الكثرة و الزّيادة.

ثمّ بتفخيمه باعتبار الخلوص فقال (حمدا لا يحجب عنک و لا يقصر) أى لا يحبس (دونک) لخلوصه من شوب العجب و الرّيا و ساير ما يمنعه عن الوصول إلى درجة القبول و الرّضا ثمّ باعتبار مادّته فقال (حمدا لا ينقطع عدده و لا يفنى مدده) هذا و تكرار

لفظ الحمد إمّا لقصد التّعظيم كما فى قوله:

«وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ » و فى قوله: «إِنّا أَنْزَلْناهُ فِی لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَ ما أَدْراکَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ ».

أو للتّلذّذ بذكر المكرّر كما فى قول الشّاعر:

سقى اللّه نجدا و السّلام على نجد و يا حبّذا نجد على الناى و البعد

نظرت إلى نجد و بغداد دونه لعلّى أرى نجدا و هيهات من نجد

و فى قوله:

تاللّه يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكنّ أم ليلى من البشر

أو للاهتمام بشأنه، ثمّ إنّه عليه السّلام لمّا بالغ فى حمده سبحانه و الثّناء عليه من حيث الكيف و الكمّ و الخلوص و العدد و المدد، و كان الحمد عبارة عن الوصف بالجميل على وجه التّعظيم و التّبجيل، و كان ذلک موهما لمعرفة عظمة المحمود له حقّ معرفتها، عقّب ذلک بالاعتراف بالعجز عن عرفان كنه عظمته، تنبيها على عدم إمكان القيام بوظايف الثّناء عليه و إن بولغ فيه منتهى المبالغة، تأسيّا بما صدر عن صدر النّبوّة من الاعتراف بالعجز حيث قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا احصى ثناء عليک أنت كما أثنيت على نفسک، و لهذا أتى بالفاء المفيدة للتّعقيب و الاتّصال فقال (فلسنا نعلم كنه عظمتک) لقصور المشاعر الظّاهرة و الباطنة من المتفكّرة و المتخيّلة و غيرهما و القوّة العقلانية و إن كانت على غاية الكمال و بلغت إلى منتهى معارجها عن إدراک ذاته و اكتناه عظمته (إلاّ أنّا نعلم) أى لكن نعرفک بصفات جمالک و جلالک فنعلم (أنّک حىّ قيّوم).

قال فى الكشّاف: الحىّ الباقى الّذى لا سبيل عليه للفناء و على اصطلاح المتكلّمين الّذى يصحّ أن يعلم و يقدر، و القيّوم الدّائم القيام بتدبير الخلق و حفظه (لا تأخذک سنة) هى ما يتقدّم النّوم من الفتور يسمّى النّعاس (و لا نوم) بالطّريق الأولى و هو تأكيد للنّوم المنفى ضمنا.

ص:348

قال الزّمخشرى: و هو تأكيد للقيّوم لأنّ من جاز عليه ذلک استحال أن يكون قيّوما، و منه حديث موسى عليه السّلام أنه سأل الملائكة و كان ذلک(1) من قومه كطلب الرؤية: أ ينام ربّنا؟ فأوجى اللّه إليهم أن يوقظوه ثلاثا و لا يتركوه ينام، ثمّ قال: خذ بيدک قارورتين مملوّتين فأخذهما و ألقى اللّه عليه النعاس فضرب إحداهما على الاخرى فانكسرتا، ثمّ أوحى إليه قل لهؤلاء إنّى امسک السماوات و الأرض بقدرتى فلو أخذنى نوم أو نعاس لزالتا.

و كيف كان فالمقصود بقوله: لا تأخذک سنة و لا نوم تنزيهه تعالى عن صفات البشر و تقديسه عن لوازم المزاج الحيوانى.

فان قلت: مقتضى المقام أن ينفى النوم أوّلا و السنة ثانيا إذ مقام التقديس يناسبه نفى الأقوى ثمّ الأضعف كما تقول: زيد لا يقدّم على الحرام بل لا يأتى بالمكروه، و فلان لا يفوت عنه الفرائض و لا النوافل، كما أنّ التمجيد بالاثبات على عكس ذلک، فيقدّم فيه غير الأبلغ على الأبلغ تقول: فلان عالم تحرير و جواد فياض.

قلت: سلّمنا و لكنه قدّم سلب السنة تبعا لكلام اللّه سبحانه و ملاحظة للترتيب الطبيعى، فانّ السنة لما كانت عبارة عن الفتور المتقدّم عن النوم فساق الكلام على طبق ما فى نفس الأمر.

(لم ينته إليک نظر) عقلىّ أو بصرى (و لم يدرکک بصر) قد تقدّم تحقيق عدم امكان إدراكه تعالى بالنظر و البصر أى بالمشاعر الباطنة و الظاهرة فى شرح الفصل الثانى من الخطبة الاولى و شرح الخطبة التاسعة و الأربعين و الخطبة الرّابعة و السّتين و الفصل الثّانى من الخطبة التّسعين مستوفى و أقول هنا مضافا إلى ما سبق: إنّ قوله عليه السّلام: لم يدرکک بصر، إبطال لزعم المجوّزين للرّؤية، فانّ الامة قد اختلفوا فى رؤية اللّه تعالى على أقوال، فذهب الاماميّة و المعتزلة إلى امتناعها مطلقا، و ذهبت المشبّهة و الكراميّة إلى جوازها

1- (1) اى كان ذلک السؤال من طلب قومه و لاجل استدعائهم، منه

منزّها عن المقابلة و الجهة و المكان.

قال الاعرابى فى كتاب إكمال الاكمال ناقلا عن بعض علمائهم إنّ رؤيته تعالى جايزة فى الدّنيا عقلا، و اختلف فى وقوعها و فى أنّه هل رآه النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليلة الاسرى أم لا، فأنكرته عايشة و جماعة من الصّحابة و التّابعين و المتكلّمين، و أثبت ذلک ابن عباس، و قال: إنّ اللّه اختصّه بالرّؤية و موسى بالكلام و إبراهيم بالخلّة، و أخذ به جماعة من السّلف، و الأشعرىّ، و جماعة من أصحابه و ابن حنبل و كان الحسن يقسم لقد رآه، و قد توقّف فيه جماعة، هذا حال رؤيته فى الدّنيا.

و أمّا رؤيته فى الآخرة فجايزة عقلا، و أجمع على وقوعها أهل السّنة و أحالها المعتزلة و المرجئة و الخوارج، و الفرق بين الدّنيا و الآخرة أنّ القوى و الادراكات ضعيفة فى الدّنيا حتّى إذا كانوا فى الآخرة و خلقهم للبقاء قوى إدراكهم فأطاقوا رؤيته، انتهى كلامه على ما حكى عنه.

و قد عرفت فيما تقدّم أنّ استحالة ذلک مطلقا هو المعلوم من مذهب أهل البيت عليهم السّلام، و عليه إجماع الشّيعة باتّفاق المخالف و المؤالف، و قد دلّت عليه الأدلّة العقليّة و النقليّة من الآيات و الأخبار المستفيضة، و من جملة تلک الآيات قوله سبحانه:

«لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ».

استدلّ بها النّافون للرّؤية و قرّروها بوجهين:

أحدهما أنّ إدراک البصر عبارة شايعة عن الادراک بالبصر إسناد للفعل إلى الآلة، و الادراک بالبصر هو الرّؤية بمعنى اتّحاد المفهومين أو تلازمهما، و الجمع المعرّف باللاّم عند عدم قرينة العهديّة و البعضيّة تفيد العموم و الاستغراق باجماع أهل العربيّة و الاصول و أئمّة التّفسير، و بشهادة استعمال الفصحاء، و صحّة الاستثناء فاللّه سبحانه قد أخبر بأنه لا يراه أحد فى المستقبل، فلو رآه المؤمنون فى الجنّة لزم كذبه.

و اعترض عليه بأنّ اللاّم فى الجمع لو كان للعموم و الاستغراق كان قوله:

تدركه الابصار موجبة كلية، و قد دخل عليها النفى فرفعها هو رفع الايجاب الكلّى و رفع الايجاب الكلّى سلب جزئىّ، و لو لم يكن للعموم كان قوله: لا تدركه الأبصار سالبة مهملة فى قوّة الجزئية فكان المعنى لا تدركه بعض الأبصار، و نحن نقول بموجبه حيث لا يراه الكافرون، و لو سلّم فلا نسلّم عمومه فى الأحوال و الأوقات، فيحمل على نفى الرّؤية فى الدّنيا جمعا بين الأدلّة.

و الجواب أنه قد تقرّر فى موضعه أنّ الجمع المحلّى باللاّم عام نفيا و اثباتا فى المنفىّ و المثبت كقوله تعالى:

«وَ مَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ » وَ «ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ».

حتّى أنه لم يرد فى سياق النفى فى شىء من الكتاب الكريم إلاّ بمعنى عموم النفى و لم يرد لنفى العموم أصلا، نعم قد اختلف فى النفى الدّاخل على لفظة كلّ لكنّه فى القرآن المجيد أيضا بالمعنى الذى ذكرنا كقوله تعالى:

«وَ اللّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ ».

إلى غير ذلک، و قد اعترف بما ذكرنا فى شرح المقاصد و بالغ فيه.

و أمّا منع عموم الأحوال و الأوقات فلا يخفى فساده، فانّ النفى المطلق غير المقيّد لا وجه لتخصيصه ببعض الأوقات إذ لا ترجيح لبعضها على بعض، و هو من الأدلّة على العموم عند علماء الاصول.

و أيضا صحّة الاستثناء دليل عليه و هل يمنع أحد صحّة قولنا: ما كلّمت زيدا إلاّ يوم الجمعة، و لا اكلّمه إلاّ يوم العيد و قال تعالى «وَ لا تَعْضُلُوهُنَّ »، إلى قوله «إِلاّ أَنْ يَأْتِينَ » و قال «لا تُخْرِجُوهُنَّ » إلى قوله «إِلاّ أَنْ يَأْتِينَ » و أيضا كلّ نفى ورد فى القرآن بالنسبة إلى ذاته تعالى فهو للتأبيد و عموم الأوقات لا سيّما ما قبل هذه الآية.

و أيضا عدم إدراک الأبصار جميعا لا يختصّ بشيء من الموجودات خصوصا مع اعتبار شمول الأحوال و الأوقات، فلا يختصّ به تعالى فتعيّن أن يكون التمدّح بمعنى عدم إدراک شيء من الأبصار له فى شيء من الأوقات.

و ثانيهما أنّه تعالى تمدّح بكونه لا يرى به فانّه ذكره فى أثناء المدايح و ما كان من الصّفات عدمه مدحا كان وجوده نقصا، فيجب تنزيه اللّه تعالى بنفيه مطلقا.

ثمّ لمّا نفى عنه درک الأبصار له أثبت له دركه للأبصار فقال عليه السّلام (أدركت الأبصار و أحصيت الأعمال) كما نطق به الكتاب العزيز قال عزّ من قائل:

«لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » و قال أيضا «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللّهُ عَلى كُلِّ شَيْ ءٍ شَهِيدٌ ».

أى أحاط به عددا لم يغب عنه شيء و نسوه لكثرته أو تهاونهم به، و اللّه على كلّ شيء شهيد أى يعلم الأشياء كلّها من جميع وجوهها لا يخفى عليه شيء منها، و قال أيضا تلو هذه الآية:

«أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاّ هُوَ رابِعُهُمْ وَ لا خَمْسَةٍ إِلاّ هُوَ سادِسُهُمْ وَ لا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلاّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْ ءٍ عَلِيمٌ ».

ثمّ وصفه سبحانه بكمال الاقتدار فقال (و أخذت بالنّواصى و الأقدام) أى أحاطت قدرتک بنواصى العباد و أقدامهم، و أخذت بها على وجه القهر و الاذلال، و يجوز أن يكون المراد به خصوص أخذ المجرمين بنواصيهم و أقدامهم يوم القيامة كما قال تعالى:

«يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ ».

و نسبته عليه السّلام الأخذ إلى اللّه سبحانه مع كونه فعل الملائكة من باب الاسناد إلى السبب الآمر كما أسند اللّه التوفى الى نفسه فى قوله:

«اَللّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها » مع كونه فعل ملک الموت بدليل قوله سبحانه فى سورة السجدة:

«قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ».

قال الفخر الرّازى فى تفسير الآية الاولى: و فى كيفيّة الأخذ ظهور نكالهم لأنّ فى نفس الأخذ بالنّاصية إذلالا و إهانة، و كذلک الأخذ بالقدم.

و فى الأخذ بها وجهان بل قولان لأهل التّفسير.

أحدهما أن يجمع بين ناصيتهم و قدمهم من جانب ظهورهم فيربط بنواصيهم أقدامهم أو من جانب وجوههم فتكون رؤوسهم على ركبهم و نواصيهم فى أصابع أرجلهم مربوطة.

و الثانى أنّهم يسحبون سحبا، فبعضهم يؤخذ بناصيته، و بعضهم يجرّ برجله ثمّ استفهم على سبيل الاستحقار لما استفهم عنه فقال (و ما الّذى نرى من خلقک) أى من مخلوقاتک على كثرتها و اختلاف أجناسها و أنواعها و هيئاتها و مقاديرها و خواصّها و أشكالها و ألوانها إلى غير هذه من أوصافها و حالاتها الّتى لا يضبطها عدّ و لا يحيط بها حدّ (و نعجب له من قدرتک) أى من مقدوراتک الغير المتناهية عددا و مددا و كيفا و كمّا (و نصفه من عظيم سلطانک) النّافذ فى الأنفس و الآفاق، و الماضى فى أطباق الأرض و أقطار السّماء (و) الحال أنّ (ما تغيّب عنّا

منه) أى من مخلوقک و مقدورک و ملکک (و قصرت أبصارنا عنه) من محسوسات الموجودات (و انتهت عقولنا دونه) من معقولات المخلوقات (و حالت سواتر الغيوب بيننا و بينه) أى كانت سرادقات العزّة و أستار القدرة عائلة بيننا و بينه، و حاجبة لنا من الوصول إليه من غيابات الغيوب و الغيب المحجوب.

(أعظم) و أفخم يعنى أنّه لو قيس كلّ ما شاهدناه بأبصارنا و أدركناه بعقولنا و وصفناه بألسنتنا ممّا ذرأه اللّه سبحانه فى عالم الامكان إلى ما غاب عنّا من أسرار القدرة و الجلال، و شئونات الكبرياء و الجمال لم يكن إلاّ أقلّ قليل كنسبة الجدول إلى النّهر، بل القطرة إلى البحر (فمن فرغ قلبه) للنّظر فى عجائب الملک و الملکوت (و أعمل فكره ليعلم) مشاهد العزّ و السّلطان و القدرة و الجبروت و أنّه (كيف أقمت عرشک) فى الجوّ على عظمه (و كيف ذرأت) أى خلقت (خلقک) على كثرته (و كيف علقت فى الهواء سماواتک) بغير عمد (و كيف مددت على مور الماء) أى موجه و اضطرابه (أرضک) على ثقلها مع عدم رسوبها فيه (رجع طرفه حسيرا) كليلا (و عقله مبهورا) مغلوبا (و سمعه والها) متحيّرا (و فكره حائرا) قاصرا عن الاهتداء إليه و عن الوصول إلى معرفته.

و محصّله أنّه لو بالغ أحد فى إعمال فكره و بذل وسعه للوصول إلى معرفة بعض ما أبدعه اللّه سبحانه فى عالم الغيب و الشّهادة من بدايع القدرة، و لطايف الحكمة، و عجايب الصّنعة لعجز و حار، و انقطع و استحار، فكيف لو رام معرفة كلّه و يشهد على ما ذكره عليه السّلام ما قدّمنا فى شرح الخطبة الأولى و فى شرح الخطبة التّسعين، فليراجع ثمّة.

الترجمة

از جمله خطب شريفۀ آن حضرتست كه فصل أوّل آن متضمّن أوصاف كمال حضرت ذوالجلالست مى فرمايد كه:

أمر خداى تعالى حكميست لازم و موافق است با حكمت و خوشنودى آن امانست

ص:354

از عقوبت و سبب مغفرتست و رحمت حکم می فرماید بعلم شامل خود، و عفو می فرماید با حلم کامل، پروردگارا مر تو راست حمد بر آنچه می گیری و می دهی، و بر آنچه که سلامت می داری از بلیّات و مبتلا‌ می نمائی بآفات، حمد می کنم تو را حمد کردنی که باشد خوشنودترین حمدها از برای تو، و دوست ترین حمدها بسوی تو و فاضل ترین حمدها نزد تو، چنان حمدی که پر سازد آنچه را خلق کردهٔ، و برسد بمقامی که مراد تو است، حمدی که محجوب نباشد از درگاه تو، و ممنوع و محبوس نباشد نزد بارگاه تو، حمدی که منقطع نشود شماره و عدد آن، و فانی نشود مادّه و مدد آن پس نیستیم ما که بدانیم نهایت بزرگی جلال تو را غیر از این که می دانیم که تو زندهٔ قائم بامور مخلوقان، أخذ نمی کند تو را مقدّمه خواب که خواب خفیف است و نه خواب گران، منتهی نشد بسوی کمال تو نظر و فکری، و درک ننمود جمال تو را هیچ بصری، درک کردی تو بصرها را، و در شماره آوردی عملها را، و اخذ کردی به پیشانیها و قدمهای مردمان.

و چه چیز است آنچه که می بینیم از خلق تو و تعجّب می کنیم از برای او از قدرت تو، و وصف می کنیم آن را از بزرگی پادشاهی تو و حال آنکه آنچه که غایب شده از ما از آن، و قاصر شده بصرهای ما از درک آن و بنهایت رسیده عقلهای ما نزد آن، و حایل شده پرده های غیبها میان ما و میان آن بزرگتر است.

پس هر که فارغ نماید قلب خودش را و إعمال کند فکر خود را تا بداند که چگونه بر پا داشتهٔ عرش خود را، و چه سان آفریدهٔ مخلوقات خود را، و چه قرار در آویخته در هوا آسمانهای خود را، و چه نوع گسترانیدهٔ بر موج آب زمین خود را بر می گردد بینائی او در مانده و آواره، و عقل او مغلوب، و قوّهٔ سامعهٔ او حیران، و قوّهٔ متفکّرهٔ او متحیّر و سرگردان.

الفصل الثانی (منها)

اشارة

یدّعی بزعمه أنّه یرجو اللّه، کذب و العظیم ما باله لا یتبیّن رجاؤه فی عمله، و کلّ من رجا عرف رجاؤه فی عمله إلاّ رجاء اللّه فإنّه مدخول، و کلّ خوف محقّق إلاّ خوف اللّه فإنّه معلول، یرجو اللّه فی الکبیر و یرجو العباد فی الصّغیر، فیعطی العبد ما لا یعطی الرّبّ، فما بال اللّه عزّ و جلّ یقصّر به عمّا یصنع به بعباده، أ تخاف أن تکون فی رجاءک له کاذبا، أو تکون لا تراه للرّجاء موضعا، و کذلک إن هو خاف عبدا من عبیده أعطاه من خوفه ما لا یعطی ربّه، فجعل خوفه من العباد نقدا، و خوفه من خالقه ضمارا و وعدا، و کذلک من عظمت الدّنیا فی عینه، و کبر موقعها فی قلبه، آثرها علی اللّه فانقطع إلیها، و صار عبدا لها. و لقد کان فی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کاف لک فی الاسوة، و دلیل لک علی ذمّ الدّنیا و عیبها، و کثرة مخازیها و مساویها، إذ قبضت عنه أطرافها، و وطّئت لغیره أکنافها، و فطم من رضاعها و زوی عن زخارفها. و إن شئت ثنّیت بموسی کلیم اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذ یقول «ربّ إنّی لما أنزلت إلیّ من خیر فقیر» و اللّه ما سئله إلاّ خبزا یأکله، لأنّه کان

يأكل بقلة الأرض، و لقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله، و تشذّب لحمه. و إن شئت ثلّثت بداود صلّى اللّه عليه صاحب المزامير، و قارى أهل الجنّة فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده، و يقول لجلسائه: أيّكم يكفينى بيعها، و يأكل قرص الشّعير من ثمنها. و إن شئت قلت فى عيسى بن مريم عليه السّلام قد كان يتوسّد الحجر، و يلبس الخشن، و كان إدامه الجوع، و سراجه باللّيل القمر، و ظلاله فى الشّتآء مشارق الأرض و مغاربها، و فاكهته و ريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، و لم تكن له زوجة تفتنه، و لا ولد يحزنه، و لا مال يلفته، و لا طمع يذّله، دابّته رجلاه، و خادمه يداه. فتأسّ بنبيّك الأطيب الأطهر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فإنّ فيه أسوة لمن تأسّى، و عزاء لمن تعزّى، و أحبّ العباد إلى اللّه المتأسّى بنبيّه، و المقتصّ لأثره، قضم الدّنيا قضما، و لم يعرها طرفا، أهضم أهل الدّنيا كشحا، و أخمصهم من الدّنيا بطنا، عرضت عليه الدّنيا فأبى أن يقبلها، و علم أن اللّه سبحانه أبغض شيئا فأبغضه، و حقّر شيئا فحقّره، و صغّر شيئا فصغّره، و لو لم يكن فينا إلاّ حبّنا ما أبغض اللّه و رسوله، و تعظيمنا ما

صغّر اللّه و رسوله، لكفى به شقاقا للّه، و محادّة عن أمر اللّه. و لقد كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يأكل على الأرض، و يجلس جلسة العبد، و يخصف بيده نعله، و يرقع بيده ثوبه، و يركب الحمار العارى، و يردف خلفه، و يكون السّتر على باب بيته، فتكون فيه التّصاوير، فيقول: يا فلانة - لإحدى أزواجه - غيّبيه عنّى، فإنّى إذا نظرت إليه ذكرت الدّنيا و زخارفها، فأعرض عن الدّنيا بقلبه، و أمات ذكرها عن نفسه، و أحبّ أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتّخذ منها رياشا، و لا يعتقدها قرارا، و لا يرجو فيها مقاما، فأخرجها من النّفس، و أشخصها عن القلب، و غيّبها عن البصر، و كذلك من أبغض شيئا أبغض أن ينظر إليه، و أن يذكر عنده. و لقد كان فى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما يدلّك على مساوى الدّنيا و عيوبها، إذ جاع فيها مع خاصّته، و زويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته، فلينظر ناظر بعقله، أكرم اللّه تعالى محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذلك أم أهانه؟! فإن قال: أهانه، فقد كذب و العظيم، و إن قال: أكرمه، فليعلم أنّ اللّه أهان غيره حيث بسط الدّنيا و زويها عن أقرب النّاس منه، فتأسّى متأسّ بنبيّه، و اقتصّ أثره، و ولج مولجه، و إلاّ فلا يأمن

الهلكة، فإنّ اللّه جعل محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم علما للسّاعة، و مبشّرا بالجنّة، و منذرا بالعقوبة، خرج من الدّنيا خميصا، و ورد الآخرة سليما، لم يضع حجرا على حجر حتّى مضى لسبيله، و أجاب داعى ربّه، فما أعظم منّة اللّه عندنا حين أنعم علينا به سلفا نتّبعه، و قائدا نطا عقبه، و اللّه لقد رقعت مدرعتى هذه حتّى استحييت من راقعها، و لقد قال لى قائل: أ لا تنبذها عنك، فقلت: اعزب عنّى، فعند الصّباح يحمد القوم السّرى.

اللغة

(الزّعم) مثلّثة الزاء قد يطلق على الظنّ و الاعتقاد الفاسد و منه قوله تعالى «زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ».

و قد يطلق على القول الباطل و الكذب، و ربّما يطلق على القول الحقّ و المراد هنا الأوّل و (مدخول) مفعول من الدّخل بالتسكين و هو المكر و الخديعة و العيب و مثله الدّخل محرّكة قال تعالى:

«وَ لا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ».

أى مكرا و خديعة و (الضّمار) ما لا يرجى من الوعود هكذا قال الشّارح المعتزلى و قال الفيروزآبادى: الضّمار ككتاب من المال الّذى لا يرجى رجوعه، و من العذاب ما كان ذا تسويف و خلاف العيان، و من الدّين ما كان بلا أجل و (الاسوة) بالكسر و الضّم القدوه و (المخازى) جمع مخزاة و هى الأمر يستحى من ذكره لقبحه و (المساوى) العيوب و (الأكناف) الأطراف و (شفّ) الثّوب شفّا و شفيفا رقّ فحكى ما تحته.

و (الصّفاف) ككتاب الجلد الأسفل تحت الجلد الّذى عليه الشّعر و (الهزال) بضمّ الهاء نقيض السّمن و (المزامير) جمع المزمار و هى الآلة الّتى يزمر فيها من زمر يزمر و يزمر من باب نصر و ضرب زمرا و زميرا غنّى فى القصب و نحوه و مزامير داود ما كان يتغنّى به من الزّبور و ضروب الدّعاء و (السّفايف) جمع السّفيفة و هى النّسيجة من سففت الخوص و أسففته نسجته، و فى نسخة الشّارح المعتزلى بعد قوله: و يلبس الخشن: و يأكل الجشب، و هو كالجشيب الخشن الغليظ البشع من كلّ شىء و السّيىء الماكل أو بلا ادم.

(و لا ولد يحزنه) مضارع حزن كنصر قال تعالى «انّى ليحزننى أن تذهبوا به» و يقرأ يحزن مضارع أحزنه الشّىء و (لفته) عن كذا يلفته صرفه و لواه و (القضم) الأكل بأدنى الفم أى بأطراف الأسنان و يروى قصم بالصّاد المهملة من القصم و هو القصر و (الهضم) محرّكة انضمام الجنبين و خمص البطن و (الكشح) الخاصرة (و حقر شيئا) يروى بالتّخفيف و التضعيف

الاعراب

الباء فى قوله: بزعمه، للسببيّة إن كان الزّعم بمعنى الظنّ و الاعتقاد، و إلاّ فهى صلة، و الواو فى قوله: كذب و العظيم، للقسم و إنّما قال: و العظيم و لم يقل:

و اللّه العظيم، تأكيدا لعظمة البارى سبحانه، لأنّ الموصوف إذا لغى و ترك و اعتمد على الصّفة حتّى صارت كالاسم كانت أدلّ على تحقّق مفهوم الصّفة كالحارث و العبّاس هكذا قال الشّارح المعتزلى.

و قال البحرانى: و إنّما قال: و العظيم، دون اللّه لأنّ ذكر العظمة هنا أنسب للرّجاء، و الاضافة فى قوله: من خوفه، من اضافة المصدر إلى الفاعل أو المفعول، و اللاّم فى قوله تعالى: لما أنزلت إلىّ من خير فقير، بمعنى إلى أو للتّعليل أو ضمن فقير معنى سائل فعدّى باللاّم، و الواو فى قوله: و لقد كانت، للقسم و المقسم به محذوف لمعلوميّته، و سلفا، و قائدا، منصوبان على الحال من ضمير به.

المعنی

اشارة

اعلم أنّه علیه السّلام قد نبّه فی هذا الفصل من کلامه علیه السّلام علی بطلان دعوی من یدّعی رجاء ثواب اللّه سبحانه و خوف عقابه و یزعم اتّصافه بهذین الوصفین اللّذین هما من أوصاف السّالکین و حالات الطّالبین و مقامات العارفین الرّاغبین، و عقبّه بالتّزهید عن الدّنیا بالأمر بالتّأسّی علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و جملة من السّلف الصّالحین من الأنبیاء و المرسلین حیث زهدوا فی الدّنیا، و آثروا الآخرة علی الاولی لما رأوا من معایبها و مساویها، و قد تقدّم فی التّنبیه الثّالث من تنبیهات الفصل السّادس من فصول الخطبة الثّانیة و الثّمانین تحقیق معنی الرّجاء و تفصیل الکلام فیه و لا حاجة إلی الاعادة، و إنّما نشیر هنا إلی محصّل ما أوردناه هناک تمهیدا و توضیحا للمتن.

فأقول: خلاصة ما قلناه فیما تقدّم: إنّ الرّجاء عبارة عن ارتیاح النّفس لانتظار ما هو محبوب عندها، فهو حالة لها تصدر عن علم و تقتضی عملا، فمن کان یرجو لقاء ربه و یأمل ثوابه فلیعمل عملا صالحا و لا یشرک بعبادة ربّه أحدا، کما نطق به الکتاب الکریم و القرآن الحکیم، فاللاّزم علی الرّاجی للثواب من الملک الوهّاب عزّ و علا أن یبذر المعارف الالهیّة فی قلبه، و یدوم علی سقیه بماء الطّاعات و یجتهد فی تطهیر نفسه عن شوک الأخلاق الرّدیة المانعة من نماء العلم و زیادة الایمان، و ینتظر من فضل اللّه سبحانه أن یثبته علی ذلک إلی زمان وصوله و حصاد عمله، فذلک الانتظار هو الرّجاء الحقیقی المحمود.

إذا عرفت ذلک فنقول: إنّ من النّاس من یتّبع هواه و یفرّط فی أمر مولاه و یغمر فی المعاصی و یدوم علی المناهی و مع ذلک کلّه (یدّعی بزعمه) الفاسد و نظره الکاسد (أنّه یرجو اللّه) و یأمل لقائه فقد (کذب) فی دعواه و خاب فیما یتوقّعه و یتمنّاه (و) الرّبّ (العظیم) لما قد عرفت أنّ الرّجاء بدون إصلاح العمل حمق و جهالة، و من دون تزکیة النّفس سفه و ضلالة (ما باله) استفهام علی سبیل التّوبیخ و التّقریع أی ما بال هذا الدّاعی للرّجاء (لا یتبیّن رجاؤه فی عمله) یعنی انّه لو کان

رجاؤه صدقا لظهر رجاؤه فى عمله، و ذلک لأنّا نرى أنّ کلّ من رجا شیئا من سلطان أو غیره فانّه یتابعه و یخدمه و یتقرّب إلیه و یتحبّب إلیه و یبالغ فى طلب رضاه و یسارع إلى خدمته و یأتى بقدر طوعه کلّ ما هو مطلوب له و محبوب عنده لیظفر بمراده و ینال إلى ما یرجوه منه، و هذا المدّعى للرّجاء حیث لا یظهر رجاؤه فى عمله یتبیّن أنّه کاذب فى دعواه، غیر خالص فى رجاه.

و هذا معنى قوله (و کلّ من رجا عرف رجاؤه فى عمله إلاّ رجاء) من یرجو (اللّه فانّه مدخول) أى معیب (و کلّ خوف محقّق) أى کلّ خائف فخوفه محقّق ثابت له أصل و حقیقة یظهر آثاره على الخائف (إلاّ خوف اللّه) تعالى (فانّه معلول) أى مشتمل على المرض و العلّة حیث لا یظهر آثاره و علاماته على من یخافه سبحانه کما ستعرفه تفصیلا.

هذا على تقدیر عود الضّمیر فى قوله: فانّه، إلى خوف اللّه، و یجوز عوده إلى کلّ خوف بأن یجعل محقّق صفة لخوف و إلاّ بمعنى غیر و هذه الجملة أعنى جملة فانّه معلول خبرا لکلّ خوف، فیکون محصّل المعنى أنّ کلّ خوف ثابت غیر خوف اللّه سبحانه فانّ هذا الخوف معلول، بخلاف خوفه سبحانه فانّه الخوف الصّریح الحقیقى، و ذلک لأنّ ما یخاف به من غیره تعالى فهو أمر دنیوىّ سریع الزّوال و الانقضاء، مع أنّ ذلک الغیر لا یقدر على ایقاع مکروه على الخائف إلاّ بمشیّة اللّه سبحانه و إقدار منه له علیه، بخلاف الخوف منه تعالى فانّه خوف من القادر القاهر لارادّ لقضائه و لا دافع لحکمه، و عذابه ألیم لا یفنى، و سخطه عظیم لا ینقطع و لا یتناهى و یؤیّد هذا الاحتمال الثّانى فى هذه الفقرة ما فى بعض النّسخ بدل قوله:

و کلّ من رجا آه و کلّ رجاء إلاّ رجاء اللّه فانه مدخول، وجه التّأیید أنّ الضّمیر حینئذ یعود إلى کلّ رجاء فیکون سوق کلتا الفقرتین على مساق واحد، و یتطابق الکلّیتان کما هو غیر خفىّ على البصیر، هذا.

و أکّد کون رجائه للّه سبحانه معلولا بقوله (یرجو اللّه فى الکبیر) أى یرجو رحمته و مغفرته و نعمته و منّته و جنّته الّتى عرضها السّماء و الأرض (و یرجو العباد

فی الصّغیر) أی فی امور دنیویّه زهیدة المنفعة قلیلة الجدوی سریعة الزّوال و الانقضاء و مع ذلک(فیعطی العبد ما لا یعطی الرّب)الاتیان بلفظ الاعطاء فی یعطی الرّب للمشاکلة، و المراد أنّه یکثر عمله لمن یرجوه من العباد و یتقرّب إلیه بکلّ وسیلة لیفوز بما یتوقّعه منه، و یتهاون فی طاعة ربّه و یتکاسل فی عبادته و یقصّر فیما یقربه إلیه مع أنّ اللاّزم علیه أن یکون عمله بعکس ذلک، فیکون قیامه بوظایف التّقرّب إلی اللّه سبحانه أکثر و آکد من القیام بوظایف التّقرّب إلی غیره، حیث إنّ المرجوّ الکبیر یستدعی ما یناسبه ممّا هو وسیلة إلیه کمیّة و کیفیّة.

و حیث إنّه عکس فی القیام بوظایف رجاه و لم یعط ربه ما أعطاه سواه فحقیق بالتّوبیخ و الملام و التّقریع و التّبکیت، و لذلک قال ذمّا و تشنیعا (فما بال اللّه عزّ و جلّ یقصر به عمّا یصنع به بعباده) أی عمّا یعمل به، و یصانع لهم من المصانعة الّتی هی أن تصنع شیئا لغیرک لتصنع لک مثله.

و أکد التّوبیخ و التشنیع بقوله (أ تخاف أن تکون فی رجاءک له کاذبا أو تکون لا تراه للرّجاء موضعا) یعنی أنّ قصورک فی القیام بوظایف الرّجا کاشف من خوفک من أحد أمرین کلاهما باطل:

أحدهما أن تکون کاذبا فی رجاءک له سبحانه لزعمک أنّک لا تستعدّ مع العمل بلوازم رجائه تعالی لافاضة الجود منه علیک و لا تنال إلی مرجوّک، و هو خطاء عظیم ناش عن ضعف الاعتقاد بالوعود الّتی وعدها اللّه سبحانه علی ألسنة رسله و أنبیائه لمن عمل صالحا و یرجو رحمة ربّه.

و ثانیهما أن تکون لا تراه للرّجاء موضعا، و هو کفر صریح ناش من توهّم عجزه أو بخله، هذا.

و لما نبّه علی بطلان دعوی المدّعین للرّجاء و شنّعهم علی تلک الدّعوی، عقّبه بالتّشنیع علی الخائفین بسبب قصورهم فی لوازم الخوف، و توضیح قصورهم فیها محتاج إلی تحقیق معنی الخوف و بیان حقیقته

ص:363

فأقول: إنّ الخوف كما فی إحياء العلوم عبارة عن تألّم القلب و احتراقه بسبب توقّع مكروه فی الاستقبال، و قد ظهر هذا فی بيان حقيقة الرّجاء و هو صفة تقتضی علما و عملا.

اما العلم فهو العلم بالسّبب المفضی إلی المكروه، و ذلک كمن جنی علی ملک ثمّ وقع فی يده فيخاف القتل مثلا و يجوز العفو و الافلات، و لكن يكون تألّم قلبه بالخوف بحسب قوّة علمه بالأسباب المفضية إلی قتله، و هو تفاحش جنايته و كون الملک حقودا غضوبا منتقما، و كونه محفوفا بمن يحثّه علی الانتقام، خاليا عمّن يتشفّع إليه فی حقّه، و كان هذا الخائف عاطلا عن كلّ وسيلة و حسنة تمحو أثر جنايته عند الملک، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوّة الخوف و شدّة تألّم القلب، و بحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف.

و قد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف، بل عن صفة المخوف منه كالّذی وقع فی مخالب سبع، فانّه يخاف السّبع لصفة ذات السّبع و هی سطوته و حرصه علی الافتراس غالبا و إن كان افتراسه بالاختيار.

و قد يكون من صفة جبليّة للمخوف منه كخوف من وقع فی مجری سيل أو جوار حريق من الغرق و الاحتراق، لأنّ طبع الماء مجبول علی السّيلان و الاغراق، و كذا النّار علی الاحراق، فالعلم بأسباب المكروه هو السّبب الباعث المثير لاحراق القلب و تألّمه، و ذلک الاحراق هو الخوف.

فكذلک الخوف من اللّه تارة يكون لمعرفة اللّه و معرفة صفاته و أنّه لو أهلک العالمين لم يبال و لم يمنعه مانع، و تارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصی، و تارة يكون بهما جميعا، و يحسب معرفته بعيوب نفسه و معرفته بجلال اللّه تعالی و استغنائه و أنّه لا يسئل عمّا يفعل و هم يسئلون تكون قوّة خوفه فأخوف النّاس لربّه أعرفهم بنفسه و بربّه و لذلک قال صلّی اللّه عليه و آله و سلّم: أنا أخوفكم للّه، و كذلک قال اللّه: إنّما يخشی اللّه من عباده العلماء.

و أما العمل فهو أنّه إذا حصل له الخوف أوجب ذلک الكفّ و التّوقّی عن

كلّ ما يؤدّى إلى المكروه المتوقّع الّذى يخاف منه.

و خوف اللّه سبحانه إذا ثبت فى القلب و اشتدّ يظهر أثره على البدن و على الجوارح و الصّفات.

اما البدن فبالنّحول و الصّفار و الغشية و الزّعقة و البكاء، و قد تنشقّ به المرارة فيفضى إلى الموت، أو يصعد إلى الدّماغ فيفسد العقل، أو يقوى فيورث القنوط و اليأس.

و اما الجوارح فبكفّها عن المعاصى و تقييدها بالطّاعات تلافيا لما فرّط و استعدادا للمستقبل.

و اما الصفات فبأن يقمع الشّهوات و يكدّر اللّذات فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أنّ فيه سمّا فتحرق الشّهوات بالخوف و تتأدّب الجوارح و يحصل فى القلب الذّبول و الخشوع و الاستكانة و يفارقه الكبر و الحقد و الحسد بل يصير مستوعب الهمّ بخوفه و النّظر فى خطر عاقبته، فلا يتفرّغ لغيره و لا يكون له شغل إلاّ المراقبة و المحاسبة و المجاهدة و الضنّة بالأنفاس و اللّحظات، و مؤاخذة النّفس بالخطرات و الخطوات و الكلمات و يكون حاله حال من وقع فى مخالب سبع ضار لا يدرى أنّه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره و باطنه مشغولا بما هو خائف منه لا متّسع فيه لغيره هذا حال من غلبه الخوف و استولى عليه.

و قوّة المراقبة و المحاسبة و المجاهدة بحسب قوّة الخوف الّذى هو تألّم القلب و احتراقه و قوّة الخوف بحسب قوّة المعرفة بجلال اللّه تعالى و صفاته و أفعاله و بعيوب النّفس و ما بين يديها من الأخطار و الأهوال.

و أقلّ درجات الخوف ممّا يظهر أثره فى الأعمال أن يمنع عن المحظورات و يسمّى الكفّ الحاصل عن المحظورات ورعا، فان زادت قوّته كفّ عمّا يتطرق إليه امكان التّحريم فيكفّ أيضا عن المشتبهات و يسمّى ذلک التّقوى، إذ التّقوى أن يترک ما يريبه إلى ما لا يريبه، و قد يحمله على ترک ما لا بأس به مخافة ما به

بأس، و هو الصّدق فی التّقوی، فاذا انضمّ إلیه التّجرّد للخدمة فصار لا یبنی ما لا یسکنه، و لا یجمع مالا یأکله، و لا یلتفت إلی دنیا یعلم أنّها تفارقه، و لا یصرف إلی غیر اللّه تعالی نفسا من أنفاسه، فهو الصّدق و صاحبه جدیر بأن یسمّی صدیقا.

و یدخل فی الصّدق التّقوی، و یدخل فی التّقوی الورع، و یدخل فی الورع العفة فانّها عبارة عن الامتناع عن مقتضی الشّهوات خاصّة فاذا الخوف یؤثّر فی الجوارح بالکفّ و الاقدام، و یتجدّد له بسبب الکفّ اسم العفّة، و هو کفّ عن مقتضی الشّهوة و أعلی منه الورع، فانّه أعمّ لأنّه کفّ عن کلّ محظور و أعلی منه التّقوی، فانّه اسم للکفّ عن المحظور و الشّبهة جمیعا و ورائه اسم الصّدیق و المقرّب.

إذا عرفت ذلک ظهر لک معنی قوله (و کذلک إن هو خاف عبدا من عبیده) سبحانه (أعطاه من خوفه) الضمیر راجع إلی الخائف أو العبد أی أعطاه من أجل خوفه إیّاه (ما لا یعطی ربّه) یعنی أنّه یقوم بمقتضیات خوفه إن خاف غیر اللّه تعالی فیفعل ما یأمر و یترک ما ینهی و یأتی بما یرید بخلاف خوفه منه سبحانه فیدّعی الخوف و لا یظهر أثره علیه (فجعل خوفه من العباد نقدا) أی کالنقد المعجّل لوجود آثاره فیه بالفعل (و خوفه من خالقه ضمارا و وعدا) ذا تسویف غیر موجود آثاره فیه بعد هذا.

و لمّا نبّه علی بطلان دعوی المدّعین للخوف و الرّجاء و کذّبهم فی تلک الدّعوی معلّلا بکون رجاهم لغیر اللّه تعالی أکثر و آکد، و خوفهم من غیره سبحانه أقوی و أشدّ، و فهم من ذلک ضمنا بدلالة الالتزام أنّ توجّههم و مراقبتهم إلی غیره عزّ و علا أکثر من مراقبتهم و توجّههم إلیه، حیث إنّهم یؤثرون غیره علیه إذا رجوا، و یقدمون خوف الغیر علی خوفه إذا خافوا أردف ذلک بالتّنبیه علی أنّ حال أبناء الدّنیا کذلک، لایثارهم الدّنیا علیه تعالی و انقطاعهم إلیها و افتتانهم بها و رغبتهم إلیها دونه.

و بهذا ظهر لک حسن الارتباط و المناسبة بین ما مرّ و بین قوله (و کذلک من

عظمت الدّنيا فى عينه) و راقه زبرجها (و كبر موقعها من قلبه) و عظم محلّها عنده للذّاتها العاجلة و شهواتها الموجودة الحاضرة (آثرها على اللّه) و اختارها على ما لديه ممّا لا عين رأت و لا اذن سمعت و لا خطر على قلب بشر لكونه آجلا غايبا (فانقطع إليها و صار عبدا لها) و لمن فى يديه شىء منها حيثما زالت زال إليها و حيثما أقبلت أقبل عليها، غافلا عن أنّه ظلّ زائل، و ضوء آفل، و سناد مائل، و غرور حائل.

و لمّا وصف حال أبناء الدّنيا المفتونين بها عقّبه بأمرهم بالتّأسّى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المعرض عنها لما رأى من فنائها و زوالها و مخازيها و معايبها تزهيدا لهم عنها، و تنبيها على خطائهم فى الافتتان بها فقال (و لقد كان فى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كاف لك فى الاسوة) أى فى القدوة و الاتّباع (و دليل لك على ذمّ الدّنيا و كثرة مخازيها) أى مهالكها و مقابحها و فضايحها (و مساويها) أى معايبها.

و أشار إلى دليل الذّم بقوله (إذ قبضت عنه أطرافها و وطئت) أى هيّأت (لغيره أكنافها) و جوانبها و (فطم من رضاعها) و التقم غيره ضرعها (و زوى) أى نحىّ (عن زخارفها) و قرّب إلى غيره زبرجها.

و دلالة هذه الجملة على ذمّها و عيبها أنّه لو كان لها وقع عنده سبحانه و لها كرامة لديه لم يضن بها على أحبّ خلقه إليه و أشرفهم و أكرمهم عنده، فحيث زويها عنه و بسطها لغيره دلّ ذلک على خسّتها و حقارتها و هوانها و إلى ذلک يشير ما فى الحديث: ما زوى اللّه عن المؤمن فى هذه الدّنيا خير ممّا عجّل له فيها.

قال بعض شرّاح الحديث: أى ما نحّى من الخير و الفضل، و تصديق ذلک انّ الرّجل منهم يوم القيامة يقول: يا ربّ إنّ أهل الدّنيا تنافسوا فى دنياهم فنكحوا النّساء و لبسوا الثّياب اللّينة و أكلوا الطّعام و سكنوا الدّور و ركبوا المشهور من الدّواب فأعطنى مثل ما أعطيتهم، فيقول اللّه تبارک و تعالى: و لكلّ عبد منكم ما أعطيت أهل الدّنيا منذ كانت الدّنيا إلى أن انقضت سبعون ضعفا.

(و إن شئت ثنّيت) إعراض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن الدّنيا (ب) اعراض (موسى كليم اللّه) عنها أو إن شئت ثنّيت الاسوة بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالاسوة بالكليم (إذ يقول) ما حكى اللّه سبحانه عنه فى سورة القصص بقوله «رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » أى إنّى محتاج(1) إلى ما أنزلت إليّ أو سائل طالب لما أنزلته، أو إنّى فقير من الدّنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدّين و هو النّجاة من الظّالمين أى صرت فقيرا لأجل ذلك لأنّه كان عند فرعون فى ثروة و سعة و ملك، و قال عليه السّلام ذلك رضا بالبدل النبى و فرحا به و شكرا له، و على ذلك فالمراد بما فى قوله لما أنزلت، هو خير الدّين و النّجاة من الظّالمين و قال فى الكشاف إنّى لأىّ شىء أنزلت إليّ قليل أو كثير غثّ أو سمين لفقير.

و حمله الأكثرون على الطعام، و يؤيّده ما فى الصّافى عن الكافى و العياشى عن الصّادق عليه السّلام سأل الطعام، قال: و فى الاكمال روى أنّه قال ذلك و هو محتاج إلى شقّ تمرة.

و فى مجمع البيان عن ابن عبّاس قال: سأل نبىّ اللّه فلق خبز يقيم به صلبه و يؤيّده أيضا كما يؤيّد تضمين فقير معنى سائل و كون اللاّم للصّلة قول أمير المؤمنين عليه السّلام (و اللّه ما سأله إلا خبزا يأكله، لأنّه كان يأكل بقلة الأرض) إذ خرج من مدينة فرعون خائفا يترقّب بغير ظهر و لا دابّة و لا خادم و لا زاد تخفضه الأرض مرّة و ترفعه اخرى حتّى انتهى إلى أرض مدين، و كان بينه و بين مدين مسيرة ثلاثة أيّام، و قيل: ثمانية، فخرج منها حافيا و لم يصل إلى مدين حتّى وقع خفّ قدميه، و كان لا يأكل فى مدّة مسيرها إلاّ حشيش الصّحراء و بقل الأرض.

(و لقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه) يعنى أنّ جلد بطنه

1- (1) هذا مبنى على تضمين فقير معنى محتاج و جعل اللاّم بمعنى الى، و الثانى مبنى على تضمينه معنى الطلب و السؤال و جعل اللام للصلة، و الثالث مبنى على ابقاء الفقير على معناه الاصلى و جعل اللاّم للتعليل، و لكلّ واحد قال المفسرون، منه

بسبب رقّته لم يكن حاجبا عن إدراك البصر لما ورائه و ذلك (لهزاله و تشذّب لحمه) أى تفرّقه قال فى عدّة الدّاعى: و يروى أنّه أى موسى عليه السّلام قال يوما يا ربّ إنّى جائع فقال اللّه أنا أعلم بجوعك، قال: يا ربّ أطعمنى قال: إلى أن اريد.

و فيما أوحى إليه عليه السّلام يا موسى الفقير من ليس له مثلى كفيل، و المريض من ليس له مثلى طبيب، و الغريب من ليس له مثلى مونس قال: و يروى حبيب، يا موسى ارض بكسرة من شعير تسدّ بها جوعتك، و بخرقة توارى بها عورتك، و اصبر على المصائب، و إذا رأيت الدّنيا مقبلة عليك فقل: «إِنّا لِلّهِ وَ إِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ » عقوبة قد عجلت فى الدّنيا، و إذا رأيت الدّنيا مدبرة عنك فقل: مرحبا بشعار الصّالحين، يا موسى لا تعجبنّ بما اوتى فرعون و ما تمتّع به فانّما هى زهرة الحياة الدّنيا.

(و إن شئت ثلّثت بداود) بن أيش من أولاد يهودا سمّى به لأنّه داوى جرحه بودّ و قد قيل: داوى ودّه بالطّاعة حتّى قيل عبد، رواه فى البحار من معانى الأخبار و غيره (صاحب المزامير) قال الفيروزآبادى: مزاميره ما كان يتغنّى به من الزّبور و قال الشّارح المعتزلى: يقال: إنّ داود اعطى من طيب النّغم و لذّة ترجيع القراءة ما كان الطّيور لأجله تقع عليه و هو فى محرابه، و الوحش تسمعه فيدخل بين النّاس و لا تنفر منهم لما قد استغرقها من طيب صوته.

و فى البحار من الامالى عن هشام بن سالم عن الصّادق عليه السّلام فى الحديث الآتى و كان إذا قرء الزّبور لا يبقى جبل و لا حجر و لا طائر و لا سبع إلاّ جاذبه (و) لعلّه لطيب صوته كان (قارى أهل الجنّة فلقد كان يعمل سفائف الخوص) أى نسايج ورق النّخل (بيده و يقول لجلسائه أيّكم يكفينى بيعها و يأكل قرص الشّعير من ثمنها) قال فى البحار: لعلّ هذا كان قبل أن ألان اللّه له الحديد.

و روى فيه من تفسير علىّ بن إبراهيم فى قوله تعالى «وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ » أى سبّحى للّه «وَ الطَّيْرَ وَ أَلَنّا لَهُ الْحَدِيدَ » قال: كان داود إذا مرّ فى البرارى يقرأ الزّبور يسبّح الجبال و الطّير معه و الوحوش و ألان اللّه

له الحديد مثل الشّمع حتّى كان يتّخذ منه ما أحبّ.

و فيه من الفقيه بسنده عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: أوحى اللّه إلى داود نعم العبد لو لا أنّک تأكل من بيت المال و لا تأكل بيدک شيئا قال: فبكى داود عليه السّلام فأوحى اللّه تعالى إلى الحديد أن لن لعبدى داود فألان اللّه له الحديد، فكان يعمل كلّ يوم درعا فيبيعها بألف درهم فعمل ثلاثمأة و ستّين درعا فباعها بثلاثمأة و ستّين ألفا، و استغنى عن بيت المال.

و عن صاحب الكامل كان داود بن ايشاح (ايش خ ل) من أولاد يهود او كان قصيرا أزرق قليل الشّعر، فلمّا قتل طالوت أتى بنو إسرائيل داود و أعطوه خزاين طالوت و ملكوه عليهم.

و قيل إنّ داود ملک قبل أن يقتل جالوت، فلمّا ملک جعله اللّه نبيّا ملكا و أنزل عليه الزّبور و علّمه صنعة الدّرع و ألان له الحديد و أمر الجبال و الطّير أن يسبّحن معه إذا سبّح، و لم يعط اللّه أحدا مثل صوته كان إذا قرء الزّبور تدنو الوحش حتّى يؤخذ بأعناقها، و كان شديد الاجتهاد، كثير العبادة و البكاء، و كان يقوم اللّيل و يصوم نصف الدّهر، و كان يحرسه كلّ يوم و ليلة أربعة آلاف، و كان يأكل من كسب يده أربعة آلاف، و كانت مدّة ملكه أربعين و تمام عمره مائة، هذا.

و قد اتّضح بذلک أنّه عليه السّلام مع ما آتاه اللّه من الملک و النّبوة و البسطة زهد فى الدّنيا و رغب عنها و جعل رزقه فى كدّ يمينه، و العجب أنّه مع زهده ذلک عيّره حزقيل النّبىّ و يعجبنى أن أذكر قصّته معه لمناسبتها بالمقام، و دلالتها على ذمّ الدّنيا المسوق له هذا الفصل من كلام الامام عليه السّلام فأقول: روى فى البحار من أمالى الصّدوق عن أبيه عن علىّ عن أبيه عن ابن أبى عمير عن هشام بن سالم عن الصّادق جعفر بن محمّد عليهما السّلام قال: إنّ داود خرج ذات يوم يقرأ الزّبور و كان إذا قرء الزّبور لا يبقى جبل و لا حجر و لا طائر و لا سبع إلاّ جاذبه، فما زال يمرّ حتّى انتهى إلى جبل فاذا على ذلک الجبل نبىّ عابد يقال له حزقيل، فلمّا سمع دوىّ الجبال و أصوات السّباع و الطّير علم أنّه داود فقال،

داود: يا حزقيل أ تأذن لى فأصعد إليک؟ قال: لا، فبكى داود عليه السّلام فأوحى اللّه جلّ جلاله إليه يا حزقيل لا تعيّر داود و سلنى العافية، فقام حزقيل فأخذ بيد داود عليه السّلام فرفعه إليه فقال: داود عليه السّلام يا حزقيل هل هممت بخطيئة قطّ؟ قال: لا، قال:

فهل دخلک العجب ممّا أنت فيه من عبادة اللّه تعالى؟ قال: لا، قال: فهل ركنت إلى الدّنيا فأحببت أن تأخذ من شهوتها و لذّتها؟ قال: بلى ربّما عرض بقلبى، قال:

فما ذا تصنع إذا كان ذلک؟ قال: أدخل هذا الشّعب فأعتبر بما فيه.

قال: فدخل داود النّبىّ الشعب فاذا سرير من حديد عليه جمجمة بالية و عظام فانية، و إذا لوح حديد فيه كتابة، فقرأها داود فاذا هى: أنا أردى شلم ملكت ألف سنة و بنيت ألف مدينة و افتضضت ألف بكر فكان آخر أمرى أن صار التّراب فراشى، و الحجارة و سادتى، و الدّيوان و الحيّات جيرانى، فمن رآنى فلا يغترّ بالدّنيا و فى البحار أيضا دخل داود غارا من غيران بيت المقدّس، فوجد حزقيل يعبد ربّه و قد يبس جلده على عظمه فسلّم عليه، فقال: أسمع صوت شبعان ناعم فمن أنت؟ قال: أنا قال: الّذى له كذا و كذا امة؟ قال: نعم و أنت فى هذه الشّدة قال: ما أنا فى شدّة و لا أنت فى نعمة حتّى تدخل الجنّة.

(و ان شئت قلت فى عيسى بن مريم عليه السّلام) أى ان شئت أن تذكر حال المسيح فاذكر انّه ل (قد كان يتوسّد الحجر) أى يأخذه و سادة له (و يلبس) اللّباس (الخشن و كان إدامه الجوع) قال العلاّمة المجلسىّ: لعلّ المعنى أنّ الانسان إنّما يحتاج إلى الادام لأنّه يعسر على النّفس أكل الخبز يابسا، فأمّا مع الجوع الشّديد فيلتذّ بالخبز و لا يطلب غيره فهو بمنزلة الادام، أو أنّه كان يأكل الخبز دون الشّبع فكان الجوع مخلوطا به كالادام.

أقول: و يحتمل أن يكون المراد أنّه كان يلتذّ بالجوع كما يلتذّ بالادام و الطّعام، أو أنّ الجوع كان بدلا عن إدامه فاستعير لفظ الجوع له من باب استعارة اسم الضدّ للضّد مثل قوله فى الخطبة الثّانية:نومهم سهود و كحلهم دموع.

(و سراجه باللّيل القمر) يستضىء به كما يستضاء بالسراج (و ظلاله فى

الشّتاء) أى مكمنه من البرد (مشارق الأرض) فى الضّحى (و مغاربها) فى المساء (و فاكهته و ريحانه ما تنبت الأرض للبهائم)و استعارة الفاكهة و الرّيحان لما تنبت باعتبار التذاذ ذوقه و شمّه به كالتذاذ غيره بالفواكه و الرّياحين (و لم تكن له زوجة تفتنه و لا ولد يحزنه و لا مال يلفته) أى يلويه و يصرفه عن ذكر اللّه (و لا طمع يذلّه) أى يوقعه فى الذّلّة و الهوان (دابّته رجلاه و خادمه يداه) أى انتفاعه بهما كما ينتفع غيره بالدّابة و الخادم.

و اعلم أنّ ما وصف عليه السّلام به عيسى فقد روى عنه عليه السّلام نحوه فى عدّة الدّاعى قال: و أمّا عيسى روح اللّه و كلمته فانّه كان يقول: خادمى يداى و دابّتى رجلاى و فراشى الأرض و وسادى الحجر و دفئى فى الشّتاء مشارق الأرض و سراجى باللّيل القمر و ادامى الجوع و شعارى الخوف و لباسى الصّوف و فاكهتى و ريحانى ما أنبتت الأرض للوحوش و الأنعام، أبيت و ليس لى شىء، و أصبح و ليس لى شىء، و ليس على وجه الأرض أحد أغنى منّى و رواه مثله فى البحار من ارشاد القلوب إلاّ أنّ فيه بدل مشارق الأرض مشارق الشّمس، و بدل ريحانى ريحانتى.

و فى عدّة الدّاعى عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: فى الانجيل إنّ عيسى قال:

اللّهمّ ارزقنى غدوة رغيفا من شعير رعشيّة رغيفا من شعير و لا ترزقنى فوق ذلک فاطغى.

أقول: و ان شئت فاتّبع ذكر حال هؤلاء الأنبياء الأكرمين بذكر حال غيرهم من الأنبياء و المرسلين.

و اذكر نوحا نجيّ اللّه فانّه مع كونه شيخ المرسلين و قد روى أنّه عاش ألفى عام و خمسمائة عام، و عمّر فى الدّنيا مديدا، مضى منها و لم يبن فيها بيتا، و كان إذا أصبح يقول لا امسى و إذا أمسى يقول لا أصبح.

و انظر إلى أبى الأنبياء إبراهيم خليل الرّحمن فقد كان لباسه الصّوف و طعامه الشّعير.

ثمّ انظر إلى يحيى بن زكريا كان لباسه اللّيف و أكله ورق الشّجر.

ثمّ إلى سـليمان بن داود فقـد كان مع ما هو فيه من الملك العظيم يلبس الشّـعر و إذا جنّه اللّيل شـدّ يـديه إلى عنقه فلا يزال قائما باكيا حتّى يصبح، و كان قوته من سفائف الخوص يعملها بيده، و هكذا كان حال ساير الأنبياء فى إعراضهم عن الدّنيا.

و أمّا سـيّد البشر فوصف حاله إجمالا قد مرّ و قد تقدّم أنّ فيه كافيا لک فى الاتباع به و الاهتداء بهداه، و لذلک عقّبه بالأمر بالتّأسّى به و أردفه بوصف حاله تفصـيلا فقال (فتأسّ بنبيّک الأطيب الأطهر صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و اتّبع له (فانّ فيه اسوة لمن تأسّى و عزاء لمن تعزّى) أى نسـبة لمن انتسب (و أحبّ العباد إلى اللّه المتأسّـى بنبيّه و المقتصّ) المتتبع (لاثره) و إنّما كان أحبّ العباد إليه سبحانه لقوله تعالى «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَ اتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ » قـال الفخر الرّازى: قـال المتكلّمون محبّـة اللّه للعبـد عبـارة عن إرادته تعالى ايصال الخيرات و المنافع فى الـدّين و الدّنيا إليه، و قال بعض المحقّقين: و من المتكلّمين من أنكر محبّة اللّه لعباده كالزمخشـرى و أترابه، زعما منهم أنّ ذلک يوجب نقصا فى ذاته و لم يعلموا أنّ محبّة اللّه تعالى لخلقه راجعة إلى محبّة ذاته، هذا.

و قوله (قضم الدّنيا قضـما) استيناف بيانىّ، فانّه لمّا ذكر أنّ أحبّ العباد إلى اللّه من اقتصّ أثر النّبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كان ذلک مظنّـة لأن يسـأل عن الأثر الـذى يقتصّ أردف بهـذا الكلام و مـا يتلوه جوابا لهـذا السّؤال المتوهّم، و تفصـيلا لما فيه الاسوة، و به يكون الاقتصاص، و أراد بقضـمه اقتصاره صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى الدّنيا على قدر الضّـرورة إذا لقضم يقابل الخضم و الأوّل أكل الشـىء اليـابس بأطراف الأسـنان، و الثانى الأكل بالفم كلّه للأشياء الرّطبـة كما قال عليه السّـلام فى وصف حال بنى اميّـة فى الخطبـة الشقشـقيّة: يخضـمون مال اللّه خضم الابل نبتـة الرّبيع، و فى حـديث أبى ذر «رض» يخضـمون و نقضم و الموعـد للّه (و لم يعرها طرفا)أى لم يعطها نظرة على وجه العارية فكيف بأن يجعلها مطمح نظره، و هو كناية عن عدم التفاته إليها(أهضم أهل الدّنيا كشحا و أخمصهم

بطنا) أی أخمصـهم خاصـرة و بطنا، و هو كناية عن كونه أشدّهم جوعا و أقلّهم شبعا كما روی أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا اشتدّ جوعه كان يربط على بطنه حجرا و يسميّه المشبع مع كونه مالكا لقطعة واسعة من الدّنيا.

قال الغزالی فی احياء العلوم: و فی الخبر أنّ النبیّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يجوع من غير غور أی مختارا لذلک.

قال: و كانت عايشة تقول إنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لم يمتل قطّ شـبعا و ربّما بكيت رحمة له مما أری به من الجوع فأمسح بطنه بيـدی و أقول نفسـی لک الفـداء لو تبلّغت من الـدّنيا بقـدر ما يقويک و يمنعک من الجوع، فيقول: يا عايشة اخوانی من اولی العزم من الرّسل قد صبروا على ما هو أشدّ من هذا، فمضوا على حالهم فقدموا على ربّهم فأكرم مآبهم و أجزل ثوابهم، فأجدنی أستحی إن ترفّهت فی معيشتی أن يقصـر بی غـدا دونهم، فالصّبر أيّاما يسـيرة أحبّ إلیّ من أن ينقص حظّی غـدا فی الآخرة، و ما من شـیء أحبّ إلیّ من اللّحوق بأصحابی و إخوانی، قالت عايشة: فو اللّه ما استكمل بعد ذلک جمعة حتّى قبضه اللّه إليه.

و عن أنس قال: جاءت فاطمة صـلوات اللّه و سـلامه عليها بكسـرة خبز إلى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فقال: ما هذه الكسـرة؟ قالت: قرص خبزته و لم تطب نفسـی حتی أتيتک منه بهذه الكسـرة، فقال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أما أنّه أوّل طعام دخل فم أبيک منذ ثلاثة أيّام، هذا، و سنورد فصلا مشبعا فی فضيلة الجوع و فوايده بعد الفراغ من شرح الخطبة إنشاء اللّه.

(عرضت عليه الدّنيا فأبى أن يقبلها) إشارة إلى ما ورد فی غير واحد من الأحاديث العاميّة و الخاصـيّة من أنّه صلّى اللّه عليه و آله عرض عليه مفاتيح كنوز الأرض فامتنع من قبولها.

منها ما فی الكافی عن عدّة من أصـحابنا عن أحمد بن محمّد بن خالد عن القاسم بن يحيى عن جدّة الحسن بن راشد عن عبد اللّه بن سـنان عن أبی عبـد اللّه عليه السّـلام قال: خرج النّبیّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و هو محزون، فأتاه ملک و معه مفاتيـح خزائن الأرض فقال: يا محمّد

هـذه مفاتيـح خزائن الدّنيا يقول لک ربّک: افتح و خذ منها ما شـئت من غير أن تنقص شـيئا عندى، فقال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم: الـدّنيا دار من لا دار له و لها يجمع من لا عقل له، فقال له الملک: و الّـذى بعثک بالحقّ لقـد سـمعت هذا الكلام من ملک يقوله فى السّماء الرّابعة حين اعطيت المفاتيح.

و منها ما فى الوسائل عن الكلينىّ عن محمّـد بن مسـلم عن أبى جعفر عليه السّـلام فى حـديث طويل و فيه: ثمّ قال عليه السّـلام: يا محمّد لعلّک ترى أنّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم شبع من خبز البرّ ثلاثة أيّام منذ بعثه اللّه إلى أن قبض، ثمّ ردّ على نفسه ثمّ قال: لا و اللّه ما شبع من خبز البرّ ثلاثـة أيّام متواليـة منـذ بعثه اللّه إلى أن قبضه، أما أنّى لا أقول إنّه كان لا يجـد، لقد كان يجير الرجل الواحد بالمأة من الابل فلو أراد أن يأكل لأكل، و قـد أتاه جبرئيل بمفاتيـح خزائن الأرض ثلاث مرّات يخيّره من غير أن ينقص ممّا أعدّ اللّه له يوم القيامة شـيئا، فيختار التّواضع للّه، الحديث.

و قد مرّ فى شرح الكلام التّاسع و السّتين فى التّذنيب الأوّل من شرحه المسوق لكيفيّة شهادة أمير المؤمنين عند اقتصاص حاله فى ليلة تسع عشـرة من شـهر رمضان حـديث عرض المفاتيح برواية لوط بن يحيى بنحو آخر فتذكّر (و علم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أنّ اللّه سـبحانه أبغض شـيئا) و لم يرده لأوليـاءه (فـأبغضه) النّبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لنفسه لأنّـه لا يشاء إلاّ أن يشاء اللّه روى فى إحياء العلوم عن موسـى بن يسار قال: قال النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إنّ اللّه عزّ و جلّ لـم يخلق خلقا أبغض إليه من الـدّنيا و أنّه منـذ خلقها لـم ينظر إليها.

و فيه أيضا قال رسول اللّه: الـدّنيا موقوفة بين السّـماء و الأرض منذ خلقها اللّه لم ينظر إليها و تقول يوم القيامة: يا ربّ اجعلنى لأدنى أوليائک اليوم نصـيبا، فيقول اسـكتى يا لا شىء إنّى لـم أرضک لهم فى الدّنيا ارضاک لهم اليوم؟ (و حقّر شيئا فحقّره) أى حقره النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لحقارته عند اللّه سـبحانه كما روى فى الكافى عن علىّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبى عمير عن جميل بن درّاج عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: مرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بجدى اسک ملقى على مزبلة ميّتا فقال

لأصحابه كم يساوى هذا؟ فقالوا: لعلّه لو كان حيّا لم يساو درهما، فقال النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الّذى نفسى بيده الدّنيا أهون عند اللّه من هذا الجدى على أهله.

(و صغّر شيئا) أراد تصغيره بالنّسبة إلى ما أعدّه لأوليائه فى الآخرة (فصغّره) قال فى إحياء العلوم قال داود بن هلال: مكتوب فى صحف إبراهيم عليه السّلام: يا دنيا ما هونك على الابرار الّذين تمنّعت و تزيّنت لهم إنّى قذفت فى قلوبهم بغضك و الصّدود عنك، و ما خلقت خلقا أهون علىّ منك كلّ شأنك صغير، و إلى الفناء تصير قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومى لأحد، و لا يدوم لك أحد و إن بخل به صاحبك و شحّ عليك، طوبى للأبرار الّذين اطلعونى من قلوبهم على الرضا، و من ضميرهم على الصّدق و الاستقامة، طوبى لهم مالهم عندى من الجزاء إذا وفدوا إلىّ من قبورهم إلاّ النّور يسعى أمامهم، و الملائكة حافّون بهم حتّى ابلغهم ما يرجون من رحمتى، هذا و لمّا ذكر أنّ الدّنيا مبغوضة للّه، حقيرة عنده و كذلك عند النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تبعا لرضائه تعالى، عقّب ذلك بالتنبيه على أنّ اللاّزم على المتأسّى له صلّى اللّه عليه و آله و المقتصّ لأثره أن يبغض ما أبغضه اللّه و رسوله و يحقّر ما حقّراه و إلاّ لكان موادّا لما حادّ اللّه و رسوله فقال (و لو لم يكن فينا إلاّ حبّنا ما أبغض اللّه و رسوله و تعظيمنا ما صغّر اللّه و رسوله لكفى به شقاقا للّه) و مخالفة له (و محادّة عن أمر اللّه) أى معاداة و مجانبة عنه.

و إلى ذلك ينظر ما روى أنّ سلمان رضى اللّه عنه كان متحسّرا عند موته، فقيل له: يا أبا عبد اللّه على ما تأسّفك؟ قال: ليس تأسّفى على الدّنيا، و لكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عهد إلينا و قال: لتكن بلغة أحدكم كزاد الراكب، و أخاف أن يكون قد جاوزنا أمره و حولى هذه الأساور، و أشار إلى ما فى بيته و إذا هو دست و سيف و جفنة.

ثمّ أشار إلى تواضعه و تذلّله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مأكله و مجلسه و مركبه و غيرها فقال (و لقد كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يأكل على الأرض و يجلس جلسة العبد) و قد ورد التصريح بذلك

فی روایات کثیرة مرویّة فی الوسائل فی کتاب الأطعمة.

ففیه عن محمّد بن یعقوب الکلینیّ باسناده عن هارون بن خارجة عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یأکل أکل العبد، و یجلس جلسة العبد و یعلم أنّه عبد.

و عن الکلینی عن الحسن الصّیقل قال: سمعت أبا عبد اللّه علیه السّلام یقول مرّت امرأة بذیّة برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو یأکل و هو جالس علی الحضیض(1) فقالت: یا محمّد إنّک تأکل أکل العبد و تجلس جلوسه، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: و أیّ عبد أعبد منّی.

و فیه عن البرقی عن عمرو بن جمیع عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یأکل بالأرض، هذا.

و ظهور التّواضع فی الأکل علی الأرض واضح.

و المراد بأکله أکل العبد إمّا ذلک أعنی الأکل علی الأرض، أو الأکل بثلاثة أصابع لا بالإصبعین کما یشعر به ما فی الوسائل عن البرقی عن أبی خدیجة عن أبی عبد اللّه علیه السّلام أنّه کان یجلس جلسة العبد و یضع یده علی الأرض و یأکل بثلاثة أصابع، و قال: إنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یأکل هکذا لیس کما یفعله الجبّارون یأکل أحدهم بإصبعیه، أو الأکل من غیر اتّکاء و یدلّ علیه ما فی الوسائل عن الکلینیّ عن معاویة بن وهب عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: ما أکل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم متّکئا منذ بعثه اللّه إلی أن قبضه تواضعا للّه عزّ و جلّ.

و عن زید الشّحام عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: ما أکل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم متّکئا منذ بعثه اللّه حتّی قبض کان یأکل أکلة العبد، و یجلس جلسة العبد، قلت: و لم ذلک؟ قال: تواضعا للّه عزّ و جلّ.

و أما المراد من کون جلوسه جلسة العبد إمّا جلوسه علی الأرض، و یدلّ علیه ما مر أو الجلوس من غیر تربّع کما هو جلوس الملوک، و یدلّ علیه ما فی الوسائل

1- (1) القرار فی الأرض

عن الكلينىّ عن أبى بصـير عن أبى عبـد اللّه عليه السّـلام قال قال أمير المؤمنين عليه السّـلام إذا جلس أحدكم على الطّعام فليجلس جلسـة العبد و لا يضعنّ احدى رجليه على الأخرى و يتربّع، فانّها جلسة يبغضها اللّه و يمقتها.

أو الجلوس دون شرفه، و يفيده ما فى الوسايل أيضا عن الكلينىّ مرسلا عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا دخل منزلا قعد فى أدنى المجلس إليه حين يدخل.

(و يخصف بيده نعله) و تضـمّن لبس النّعل المخصوفة للتّواضع ظاهر لا سـيّما إذا كان لابسها هو الخاصف، و قد تأسّى به صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أمير المؤمنين عليه السّلام فى هذا الوصف مضافا إلى ساير الصّفات كما يفصح عنه ما مرّ فى عنوان الخطبة الثّالثة و الثلاثين عن ابن عبّاس أنّه قال: دخلت على أمير المؤمنين عليه السّلام بذى قار و هو يخصف نعله، فقال لى ما قيمة هذه النّعل؟ فقلت: لا قيمة لها، فقال عليه السّلام: و اللّه لهى أحبّ إلىّ من امرتكم إلاّ أن اقيم حقّا أو أدفع باطلا.

(و يرقع بيـده ثوبه و يركب الحمار العارى و يردف خلفه) و معلوم أنّ ركوب الحمار العارى آيـة التواضع و هضـم النفس، و إرداف غيره خلفه آكد فى الدّلالة عليه.

روى فى الوسائل من العيون عن الرّضا عليه السّلام عن آبائه عن النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال خمس لا أدعهنّ حتى الممات: الأكل على الحضيض مع العبد، و ركوبى الحمار موكفا(1) و حلب العنز بيدى، و لبس الصوف، و التسليم على الصبيان لتكون سنة من بعدى.

و كذلک لبس الثوب المرقع لا سيما إذا كان اللاّبس هو الراقع.

ثمّ أشـار إلى مبغوضـيّة الـدّنيا و قيناتها عنـده بقوله (و يكون الستر على باب بيته و يكون فيه التصاوير) الظاهر أنّ المراد به تصاوير الشـجر و النبات و نحوها لا تصاوير الحيوان و غيره من ذوى الأرواح، إذ بيته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان مهبط الوحى

1- (1) الوكف محرّكة العيب و الضعف و الثقل. ق

و مختلف الملائكة و لا يدخل الملك بيتا فيه صورة مجسّمة كما ورد به الأخبار.

(فيقول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يا فلانة لإحدى أزواجه غيّبى عنّى) الظّاهر أنه أراد بها عايشة كما يؤمى إليه فى باب الزّهد من احياء العلوم قال: و رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على باب عايشة سترا فهتكه و قال: كلّما رأيته ذكرت الدّنيا أرسلى به إلى آل فلان.

قال الشارح البحرانى: أمره بتغييب التصاوير محافظة من حركة الوسواس الخناس، و كما أنّ الأنبياء عليهم السّلام كانوا كاسرين للنفس الأمّارة بالسوء، و قاهرين لشياطينهم كانوا أيضا محتاجين إلى مراعاتهم و مراقبتهم و تفقّد أحوال نفوسهم فى كلّ لحظة و طرفة، فانها كاللّصوص المخادعين للنفوس المطمئنّة مهما تركت و غفل عن قهرها و التحفّظ منها عادت إلى طباغها.

أقول: لا يخفى ما فى هذا التعليل بعد الغضّ عن كونه خلاف ما يستفاد من كلامه عليه السّلام من الركاكة و السخافة و السماجة و إسائة الأدب بالنسبة إلى خاتم النبيّين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل و ساير أولياء الدّين و كيف يتصوّر فى حقّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حركة الوسواس الخناس مع وجود ملكة العصمة و لو لم يغب عنه عليه السّلام التصاوير، بل الظاهر أنّ أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بتغيیبها إنما هو لأجل أنّ الدّنيا و زخارفها كانت مبغوضة عنده بالذات و مكروهة لديه بالطبع، فأمر بتغييبها لكونها موجبة لذكر ما يبغضه و يتنفّر عنه و يعاديه.

كما يومى إليه قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (فانّى إذا نظرت إليه ذكرت الدّنيا و زخارفها) و يدلّ عليه صريحا قوله عليه السّلام الآتى و كذلك من أبغض شيئا آه (فأعرض صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن الدنيا بقلبه و أمات ذكرها عن نفسه) و هو الزهد الحقيقى (و أحب أن تغيب زينتها عن عينه لكيلا يتّخذ منها رياشا) أى لباسا فاخرا، و ذلک لما روى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّ اللّه يحب المبتذل الذى لا يبالى ما لبس قال فى إحياء العلوم: قال أبو بردة: اخرجت لنا عايشة كساء ملبدا و إزارا غليظا فقالت: قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذين.

قال: و اشترى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثوبا بأربعة دراهم و كانت قيمة ثوبيه عشرة

و كان إزاره أربعة أذرع و نصفا و اشترى سراويل بثلاثة دراهم و كان يلبس شملتين بيضاوين و كانت تسمى حلّة لأنّهما ثوبان من جنس واحد، و ربّما كان يلبس بردين يمانين أو سحوليين من هذه الغلاظ، و كان شراک نعله قد اخلق فابدل بسير جديد فصلّى فيه فلما سلّم: قال اعيدوا الشراک الخلق و انزعوا هذا الجديد فانى نظرت إليه فى الصلاة، و كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد احتذى مرّة نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخرّ ساجدا و قال: أعجبنى حسنهما فتواضعت لربّى خشية أن يمقتنى فدفعهما إلى أوّل مسكين رآه.

(و لا يعتقدها قرارا و لا يرجو فيها مقاما) لأنها دار مجاز لا دار قرار

أحلام نوم أو كظلّ زائلإنّ اللّبيب بمثلها لا يخدع

و لذلک قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: الدّنيا دار من لا دار له، و لها يجمع من لا عقل له، و عليها يعادى من لا علم له، و عليها يحسد من لا فقه له، و لها يسعى من لا يقين له و لنعم ما قيل:

أرى طالب الدّنيا و إن طال عمره و نال من الدّنيا سرورا و أنعما

كبان بنى بنيانه فأقامه فلمّا استوى ما قد بناه تهدّما

(فأخرج) محبّت (ها من النّفس و أشخص) رغبت (ها عن القلب و غيّب) زينت (ها عن البصر) و ذلک لفرط بغضه لها و نفرته عنها و كراهته إيّاها (و كذلک) حال (من أبغض شيئا) فانه إذا أبغضه (أبغض أن ينظر إليه و أن يذكر عنده)ثمّ أكّد ما قدّم و قال:(و لقد كان فى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما يدلّک على مساوى الدّنيا و عيوبها إذ جاع فيها مع خاصّته).

أمّا جوعه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقد عرفته فيما تقدّم، و أقول هنا مضافا إلى ما سبق:

روى أحمد بن فهد فى عدّة الداعى أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أصابه يوما الجوع فوضع صخرة على بطنه ثمّ قال: ألا ربّ مكرم لنفسه و هو لها مهين، ألا ربّ مهين لنفسه و هو لها مكرم ألا ربّ نفس جايعة عارية فى الدّنيا طاعمة فى الآخرة ناعمة يوم القيامة، ألا ربّ نفس كاسية ناعمة فى الدّنيا جايعة عارية يوم القيامة، ألا ربّ نفس متخوّض متنعّم فيما أفاء اللّه على رسوله ما له فى الآخرة من خلاق، ألا إنّ عمل أهل الجنّة حزنة بربوة

ألا إنّ عمل أهل النّار سهلة لشهوة، ألا ربّ شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا يوم القيامة.

و أما جوع خاصته فقد ورد فى روايات مستفيضة.

منها ما فى إحياء العلوم قال أبو هريرة: ما أشبع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أهله أعنى أهل بيته و أزواجه و أهل بطانته من أصحابه ثلاثة أيّام تباعا من خبز الحنطة حتّى فارق الدّنيا، و قال إنّ أهل الجوع فى الدّنياهم أهل الشّبع فى الآخرة.

و فيه قال الفضيل ما شبع رسول اللّه منذ قدم المدينة ثلاثة أيّام من خبز البرّ قالت عايشة: كانت تأتى علينا أربعون ليلة و ما يوقد فى بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مصباح و لا نار، قيل لها: فيم كنتم تعيشون؟ قال: بالأسودين: التّمر و الماء.

و أما جوع أخصّ خاصّته أعنى أهل بيت العصمة و الطّهارة فهو غنىّ عن البيان، و كتب الخاصّة بل العامّة قد تضمّنت أخبارا كثيرا فى ذلك المعنى، و لنقتصر على ثلاثة أحاديث.

أحدها ما رواه المحدّث الجزايرى فى الأنوار النّعمانيّة عن الصدوق طاب ثراه باسناده إلى خالد بن ربعى قال: إنّ أمير المؤمنين عليه السّلام دخل مكّة فى بعض حوائجه فوجد اعرابيا متعلّقا بأستار الكعبة و هو يقول: يا صاحب البيت البيت بيتك و الضيف ضيفك و لكلّ ضيف من مضيفه قرى فاجعل قراى منك اللّيلة المغفرة فقال أمير المؤمنين عليه السّلام لأصحابه: أما تسمعون كلام الأعرابى؟! قالوا:

نعم قال عليه السّلام: اللّه اكرم من أن يردّ ضيفه.

قال: فلمّا كان من اللّيلة الثانية وجده متعلّقا بذلك الركن و هو يقول: يا عزيزا فى عزّك فلا أعزّ منك فى عزّك أعزّنى بعزّ عزّك فى عزّ لا يعلم أحد كيف هو أتوجّه إليك و أتوسّل إليك بحقّ محمّد و آل محمّد عليك اعطنى ما لا يعطينى أحد غيرك، و اصرف عنى ما لا يصرفه أحد غيرك.

قال فقال أمير المؤمنين عليه السّلام لأصحابه: هذا و اللّه الاسم الأكبر بالسريانية أخبرنى به حبيبى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سأله الجنّة فأعطاه و سأله صرف النار فصرفها عنه.

قال: فلما كان اللّيلة الثالثة وجده و هو متعلّق بذلک الركن و هو يقول:

يا من لا يحويه مكان و لا يخلو منه مكان بلا كيفية كان ارزق الأعرابى أربعة آلاف درهم.

قال: فتقدّم إليه أمير المؤمنين عليه السّلام و قال يا اعرابى سألت ربّک فأقراک، و سألت الجنّة فأعطاک، و سألته أن يصرف عنک النار فصرفها عنک و فى هذه اللّيلة تسأله أربعة آلاف درهم؟ قال الاعرابى: من أنت؟ قال عليه السّلام أنا علىّ بن أبى طالب قال الاعرابى: أنت و اللّه بغيتى و بک أنزلت حاجتى، قال عليه السّلام: سل يا اعرابى، قال:

اريد ألف درهم للصداق، و ألف درهم اقضى بها (به خ) دينى، و ألف درهم اشترى بها دارا، و ألف درهم أتعيّش بها، قال أنصفت يا اعرابى فاذا خرجت من مكّة فسل عن دارى بمدينة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فأقام الاعرابى بمكّة اسبوعا فخرج فى طلب أمير المؤمنين عليه السّلام إلى المدينة و نادى من يدلّنى على دار أمير المؤمنين عليه السّلام فقال الحسين بن علىّ من بين الصبيان أنا أدلّک على دار أمير المؤمنين و أنا ابنه الحسين بن علىّ، فقال الاعرابى: من أبوک؟ قال: أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام، قال: من امّک؟ قال: فاطمة الزهراء سيّدة نساء العالمين، قال: من جدّک؟ قال: محمّد بن عبد اللّه بن عبد المطلب، قال من جدّتک؟ قال خديجة بنت خويلد، قال: من أخوک؟ قال أبو محمّد الحسن بن علىّ عليه السّلام، قال: قد أخذت الدّنيا بطرفيها امش إلى أمير المؤمنين عليه السّلام و قل له إنّ الاعرابى صاحب الضمان بمكّة على الباب.

قال: فدخل الحسين بن علىّ عليهما السّلام فقال يا أبه اعرابىّ بالباب و يزعم أنه صاحب الضمان بمكّة، قال: فقال: يا فاطمة عندک شىء يأكله الاعرابى؟ قالت:

اللّهم لا، فتلبّس أمير المؤمنين عليه السّلام و خرج و قال: ادعو الى أبا عبد اللّه سلمان الفارسى قال. فدخل سلمان الفارسى (رض) فقال عليه السّلام: يا أبا عبد اللّه اعرض الحديقة التى غرسها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على التجار.

قال: فدخل سلمان إلى السوق و عرض الحديقة فباعها باثنى عشر ألف درهم

و أحضـر المال و أحضـروا الاعرابى فأعطاه أربعة آلاف درهم و أربعين درهما نفقة، و وقع الخبر إلى سؤّال المدينة فاجتمعوا، و مضى رجل إلى فاطمة فأخبرها بذلک فقالت:

آجرک اللّه فى ممشاک، فجلس علىّ عليه السّلام و الدّراهم مصبوبة بين يديه حتّى اجتمع عليه أصحابه فقبض قبضة قبضة و جعل يعطى رجلا رجلا حتى لم يبق معه درهم واحد فلما أتى المنزل قالت له فاطمة عليه السّلام: يا ابن عم بعت الحائط الذى غرسه لک والدى، قال: نعم بخير منه عاجلا و آجلا، قالت: فأين الثمن؟ قال دفعته إلى أعين استحييت أن أذلّها بذلّ المسألة اعطيتها قبل أن تسألنى، قالت فاطمة: أنا جايعة و أولادى جايعان و لا شکّ إلاّ و أنّک مثلنا فى الجوع لم يكن لنا منه درهم و أخذت بطرف ثوب علىّ، فقال علىّ: خلّينى، فقالت عليها السّلام: لا و اللّه أو يحكم بينى و بينک أبى.

فهبط جبرئيل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: يا محمّد ربک يقرءک السّلام و يقول اقرء عليّا منّى السّلام و قل لفاطمة: ليس لک أن تضربى على يديه و لا تلزمى بثوبه فلمّا أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منزل علىّ عليه السّلام وجد فاطمة ملازمة لعلىّ عليه السّلام، فقال لها با بنيّة ما لک ملازمة لعلىّ؟ قالت: يا أبت باع الحائط الّذى غرسته له باثنى عشر ألف درهم لم يحبس لنا منه درهما واحدا نشترى به طعاما، فقال: يا بنيّة إنّ جبرئيل يقرئنى من ربّى السّلام و يقول: اقرء عليّا منّى السّلام و أمرنى أن أقول لک ليس لک أن تضربى على يديه و لا تلزمى بثوبه، قالت فاطمة: أستغفر اللّه و لا أعود أبدا.

قالت فاطمة عليها السّلام: فخرج أبى فى ناحية و زوجى فى ناحية فما لبث أن أتى أبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و معه سبعة دراهم سود هجرية، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا فاطمة أين ابن عمّى فقلت له: خرج، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: هاک هذه الدّراهم فاذا جاء ابن عمّى فقولى له يبتاع لكم بها طعاما، فما لبث إلاّ يسيرا حتّى جاء علىّ عليه السّلام فقال:

رجع ابن عمّى فانّى أجد رايحة طيّبة، قالت: نعم و قد دفع إلىّ شيئا تبتاع به طعاما قال: فقال علىّ عليه السّلام: هاتيه، فدفعت إليه سبعة دراهم سود هجريّة فقال: بسم اللّه

و الحمد للّه كثيرا طيبا و هذا من رزق اللّه تعالى، ثمّ قال عليه السّلام: يا حسن قم معى فأتيا السّوق فاذا هما برجل واقف و هو يقول: من يقرض الملى الوفى؟ قال: يا بنىّ نعطيه قال: اى و اللّه يا أبه، فأعطاه علىّ الدّراهم كلّها، فقال: يا أبتاه أعطيته الدّراهم كلّها؟ قال: نعم يا بنىّ إنّ الّذى يعطى القليل قادر على أن يعطى الكثير.

قال: فمضى علىّ عليه السّلام إلى باب رجل يستقرض منه شيئا، فلقيه اعرابىّ و معه ناقة، فقال: يا علىّ اشتر منّى هذه النّاقة قال: ليس معى ثمنها قال: فانى انظرک به إلى القبض، قال: بکم يا اعرابى؟ قال: بمأة درهم، فقال علىّ عليه السّلام: خذها يا حسن فأخذها.

فمضى علىّ عليه السّلام فلقيه اعرابى آخر المثال واحد و الثياب مختلفة فقال: يا على تبيع النّاقة، قال علىّ عليه السّلام: و ما تصنع بها؟ قال: أغزو بها أوّل غزوة يغزوها ابن عمّک؟ قال عليه السّلام: إن قبلتها فهى لک بلا ثمن، قال: معى ثمنها و بالثّمن أشتريها، قال: فبکم اشتريتها؟ قال عليه السّلام: بمأة درهم، قال الاعرابى: فلک سبعون و مأئة درهم، قال علىّ عليه السّلام للحسن عليه السّلام: خذ السّبعين و المأة و سلّم المأة للأعرابى الّذى باعنا الناقة و السبعين لنا نبتاع بها شيئا، فأخذ الحسن عليه السّلام الدّراهم و سلّم النّاقة قال علىّ عليه السّلام: فمضيت أطلب الاعرابى الذى ابتعت منه الناقة لأعطيه ثمنه فرأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جالسا لم أر فيه جالسا قبل ذلک اليوم و لا بعده على قارعة الطريق، فلما نظر النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلىّ تبسّم ضاحکا حتّى بدت نواجذه، قال علىّ عليه السّلام أضحک اللّه سنّک و بشرک بيومک، فقال يا أبا الحسن إنک تطلب الاعرابى الذى باعک الناقة لتوفيه الثمن؟ فقلت: إى و اللّه فداک أبى و امّى، فقال: يا أبا الحسن الّذى باعک النّاقة جبرائيل و الّذى اشتريها منک ميکائيل و الناقة من نوق الجنة و الدّراهم من عند ربّ العالمين فأنفقها فى خير و لا تخف إقتارا.

الثانى ما روته العامة و الخاصة بروايات کثيرة تنيف على عشرين فى سبب نزول سورة هل أتى، فلنقتصر على رواية واحدة.

و هی ما فی غایة المرام عن الصّدوق بسندین مذکوریین فیه أحدهما عن ابن عبّاس، و ثانیهما عن الصّادق جعفر بن محمّد عن أبیه علیهما السّلام فی قول اللّه عزّ و جلّ «یُوفُونَ بِالنَّذْرِ » قال علیه السّلام: مرض الحسن و الحسین و هما صبیّان صغیران فعادهما رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و معه رجلان(1) فقال أحدهما لو نذرت فی ابنیک نذرا إن عافاهما اللّه قال علیه السّلام أصوم ثلاثة أیّام للّه شکرا للّه عزّ و جلّ، و کذلک قالت فاطمة، و قال الصّبیان و نحن أیضا نصوم ثلاثة أیّام، و کذلک قالت جاریتهم فضّة فألبسهما اللّه العافیة فأصبحوا صائمین، و لیس عندهم طعام.

فانطلق علیّ علیه السّلام إلی جار له من الیهود یقال له: شمعون یعالج الصّوف، فقال له: هل لک أن تعطینی جزّه من صوف تغزلها ابنة محمّد بثلاثة أصوع من شعیر قال: نعم، فأعطاه، فجاء بالصّوف و الشّعیر و أخبر فاطمة فقبلت و أطاعت، ثمّ عمدت فغزلت ثلث الصّوف ثمّ أخذت صاعا من الشّعیر فطحنته و عجنته و خبزت منه خمسة أقراص لکلّ واحد منهم قرص، و صلّی علیّ علیه السّلام مع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المغرب ثمّ أتی منزله فوضع الخوان و جلسوا خمستهم.

فأوّل لقمة کسرها علیّ علیه السّلام إذا مسکین واقف، فقال: السّلام علیکم یا أهل بیت محمّد أنا مسکین من مساکین المسلمین أطعمونی ممّا تأکلون أطعمکم اللّه من موائد الجنّة، فوضع اللّقمة من یده ثمّ قال علیه السّلام:

فاطم ذات المجد و الیقین یا بنت خیر النّاس أجمعین

أما ترین البائس المسکین جاء إلی الباب له حنین

یشکو إلی اللّه و یستکین یشکو إلینا جائع حزین

کلّ امرء بکسبه رهین من یفعل الخیر یکن حسین

موعده فی جنّة و مین حرّمها اللّه علی الضّنین

و صاحب البخل یقف حزین تهوی به النّار إلی سجّین

شرابه الحمیم و الغسلین

ص:385

1- (1) و هما أبو بکر و عمر کما فی روایة الخوارزمی منه

فأقبلت فاطمة عليها السّلام تقول.

أمرک سمع يا ابن عم و طاعة ما بی من لؤم و لا ضراعة

غذيت باللّب و بالبراعة أرجو إذا أشبعت فی مجاعة

أن الحق الخيار و الجماعة و أدخل الجنّة فی شفاعة

و عمدت إلی ما کان من الخوان فدفعته إلی المسکين و باتوا جياعا و أصبحوا صياما لم يذوقوا إلاّ الماء القراح.

ثمّ عمدت إلی الثلث الثّانی من الصّوف فغزلته ثمّ أخذت صاعا من الشّعير فطحنته و عجنته و خبزت منه خمسة أقراص لکلّ واحد قرص، و صلّی علیّ عليه السّلام المغرب مع النّبیّ صلّی اللّه عليه و آله و سلّم ثمّ أتا إلی منزله فلمّا وضع الخوان بين يديه و جلسوا خمستهم.

فأوّل لقمة کسرها علیّ عليه السّلام إذا يتيم من يتامی المسلمين قد وقف فقال:

السّلام عليکم يا أهل بيت محمّد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أنا يتيم المسلمين أطعمونی ممّا تأکلون أطعمکم اللّه علی موائد الجنّة، فوضع علیّ عليه السّلام اللّقمة من يده ثمّ قال عليه السّلام:

فاطم بنت السّيد الکريم بنت نبیّ ليس بالزّنيم

قد جاءنا اللّه بذا اليتيم من يرحم اليوم فهو رحيم

موعده فی جنّة النّعيم حرّمها اللّه علی اللّئيم

و صاحب البخل يقف ذميم تهوی به النّار إلی الجحيم

شرابه الصّديد و الحميم

فأقبلت فاطمة عليها السلام تقول:

فسوف أعطيه و لا ابالی و اوثر اللّه علی عيالی

أمسوا جياعا و هم أشبالی أصغرهما يقتل فی القتال

فی کربلا يقتل باغتيال لقاتليه الويل و الوبال

تهوی به النّار إلی سفال کبوله زادت علی الأکبال

ثمّ عمدت فأعطته جميع ما علی الخوان، و باتوا جياعا لم يذوقوا إلاّ الماء القراح

فأصبحوا صياما.

و عمدت فاطمة عليها السّلام فعزلت الثّلث الباقى من الصّوف و طحنت الثّلث الباقى و عجنته و خبزت منه خمسة أقراص لكلّ واحد منهم قرص و صلّى علىّ عليه السّلام مع النّبىّ ثمّ أتى منزله فقرب إليه الخوان فجلسوا خمستهم.

فأوّل لقمة كسرها علىّ عليه السّلام إذا أسير من أسير المشركين قد وقف بالباب فقال: السّلام عليكم يا أهل بيت محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تأسرونا و تشدّونا و لا تطعمونا، فوضع علىّ عليه السّلام اللّقمة من يده ثمّ قال:

فاطم يا بنت النّبى أحمد بنت نبىّ سيّد مسدّد

قد جاءک الأسير ليس يهتدى ما يزرع الزارع سوف يحصد

فأعطيه و لا تخطيه بنكد

(1) فأقبلت فاطمة عليها السّلام و هى تقول:

لم يبق ممّا كان غير صاع قد دبرت كفّى مع الذّراع

شبلاى و اللّه هما جياع يا ربّ لا تتركهما ضياع

أبوهما للخير ذو اصطناع عبل الذّراعين طويل الباع

و ما على رأسى من قناع إلاّ عباء نسجها بصاع

و عمدوا إلى ما كان على الخوان فأعطوه و باتوا جياعا و أصبحوا مفطرين ليس عندهم شىء.

قال شعيب فى حديثه: و أقبل علىّ عليه السّلام بالحسن و الحسين عليهما السّلام نحو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هما يرتعشان كالفراخ من شدّة الجوع، فلمّا بصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:

يا أبا الحسن أشدّ ما يسوءنى ما أرى بكم انطلق إلى بنتى فاطمة عليها السّلام فانطلقوا و هى فى محرابها قد لصق بطنها بظهرها من شدّة الجوع و غارت عيناها،

1- (1) هكذا فى رواية الصدوق و لا يستقيم وزن الشعر و أثبتناه كما وجدناه و فى رواية الخوارزمى عن ابن عباس (رض): فأطعمى من غير من نكد. و بعده: حتى تجازى بالذى لم ينفد منه

فلمّا رآها رسول اللّه ضمّها إليه، و قال: وا غوثاه أنتم منذ ثلاث فيما أرى فهبط جبرائيل فقال: يا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خذ ما هنالك فى أهل بيتك، قال: و ما آخذ يا جبرئيل؟ قال:

«هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » حتّى بلغ «إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً » و قال الحسن بن مهران فى حديثه: فوثب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتّى دخل منزل فاطمة فرأى ما بهم فجمعهم ثمّ انكبّ عليهم يبكى، و قال: أنتم منذ ثلاث فيما أرى و أنا غافل عنكم، فهبط جبرائيل بهذه الآيات «إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً » قال:

هى عين فى دار النّبىّ يتفجّر إلى دور الأنبياء و المؤمنين «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ » يعنى عليّا و فاطمة و الحسن و الحسين و جاريتهما فضّة «وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً » يقول عابسا كلوحا «وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ » يقول على حبّ شهوتهم الطّعام و ايثارهم له «مِسْكِيناً » من مساكين المسلمين «وَ يَتِيماً » من يتامى المسلمين «وَ أَسِيراً » من اسارى المشركين، و يقولون إذا أطعموهم «إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً » قال: و اللّه ما قالوا هذا و لكنّهم أضمروا فى أنفسهم فأخبر اللّه باضمارهم يقول: لا نريد منكم جزاء تكافوننا به، و لا شكورا تثنون علينا به، و لكنّا إنّما نطعمكم لوجه اللّه و طلب ثوابه قال اللّه تعالى ذكره «فَوَقاهُمُ اللّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً » نضرة فى الوجوه و سرورا فى القلب «وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً » جنّة يسكنونها و حريرا يفرشونه و يلبسونه «مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ » و الأرائك السّرير عليه الحجلة «لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً » قال ابن عبّاس: فبينا أنّ أهل الجنّة فى الجنّة إذا رأوا مثل الشّمس اشرقت له الجنان فيقول أهل الجنّة: يا ربّ إنّك قلت فى كتابك لا يرون فيها شمسا، فيرسل اللّه جلّ اسمه إليهم جبرئيل فيقول: ليس هذه بشمس لكن عليّا و فاطمة ضحكا فأشرقت الجنان من نور ضحكهما، و نزلت هل أتى فيهم إلى قوله: و كان سعيكم مشكورا.

أقول: و قد أثبتّ الرّواية برمّتها و إن كان خاتمتها خارجة من الغرض الذى

نحن فيه شعفا منّى بذكر مآثر أمير المؤمنين و زوجته و الطّيّبين من أولادهما سلام اللّه عليهم، و فيما رويناه من الفضل الّذى تخصّصوا به ما لم يشركهم فيه أحد و لا ساواهم فى نظير له مساو.

الثالث ما فى الصافى من الأمالى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أنه جاء إليه رجل فشكى إليه الجوع، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى بيوت أزواجه فقال: ما عندنا إلاّ ماء، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من لهذا الرّجل اللّيلة؟ فقال علىّ بن أبى طالب: أنا له يا رسول اللّه و أتا فاطمة عليها السلام فقال لها: ما عندک يا ابنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ فقالت: ما عندنا إلاّ قوت العشيّة لكنا نؤثر ضيفنا، فقال: يا ابنة محمّد صلّى اللّه عليه و آله نومى الصبيّة و أطفى المصباح، فلما أصبح علىّ عليه السّلام غدا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأخبره الخبر، فلم يبرح حتى أنزل اللّه عزّ و جلّ «وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » هذا.

و قد ظهر لک ممّا تضمنّته هذه الرّوايات الثلاث الذى هو أنموذج ممّا تضمّنته ساير الرّوايات كيفيّة عيش رسول اللّه مع خواصّه فى دار الدّنيا و زهدهم فيها و ايثارهم الآخرة على الاولى و أنّها قبضت عنه و عن أهل بيته (و زويت) أى صرفت و نحيت (عنه زخارفها) و زينتها (مع عظيم) تقرّبه و (زلفته فلينظر ناظر بعقله) أنه لو يكون فى الدّنيا و الاكثار منها خير لم يفت هؤلاء الأكياس الذين هم أقرب الخلق إلى اللّه و خاصّته و حججه على ساير الناس، بل تقرّبوا إليه سبحانه بالبعد عنها، و تحبّبوا إليه تعالى بالبغض لها.

و ليتفكّر بفكرة سليمة أنه (أكرم اللّه تعالى محمّدا صلّى اللّه عليه و آله) و ساير أنبيائه و أوليائه (بذلک) الضيق فى الدّنيا و الاعسار فيها (أم أهانه) و أهانهم.

(فان قال أهانه) و إيّاهم (فقد كذب و العظيم) ضرورة أنّ أحقر ملک من ملوک الدّنيا لا يقصد بأحد من خاصّته إذا كان مطيعا له منقادا لأمره مخلصا فى طاعته الاهانة فكيف يصدر ذلک عن ملک السلوک و سلطان السلاطين حكيم الحكماء و رحيم الرحماء فى حقّ أخصّ خواصّه و أقربهم إليه و أشدّهم زلفة عنده و اكثرهم

طاعة له.

(و إن قال أكرمه) و أكرمهم كما هو الحقّ و الصدق (فليعلم أنّ اللّه) قد (أهان غيره) و غيرهم إذ الشىء إن كان عدمه إكراما و كمالا كان وجوده نقصا و إهانة ف (حيث بسط الدّنيا) له أى لذلک الغير (و زويها عن أقرب الناس منه) كان فى بسطها له إهانة لا محالة.

(فتأسّى متأسّ بنبيّه و اقتصّ أثره و ولج مولجه) الفاء فصيحة و الجملات الثلاث إخبار فى معنى الانشاء أى إذا عرف زهد النّبىّ فى الدّنيا و علم أنّها دار هوان فليتأسّ المتأسّى به صلّى اللّه عليه و آله، و ليتبّع أثره و ليدخل مدخله و يحذو حذوه و ليرغب عنها.

(و إلاّ فلا يأمن الهلكة) لأنّ حبّ الدّنيا و التّنافس فيها رأس كلّ خطيئة جاذبة من درجات النّعيم إلى دركات الجحيم.

و أوضح هذه العلّة بقوله (فانّ اللّه سبحانه جعل محمّدا صلّى اللّه عليه و آله علما للسّاعة و مبشّرا بالجنّة و منذرا بالعقوبة) أى مطلعا بأحوال الآخرة جميعها، فحيث آثر الآخرة على الاولى و ترک الرّكون إليها مع اطلاعه عليهما علم أن ليس ذلک إلاّ لكون الدّنيا مظنّة الهلاک، و العقبى محلّة النّجاة و الحياة، فالرّاكن إليها متعرّض للهلاک الدائم و الخزى الأبد لا محالة.

و يظهر لک عدم ركونه صلّى اللّه عليه و آله إليها بأنّه(خرج من الدّنيا خميصا)أى جائعا إمّا حقيقة أو كناية عن عدم الاستمتاع بها (و ورد الآخرة سليما) من التبعات و المكاره(لم يضع حجرا على حجر)كناية عن عدم بنائه فيها (حتّى مضى لسبيله و أجاب داعى ربّه).

قال الحسن: مات رسول اللّه و لم يضع لبنة على لبنة و لا قصبة على قصبة، رواه فى إحياء العلوم.

و فيه أيضا قال النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله: إذا أراد اللّه بعبد شرّا أهلک ماله فى الماء و الطّين.

ص:390

و قال عبد اللّه بن عمر: مرّ علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نحن نعالج خصّا، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ما هذا؟ قلنا: خصّ لنا قد وهى، فقال: أرى الأمر أعجل من ذلك.

و قال الغزالى: و قال النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله من بنى فوق ما يكفيه كلّف أن يحمله يوم القيامة، هذا.

و لمّا فرغ من التزهيد فى الدّنيا و التّرغيب فى الآخرة بالتّنبيه على هوانها و حقارتها بما لا مزيد عليه، و بشرح حال أولياء الدّين من خاتم النّبيّين وساير الأنبياء و المرسلين سلام اللّه عليهم أجمعين فى رفضهم لها و تركهم ايّاها، أردف ذلك بالاشارة إلى زهده و إظهار غاية الامتنان من اللّه سبحانه فى إنعامه عزّ و جلّ عليه عليه السّلام بالتّأسّى بنبيّه فقال:(فما أعظم نعمة اللّه عندنا حين أنعم علينا به) أى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله (سلفا نتّبعه و قائدا نطا عقبه) و نقفو أثره و نسلک سبيله فى زهده.

و أوضح اتّباعه و تأسّيه به صلّى اللّه عليه و آله بالاشارة إلى بعض مراتب زهده فانّه أنموذج من ساير المراتب، و فيه عبرة لمن اعتبر، و كفاية لمن تذكّر، فقال:(و اللّه لقد رقعت مدرعتى هذه) و هو ثوب من صوف يتدرّع به (حتّى استحييت من راقعها) لكثرة رقاعها (و لقد قال لى قائل) لمّا رأى أنّها خلق و سمل (ألا تنبذها) و تطرحها (عنک فقلت) له (اعزب) أى غب و تباعد (عنّى فعند الصّباح يحمد القوم السّرى) و هو مثل يضرب لمن احتمل المشقّة عاجلا لينال الرّاحة آجلا.

و أصله أنّ المسافر إذا احتمل المشقّة و حرّم على نفسه لذة الرّقاد و بادر إلى السّرى من أوّل اللّيل و جدّ فى سيره فانّه يبلغ عند الصّباح منزله و يصل إليه سالما غانما و ينزل أحسن المنازل و أشرفها مقدّما على غيره، و يستريح من تعب اللّيل و يكون محمودا، بخلاف من أخذه نوم الغفلة و آثر اللّذة العاجلة على الآجلة، فانّه إذا سرى فى آخر اللّيل و فى اخريات النّاس فانّه ربما يغيله اللّصوص فلا يسلم أو يضلّ؟؟؟ عن الطّريق فيعطب، و مع سلامته يكون مسيره فى حرّ النّهار على وصب و تعب، فيصل إلى المنزل بعد ما سبق غيره إلى أحسنه و أشرفه، فلا يجد له منزلا و مقيلا إلاّ أرداء المنازل و أدونها، فعند ذلک يلوم نفسه بتفريطه، و يذمّه غيره و يندم

على ما فرّط و لا ينفعه النّدم.

و بهذا التّقرير انقدح لک وجه المطابقة بين المثال و الممثّل.

بيانه أنّ ذلک النشأة المشوبة بالكدورات و العلايق الظّلمانية البدنيّة بمنزلة اللّيل، و النّشأة الاخرويّة المطابقة لتلک النشأة الّتى هى دار التجرّد الصّافية عن الكدورات و العلاقات بمنزلة الصّباح الواقع عقيب اللّيل، و الوطن الأصلى للانسان هى الدّار الآخرة، و هو فى الدّنيا بمنزلة المسافر، فمن ترک الدّنيا وجدّ فى السّير إلى الآخرة بالمواظبة على الطّاعات و الرّياضات الشّاقّة الموصلة له إليها وصل إلى مقصده، و نزل فى غرفات الجنان، و فيهنّ خيرات حسان فعند ذلک يكون محمودا مسرورا عند نفسه و عند الخالق و الخلايق لما صبر على مشاقّ الدّنيا و مقاساة الشّدائد.

و من أخذه نوم الغفلة فيها و اغترّ باللّذات الحاضرة و الشهوات العاجلة، و رد الآخرة و ليس له مقام إلاّ سجّين، و لا شراب و طعام إلاّ من حميم و غسلين، فعند ذلک يلومه نفسه و غيره و يندم على تقصيره، و يقعد ملوما محسورا و يدعو ثبورا

تذييلان

-

الاول

قد مضى فى مقدّمات شرح الخطبة الشقشقيّة و فى غيرها بعض الكلام فى زهد أمير المؤمنين عليه السّلام، و أقول هنا مضافا إلى ما سبق:

روى فى عدّة الدّاعى عن خبير بن حبيب قال: نزل بعمر بن خطّاب نازلة قام لها و قعد، و تربخ لها و تقطر(1) ثمّ قال: يا معشر المهاجرين ما عندكم فيها قالوا: يا أمير المؤمنين أنت المفزع و المنزل، فغضب و قال: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً »، أما و اللّه إنّا و إيّاكم لنعرف ابن بجدتها(2) و الخبير

1- (1) تربخ بالباء الموحدة و الخاء المعجمة استرخى، و تقطر تهيأ للقتال و رمى بنفسه من علو، ق.

2- (2) ابن بجدتها بالباء و الجيم يقال: بالعالم بالشىء، و للدليل الهادى، و لمن لا يبرح عن قوله هكذا فى ق

بهـا، قالوا: كأنّک أردت ابن أبی طالب؟ قال: و أنّی یعـدل بی عنه و هل طفحت جرّة بمثله؟ قالوا: فلو بعثت إلیه، قال: هیهات هیهات هناک شمخ من هاشم و لحمة من الرّسول و اثرة من علم یؤتی لها و لا یأتی، امضوا إلیه فاقصفوا(1) نحوه و أفضوا إلیه، و هو فی حایط له علیه تبّان یترکّل علی مسحاته(2) و هو یقول: «أَ یَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ یُتْرَکَ سُدیً أَ لَمْ یَکُ نُطْفَةً مِنْ مَنِیٍّ یُمْنی ثُمَّ کانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّی » و دموعه تهمی علی خدّیه، فأجهش(3) القوم لبکائه ثمّ سکن و سکنوا، و سأله عمر عن مسألـة فأصدر إلیه جوابها فلوی عمر یدیه ثمّ قال: أما و اللّه لقد أرادک الحقّ و لکن أبی قومک، فقال علیه السّلام: یا أبا حفص خفّض علیک من هناک و من هنا إنّ یوم الفصل کان میقاتا، فانصرف و قد أظلم وجهه و کأنّما ینظر إلیه من لیل.

و فی شرح المعتزلی عن أحمد بن حنبل قال: لمّا ارسل عثمان إلی علیّ علیه السّلام وجدوه مؤتزرا بعباة محتجزا بعقال(4) و هو یهنأ(5) بعیرا له.

و فی کشف الغمـة من مناقب الخوارزمی عن عبـد اللّه بن أبی الهذیل قال: رأیت علی علیّ علیه السّلام قمیصا زریّا إذا مدّه بلغ الظفر، و إذا أرسله کان مع نصف الذراع، و منه عن عدیّ بن ثابت قال: اتی علیّ بن أبی طالب علیه السّلام بفالوذج فأبی أن یأکل منه، و قال: شیء لم یأکل منه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا أحبّ أن آکل منه.

و منه عن أبی مسطر قال: خرجت من المسجد فاذا رجل ینادی من خلفی:

ارفع إزارک فانّه أتقی لثوبک و أبقی لک و خذ من رأسک إن کنت مسلما، فمشیت خلفه و هو مؤتزر بازار و مرتد برداء و معه الدّرة کأنّه أعرابیّ بدویّ، فقلت من هذا

1- (1) ای تزاحموا الیه.

2- (2) سراویل صغیر یستر العورة المغلظة یکون مع الملاحین، و ترکل بمسحاته ضربها برجله لتدخل الارض، منه

3- (3) ای تهیئوا للبکاء

4- (4) أی شدّ وسطه بالحبل لتشمیر ثوبه و یقال لذلک الحبل الحجاز

5- (5) أی یطلبه بالقطران

فقال لی رجل أراک غریبا بهذا البلد، قلت: أجل رجل من أهل البصرة، قال: هذا علیّ أمیر المؤمنین علیه السّلام حتّی انتهی الی دار بنی أبی معیط و هو سوق الابل فقال: بیعوا و لا تحلفوا فانّ الیمین تنفق السّلعة و تمحق البرکة.

ثمّ أتی أصحاب التمر فاذا خادمة تبکی فقال: ما یبکیک؟ قالت: باعنی هذا الرّجل تمرا بدرهم فردّوه موالیّ فأبی أن یقبله، فقال: خذ تمرک و أعطها درهمها فانّها خادم لیس لها أمر، فدفعه، فقلت أ تدری من هذا؟! قال: لا قلت: علیّ بن أبی طالب أمیر المؤمنین علیه السّلام فصبّ تمره و أعطاها درهمها و قال: احبّ أن ترضی عنّی، فقال:

ما أرضانی عنک إذا وفیتهم حقوقهم.

ثمّ مرّ مجتازا بأصحاب التّمر فقال: یا أصحاب التمر أطعموا المساکین یربو کسبکم.

ثمّ مرّ مجتازا و معه المسلمون حتّی أتی أصحاب السّمک فقال: لا یباع فی سوقنا طاف.

ثمّ أتی دار فرات و هو سوق الکرابیس فقال: یا شیخ أحسن بیعی فی قمیصی بثلاثة دراهم، فلمّا عرفه لم یشتر منه شیئا، فأتی غلاما حدثا فاشتری منه قمیصا بثلاثة دراهم و لبسه ما بین الرّسغین إلی الکعبین، و قال حین لبسه: الحمد للّه الّذی رزقنی من الرّیاش ما أتجمّل به فی النّاس و اواری به عورتی.

فقیل له: یا أمیر المؤمنین هذا شیء ترویه عن نفسک أو شیء سمعته من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: بل شیء سمعته من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله یقوله عند الکسوة: فجاء أبو الغلام صاحب الثّوب فقیل یا فلان قد باع ابنک الیوم من أمیر المؤمنین علیه السّلام قمیصا بثلاثة دراهم قال: أفلا أخذت منه درهمین.

فأخذ أبوه درهما و جاء به إلی أمیر المؤمنین علیه السّلام و هو جالس علی باب الرّحبة و معه المسلمون، فقال: امسک هذا الدّرهم یا أمیر المؤمنین، قال علیه السّلام: ما شأن هذا الدّرهم؟ قال: کان ثمن قمیصک درهمین، فقال: باعنی رضای و أخذ رضاه.

و منه قال ابن الأعرابی: إنّ علیّا علیه السّلام دخل السّوق و هو أمیر المؤمنین فاشتری قمیصا بثلاثة دراهم و نصف فلبسه فی السّوق فطال أصابعه، فقال علیه السّلام

للخيّاط: قصّه، قال: فقصّه و قال الخيّاط: أحوصه(1) يا أمير المؤمنين؟ قال: لا و مشى و الدّرة على كتفه و هو عليه السّلام يقول: شرعک ما بلغک المحلّ شرعک(2) ما بلغک المحل.

و فى كشف الغمة أيضا قال هارون بن عنترة: قال حدّثنى أبى قال: دخلت على علىّ بن أبى طالب عليه السّلام بالخورنق و هو يرعد تحت سمل(3) قطيفة، فقلت:

يا أمير المؤمنين إنّ اللّه تعالى قد جعل لک و لأهل بيتک فى هذا المال ما يعمّ و أنت تصنع بنفسک ما تصنع؟ فقال: و اللّه ما أرزاكم من أموالكم شيئا و انّ هذه لقطيفتى الّتى خرجت بها من منزلى من المدينة ما عندى غيرها.

و فيه و خرج عليه السّلام يوما و عليه ازار مرقوع فعوتب عليه فقال: يخشع القلب بلبسه و يقتدى بى المؤمنين إذا رآه علىّ.

و اشترى عليه السّلام يوما ثوبين غليظين فخيّر قنبرا فيهما، فأخذ واحدا و لبس هو الآخر، و رأى فى كمّه طولا عن أصابعه فقطعه.

و كان عليه السّلام قد ولىّ على عكبرا رجلا من ثقيف قال: قال لى علىّ عليه السّلام إذا صلّيت الظّهر غدا فعد إلىّ، فعدت إليه فى الوقت المعيّن فلم أجد عنده حاجبا يحبسنى دونه فوجدته جالسا و عنده قدح و كوز ماء، فدعا بوعاء مشدود مختوم، فقلت: قد أمننى حتّى يخرج إلىّ جوهرا، فكسر الختم فاذا فيه سويق فأخرج منه فصبّه فى القدح و صبّ عليه ماء فشرب و سقانى فلم أصبر فقلت له: يا أمير المؤمنين أتصنع هذا فى العراق و طعامه كما ترى فى كثرته؟ فقال عليه السّلام: أما و اللّه ما أختم عليه بخلا به و لكنّى أبتاع قدر ما يكفينى فأخاف أن ينقص فيوضع فيه من غيره و أنا أكره أن أدخل بطنى إلاّ طيّبا، فلذلک أحترز عليه كما ترى، فايّاک و تناول ما لا تعلم حلّه.

قال كاشف الغمّة بعد روايته لهذه الأخبار و غيرها ممّا تركنا روايتها خوف الاطالة: و كم له صلّى اللّه عليه من الآثار و الأخبار و المناقب الّتى لا تستر أو يستر

1- (1) الحوص الخياطة

2- (2) اى كفاک و حسبک

3- (3) السمل الخلق من الثياب.

وجه النّهار، و السّيرة الّتى هى عنوان السّير، و المفاخر الّتى يتعلّم منها من فخر، و المآثر الّتى تعجز من بقى كما أعجزت من غبر، فأعجب بهذه المكارم و الأفعال الّتى هى غرر فى جهات الأيّام، و الزّهادة الّتى فاق بها جميع الأنام، و الورع الّذى حمله على ترك الحلال فضلا عن الحرام، و العبادة الّتى أوصلته إلى مقام وقف دونه كلّ الأقوام.

و لمّا ألزم نفسه الشّريف تحمّل هذه المتاعب، و قادها إلى اتّباعه فانقادت انقياد الجنائب، و ملكها حتّى صاحب منها أكرم عشير و خير مصاحب، و استشارها ليختبرها فلم تنه إلاّ عن منكر و لا أمرت إلاّ بواجب صار له ذلك طبعا و سجيّة، و انضمّ عليه ظاهرا و نية، و اعمل فيه عزيمة بهمّة قويّة، و استوى فى السّعى لبلوغ غاياته علانية و طويّة، فما تحرّك حركة إلاّ بفكر و فى تحصيل أجر، و فى تخليد ذكر لا لطلب فخر و إعلاء قدر، بل لامتثال أمر و طاعة فى سرّ و جهر، فلذلك شكر اللّه سعيه حين سعى، و عمّه بألطافه العميمة و رعى، و أجاب دعائه لما دعى، و جعل اذنه السّميعة الواعية فسمع و وعى، فاسأل اللّه بكرمه أن يحشرنى و محبّيه و إيّاه معا.

قال كاشف الغمّة: أنشدنى بعض الأصحاب لبعض العلويّين.

عتبت على الدّنيا و قلت إلى متى أكابد عسرا ضرّه ليس ينجلى

أكلّ شريف من على جدوده حرام عليه الرّزق غير محلّل

فقالت نعم يا ابن الحسين رميتكم بسهمى عنادا حين طلّقنى على(1)

التذييل الثانى

لمّا كان هذا الفصل من خطبته عليه السّلام متضمّنا للتحريض على الجوع و الترغيب فيه تأسّيا بالنّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ساير السّلف الصّالحين أحببت أن أعرّفک فوايد الجوع

1- (1) و يبالى انى رأيت فى بعض الكتب نسبة هذه الابيات الى الشريف الرضى مؤلف المتن و عليه فالمراد بالحسين فى البيت الاخير هو أبو الرضى ره كما عرفته فى ديباجة الشرح فى ترجمته، منه

و آفات الشّبع على ما يستفاد من الأخبار و يدلّ عليه الوجدان و التجربة فأقول:

قال الغزالى فى إحياء العلوم ما ملخّصه ببعض تصرّف و تغيير منّا: إنّ فى الجوع عشر فوايد.

الفائدة الاولى صفاء القلب و إيقاد القريحة و إنفاذ البصيرة، فانّ الشّبع يورث البلادة و يعمى القلب و يكثر البخار فى الدّماغ شبه السّكر حتّى يحتوى على معادن الفكر، فيثقل القلب بسببه عن الجريان فى الأفكار و عن سرعة الادراک قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أحيوا قلوبكم بقلّة الضّحک و قلّة الشّبع، و طهّروها بالجوع تصفو و ترق.

و قال لقمان لابنه: يا بنىّ إذا امتلائت المعدة نامت الفكرة و خرست الحكمة و قعدت الأعضاء عن العبادة.

الثانية رقّة القلب و صفائه الّذى به يتهيّأ لادراک لذّة المناجاة و التّأثر بالذّكر، فكم من ذكر يجرى على اللّسان و لكنّ القلب لا يلتذّ به و لا يتأثّر حتّى كأنّ بينه و بينه حجابا من قسوة القلب، و إنّما يحصل التّلذّذ و التّأثّر بخلوّ المعدة كما هو معلوم بالتّجربة.

الثالثة الانكسار و الذّل و زوال البطر و الأشر و الفرح الّذى هو مبدء الطغيان و الغفلة عن اللّه كما قال تعالى «إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى» فلا تنكسر النّفس و لا تذلّ بشىء كما تذلّ بالجوع، فعنده تسكن لربّها و تخشع و تذعن بعجزها و ذلّها لما ذاقت حيلتها بلقمة طعام و أظلمت الدّنيا عليها بشربة ماء، و ما لم يشاهد الانسان ذلّ نفسه و عجزه لا يرى عزّة مولاه و لا قهره.

و لذلک إنّ النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله لمّا جاءه جبرئيل و عرض عليه خزائن الدّنيا و أبى من قبولها قال لجبرئيل: دعنى أجوع يوما و أشبع يوما، فاليوم الّذى أجوع فيه أتضرّع إلى ربّى و أسأله، و اليوم الّذى أشبع فيه أشكر ربّى و أحمده، فقال له جبرئيل: وفّقت لكلّ خير.

الرابعة التّذكّر بجوعه جوع الفقراء و المساكين و المحتاجين، لأنّ الانسان إنّما يقيس غيره على نفسه فيلاحظ حال الغير بملاحظة حاله، فاذا شاهد فى نفسه ألم الجوع يعرف بذلك ما فى المحتاجين من الألم، فيوجب ذلك مواساتهم، و يدعو إلى الاطعام و الشّفقة و الرّحمة على خلق اللّه، و الشّبعان بمعزل عن ذلك و غفلة منه.

و لذلك قيل ليوسف عليه السّلام: لم تجوع و فى يديك خزائن الأرض؟ فقال:

أخاف أن اشبع فانسى الجايع.

الخامسة التّذكّر به جوع يوم القيامة و عطشه، فانّ العبد لا ينبغى أن يغفل أهوال يوم القيامة و آلامها.

قال فى عدّة الدّاعى: قال النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أكثر النّاس شبعا أكثرهم جوعا يوم القيامة، لأنّ تذكّرها يهيج الخوف و الخشية من اللّه و هو زمام النّفس الأمّارة العاطف لها عن الفحشاء و المنكر.

السادسة و هى أعظم الفوايد كسرة شهوات المعاصى كلّها و الاستيلاء على النّفس فانّ منشأ المعاصى الشّهوات و القوى، و مادّة القوى و الشّهوات هى الأطعمة البتّة، فتقليلها يضعف كلّ شهوة و قوّة، و إنّما السّعادة كلّها فى أن يملك الرّجل نفسه و لا يملكه نفسه و كما أنّك لا تملك الدّابة الجموح إلاّ بضعف الجوع و الهزال فاذا شبعت قويت و شردت و جمحت، فكذلك النّفس.

و لذلك قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: إنّ الشّيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدّم فى العروق، فضيّقوا مجاريه بالجوع.

السابعة دفع النوم و دوام السّهر، فانّ من شبع شرب كثيرا، و من كثر شربه كثر نومه، و فى كثرة النّوم ضياع العمر و فوات التهجّد و العمر أنفس الجواهر و هو رأس مال الانسان به يتّجر و يتزوّد لآخرته، و فضيلة التّهجّد غير خفيّة.

الثامنة تيسير المواظبة على العبادات، فانّ كثرة الأكل مانعة منها، لأنّها محتاجة إلى زمان يشتغل فيه بالأكل و مضغ الطّعام و ازدراده فى الفم، و ربّما يحتاج إلى شراء الطّعام و طبخه و غسل اليد و نحوها، و فى ذلك تفويت العمر و تضييع الوقت

فلو صرف زمانه المصروف إلى ذلک فی الطّاعات و المناجاة لعظم أجره و کثر ربحه التاسعة صحّة البدن و السّلامة من الأمراض، فانّ سببها کثرة الأکل و حصول فضلة الأخلاط فی المعدة و العروق.

روی إنّ سقراط الحکیم کان قلیل الأکل فقیل له فی ذلک: فأجاب إنّ الأکل للحیاة و لیس الحیاة للأکل.

قال المحدّث الجزائری فی زهر الرّبیع: ورد فی الحدیث أنّ حکیما نصرانیّا دخل علی الصّادق علیه السّلام فقال: أفی کتاب ربّکم أم فی سنّة نبیّکم شیء من الطّب؟ فقال: أمّا فی کتاب ربّنا فقوله تعالی «کُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا » و أمّا فی سنّة نبیّنا: الاسراف فی الأکل رأس کلّ داء و الحمیة منه رأس کلّ دواء، فقام النّصرانی و قال: و اللّه ما ترک کتاب ربّکم و لا سنّة نبیّکم شیئا من الطبّ لجالینوس قال: روی عنه علیه السّلام أنه لو سئل أهل القبور عن السّبب و العلّة فی موتهم لقال أکثرهم التّخمة، فعلم من ذلک أنّ عمدة السبب للمرض هو کثرة الأکل و ممانعة المرض من العبادات و تشویشه للقلب و منعه من الذّکر و الفکر و تنغیصه للعیش معلوم.

العاشرة خفّة المؤنة، فانّ من اعتاد قلّة الأکل کفاه القلیل من الطعام و الیسیر من المال، بخلاف من تعوّد البطنة، فانّ بطنه صار غریما له آخذا بخناقه فی کلّ یوم و لیلة، فیلجاه إلی أن یمدّ عین الطمع إلی الناس، و یدخل المداخل فیکتسب إما من الحرام فیعصی، أو من الحلال فیحاسب.

هذا کله مضافا إلی ما فی قلّة الأکل من التمکّن من الایثار و التصدّق بفاضل قوته علی الفقراء و المساکین، فیکون یوم القیامة فی ظلّ صدقته، و قد تقدّم فی شرح الخطبة المأة و التاسعة فی فضایل الصوم و الصدقة ما یوجب زیادة البصیرة فی هذا المقام فلیتذکّر.

ثم انه بقی الکلام فی مقدار قلّة الأکل، و قد عیّنه النبیّ صلّی اللّه علیه و آله فیما رواه عنه فی عدّة الدّاعی قال: و یروی عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال: حسب ابن آدم لقیمات یقمن

به صلبه، فان كان و لا بدّ فليكن الثّلث للطعام و الثّلث للشراب و الثّلث للنّفس.

قال القرطبى لو سمع بقراط بهذه القسمة لتعجّب فى هذه الحكمة.

قيل: لا شكّ إنّ أثر الحكمة فى هذا الحديث واضح و إنّما خصّ الثلاثة(1) بالذّكر، لأنّها أسباب حياة الحيوان، لأنّه لا يدخل البطن سواها.

و مراتب الأكل على ما قاله بعضهم سبع: الاولى ما به تقوم الحياة الثانية أن يزيد حتّى أن يصوم و يصلّى عن قيام، و هذان واجبان الثالثة أن يزيد حتّى يقوى على أداء النوافل الرابعة أن يزيد حتّى يقدر على التكسّب للتّوسعة، و هذان مستحبّان الخامسة أن يملاء الثّلث و هذا جايز السادسة أن يزيد على ذلك فيثقل البدن و يكثر النوم، و هذا مكروه السابعة أن يزيد حتّى يتضرّر و هى البطنة المنهىّ عنها و هذا حرام، و يمكن إدخال الأولى إلى الثّانية و الثالثة إلى الرّابعة.

الترجمة

فصل دويم از اين خطبه متضمّن است ابطال دعوى بعض أهل زمان رجا بثواب خداوند را و خوف از عقاب آن مى فرمايد:

ادّعا مى كند بزعم فاسد خود كه اميدوار است بخداى تعالى دروغ مى گويد بحقّ خداى بزرگ، چيست حال او كه ظاهر نمى شود رجا و اميدوارى در عمل او و هر كه اميد داشته باشد شناخته مى شود اميدوارى در عمل و كردار او و مگر اميد بخداوند متعال كه بدرستى آن مغشوش است و معيوب، و هر ترس محقّق است مگر ترس از حق تعالى پس بدرستى كه آن معلولست و مريض، اميد مى دارد آن شخص بخدا در چيز بزرگ و اميد مى دارد به بندگان در چيز حقير پس مى دهد به بنده چيزى را كه نمى دهد بپروردگار، پس چيست شأن خداى عزّ و جل كه تقصير كرده مى شود بأو از آن چيزى كه رفتار مى شود با آن بر بندگان او، آيا مى ترسى كه

1- (1) أى الطعام و الشراب و النفس منه

باشی در امیدواری تو بأو دروغ گوی، یا باشی که نه بینی او را از برای امیدواری محل قابل.

و همچنین است اگر او بترسد از بندهٔ از بندگان خدا عطا می کند بأو از جهة خوف خود چیزی را که عطا نمی کند بپروردگار خود، پس می گرداند ترس خود را از بندگان نقد و ترس خود را از خالق خود وعده غیر امیدوار، و همین قرار است کسی که عظم و شأن داشته باشد دنیا در چشم او، و بزرگ باشد وقع دنیا از قلب او ترجیح می دهد آن دنیا را بر خدا پس بالکلّیه رجوع نماید بآن دنیا و برگردد بنده از برای آن.

و بتحقیق که هست در رفتار و کردار حضرت رسالتمآب صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کفایت کننده مر تو را در تأسّی و پیروی نمودن بآن بزرگوار و راه نماینده از برای تو بر مذمت دنیای فانی و کثرت مهالک و معایب آن، از جهة این که بسته شد از او اطراف آن، و مهیا شد از برای غیر او جوانب او، و باز گرفته شد از شیرخواری دنیا، و دور کرده شد از زینتهای آن.

و اگر بخواهی دو تا گردانی اعراض حضرت رسالتمآب را از دنیا با اعراض و زهد حضرت موسی کلیم اللّه وقتی که گفت بخداوند تعالی: بار پروردگارا بدرستی من محتاجم به آن چه که فرو می فرستی بمن از طعام، قسم بخدا که سؤال نمی کرد از خداوند مگر نانی که بخورد آنرا، بجهة این که بود آن حضرت می خورد سبزی زمین را، و بتحقیق که بود سبزی تره دیده می شد از پوست درون شکم او بجهة لاغری او و کمی گوشت او.

و اگر می خواهی سه تا گردانی آنرا با زهد حضرت داود علیه السّلام صاحب مزمارهای زبور و قرائت کنندهٔ أهل بهشت، پس بتحقیق که بود عمل می کرد ببافته شده های برگ درخت خرما یعنی زنبیل می بافت بدست خود می گفت بهمنشینان خود کدام یک از شما کفایت می کند مرا بفروختن این، و می خورد نان جوی از قیمت آن.

ص:401

و اگر بخواهی بگوئی در عیسی بن مریم علیه السّلام پس بتحقیق که بود بالش اخذ می نمود سنگ را، و می پوشید جامۀ درشت را، و بود نان خورش او گرسنگی و چراغ او در شب روشنائی ماه، و سایه بانهای او در فصل زمستان مشرقهای آفتاب و مغربهای آن، و میوۀ او و ریحان او آنچه که می رویانید آن را زمین از برای حیوانات و نبود او را زنی که مفتون نماید او را، و نه فرزندی که محزون کند او را، و نه مالی که برگرداند او را از حق، و نه طمعی که ذلیل بگرداند او را، مرکب او پایهای او بود، و خدمتکار او دستهایش بود.

پس تأسّی کن به پیغمبر پاک پاکیزۀ خودت صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، پس بتحقیق که در اوست قابلیّت متبوعیّت از برای کسی که اقتدا و تبعیّت نماید، و لیاقت انتساب از برای کسی که نسبت خود را باو بدهد، و دوسترین بندگان بسوی خدا کسی است که تأسّی نماید به پیغمبر خود و متابعت کند أثر او را، خورد دنیا را خوردنی اندک بأطراف دندان و پر نکرد از آن دهان خود را، و نظر التفات بسوی او نگماشت، لاغرترین أهل دنیا بود از حیثیّت تهی گاه، و گرسنه ترین ایشان بوده از حیثیّت شکم، عرض کرده شد بر او خزاین دنیا پس امتناع فرمود از قبول آن و دانست که خدای تعالی دشمن داشته چیزی را پس دشمن گرفت آن حضرت نیز آنرا، و حقیر گرفته چیزی را پس حقیر گرفت آن حضرت نیز آن را، و کوچک و بی مقدار شمرده چیزی را پس کوچک شمرد آن هم او را.

و اگر نشود در ما هیچ چیز مگر محبّت ما بچیزی که دشمن داشته خدا و رسول او، و تعظیم ما چیزی را که خوار و خرد شمرده خدا و رسول او هر آینه کفایت می کند آن از حیثیّت مخالفت مر خدا را، و از حیثیّت معاداة و مجانبت از فرمان آن.

و بتحقیق که بود حضرت رسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم می خورد طعام را بر روی زمین، و می نشست مانند نشستن غلام، و می دوخت با دست خود کفش خودش را، و پینه می زد با دست خود رخت خود را، و سوار می شد بر دراز گوش برهنه و ردیف میکرد

در پس خود دیگری را، و می بود پردهٔ بر در خانهٔ آن حضرت پس می شد در آن پرده نقش نگارها، پس می فرمود بر یکی از زوجات خود: أی فلانه پنهان کن این را از نظر من، پس بدرستی که من زمانی که نظر می کنم بسوی آن یاد می کنم دنیا و زینتهای آنرا.

پس اعراض فرمود از دنیا بقلب مبارک خود، و معدوم ساخت ذکر دنیا را از نفس نفیس خود، و دوست گرفت که غایب شود زینت آن از چشم جهان بین خود تا این که اخذ ننماید از دنیا لباس فاخری، و اعتقاد نکند آنرا آرامگاهی، و امید نگیرد در آن اقامت را، پس بیرون نمود دنیا را از نفس نفیس، و کوچانید حبّ دنیا را از خواطر أنور، و غایب گردانید آن را از نظر آفتاب منظر، و همچنین است هر کس که دشمن می گیرد چیزی را دشمن می گیرد آنکه نگاه کند بسوی آن و آنکه ذکر بشود نام و نشان آن در نزد او.

و بتحقیق که هست در رسول خدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم چیزی که دلالت کند ترا بر بدیهای دنیا و عیبهای آن از جهت این که گرسنه ماند در دنیا با خواصّ خودش، و دور کرده شد از او زینتهای آن با وجود بزرگی قرب و منزلت او.

پس باید که نظر کند نظر کننده بعقل خود که آیا گرامی داشته خدای تعالی محمّد مصطفی صلّی اللّه علیه و آله را به سبب این، یا خوار نموده آن را؟ پس اگر گوید خوار فرموده او را پس بتحقیق که دروغ گفته قسم بخدای بزرگوار، و اگر گوید گرامی داشته او را پس باید که بداند آنکه خدای متعال بتحقیق که خوار کرده غیر او را از جهة این که بسط فرموده دنیا را از برای آن غیر، و صرف نموده دنیا را از أقرب خلق بسوی او.

پس باید که تأسّی نماید تأسّی کننده به پیغمبر برگزیدهٔ خود، و پیروی نماید أثر او را، و داخل شود بمحلّ دخول آن، و إلاّ پس أیمن نشود از هلاکت.

پس بدرستی که خدای تعالی گردانید محمّد مصطفی صلّی اللّه علیه و آله را نشانه از برای قیامت، و بشارت دهنده به بهشت، و ترساننده با عقوبت، بیرون رفت آن حضرت از دنیا در حالتی که شکم تهی بود، و وارد شد بآخرت در حالتی که سالم بود از مکاره

و معایب، ننهاد سنگ بالای سنگی تا این که در گذشت براه خود و اجابت فرمود دعوت کنندۀ پروردگار خود را.

پس چه قـدر بزرگست منّت و نعمت خدا در نزد ما وقتی که انعام فرمود با آن حضـرت بر ما پیش روی که متابعت کنیم او را، و پیشوائی که کام می نهیم در پی او، قسم بخـدا بتحقیق که پینه دوزانـدم این درّاعـهٔ خود را تا بمرتبـهٔ که خجالت کشـیدم از پینه دوزندهٔ آن، و بتحقیق که گفت مرا گویندهٔ: آیا نمی اندازی آن را از خودت؟! پس گفتم که دور شو از من که در نزد صبح ستایش کرده می شوند مردمان شب رونده.

و من خطبة له علیه السّلام و هی المأة و الستون

اشارة

من المختار فی باب الخطب

بعثه بـالنّور المضـیء، و البرهان الجلیّ، و المنهاج البادی، و الکتاب الهادی، أسـرته خیر أسـرة، و شـجرته خیر شـجرة، أغصانها معتدلـة و ثمارها متهدّلـة، مولـده بمکّـة، و هجرته بطیبـة، علا بها ذکره، و امتدّ بها صوته، أرسـله بحجّة کافیة، و موعظة شافیة، و دعوة متلافیة، أظهر به الشّرایع المجهولـة، و قمع به البـدع المدخولـة، و بیّن به الأحکام المفصولة، فمن یبتغ غیر الإسـلام دینا تتحقّق شـقوته، و تنفصم عروته، و تعظم کبوته، و یکن مآبه إلی الحزن الطّویل، و العذاب الوبیل، و أتوکّل علی اللّه توکّل الإنابة إلیه، و أسترشده السّبیل

المؤدّية إلى جنّته، القاصدة إلى محلّ رغبته. أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه و طاعته فإنّها النّجاة غدا، و المنجاة أبدا، رهّب فأبلغ، و رغّب فأسبغ، و وصف لكم الدّنيا و انقطاعها، و زوالها و انتقالها، فأعرضوا عمّا يعجبكم فيها لقلّة ما يصحبكم منها، أقرب دار من سخط اللّه، و أبعدها من رضوان اللّه، فغضّوا عنكم عباد اللّه غمومها و أشغالها لما قد أيقنتم به من فراقها و تصرّف حالاتها، فاحذروها حذر الشّفيق النّاصح، و المجدّ الكادح، و اعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون قبلكم قد تزايلت أوصالهم، و زالت أبصارهم و أسماعهم، و ذهب شرفهم و عزّهم، و انقطع سرورهم و نعيمهم، فبدّلوا بقرب الأولاد فقدها، و بصحبة الأزواج مفارقتها، لا يتفاخرون، و لا يتناسلون، و لا يتزاورون، و لا يتجاورون، فاحذروا عباد اللّه حذر الغالب لنفسه المانع لشهوته النّاظر بعقله، فإنّ الأمر واضح، و العلم قائم، و الطّريق جدد، و السّبيل قصد.

اللغة

(بعثه) و ابتعث أرسله فانبعث و (أسرة) الرّجل بالضمّ رهطه الأدنون

ص:405

و (التّهدّل) الاسترخاء و التدلّى و (طيبة) بالفتح و التخفيف اسم مدينة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كطابة و الطيبة و كان اسمها يثرب فسمّاها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بطيبة و (التلافى) الاستدراک و (قمعه) يقمعه قهره و ذلّله و ضربه بالمقمعة و زان مكنسة و هى العمود من الحديد أو كالمحجن يضرب به على رأس الفيل و خشبة يضرب به الانسان على رأسه و (كبا) الجواد كبوا عثر فوقع إلى الأرض و انكبّ على وجهه و الاسم الكبوة و (نجا) نجوا و نجاة خلص و قال الشارح المعتزلى: و المنجاة مصدر نجا ينجو و النجاة النّاقة ينجى عليها و (لا يتجاورون) بالجيم من المجاورة و يروى بالحاء المهملة.

الاعراب

الباء فى قوله: بالنّور، للمصاحبة و الملابسة، و تعدية القاصدة بالى لتضمينها معنى الافضاء، و فاعل رهّب و رغّب راجع إلى اللّه تعالى، و الفاء فى قوله: فأعرضوا، فصيحة و أقرب دار خبر لمبتدأ محذوف، و جملة قد تزايلت استيناف بيانىّ، و الفاء فى قوله:

فبدّلوا، عاطفة من عطف المفصّل على المجمل.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة متضمّنة لذكر ممادح النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مناقبه الجميلة ثمّ الموعظة الحسنة و التنفير عن الدّنيا بالتّنبيه على معايبها و مساويها.

قال عليه السّلام (ابتعثه) و فى بعض النّسخ بعثه بدله و هما بمعنى كما مرّ (بالنّور المضىء) أراد به نور النّبوة، و تفسير الشّارح المعتزلى له بالدّين او القرآن و هم لأنّ المراد بالمنهاج الآتى ذلک، و الكتاب أيضا يجىء ذكره و التّأسيس أولى من التّأكيد (و البرهان الجلىّ) أى بالمعجزات الباهرات و الأدلّة الواضحة على حقيّته (و المنهاج المبادى) أى الطّريق الظّاهر يعنى الشّريعة و الدّين (و الكتاب الهادى) إلى سبيل الجنّة و طريق النّجاة قال تعالى:

«ذلِکَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ».

ص:406

(اسـرته خير اسـرة و شـجرته خير شـجرة) أى رهطه خير رهط و أصله خير أصل، و قد مضى شرح هاتين القرينتين فى شرح الخطبة الثّالثة و التّسعين مستوفا و لا حاجة هنا إلى الاعادة.

(أغصانها معتدلـة) المراد بها الأغصان المعهودة أعنى أهل بيت العصـمة و الطّهارة فانّ الجمع المضاف إنّما يفيـد العموم حيث لا عهد، و القرينـة على ارادة الخصوص هنا قائمة و هى قوله معتدلة فانّ الظّاهر أنّ المراد به اعتدالها فى الكمالات النّفسانيّة و كونها مصونة من التفريط و الافراط كما قال تعالى:

«وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ».

روى بريد العجلى فى هذه الآية عن أبى جعفر عليه السّلام أنّه قال: نحن الامّة الوسط.

و فى رواية حمران عنه عليه السّلام إنّما انزل اللّه:

«وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً »يعنى عدلا«لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ».

قـال: و لا يكون شـهداء على النّـاس إلاّ الأئمـة و الرّسـل، فقـد علم بمـا ذكرناه أنّ ما قاله الشّارح البحرانى من أنّ لفظ الاغصان مسـتعار لأشـخاص بيته صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كعلىّ عليه السّـلام و أولاده و زوجته و أعمامه و اخوته، و اعتـدال هـذه الأغصان فى الفضل و الشرف سخيف، إذ اعتدال الأوّلين مسلّم، و أمّا الأعمام و الاخوة فقياسهم عليهم فاسد، و التّقارب بينهم ممنوع.

(و ثمارها متهدّلة) أى ثمار هذه الشّجرة الظّاهرة من أغصانها متدلّية و هو كناية عن سهولة الانتفاع بها، و أراد بالثّمار العلوم الحقّة المأخوذة عنهم عليهم السّلام.

(مولـده بمكّة) شـرّفها اللّه يوم الجمعة عند طلوع الشّمس السّابع عشـر من ربيع الأوّل عام الفيل قاله أبو علىّ الطّبرسـى و قد تقدّم تفصـيل تاريخ ميلاده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

و طالع ولادته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى شرح الفصل السّادس عشر من الخطبة الاولى.

(و هجرته بطيبة) هاجر إليها و هو ابن ثلاث و خمسين كما يدلّ عليه ما رواه فى كشف الغمّة عن أبى جعفر الباقر عليه السّلام قال: قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو ابن ثلاث و ستّين سنة فى سنة عشر من الهجرة، فكان مقامه بمكّة أربعين سنة، ثمّ نزل عليه الوحى فى تمام الأربعين، و كان بمكّة ثلاث عشر سنة، ثمّ هاجر إلى المدينة و هو ابن ثلاث و خمسين سنة، فأقام بالمدينة عشر سنين و قبض صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (علابها) أى فى طيبة (ذكره) لأنّه قهر الأعداء و انتصر من الكفّار بعد الهجرة إليها بنصرة أهلها، و لذلك سمّى أهلها بالأنصار (و امتدّ بها صوته) أى انتشرت دعوته فيها و بلغ صيت الاسلام إلى الأصقاع و الأكناف بعد ما هاجر إليها.

(أرسله بحجّة كافية) يعنى الآيات القرآنية الكافية فى إثبات نبوّته مضافة إلى ساير معجزاته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (و موعظة شافية) لأسقام القلوب و أمراض النّفوس، و المراد بها ما اشتمل عليه الكتاب الكريم و السنّة الكريمة من الوعد و الوعيد و ضرب الأمثال و التّذكير بالقرون الخالية و الامم الماضية الموقظة للخلق من نوم الغفلة و المنقذة لهم من ضلال الجهالة (و دعوة متلافية) متداركة بها ما فسد من نظام أمر الدّين فى أيّام الجاهليّة.

(أظهر به الشّرايع المجهولة) الظاهر أنّ المراد بها قوانين الشّريعة النّبويّة الّتى كانت مجهولة بين النّاس ثمّ ظهرت و عرفت بعد وجوده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تشريعه ايّاها، و يجوز أن يراد بها شرايع الماضين من السّنن الّتى لم تكن منسوخة و إنّما كانت مجهولة بين النّاس لبعد العهد و طول الزّمان و اتّباع الهوى فأظهرها النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمر بأخذها و لزومها.

(و قمع به البدع المدخولة) أراد بها ما كان أهل الفترة و أيّام الجاهليّة أبدعوها فى الدّين و أدخلوها على الشّرع المبين من عبادة الأصنام و نحرهم لها و حجّهم لأجلها و زعمهم أنّها تقرّبهم إلى اللّه زلفى، و من النّسىء و الطواف بالبيت عريانا و غيرها من البدع الّتى لا تحصى فأذلّ اللّه سبحانه ببعث النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله تلك البدع و أذلّ المبدعين و قطع دابر الكافرين.

ص:408

(و بیّن به الأحکام المفصولة) أی أحکامه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المفصولة الآن ببیانه، لا أنّها کانت مفصولة قبل (فمن یبتغ) و یطلب (غیر الاسلام دینا) بعد ما بلغه النّبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أعلمه و شرعه و أفصح عن معالمه و أقام الأدلّة القاطعة و البراهین السّاطعة علی صحّته و حقیّته (تتحقّق شقوته) فی الآخرة (و تنفصم عروته) أی ینقطع ما یتمسّک به من حبل النّجاة (و تعظم کبوته) و عثرته فیطیح فی نار الجحیم و السّخط العظیم (و یکن) مرجعه و (مآبه إلی الحزن الطویل و العذاب الوبیل) المتضمّن للهلاک و الوبال فی دار البوار، و هذا مراد من فسّره بالشّدید.

(و أتوکّل علی اللّه توکّل الانابة إلیه) أی توکّل الملتفت عن غیره و الرّاجع بکلیّته إلیه للعلم بأنّ غیره لا یضرّ و لا ینفع و لا یعطی و لا یمنع.

قال أبو عبد اللّه علیه السّلام فی روایة الکافی: أوحی اللّه عزّ و جلّ إلی داود ما اعتصم بی عبد من عبادی دون أحد من خلقی عرفت ذلک من نیّته ثمّ تکیده السّماوات و الأرض و من فیهنّ إلاّ جعلت له المخرج من بینهنّ، و ما اعتصم عبد من عبادی بأحد من خلقی عرفت ذلک من نیّته إلاّ قطعت أسباب السّماوات من یده و أسخت الأرض من تحته و لم ابال بأیّ واد یهلک.

(و أسترشده السّبیل المؤدّیة إلی جنّته القاصدة إلی محلّ رغبته) أی الطّریق الّتی من سلکها أدّته إلی جنّته، و من قصدها أفضته إلی محلّ رغبته.

ثمّ عقّب ذلک بالموعظة و الوصیّة بما لا یزال یوصی به دائما فقال(اوصیکم عباد اللّه بتقوی اللّه و طاعته فانّها النّجاة غدا)إفراد الضّمیر مع تعدّد المرجع باعتبار أنّهما فی المعنی شیء واحد، و لکونهما سبب النّجاة اطلق علیهما النّجاة من باب اطلاق المسبّب علی السّبب، فیکون مجازا مرسلا، و علی ما ذکره الشّارح المعتزلی من أنّ النّجاة اسم للنّاقة الّتی ینجی علیها فیکون استعارة تشبیها لهما بالمطیّة الّتی یرکب علیها فیخلص من العطب، فانّ المطیع ینجو بهما من الهلاک الاخروی و العذاب الألیم.

(و المنجاة أبدا) جعلهما محلّ النّجاة باعتبار حصولهما فی الاتّصاف بهذین

ص:409

الوصفين، فشبها بالمحلّ الّذى يحلّ فيه الشّىء و أطلق عليهما لفظ المنجاة من باب تسمية الشىء باسم محلّه.

و لمّا أمر بالتّقوى و الطّاعـة و كانت الطّاعة عبارة عن امتثال الأوامر و النّواهى أشار إلى أنّ اللّه سبحانه قد أعذر و أنذر و أتمّ الحجّة و لم يبق لأحـد معـذرة فى التقصير حيث (رهب) المجرمين بعـذاب الجحيم و السخط العظيم (فأبلغ) فى ترهيبه (و رغب) المطيعين فى درجات الجنان و الحور و الغلمان و أكبر نعمائه الرّضوان (فأسبغ) و أكمل فى ترغيبه (و وصف لكم) فى قوله:

«اِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ ».

كما وصف فى غيره من آيات الكتاب الكريم و القرآن الحكيم (الـدّنيا و انقطاعها و زوالها و انتقالها) و حيث إنّها موصوفة بالانقطاع متّصفة بسرعة الزّوال و الانقضاء (فاعرضوا) بقلوبكم (عمّا يعجبكم منها) من زينتها و زخارفها و ازهدوا فيها و فى رياشها (لقلّة ما يصحبكم منها) قال الشارح البحرانى: و إنّما قال: لقلّة ذلك و لم يقل لعـدمه لأنّ السالكين لا بـدّ أن يستصحبوا منها شيئا و هو ما يكتسبه أحـدهم من الكمالات إلى الآخرة، و لكنّ القدر الذى يكتسبه المترفون من الكمالات إذا قصدوا بأموالهم و ساير زينة الحياة الدّنيا الوصول إلى اللّه نزر قليل، و مع ذلك فهم فى غايـة الخطر و مزلّة القدم فى كلّ حركة و تصرّف، بخلاف أهل القشف الذين اقتصروا منها على مقدار الضرورة البدنيّة، و يحتمل أن يريد بالقليل الّذى يصحبهم منها كالكفن و نحوه.

(أقرب دار من سخط اللّه) لأنّها محفوفة بالشهوات الموجبة لسخطه و أكثر أهلها محبّون لها راغبون إليها متابعون للهوى، و رأس كلّ خطيئة حبّ الدّنيا

(و أبعدها من رضوان اللّه) لأنّ الطالب فيها لتحصيل رضوانه و للانتفاع بقيناتها فى سلوك سبيله قليل (فغضّوا عنكم عباد اللّه) و كفّوا عن أنفسكم و اخرجوا عن قلوبكم (غمومها و أشغالها لما قد أيقنتم به من فراقها و تصرّف حالاتها) يعنى أنّ الغمّ و الاشتغال انما يحسن أن يوجها نحو ما يبقى دون ما يفنى مع أنّ الاشتغال بما يفنى شاغل عن الاشتغال بما يبقى، و هو ليس فعل العاقل.

و روى فى الكافى عن علىّ بن إبراهيم عن محمّد بن عيسى عن يحيى بن عقبة الأزدى عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال قال أبو جعفر عليه السّلام مثل الحريص على الدّنيا مثل دودة القزّ كلّما زادت من القزّ على نفسها لفّا كان أبعد لها من الخروج حتّى تموت غمّا.

و قال أبو عبد اللّه عليه السّلام: أغنى الغنى من لم يكن للحرص أسيرا.

و قال: لا تشعروا قلوبكم الاشتغال بما قد فات فتشغلوا أذهانكم عن الاستعداد لما لم يأت (فاحذروها) على أنفسكم (حذر الشفيق الناصح) على شفيقه (و) حذر (المجدّ الكادح) من خيبة سعيه.

روى فى الكافى عن علىّ بن إبراهيم عن أبيه عن عبد اللّه بن المغيرة عن غياث ابن إبراهيم عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: إنّ فى كتاب علىّ عليه السّلام إنما مثل الدّنيا كمثل الحيّة ما ألين مسّها و فى جوفها السمّ النافع يحذرها الرجل العاقل، و يهوى إليها الصّبىّ الجاهل.

(و اعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون) الماضية (قبلكم) فانكم عمّا قليل لاحقون بهم و صائرون مثلهم (قد تزايلت أوصالهم) و أعضائهم (و زالت أسماعهم و أبصارهم) و جرت أحداقهم على الخدود، و سالت أفواههم و مناخرهم بالقيح و الصديد (و ذهب شرفهم و عزّهم و انقطع سرورهم و نعيمهم) فلا تنظر إلى طيب عيشهم و لين رياشهم و لكن انظر إلى سرعة ظعنهم و سوء منقلبهم.

يا راقد اللّيل مسرورا بأوّله إنّ الحوادث قد يطرقن أسحارا

أفنى القرون التى كانت منعّمة كرّ الجديدان إقبالا و إدبارا

ص:411

کم قد أبادت صروف الدّهر من ملک قد کان فی الدّهر نفّاعا و ضرّارا

یا من یعانق دنیا لا بقاء لها یمسی و یصبح فی دنیاه سفّارا

هلاّ ترکت من الدّنیا معانقة حتّی تعانق فی الفردوس أبکارا

إن کنت تبغی جنان الخلد تسکنها فینبغی لک أن لا تأمن النارا

ثمّ انظر إلی أهل القبور کیف صاروا إلیها بعد سکنی القصور، و انتقلوا إلی دار الوحدة و ارتحلوا إلی بیت الوحشة لیس لهم أنیس به یستأنسون و لا سکن إلیه یسکنون (فبدلوا بقرب الأولاد فقدها و بصحبة الأزواج مفارقتها) بل استوحش من قربهم الأولاد و الأصحاب، و استنفر من قبرهم الألاّف و الأحباب (لا یتفاخرون و لا یتناسلون و لا یتزاورون و لا یتجاورون) إذ لم یبق لهم زائر و لا مجاور

و حلّوا بدار لا تزاور بینهمو أنّی لسکّان القبور التّزاور

و إنما صار هوام الأرض لهم الزّوار و الضیفان، و الحشرات و الدیدان لهم الجیران و انحصر لباسهم و ریاشهم فی الأکفان.

(فاحذروا عباد اللّه) ثمّ احذروا (حذر الغالب لنفسه) الأمّارة بالسّوء (المانع لشهوته) المؤدّیة إلی هلکته (الناظر بعقله) الممیّز بین منفعته و مضرّته (فانّ الأمر واضح) أی أمر الدّنیا و الآخرة ظاهر لا خفاء فیه (و العلم قائم) أی علم الشریعة الهادی إلی الحقّ قائم لا غبار علیه (و الطریق) إلی اللّه (جدد) سهل (و السبیل) إلی رضوان اللّه تعالی (قصد) مستقیم.

فطوبی لعبد آثر اللّه ربّه و جاد بدنیاه لما یتوقّع

الترجمة

از جملۀ خطب شریفۀ آن حبل اللّه المتین و سیّد وصیین است مشتمل است بر مناقب حضرت رسالت و متضمن است موعظه و نصیحت را می فرماید:

مبعوث فرمود خداوند تعالی پیغمبر آخر الزّمان صلّی اللّه علیه و آله و سلّم را با نور روشن کننده که عبارتست از نور نبوّت، و با دلیل آشکارا که عبارتست از معجزات رسالت،

ص:412

و با راه واضح که جادّهٔ شریعت است، و با کتاب مشتمل بهدایت که قرآن کریم است، رهط و قبیلهٔ آن حضرت بهترین قبایلست، و درخت آن بزرگوار بهترین درختهـاست، شاخهای آن درخت معتدلنـد و متقارب، و میوه های آن فروریخته شـده است و آویزان، مکان ولادت آن حضـرت مکّـهٔ معظّمه است، و هجرت او بمدینـهٔ طیبه در مـدینه بلند شد ذکر آن، و کشـیده شد در آن صدای آن، در رسـید بآفاق و أکناف فرسـتاد خداوند عزّ و جلّ او را با حجّت کفایت کننده، و با موعظهٔ شـفا دهنده، و با دعوت تدارک کننده، ظاهر فرمود خدا باظهار و بیان آن حضـرت شـریعتهای مجهوله را، و منکوب و مخـذول نمود بوجود او بـدعتهای مدخوله را، و روشن گردانید بزبان گوهر فشان او حکمهای فصـل شـده را، پس هر که طلب نمایـد غیر از اسـلام دینی را متحقّق می شود شـقاوت او، و گسـیخته می شود متمسـک او، و بزرگ گردد لغزش او، و باشـد بازگشت او بسوی انـدوه دراز، و عـذاب شدید، و توکلّ می کنم بخداوند توکّل رجوع کردن بسوی او، و طلب ارشاد می کنم از او براهی که رساننده باشد ببهشت عنبر سرشت او، و قصد کننده باشد به محلّ رغبت او.

وصـیّت میکنم شما را أی بندگان خدا بپرهیزکاری از خدا و فرمان برداری او، پس بدرستی که پرهیزکاری و فرمان برداری رستگاریست فردا روز قیامت، و محلّ رسـتگاریست همیشه، ترسانیده خدای عزّ و جلّ مخلوقات را بعقاب، و ترغیب فرموده ایشان را بثواب، و وصف نموده از برای شـما دنیای بی وفا و بریـده شـدن آنرا و زوال آن را و انتقال آن را، پس اعراض نمائیـد از آنچه که شـگفت می آورد شـما را در دنیا از جهت کمی آنچه که همراه خواهد شد با شما از دنیا، نزدیک ترین خانه ایست از غضب خدا، و دورترین خانه ایست از رضای خدا.

پس بـاز داریـد از خودتـان ای بنـدگان خـدا غمهای دنیا و شـغلهای آن را از جهت آنکه محقّقا یقین کرده ایـد بآن از مفارقت آن و انقلاب حالات آن، پس بترسـید در آن همچو ترسـیدن برادر مهربان نصـیحت کننـده، و مثل ترسـیدن صاحب جدّ و جهد سـعی کننده، و عبرت بردارید به آن چه که دیدید از مهالک قرنهایی که

پیش از شـما بودند، بتحقیق که جدا شد از یکدیگر عضوهای بدن ایشان، و زایل شد گوشـها و چشـمهای ایشان، و رفت بزرگواری و عزّت ایشان، و بریـده گشت شادی و نعمت ایشان، پس بدل کرده شدند بنزدیکی اولاد نایابی ایشان را، و بمصاحبت زنان جدائی ایشان را، تفاخر نمی توانند بکنند بیکدیگر، و نسل أخذ نمی کنند، و زیارت یکدیگر نمی نمایند، و با هم همسایگی نمی کنند.

پس حـذر کنیـد ای بندگان خدا مثل حذر نمودن کسـی که غلبه نماید بر نفس خود، و منع کننده باشد شـهوت خود را، و نظر کننده باشـد بچشم عقل خود پس بدرستی که امر دنیا و آخرت واضح است و روشن، و علم شـریعت قائمست و بر پا و راه حق سـهل است و آسان، و راه درست مستقیم است و راست.

هنا انتهی الجزء التاسع من هـذه الطبعـة الجدیدة النفیسة، و تمّ تصـحیحه و ترتیبه و تهذیبه بید العبد «السـید ابراهیم المیانجی» عفی عنه و عن والدیه فی الیوم الثانی عشر من شهر الله الاعظم سنة - 1381 - و یلیه انشاء الله الجزء العاشر و أوله:

المختار المأة و الواحد و الستون، و الحمد للّه أولا و آخرا و ظاهرا و باطنا.

درباره مرکز

بسمه تعالی

جَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

با اموال و جان های خود، در راه خدا جهاد نمایید، این برای شما بهتر است اگر بدانید.

(توبه : 41)

چند سالی است که مرکز تحقیقات رایانه‌ای قائمیه موفق به تولید نرم‌افزارهای تلفن همراه، کتاب‌خانه‌های دیجیتالی و عرضه آن به صورت رایگان شده است. این مرکز کاملا مردمی بوده و با هدایا و نذورات و موقوفات و تخصیص سهم مبارک امام علیه السلام پشتیباني مي‌شود. براي خدمت رسانی بیشتر شما هم می توانید در هر کجا که هستید به جمع افراد خیراندیش مرکز بپیوندید.

آیا می‌دانید هر پولی لایق خرج شدن در راه اهلبیت علیهم السلام نیست؟

و هر شخصی این توفیق را نخواهد داشت؟

به شما تبریک میگوییم.

شماره کارت :

6104-3388-0008-7732

شماره حساب بانک ملت :

9586839652

شماره حساب شبا :

IR390120020000009586839652

به نام : (موسسه تحقیقات رایانه ای قائمیه)

مبالغ هدیه خود را واریز نمایید.

آدرس دفتر مرکزی:

اصفهان -خیابان عبدالرزاق - بازارچه حاج محمد جعفر آباده ای - کوچه شهید محمد حسن توکلی -پلاک 129/34- طبقه اول

وب سایت: www.ghbook.ir

ایمیل: Info@ghbook.ir

تلفن دفتر مرکزی: 03134490125

دفتر تهران: 88318722 ـ 021

بازرگانی و فروش: 09132000109

امور کاربران: 09132000109

مرکز تحقیقات رایانه ای
قائمیه
اصفهان
WWW
برای داشتن کتابخانه های تخصصی
دیگر به سایت این مرکز به نشـــانی
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
مراجعه و برای سفارش با ما تماس بگیرید.
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹